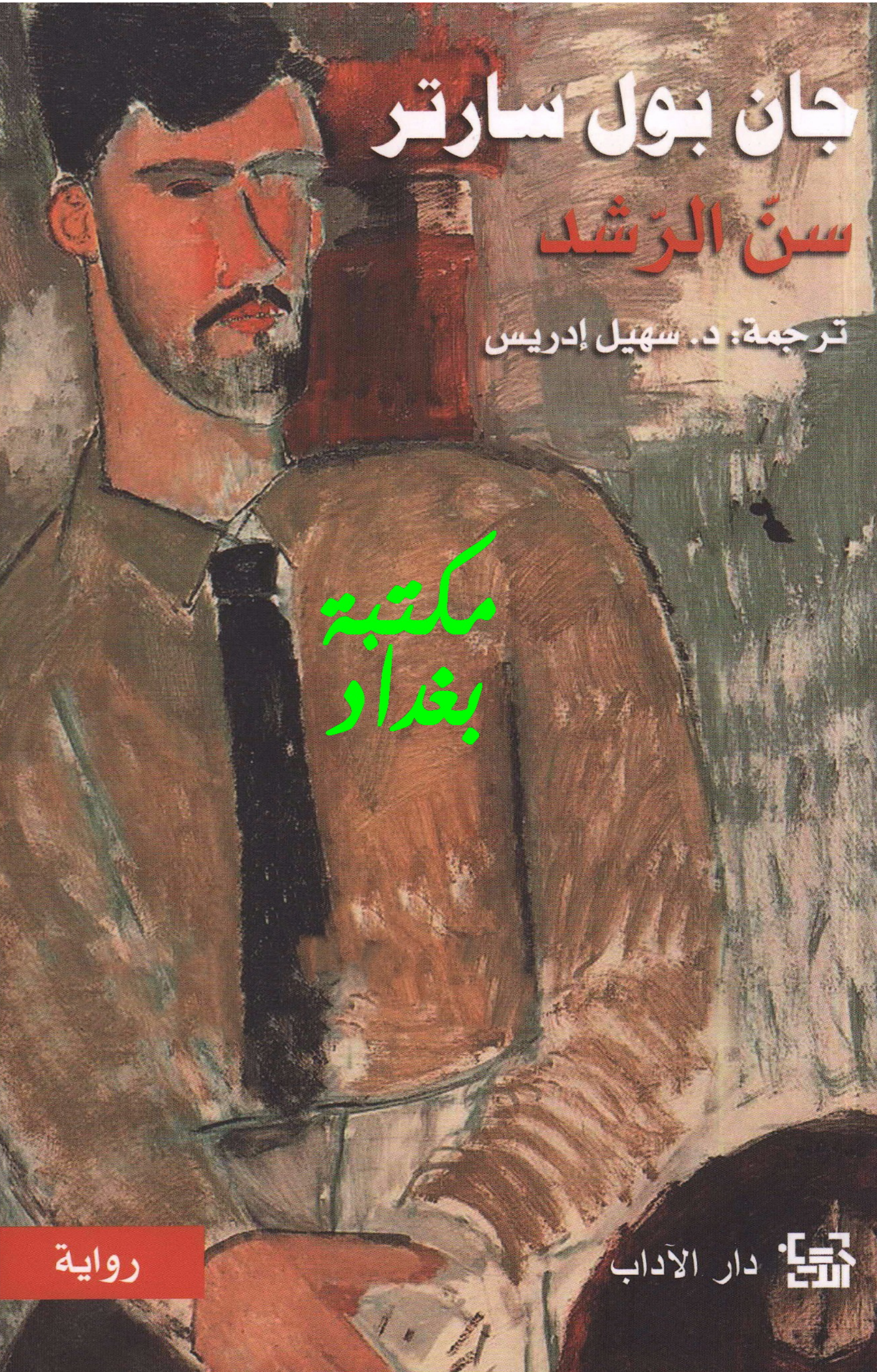

جان بول سارتر
سنّ الرّشد
ترجمة: د. سهيل إدريس
مكتبة
بغداد
رواية
دار الآداب

جان بول سارتر

دروب الحرِّية - I -

سنّ الرّشد

رواية

ترجمة: د. سهيل إدريس

دار الآداب ـ بيروت

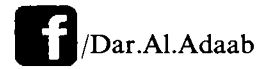
سنّ الرّشد

جان بول سارتر/ روائي وفيلسوف فرنسي

طبعة عام 2014
ISBN 978-9953-89-485-0

Jean-Paul Sartre
L'ÂGE DE RAISON
Les Chemins de la liberté, I

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123 ـ 11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) ـ 861632 (03)
فاكس: 009611861633
e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com






daraladab.com

١

في وسط شارع «فرسينجيتوري»، أمسك رجل طويل بذراع ماتيو، وكان ثمّة شرطيٌّ يذرع الرصيف الآخر.

ـ أعطني شيئًا يا معلِّم، إنِّني جائع.

وكانت عيناه متقاربتين وشفتاه غليظتين. وكانت تنبعث منه رائحة الخمر، فسأله ماتيو:

ـ أليس الأمر أنَّك ـ بالأحرى ـ عطشان؟

فقال الرجل بجهد:

ـ أقسم لك، يا صاحبي، أقسم لك.

وكان ماتيو قد عثر في جيبه على قطعة من ذات الفرنكات الخمسة، فقال له:

ـ الأمر عندي سواء، فإنَّما سألتك لأتحدَّث فقط.

وأعطاه الفرنكات الخمسة. فقال الرجل وهو يستند إلى الجدار:

ـ إنَّ ما فعلته الآن حسن، وبالمقابل، سأتمنّى لك شيئًا عظيمًا.. ماذا تراني سأتمنّى لك؟

وأخذا يفكِّران معًا، وقال ماتيو:

ـ ما تشاء.

فقال الرجل:

ـ حسنًا، إنِّي أتمنَّى لك السعادة. هذا ما أتمنّاه لك.

وضحك ضحكة انتصار. ورأى ماتيو أنّ الشرطيَّ كان يقترب منهما، فخاف على الرجل وقال:

ـ طيِّب. مع السلامة.

وأراد أن يبتعد، ولكنّ الرجل أمسك به وهو يقول بصوت مرتفع:

ـ ليس هذا كافيًا، ليس كافيًا.

ـ إذن ما الذي يلزمك؟

ـ أودّ أن أعطيك شيئًا ما...

قال الشرطيّ:

ـ سوف أقبض عليك بتهمة الاستعطاء.

وكان شابًّا ذا خدّين أحمرين، وكان يحاول أن يتظاهر بالقسوة وقد أضاف من غير تأكيد:

ـ مضى عليك نصف ساعة وأنت تزعج المارَّة.

فسارع ماتيو يقول بحيويّة:

ـ إنَّه لا يستعطي. وإنَّما نحن نتحدَّث.

فهزَّ الشرطيّ كتفيه وتابع طريقه. وكان الرجل يترنّح بطريقة مقلقة، بل لم يكن يبدو عليه أنّه قد رأى الشرطيّ..

ـ وجدت ما سوف أعطيك إيّاه. سأعطيك طابعًا من مدريد.

وأخرج من جيبه مستطيلاً من الورق المقوّى الأخضر وبسطه لماتيو. وقرأ ماتيو:

«س.ن.ت. دياريو كونفيديرال. إيجامبلار ٢. فرنسا. اللجنة

النقابيّة الفوضويّة، ٤١ شارع لفيل، باريس ١٩». وكان ثمّة طابع قد أُلصق تحت العنوان. وكان الطابع أخضر هو أيضًا، ويحمل ختم مدريد. مدَّ ماتيو يده:

ـ شكرًا جزيلاً.

فقال الرجل غاضبًا:

ـ ولكن حذارِ! إنّها... إنَّها مدريد!

فنظر إليه ماتيو. كان الانفعال باديًا على الرجل، وكان يبذل جهودًا عنيفة ليعبِّر عن فكرته، ولكنّه عدل واكتفى بالقول:

ـ مدريد.

ـ نعم.

ـ أقسم لك أنِّي كنت أريد أن أسافر إليها. ولكن ذلك لم يتيسّر لي.

وغدا مغمومًا كئيبًا، وقال «انتظر»، ثم أمرّ أصبعه على مهل فوق الطابع، وأضاف:

ـ حسنًا. تستطيع أن تأخذه.

ـ شكرًا.

وخطا ماتيو بضع خطوات، ولكنّ الرجل ناداه:

ـ إيه!

فقال ماتيو:

ـ إيه؟

فإذا الرجل يشير إليه عن بعد بقطعة الفرنكات الخمسة:

ـ هناك شخص أعطاني خمسة فرنكات أخرى. فأنا أدعوك إلى قدح من «الروم».

ـ ليس هذا المساء.

وابتعد ماتيو بأسف غامض. لقد قضى ردحًا من حياته، كان فيه

يتسكّع في الشوارع والحانات مع الجميع، وكان أوّل قادم يستطيع أن يدعوه. أمّا الآن، فقد انتهى ذلك: إنّ تلك الأساليب لم تكن تجدي شيئًا. وإن كانت مدعاة تسلية ومرح. لقد رغب في الذهاب إلى إسبانيا للقتال. وحثَّ ماتيو خطاه، وفكّر في ضيق: «مهما يكن من أمر، فلم يكن لأحدنا ما يقوله للآخر». وأخرج من جيبه البطاقة الخضراء. «إنَّ مصدرها مدريد، ولكنّها ليست مرسلةً إليه. لا بدَّ أنَّ أحدًا قد أعطاه إيَّاها. وقد لمسها مرَّات قبل أن يعطيني إيَّاها، لأنَّ مصدرها مدريد». وكان يتذكّر وجه الرجل والهيئة التي بدا عليها إذ نظر إلى الطابع نظرة مشغوفة. ونظر ماتيو إلى الطابع بدوره من غير أن يكفّ عن السير، ثم أعاد قطعة الورق المقوَّى إلى جيبه. وصفّر قطار، وفكّر ماتيو: «إنّني عجوز».

كانت الساعة العاشرة وخمسًا وعشرين، لقد وصل قبل الأوان. ومرَّ من غير أن يتوقَّف، بل هو لم يلفت رأسه إلى البيت الصغير الأزرق. ولكنّه كان يرمقه بجانب عينه. كانت جميع النوافذ سوداء، إلّا نافذة السيّدة «دوفيه». إنَّه لم يُتح لـ «مارسيل» بعد أن تفتح باب الدخول: لقد كانت منحنية على أمّها، وكانت تحيطها بحركات رجوليّة وهي في سريرها الكبير ذي المظلَّة. ظلَّ ماتيو مغتمًّا، وكان يفكِّر: «خمسمئة فرنك للذهاب إلى ٢٩، يعني ثلاثين فرنكًا في اليوم، أو أقلّ من ذلك. فماذا تراني أفعل؟» واستدار ثم عاد على عقبيه.

وكان الضوء قد انطفأ في غرفة السيِّدة دوفيه. وبعد لحظة، أُضيئت نافذة مارسيل، وعبَرَ ماتيو المرتفع، وحاذى حانوت السمَّان وهو يتجنَّب أن يطقطق نعليه الجديدين. كان الباب مشقوقًا، فدفعه على مهل، فصرَّ: «سآتي يوم الأربعاء بقنِّينتي وأضع قليلاً من الزيت في الرزّات». ودخل وأغلق الباب، ثم خلع نعليه في الظلام. وطقطق الدرج قليلاً وهو يصعده، وحذاؤه في يده، وكان يلامس بإبهامه كلّ درجة قبل أن يضع عليها قدمه. وفكّر: «أيّة مهزلة!».

فتحت مارسيل الباب قبل أن يبلغ سطح الدرج. وانبعث من غرفتها غبار ورديّ فيه رائحة السوسن وانتشر على الدرج. وكانت قد ارتدت قميصها الأخضر، فاستشفّ منه ماتيو خاصرتها الرقيقة الريَّانة. ودخل، وكان يخيَّل إليه دائمًا أنّه يدخل محارة. وأقفلت مارسيل الباب بالمفتاح: اتّجه ماتيو إلى الخزانة الكبيرة المحفورة في الجدار، ففتحها ووضع فيها حذاءه، ثم نظر إلى مارسيل فرأى أنّها تشكو شيئًا ما، فسألها بصوت منخفض:

ـ ما الذي تشكين؟

فقالت مارسيل بصوت منخفض:

ـ لا شيء. وأنت، يا عزيزي؟

ـ إنِّي بلا درهم واحد. أمّا ما عدا ذلك، فلا بأس!

وقبَّلها في عنقها وفي فمها. وكانت تنبعث من العنق رائحة عنبر، ومن الفم تبغ مبتذل. جلست مارسيل على حافّة السرير، وأخذت تنظر إلى ساقيها، بينما كان ماتيو ينزع ثيابه.

وسألها ماتيو: ـ ماذا هناك؟

وكان على المدخنة صورة لم يكن يعرفها. اقترب فرأى فتاة هزيلة ذات تسريحة صبيانيّة وتضحك ضحكة قاسية حيّية. وكانت ترتدي سترة رجل وحذاء ذا كعب مسطّح. وقالت مارسيل من غير أن ترفع رأسها:

ـ هذه أنا.

والتفت ماتيو: فإذا مارسيل مشمِّرة قميصها عن فخذيها الممتلئتين، وكانت تنحني إلى أمام، فيستشعر ماتيو تحت القميص هشاشة صدرها الثقيل.

ـ أين عثرت عليها؟

ـ في مجموعة. إنَّ تاريخها هو صيف ٢٨.

طوى ماتيو سترته بعناية ودفعها إلى الخزانة إلى جانب الحذاء. ثم سأل:

ـ أصبحت الآن تتفرّجين على مجموعات العائلة؟

ـ لا، ولكن لا أدري، لقد أخذتني الرغبة اليوم في أن أستعيد أشياء من حياتي، كيف كنت قبل أن أعرفك، حين كنت ممتلئة بالعافية. أعطني إيَّاها.

فأتاها ماتيو بالصورة، فانتزعتها من بين يديه. وجلس إلى قربها، فارتعشت وابتعدت قليلاً. وكانت تنظر إلى الصورة ببسمة غامضة، وقالت:

ـ لقد كنت ظريفة.

كانت الفتاة واقفة متصلِّبة، مستندة إلى حاجز حديقة. وكانت تفتح فمها، فكأنَّها هي أيضًا تقول: «إنّ هذا ظريف»، تقوله بالطلاقة المرتبكة نفسها، والجرأة القلقة ذاتها. بيد أنّها كانت شابّة وهزيلة.

وهزّت مارسيل رأسها:

ـ ظريف! ظريف! لقد رافقها إلى حديقة اللكسمبورغ طالب في الصيدليّة. أترى القميص الذي كنت ألبسه؟ لقد اشتريته في اليوم نفسه، إذ كان المفروض أن نقوم يوم الأحد التالي بنزهة كبيرة في «فونتانبلو». يا إلٰهي!...

كان ثمّة شيء في نفسها بلا ريب: فإنَّه لم يسبق لحركاتها أن كانت على مثل هذه الفجاءة، ولا لصوتها أن كان خشنًا، رجوليًّا، كما هو الآن. كانت جالسة على حافّة السرير أسوأ ممّا لو كانت عارية، بلا دفاع، كأنّها إناء ضخم من الفخّار المنقوش في جوف الغرفة الورديّة، وكان يشقّ على المرء أن يسمعها تتكلّم بصوتها الرجولي، بينما تنبعث منها رائحة قويّة غامضة. أخذها ماتيو من كتفيها وجذبها إليه:

ـ إنّكِ آسفة على ذلك الزمن؟

فقالت مارسيل بجفاف:

ـ ذلك الزمن، كلّا: بل أنا آسفة على الحياة التي كان يمكن أن أحياها.

كانت قد بدأت دراسة الكيمياء فقطعها المرض. وفكّر ماتيو: «لكأنَّها حاقدةٌ عليٌّ». وفتح فمه ليسألها، ولكنّه رأى عينيها فصمت.

وكانت تنظر إلى الصورة نظرة حزينة متوتِّرة.

ـ لقد سمنت، أليس كذلك؟

ـ نعم.

فهزّت كتفيها ورمت بالصورة على السرير. وفكّر ماتيو: «إنَّ لها حقًّا حياة كئيبة» وأراد أن يقبِّلها في خدِّها، ولكنّها تخلّصت بلا عنف وبضحكة صغيرة عصبيّة، وقالت:

ـ كان ذلك منذ عشر سنوات.

وفكّر ماتيو: «إنَّني لا أمنحها شيئًا». كان يأتي لرؤيتها أربع ليال في الأسبوع، وكان يروي لها بالتفصيل كلّ ما قام به، وكانت تمنحه النصائح بصوتٍ حادّ لا يخلو من تسلّط، غالبًا ما تقول: «إنّني أعيش بالوكالة»، وسألها:

ـ ماذا فعلتِ أمس؟ هل خرجت؟

فصدرت عن مارسيل حركة ضجرة مستديرة:

ـ لا، فقد كنت متعبة. لقد قرأت قليلاً، ولكن أمِّي كانت تضايقني طوال الوقت من أجل الحانوت.

ـ واليوم؟

قالت بلهجة شرسة:

ـ لقد خرجت اليوم. شعرت بحاجة إلى تنشُّق الهواء، وإلى محاذاة الناس. وقد هبطت حتى شارع «دولاغيتيه» وكان هذا يسلِّيني. ثم إنِّي كنت أريد أن أرى «أندريه».

ـ وهل رأيتها؟

ـ أجل، خمس دقائق. وحين خرجت من بيتها، بدأت السماء تمطر. إنَّه لشهر حزيران عجيب، ثم إنّ الناس كانوا ذوي سحن لئيمة. فاستقللت سيّارة وعدت.

وسألت برخاوة:

ـ وأنت؟

ولم تكن لماتيو رغبة في السرد، فقال:

ـ كنت أمس في الليسيه لإعطاء آخر دروسي، وقد تعشيت في مطعم «جاك»، وكان ذلك مميتًا كالعادة. وفي هذا الصباح، قصدت المحاسب لأرى إن كانوا يستطيعون أن يسلِّفوني شيئًا، ويبدو أنَّ هذا أمرٌ لا يُفعل. ومع ذلك، فقد كنت أتدبّر أمري في «بوفيه» مع المحاسب. ثم رأيت «إيفيش».

ورفعت مارسيل حاجبيها ونظرت إليه. ولم يكن يحب أن يحدِّثها عن إيفيش. وأضاف:

ـ إنَّها الآن مكشِّرة، يائسة.

ـ وما السبب؟

كان صوت مارسيل قد اشتدَّ، واتّخذ وجهها تعبيرًا رجوليًّا رصينًا. كانت تشبه شرقيًّا سمينًا. قال ماتيو بطرف شفتيه:

ـ ستسقط في الامتحان.

ـ لقد سبق أن قلت لي إنّها كانت تدرس.

ـ نعم... على طريقتها، أي أنّ عليها أن تبقى ساعات بطولها تجاه كتاب، من غير أن تقوم بحركة. ولكن تعرفين طبعها: إنَّ لها بديهيّات، وشأنها في ذلك شأن المجنونات. كانت في دورة تشرين الأوَّل قد درست علم النبات، وكان الممتحن مسرورًا، ثم رأت نفسها فجأة تجاه رجل

أصلع يتحدّث عن مجوّفات البطن، فبدا لها ذلك مضحكًا، وفكّرت «طزّ في مجوّفات البطن!»، ولم يستطع الرجل أن ينتزع منها أيَّة كلمة.

وقالت مارسيل وهي تحلم:

ـ عجيبة هذه الفتاة الصغيرة الطيِّبة.

قال ماتيو:

ـ أخشى على أيٍّ حال أن تقع هذه المرَّة أيضًا فيما وقعت فيه، أو أن تخترع شيئًا آخر. سترين.

هذه اللهجة، لهجة التجرّد الحامي، ألم تكن كذبة؟ لقد كان يقول كلّ ما يمكن أن يُعبِّر عنه بالكلمات. «ولكن هناك شيء آخر غير الكلمات!».

وتردَّد لحظة، ثم خفض رأسه، ثابط الهمّة: إنَّ مارسيل لم تكن تجهل شيئًا من عاطفته لإيفيش، بل لعلَّها كانت تقبل أن يحبّها. وهي على العموم لم تكن تطلب إلَّا أمرًا واحدًا: أن يتحدَّث عن إيفيش بهذه اللهجة بالذات. لم يكن ماتيو قد كفَّ عن ملامسة ظهر مارسيل، وكانت مارسيل قد بدأت تخفق جفونها، كانت تحبّ أن يلامس ظهرها، ولا سيّما عند منبت الصلب وبين الراسليْن. ولكنَّها تفلَّتَت فجأة وتلبَّس وجهها القسوة. فقال لها ماتيو:

ـ اسمعي يا مارسيل، إنّه سيّان عندي أن تنجح إيفيش أو تسقط، فليست هي مصنوعة للطبّ أكثر ممّا أنا مصنوع له. وأيًّا ما كان، وحتى لو اجتازت امتحان «شهادة الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة»، فستصاب بالإغماء عند أوَّل تشريح في العام القادم، ولن تضع بعد ذلك قدميها في المعهد. ولكن إذا لم تنجح هذه المرَّة، فلا بدَّ أن ترتكب حماقة ما، ذلك أنّ أسرتها لا تودّ أن تسمح لها، في حالة السقوط، أن تعود إلى الدراسة.

فسألته مارسيل بصوت رقيق:

ـ أيّ نوع من الحماقات تقصد على الضبط؟

فقال مضطربًا:

ـ لست أدري.

ـ آه! إنّي أعرفك جيّدًا يا عزيزي المسكين. أنت لا تجرؤ على الاعتراف بأنّك تخشى أن تطلق على نفسها رصاصة تخترق جلدها. وأنت تزعم مع ذلك أنّك تكره الأحداث الروائيّة. ولكن قل لي: لكأنّك لم ترها قطّ، بشرتها؟ إنّي سأصاب بالهلع إذا جرحتُ بشرتي، ولو لم يتجاوز الأمر أن أمرّ فوقها أصبعي. وأنت تتصوّر بعد ذلك أنّ الدمى التي تملك مثل تلك البشرة سوف تتلف نفسها برصاص المسدّس؟ إنّي أستطيع بكلّ سهولة أن أتمثّلها مسترخية فوق كرسيّ، وقد غطّى شعرها وجهها، بينما هي تتأمّل مسحورة في مسدّس صغير لطيف موضوع أمامها، إنَّ هذه صورة روسيّة جدًّا. أمّا أن أتصوّر شيئًا آخر، فكلّا، ثم كلّا! إنَّ المسدّس، يا صاحبي، إنّما جُعل لمثل جلودنا التمساحيّة.

وأسندت ذراعها إلى ذراع ماتيو، وكانت بشرته أشدَّ بياضًا من بشرة مارسيل.

ـ انظر إلى هذا، يا عزيزي، ولا سيّما إلى جلدي، فكأنّه جلد ماعز مدبوغ.

وأخذت تضحك:

ـ ألا ترى أنّي أملك كلّ ما يلزم لصنع مِرْغاة؟ إنّي أتمثَّل ثقبًا صغيرًا جميلاً تحت ثديي الأيسر، ذا أطراف نظيفة محمرّة. إنَّ ذلك لن يكون بشعًا...

كانت ما تزال تضحك، فوضع ماتيو يده على فمها:

ـ اسكتي. سوف توقظين العجوز.

فصمتت وقال لها:

ـ كم أنت عصبيّة!

فلم تجب. ووضع ماتيو يده على فخذ مارسيل وجعل يلامسها برفق.

كان يحبّ تلك البشرة الزبديَّة بزغبها الذي يُشعر لمسه بالعذوبة، كألف رعشة دقيقة. ولم تتحرّك مارسيل: كانت تنظر إلى يد ماتيو. وانتهى الأمر بماتيو إلى أن يرفع يده. وقال:

ـ انظري إليّ.

ورأى لحظةً عينيها المحاطتين بدائرة مزرقّة، فترةَ نظرةٍ متعالية يائسة.

ـ ما بكِ؟

فقالت وهي تصرف رأسها: ليس بي شيء.

كان الأمر معها دائمًا كذلك: كانت كسيحة. إنَّها لن تستطيع بعد لحظة أن تتمالك نفسها: وستنفجر. ولم يكن ثمّة ما يُفعل، إلّا قتل الوقت حتى تلك اللحظة. وكان ماتيو يخشى انفجاراتها الصامتة: فقد كانت العاطفة في هذه الغرفة المحارة أمرًا لا يُحتمل، إذ كان ينبغي التعبير عنها بصوت منخفض وبلا حركة خشية إيقاظ السيّدة دوفيه. ونهض ماتيو، فمشى حتى الخزانة وتناول من جيب سترته البطاقة:

ـ خذي انظري.

ـ ما هذا؟

ـ لقد أعطاني إيَّاها شخص لقيته الساعة في الطريق. كان ذا هيئة محبَّبة، وقد أعطيته بعض المال.

أخذت مارسيل البطاقة بلا اكتراث، وأحسّ ماتيو أنّه مرتبط إلى الرجل بنوع من الاشتراك في ذنب. وأضاف:

ـ إنَّ هذا، لو تعلمين، يمثِّل لديه شيئًا ما.

ـ وهل هو فوضوي؟

ـ لا أدري. لقد أراد أن يقدِّم لي قدحًا.

ـ وهل رفضت؟

ـ نعم.

فسألته مارسيل بإهمال: ـ لماذا؟ لعلّ ذلك قد يكون مسلّيًا.

فقال ماتيو: ـ ربّما!

وعادت مارسيل ترفع رأسها، ونظرت إلى الساعة نظرة حسيرة مرحة، وقالت:

ـ إنَّ هذا غريب. فإنَّه يضايقني دائمًا أن تروي لي مثل هذه الأمور، والله أعلم كم هي الآن كثيرة. إنَّ حياتك مليئة بالفرص الفائتة.

ـ أتدعين هذه فرصة فائتة؟

ـ أجل. فقد كنتَ في الماضي تفعل أيّ شيء لتخلق هذا النوع من اللقاءات.

فقال ماتيو باقتناع وإقرار: ـ ربَّما أكون قد تغيّرت قليلاً. فماذا تظنِّين؟ أتظنِّين أنِّي شخت؟

قالت مارسيل ببساطة: ـ أنت في الرابعة والثلاثين.

في الرابعة والثلاثين. وفكَّر ماتيو بإيفيش، فاعترته انتفاضة استياء صغيرة.

ـ أجل... اسمعي. لا أحسب أنَّ الأمر هكذا، وإنّما كان ذلك بدافع من قلق ووسواس. فأنت تدركين أنَّه ما كان لي أن أشارك في الأمر.

فقالت مارسيل: ـ إنَّه يندر جدًّا الآن، أن تشارك في الأمر.

أضاف ماتيو بحيويّة:

ـ وهو كذلك، ما كان له أن يشارك فيه: فإنّ المرء إذ يكون ثملاً يقوم بما يعطِّف النفس. وهذا ما كنت أودّ أن أتحاشاه.

وفكّر: «ليس هذا صحيحًا تمامًا، فأنا لم أفكِّر كلّ هذا التفكير». لقد أراد أن يقوم بجهد صِدْقٍ وصراحة. وكان قد سبق لماتيو ومارسيل أن

تعاهدا على أن يتكاشفا كلّ شيء. وقال:

ـ ذلك أنَّه...

ولكنّ مارسيل كانت قد انخرطت في الضحك، في هديل منخفض عذب، شأنها إذ تلامس شعره وهي تقول له «يا عزيزي المسكين». على أنّها لم تكن تبدو عليها الرقَّة، وقالت:

ـ إنِّي أعرفك في هذا جيِّدًا. فكم أنت تخاف ممَّا يعطِّف النفس! وبعد ذلك؟ حتى ولو تبادلت قليلاً ممَّا يعطِّف النفس مع هذا الفتى المسكين، فأيّ بأس في ذلك؟

فسألها ماتيو: ـ وماذا كان ذلك يجديني؟

إنَّما كان حقًّا يدافع عن نفسه ضدّ نفسه.

وابتسمت مارسيل بسمة لا ودَّ فيها: ففكّر ماتيو ممتعضًا «إنّها تبحث عنِّي». وكان يشعر بأنّه مسالم، وأنّه مخبَّل بعض الشيء، وأنّه بالإجمال في مزاج طيِّب، ولم تكن به رغبة في النقاش فقال:

ـ اسمعي، أنت على خطأ بأن تجعلي من هذه الحكاية وليمة. فأنا أوَّلاً لم تكن لي سعة من الوقت: كنت قادمًا إليك.

فقالت مارسيل: أنت على حقّ تمامًا. فليس هذا بذي بال، ليس هناك ما يستدعي ضرب قطّ بالسوط... على أنّه مع ذلك عارض ينذر بشيء ما...

فانتفض ماتيو: حبّذا لو أنَّها لا تستعمل مثل هذه الكلمات المنفِّرة. وقال:

ـ حسنًا. ما الذي ترينه في ذلك مثيرًا للاهتمام وإلى هذا الحدّ؟

فقالت: ـ إنَّه دائمًا صفاء ذهنك المعهود. إنّك طريف يا عزيزي. فأنت لشدّة هلعك من أن تخدع نفسك، تفضِّل أن ترفض أجمل مغامرة في الدنيا على أن تخاطر بالكذب على نفسك.

قال ماتيو:

ـ هذا صحيح، وأنت تعرفينه جدًّا.

وكان يجدها ظالمة. إنّ «صفاء الذهن» هذا (وكان يكره هذه العبارة، ولكنّ مارسيل قد تبنّتها منذ حين. وكانت عبارة السنة الماضية «الاستعجال». ولم تكن الكلمات تعيش لديها أكثر من فصل واحد) صفاء الأذهان هذا قد اعتادا عليه معًا، وكانا مسؤولين عنه، واحدهما تجاه الآخر، وما كان شيئًا أقلّ من المعنى العميق لحبّهما. فحين أخذ ماتيو عهوده تجاه مارسيل، كان قد انصرف نهائيًّا عن أفكار الوحدة، عن الأفكار النضرة المضلَّلة الحيّة التي كانت تنزلق إليه في الماضي بمثل حيويّة السمك الهارب. إنَّه لم يكن يستطيع أن يحبّ مارسيل إلّا في الصفاء والوضوح، لقد كانت هي صفاءه، ورفيقه، وشاهده، وناصحه وحَكَمَه. وقال:

ـ إذا كنت أكذِّب على نفسي، فسأشعر أنِّي أكذِّب عليك في الوقت نفسه. وسيكون ذلك أمرًا لا أستطيع احتماله.

قالت مارسيل: ـ نعم.

ولم يكن يبدو عليها أنّها مقتنعة تمامًا.

ـ لا يبدو عليكِ أنّكِ مقتنعة تمامًا؟

فقالت برخاوة: ـ بلى.

ـ أتظنِّين أنِّي أكذِّب على نفسي؟

ـ لا... الحقيقة أنَّ الإنسان لا يمكنه أبدًا أن يعرف. غير أنِّي لا أظنّ ذلك. ولكن، أتدري ما الذي أظنُّه؟ أظنُّ أنّك تعقِّم نفسك قليلاً. لقد فكّرت بهذا اليوم. أوه! إنَّ كلّ شيء واضحٌ ونظيف لديك، إنَّه يبعث رائحة الغسيل، كما لو أنّك مررت بآلة التجفيف. على أنّ ما ينقص ذلك، إنَّما هو الظلّ، ليس هناك بعدُ ما لا جدوى منه، وليس هناك ما هو متردِّد ولا ملتبس. إنَّ ذلك لشديد الحرارة. ولا تقل الآن إنّك إنَّما تفعل ذلك من

أجلي: فأنت تعرف منحدرك، إنّك تحبّ أن تحلّل نفسك.

وكان ماتيو ممتعضًا. ومارسيل تبدو قاسية بما فيه الكفاية غالبًا، وكانت تظلّ دائمًا على حذر، وتتدرَّع بالهجوم والاحتراس. وإذا لم يكن ماتيو من رأيها، كانت تظنّ غالبًا أنّه يريد السيطرة عليها. بيد أنّه نادرًا ما أحسَّ لديها هذه الإرادة العازمة بأن لا تروق له. وبعد ذلك، كانت ثمّة تلك الصورة على السرير... ونظر إلى وجه مارسيل في قلق: لم تحن بعد اللحظة التي تعزم فيها على الكلام.

وقال ببساطة: ـ إنّه لا يهمّني إلى هذا الحدّ أن أعرف نفسي.

فقالت مارسيل: ـ أعرف، فليس ذلك غاية، وإنَّما هو وسيلة. إنَّه من أجل أن تتحرَّر من نفسك، أن تنظر إلى نفسك، أن تحكم على نفسك: ذلك هو موقفك المفضّل. إنّك تتصوّر، إذ تنظر إلى نفسك، أنّك لست ما تنظر إليه، وأنّك لست شيئًا. والحقّ أنّ هذا هو مثلك الأعلى: أن لا تكون شيئًا.

فردّد ماتيو على مهل: ـ أن لا أكون شيئًا؟ كلّا. ليس الأمر كذلك. اسمعي: إنِّي... إنِّي أريد ألَّا أكون متوقِّفًا إلاَّ على نفسي.

ـ نعم. أن تكون حرًّا. حرًّا حرِّيّة كاملة. هذا هو عيبك.

قال ماتيو: ـ ليس هذا عيبًا... إنَّه... ماذا تريدين أن يفعل المرء غير ذلك؟

وكان في ضيق: لقد شرح هذا كلّه مئة مرّة لمارسيل، وكانت تعلم أنّ هذا هو أشدّ ما كان يشقّ عليه.

ـ إذا... إذا لم أحاول أن أستردّ وجودي لحسابي، فسيبدو لي عبثًا جدًّا أن أُوجد.

وكانت مارسيل قد اتّخذت هيئة ضاحكة، مصرّة:

ـ نعم، نعم... ذلك هو عيبك.

وفكّر ماتيو: «إنَّها تثير أعصابي حين تصطنع الكياسة والدهاء». ولكنّه ندم على تفكيره وقال بلطف:

ـ ليس هو عيبًا: وإنَّما هكذا أنا.

ـ لماذا لا يكون الآخرون كذلك، إذا لم يكن هذا عيبًا؟

ـ إنَّهم لكذلك، ولكنّهم لا يعون هذا.

وكانت مارسيل قد كفَّت عن الضحك، وكانت قد ارتسمت عند زاوية شفتيها ثنية قاسية حزينة. وقالت:

ـ أمّا أنا، فليست حاجتي لأن أكون حرَّة شديدة لهذا الحدّ.

ونظر ماتيو إلى رقبتها المنحنية، وأحسّ أنّه غير مرتاح: كان أبدًا ذلك الندم، ذلك الندم اللامعقول، الذي كان يستولي عليه كلّما كان في صحبتها. وفكّر بأنّه لم يكن يضع نفسه قطّ في موضع مارسيل: «إنَّ الحرِّيّة التي أحدِّثها عنها هي حرِّيّة إنسان مكتمل الصحّة». ووضع يده على عنقها، وشدّ برقّة بين أصابعه ذلك اللحم الدُهني الذي أدركه بعض الوهن.

ـ مارسيل! هل أنت منزعجة؟

فأدارت عينين كدرتين بعض الشيء:

ـ كلّا.

وصمتا. وكان ماتيو يشعر باللّذّة على أطراف أصابعه، على أطراف أصابعه فقط. وزلق يده على مهل على ظهر مارسيل، فأسبلت مارسيل جفنيها. ورأى أهدابها الطويلة السوداء. وجذبها إليه: لم تكن له رغبة بها تمامًا في تلك اللحظة، وإنّما كانت رغبته أن يرى هذا الفكر الحرون المقرّن يذوب كما يذوب عرق من الثلج تحت حرارة الشمس. وتركت مارسيل رأسها يسقط على عنق ماتيو، فرأى عن كثب بشرتها السمراء ودوائرها المزرقَّة والمحبَّبَة. وفكّر: «يا إلهي! كم هي تشيخ!» وفكّر أيضًا بأنّه كان شيخًا. وانحنى عليها بشعور من الضيق: كان يودّ لو ينسى نفسه

وينساها. ولكن مضى عليه وقت طويل وهو لا ينسى نفسه إذ يضاجعها. وقبّلها في فمها، وكان لها فمٌ جميل صارم. وانقلبت على مهل إلى خلف، واستلقت على السرير، مغمضة العينين، متثاقلة، شاحبة، ونهض ماتيو، فنزع بنطلونه وقميصه ووضعهما مطويين عند أسفل السرير، ثم تمدَّد تجاهها. ولكنّه رأى أنّ عينيها كانتا مفتوحتين على سعتهما، حادّتين، تنظران إلى السقف، وكانت يداها مشتبكتين تحت رأسها.

وقال ماتيو: ـ مارسيل!

فلم تجب. كانت مقطّبة السحنة، ثم إذ هي تنهض فجأة. وعاد هو يجلس على طرف السرير، وقد أزعجه أن يشعر بعريِّه. قال جازمًا:

ـ ستقولين لي الآن ماذا هناك.

فقالت بصوت رخو:

ـ لا شيء.

قال بحنان: ـ بلى، هناك شيء ينكِّدك. ألم نتعاهد يا مارسيل على أن نتصارح بكلّ شيء؟

ـ لا حيلة لك في الأمر، وهو سيزعجك.

فأخذ يداعب شعرها على مهل:

ـ قولي، مع ذلك.

ـ حسنًا: لقد وقع الأمر.

ـ ماذا؟ ما الذي وقع؟

ـ لقد وقع الأمر.

فتغضَّن وجه ماتيو:

ـ هل أنتِ متأكِّدة؟

ـ كلّ التأكيد. أنت تعرف أنِّي لا أجنّ قطّ: فقد تأخّر الأمر شهرين.

قال ماتيو: ـ تْفِهْ!

وكان يفكِّر: «كان عليها أن تقول لي ذلك منذ ثلاثة أسابيع على الأقلّ». وكانت به رغبة لأن يفعل شيئًا ما بيديه: «كأن يحشو غليونه مثلاً، ولكنّ غليونه كان في الخزانة مع سترته. وتناول سيكارة من على طاولة الليل، وما لبث أن أعادها إلى مكانها.

قالت مارسيل: ـ تلك هي القصّة! أنت تعلم الآن ما هناك. فماذا نفعل؟

ـ سوف... سوف نجهضه، أليس كذلك؟

قالت مارسيل: ـ حسنًا. إنّ عندي عنوانًا.

ـ من أعطاكِ إيَّاه؟

ـ أندريه. لقد قصدتْه هي ذات مرَّة.

ـ أتكون تلك المرأة التي وسَّختها في العام الماضي؟ ولكن اسمعي: لقد قضت ستّة أشهر قبل أن تُشفى. إنَّني لا أريد.

ـ وإذن؟ هل تريد أن تكون أبًا؟

تخلّصت منه، وعادت تجلس على بعد يسير عنه. وكانت تبدو قاسية المظهر، لكن ليس مظهر رجل. كانت قد وضعت يديها مبسوطتين على فخذيها، وذراعاها أشبه بعروتين من الطين الطبيخ. لاحظ ماتيو أنّ وجهها كان قد أصبح رماديًا. وكان الهواء ورديًّا مسكَّرًا، وهما يستنشقان الورد، ويأكلان منه: ثم كان هناك هذا الوجه الرمادي، وتلك النظرة الثابتة، فكأنَّما كانت تمتنع عن السعال.

قال ماتيو: ـ انتظري. أنت تقولين لي هذا، هكذا، فجأة. سوف نفكِّر.

أخذت يدا مارسيل ترتجفان، وقالت بحماسة مفاجئة:

ـ لا حاجة بي إلى أن تفكِّر، فليس عليك أنت أن تفكِّر.

أدارت رأسها نحوه، وراحت تنظر إليه. نظرت إلى عنقه، إلى كتفيه وإلى خاصرتيه، ثم استمرَّ نظرها في هبوطه. . وكانت تبدو عليها الدهشة. احمرّ ماتيو احمرارًا عنيفًا وضمّ ساقيه، وردّدت مارسيل:

ـ لا حيلة لك في الأمر.

ثم أضافت بسخرية شاقّة: «إنَّها الآن قضيّة نسائيّة».

وانقبض فمها لدى نطق الكلمات الأخيرة: فمٌ مبرنق ذو انعكاسات بنفسجيّة، حشرة قرمزيّة منهمكة في افتراس هذا الوجه المرمَّد. وفكّر ماتيو «إنَّها مهانة. وهي تكرهني». وكانت به رغبة لأن يقيء. بدا أنّ الغرفة قد أخليت فجأة من دخّانها الوردي، وكان بين الأشياء فراغات كثيرة. وفكّر ماتيو: «لقد فعلتُ لها «ذلك!» وفجأة بدا له المصباح والمرآة بانعكاساتها الرصاصيّة، والساعة، والمقعد الموسّد، والخزانة الفاغرة الفم، هذه كلّها بدت له آليّاتٍ مريعة: أديرتْ فدحرجتْ في الفضاء حيواتها الدقيقة بعناد صلب، كظاهر صحفة موسيقيّة يصرّ على أن يعزف لازمته المكرَّرة. واهتزّ ماتيو، دون أن يتمكّن من انتزاع نفسه من هذا العالم الكئيب المزّ. ولم تكن مارسيل قد تحرّكت. كانت ما تزال تنظر إلى بطن ماتيو، وإلى تلك الزهرة المجرمة التي كانت تستريح بنعومة فوق فخذيه بهيئة من البراءة ماجنة. يعلم ماتيو أنّها كانت راغبة في أن تصرخ وتبكي، ولكنّها لن تفعل ذلك، خشية أن توقظ السيّدة دوفيه. وقبض فجأة على مارسيل من قامتها وجذبها إليه، فانهارت على كتفه، ونشقت ثلاث مرَّات أو أربعًا، بلا دموع. وكان هذا كلّ ما تستطيع أن تسمح به لنفسها: عاصفة بيضاء.

وحين رفعت رأسها ثانية، كان روعها قد هدأ. وقالت بصوت إيجابي:

ـ اعذرني يا عزيزي، فقد كنت بحاجة إلى تفريج، إذ إنِّي متماسكة منذ الصباح. . وأنا بالطبع لا ألومك في شيء.

قال ماتيو: ـ ستكونين على حقّ في ذلك. إنِّي لست فخورًا، فهذه

هي المرَّة الأولى. . وأيّة قذارة يا إلٰهي! لقد قمت بحماقة تدفعين أنت ثمنها. على أيّ حال، لا بأس، لا بأس. اسمعي، من تكون هذه المرأة الطيِّبة؟ وأين تسكن؟

ـ شارع مورير رقم ٢٤. يبدو أنّها امرأة طيِّبة إلى حدّ غريب.

ـ أرى ذلك. تقولين إنَّ أندريه هي التي أرشدتك إليها؟

ـ نعم، إنَّها لا تأخذ إلّا أربعمئة فرنك.

وأضافت مارسيل بصوت متعقِّل:

ـ ترى أنّه سعرٌ مضحك كما يبدو.

ـ نعم، أرى ذلك.

قالها ماتيو بمرارة، ثم أضاف:

ـ إنّها على العموم فرصة مناسبة.

وكان يشعر بالارتباك، كأنّه عريس. رجل طويل مرتبك، عار تمامًا، قد ارتكب سوءًا، وكان يبتسم بلطف ليحمل الناس على نسيانه. ولكنّها لم تكن تستطيع أن تنساه: كانت ترى فخذيه البيضاوين، العاضلتين القصيرتين بعض الشيء، وعريه الراضي الجازم. كان كابوسًا غريبًا. «لو كنت إيَّاها لأخذتني الرغبة في أن أصفع هذا اللحم والشحم كلّه». وقال:

ـ وهذا هو ما يقلقني حقًّا: إنَّها لا تأخذ مبلغًا كافيًا.

فقالت مارسيل: ـ الحمد لله أنّها تطلب هذا المبلغ القليل. فأنا أملكها، هذه الفرنكات الأربعمئة، وكانت لخيّاطتي، ولكنّها ستنتظر. وأضافت بقوّة: ـ أنا على يقين، لو تعلم، بأنّها ستُعنى بي كما يعنون بالنساء في إحدى العيادات السرِّيّة التي يسلبونك فيها أربعة آلاف فرنك كما لو كانوا يأخذون منك درهمًا واحدًا. ثم إنّنا ليس لنا الخيار.

فردَّد ماتيو: ـ ليس لنا الخيار. متى ستذهبين؟

ـ غدًا، حوالى منتصف الليل. يبدو أنّها لا تستقبل إلّا ليلاً. هذا

طريف، إليس كذلك؟ أظنّ أنّها مجنونة بعض الشيء. ولكن ذلك يناسبني، بسبب أمّي. إنّها تدير في النهار حانوت خرضوات، وهي لا تكاد تنام قطّ. إنّك تدخل ساحة، فترى ضوءًا تحت باب. هناك بيتها.

قال ماتيو: ـ حسنًا. إنّني ذاهب إليها.

فنظرت إليه مارسيل مذعورة:

ـ أتكون مجنونًا؟ إنّها ستطردك، إذ ستعتبرك من رجال الشرطة. فردّد ماتيو:

ـ إنّني ذاهب إليها.

ـ ولكن لماذا؟ ما عساك ستقول لها؟

ـ أريد أن أستخبر، وأن أرى ما يكون شأنها. فإذا لم يرقني ذلك، فلن تذهبي. فأنا لا أودّ أن تدَعي لمجنونة عجوز أن تمزّق لحمك. سأقول إنّي قادم من قِبَل أندريه، وأنّ لي صديقة واقعة في مأزق ولكنّها الآن مريضة، أو أقول شيئًا من هذا القبيل.

ـ وبعد ذلك، أين أذهب إذا لم يرق لك ذلك؟

ـ أعتقد أنّ لدينا يومين نتقلّب فيهما، أليس كذلك؟ سوف أقصد «سارة» غدًا، ولا بدّ أنّها تعرف أحدًا. فأنتِ تذكرين أنّها وزوجها لم يكونا راغبين، أوَّل الأمر، في الأولاد.

فبدا على مارسيل أنّها قد استراحت بعض الشيء. ولامست رقبته وهي تقول:

ـ إنّك لطيف، يا عزيزي، إنّني لا أعلم ما الذي تنوي أن تصنعه، ولكنّني واثقة من أنّك تودّ أن تفعل شيئًا، تودّ لو أنّهم يجرون لك العمليّة بدلاً منّي... وأحاطت بذراعيها الجميلتين عنقه، وأضافت بلهجة استسلام هزليّة:

ـ إذا سألت «سارة» في الأمر، فسترشدك حتمًا إلى يهودي.

وقبّلها ماتيو، فتراخت كلّيًا. وقالت:

ـ يا حبيبي، يا حبيبي.

ـ إخلعي قميصك.

فاستجابت.. قَلَبها فوق السرير، وداعب نهديها. كان يحبّ برعميهما الجلديّين العريضين، تحيط بهما تورّمات محمومة. وكانت مارسيل تتنهّد، مغمضة العينين، جامدة، نهمة. ولكنَّ جفنيها كانا يتشنّجان. تلبّث الاضطراب هنيهة، وقد حطّ على ماتيو كأنّه يد دافئة. ثم فكّر ماتيو فجأة: «إنّها حامل» فعاد إلى الجلوس. وكان رأسه ما يزال يطنّ بموسيقى حامزة.

ـ اسمعي يا مارسيل! إنّ الأمر غير مناسب اليوم. ونحن، كلانا، ثائر الأعصاب أكثر ممّا ينبغي. سامحيني.

فندّت عن مارسيل همهمة صغيرة ناعسة، ثم نهضت فجأة، وأخذت تخلّل أصابعها في شعرها، وقالت ببرودة:

ـ كما تريد.

ثم أضافت بلهجة أكثر ودًّا:

ـ أنت على حقّ، آخر الأمر. فكلانا ثائر الأعصاب. كنت أشتهي مداعباتك، ولكنّي كنت خائفة!

فقال ماتيو: ـ مع الأسف، لقد وقع الشرّ، فليس لنا أن نخشى شيئًا بعد.

ـ أدري ذلك، ولكن هذا لم يكن أمرًا عاقلاً. إنّني لا أدري ما أقول لك: فأنت تخيفني بعض الشيء يا عزيزي.

ونهض ماتيو.

ـ حسنًا، أنا ذاهب لأرى تلك العجوز.

ـ نعم. وستتّصل بي غدًا بالتلفون لتخبرني حقيقة الأمر.

ـ ألا أستطيع أن أراكِ غدًا مساء؟ سيكون ذلك أسهل.

ـ لا. لا مساء الغد. بعد غدٍ إذا شئت.

وكان ماتيو قد ارتدى قميصه وبنطلونه، وقبّل مارسيل في عينيها:

ـ إنّك لستِ عاتبةً عليّ؟

ـ ليست هي غلطتك. لقد حدث ذلك مرّة طوال سبع سنوات، فليس لك ما تلوم نفسك عليه. وأتمنّى ألّا تنفرِ منِّي بدورك!

ـ إنِّكِ مجنونة.

ـ إنِّي أشمئزّ من نفسي قليلاً لو كنت تعلم، وأشعر كما لو أنِّي ركام من الطعام...

فقال ماتيو بحنان.

ـ صغيرتي! يا صغيرتي المسكينة. إنِّي أعدك بأن ينتهي كلّ شيء قبل ثمانية أيَّام.

وفتح الباب بلا ضجّة، فتسلّل إلى الخارج وهو يمسك حذائيه بيده. وفي أعلى الدرج، التفت: كانت مارسيل ما تزال مضطجعة على السرير. وكانت تبتسم له، ولكنّه شعر بأنّها كانت تكنّ له بعض الضغينة.

* * *

انفصل شيء ما في عينيها الثابتتين، فتدحرجتا بيسر في محجريهما. ولم تعد تنظر إليه، وما كان عليه بعد أن يؤدِّي لها حسابًا عن نظراته. لقد كان جسمها المذنب، إذ كانت مختبئة بثيابها الداكنة وبالليل، يُحسّ أنّه في منجى، وكانت تستردّ شيئًا فشيئًا دفئه وبراءته، وتعود لتتفتّح تحت القماش. كيف لي أن أتذكّر القنّينة، القنّينة التي ينبغي أن آتي بها بعد غد؟ كان وحيدًا.

وتوقّف مصعوقًا: لم يكن ذلك صحيحًا، فهو ليس وحيدًا، ولم تتركه مارسيل، بل كانت تفكِّر فيه، كانت تفكّر: «القذر! لقد فعل لي هذا! لقد

نسي نفسه وهو فيّ، كالطفل الذي يغوّط في لفائفه». وكان بوسعه أن يخطو خطى واسعة في الطريق الخالية، السوداء المغفلة، وهو غارق في ثيابه حتى العنق، ولكنّه لن يفلت منها. لقد كان وجدان مارسيل باقيًا هناك، مليئًا بالمصائب والصراخ، ولم يتركه ماتيو: لقد كان هناك، في الغرفة الورديّة، عاريًا وبلا سلاح، أمام تلك الشفافيّة الثقيلة التي هي أشدّ إزعاجًا من النظر. «مرّة واحدة» قال ذلك لنفسه غاضبًا. وردّد بصوت منخفض ليقنع مارسيل «مرّة واحدة في سبع سنوات!» ولكنّ مارسيل لم تكن لتقتنع: كانت ما تزال في الغرفة، وهي تفكّر في ماتيو. كان شيئًا لا يُحتمل أن يُحكم عليه هكذا، وأن يُحقد عليه، هناك، في الصمت من غير أن يستطيع الدفاع عن نفسه، حتى ولا إخفاء عورته بيديه. ليته في تلك اللحظة نفسها قد استطاع أن يُوجَدَ بالنسبة لآخرين، بمثل هذه القوّة؛ ولكنّ جاك وأوديت كانا نائمين؛ أمّا دانيال، فكان ثملاً أو مخبولاً؛ وإيفيش لم تكن لتفكّر قطّ بالغائبين. ربَّما كان بوريس... ولكن وجدان بوريس لم يكن إلّا لمعة صغيرة مغتلمة، وما كان بوسعه أن يصمد لهذا الصفاء الوحشيّ الجامد الذي كان يبهر ماتيو على البعد. كان الليل قد كفّن معظم الوجدانات: وماتيو مع مارسيل وحدهما في هذا الليل. زوجان.

وكان ثمّة ضوء في مقهى كامو. كان المعلّم يراكم الكراسي، والخادمة تثبت مصراعًا خشبيًّا على أحد عارضيْ الباب. دفع ماتيو المصراع الآخر ودخل. وكانت به رغبةٌ لأن يُرى بكلّ بساطة. وارتفق المشرب:

ـ عمتم مساءً جميعًا!

فنظر إليه المعلّم، وكان ثمّة أيضًا أحد موظّفي شركة السكك الحديديّة يشرب الخمر وقبّعته على عينيه. وجدانات. وجدانات. أنيسة شاردة. ورفع موظّف السكك قبّعته إلى خلف، بطرف سبابته، ونظر إلى ماتيو. تراخى وجدان مارسيل ثم ذاب في الليل.

ـ أعطني قدح بيرة.

فقال المعلّم: ـ إنَّ مجيئك أصبح نادرًا.

ـ ومع هذا، فليس السبب أنِّني غير عطشان.

قال الموظّف:

ـ صحيح أنَّ الحرّ شديد يدعو إلى العطش. فكأنّنا في أيَّام الصيف.

وصمتا. كان المعلِّم يغسل الأقداح، والموظَّف يصفِّر. وكان ماتيو مسرورًا لأنَّهما كانا ينظران إليه بين حين وآخر. رأى رأسه في المرآة، وكان ينبعث مصفرًّا مستديرًا من بحر من الفضّة. كان روّاد مقهى كامو يخيّل إليهم دائمًا أنّها الساعة الرابعة صباحًا بسبب النور، إذ كان بخار فضِّي يوسِّع العيون ويبيِّض الوجوه والأيدي والأفكار. وشرب. وفكّر: «إنّها حامل. هذا طريف: ليس لديّ شعور بأنّ هذا صحيح». كان ذلك يبدو له مزعجًا ومضحكًا، كما لو أنّ أحدًا يرى رجلاً عجوزًا وامرأة عجوزًا يتبادلان قبلة على الفم: إنّ مثل هذه الأعمال ينبغي ألّا تحدث بعد سبع سنوات. «إنّها حامل». كان في بطنها كتلة زجاجيّة صغيرة تنتفخ رويدًا، وستشبه آخر الأمر عينًا: «إنَّها تتفتّح وسط القذارات الثاوية في بطنها. إنّها حيَّة». ورأى دبوسًا كان يقترب متردِّدًا في الظلّ. وحدث صوت مائع وانفجرت العين: ولم يبق بعد إلّا غطاء كثيف جافّ. «سوف تذهب إلى تلك العجوز، وسوف تدعها تمزِّقها». وكان يحسّ أنّه سامّ. «حسنًا». وانتفض: تلك كانت أفكارًا كالحة، أفكار الساعة الرابعة صباحًا.

ـ تصبحون على خير.

ودفع وخرج.

«ما الذي فعلته؟» كان يمشي على مهل، محاولاً أن يتذكّر. «منذ شهرين...» ولم يكن يتذكّر شيئًا على الإطلاق، إلّا أن يكون ذلك قد حدث عقب عطلة الفصح. لقد أخذ مارسيل بين ذراعيه كالعادة، بدافع من

حنان، من غير شكّ، بدافع من حنان لا بدافع من رغبة، أمّا الآن. . . فلقد خُدع. «طفل. كنت أحسب أنِّي كنت أعطيها اللّذّة، وهأنذا قد صنعت لها طفلاً. إنّني لم أفهم شيئًا ممّا كنت أفعله. وعليّ الآن أن أعطي تلك العجوز أربعمئة فرنك، وهي سوف تُدخل آلتها بين فخذي مارسيل وتضربها، فتمضي الحياة كما جاءت. وإذ أهدم هذه الحياة لا أكون أكثر علمًا بما أفعل ممّا كنت حين خلقتها». وضحك ضحكة صغيرة جافّة: «والآخرون؟ أولئك الذين اعتزموا برصانة وجدّ أن يكونوا آباء ويشعرون بأنّهم والدون، أتراهم حين ينظرون إلى بطون زوجاتهم يفهمون خيرًا ممّا أفهم؟ لقد خبطوا خبط عشواء، بثلاث ضربات من فروجهم. أمّا الباقي، فهو عمل في الغرفة السوداء وفي العصير الهلامي، كما هو الشأن في الصورة الفوتوغرافيّة. إنّه شيء يتمّ بدونهم». ودخل باحة بيت، ورأى نورًا تحت باب: «هذا بيتها» وشعر بالخجل. وطرق ماتيو الباب، فقال صوت:

ـ من هناك؟

ـ أودُّ أن أكلِّمك.

ـ ليست هذه ساعة يُزار فيها الناس.

ـ إنِّي آتٍ من قبل أندريه باسنيه.

فشُقّ الباب. ورأى ماتيو خصلة من الشعر الأصفر وأنفًا كبيرًا.

ـ ماذا تريد؟ إنّه لا يجديك أن تقوم بعمل البوليس، فإنِّي لا أخالف القانون. إنَّ لي الحقّ بأن يكون عندي ضوء طوال الليل، إذا شئتُ ذلك. فإذا كنت مفتِّشًا فما عليك إلّا أن تبرز لي أوراقك.

قال ماتيو: ـ لست من البوليس، وإنَّما لديّ مشكلة، وقد قيل لي إنَّ بوسعي أن أتوجّه إليكِ.

ـ ادخل.

دخل ماتيو. وكانت العجوز ترتدي بنطال رجل وقميصًا ذا سحّاب،

وكانت شديدة الهزال، ذات عينين ثابتتين قاسيتين.

ـ هل تعرف أندريه باسنيه؟

وكانت تحدِّجه بنظرة غاضبة، فقال ماتيو:

ـ نعم. لقد جاءتك في السنة الماضية حوالى عيد الميلاد لأنّها كانت متضايقة وشبه مريضة، وقد ذهبتِ أربع مرَّات لمعالجتها.

ـ وبعد ذلك؟

وكان ماتيو ينظر إلى يدي العجوز. كانتا يدي رجل، يديْ إنسان خنَّاق. . . وكانتا مشقّقتين، معلّقتين بأظافر محفوفة سوداء وندوب وشقوق. يظهر على السلامي الأولى للإبهام الأيسر ارتشاح دموي بنفسجي وقشرة كثيفة سوداء.

ارتعش ماتيو وهو يفكِّر ببشرة مارسيل الرقيقة السمراء. وقال:

ـ لست قادمًا من أجلها، بل من أجل صديقة لها.

فضحكت المرأة ضحكة جافّة:

ـ هذه هي المرَّة الأولى التي يجرؤ فيها رجل على المجيء لاستعراض نفسه أمامي. إنّني لا أريد أن يكون لي علاقة بالرجال، هل تفهم ذلك؟

وكانت القاعة قذرة مبعثرة الأثاث. كانت الصناديق منثورة في كلّ مكان. وعلى الأرض المربّعة قشّ. رأى ماتيو على طاولة زجاجة من الروم وقدحًا ممتلئًا إلى النصف.

ـ لقد أتيت لأنَّ صديقتي أرسلتني. إنَّها لا تستطيع أن تأتي اليوم، وقد رجتني أن أتفاهم معك.

شُقّ بابٌ في جوف القاعة. وكان بوسع ماتيو أن يقسم إنّه كان ثمّة أحد خلف هذا الباب. قالت له العجوز:

ـ الحقّ إنَّ هؤلاء الفتيات الصغيرات بلهاوات. إنَّه يكفيهنّ أن ينظرن

إليك ليريْنَ أنَّك من أولئك الذين خُلقوا لخلق المصائب أو قلب الأقداح أو تحطيم المرايا. وبالرّغم من ذلك تراهن يودعنك أثمن ما لديهنّ. إنَّهنّ في آخر المطاف، يستحققن ذلك.

وظلّ ماتيو مؤدَّبًا:

ـ وددت لو أرى أين تقومين بالعمليّات.

فقذفته العجوز بنظرة كره وتحدٍّ:

ـ هكذا إذن؟ من قال لك إنّي أقوم بالعمليّات؟ وعن أيّ شيء تتحدّث؟ ولماذا تتدخّل في ذلك؟ إذا كانت صديقتك تريد أن تقابلني، فلتأتِ إليّ.. إنّي أريد أن أتفاهم معها وحدها. لقد كنت تريد أن تأخذ فكرة، أليس كذلك! أتراها قد سألتك أن تأخذ فكرة حين جلست بين فخذيك؟ لقد ارتكبتَ مصيبة. حسنًا، كلّ ما أستطيع أن أقوله لك هو أن تتمنّى أن أكون أبرع منك. وداعًا.

فقال ماتيو:

ـ إلى اللقاء، يا سيِّدتي.

خرج. وكان يحسّ أنّه تحرّر. وانفتل على مهل إلى جادّة «أورليان». كان بوسعه أن يفكِّر بمارسيل، للمرّة الأولى منذ أن غادرها، بلا ضيق ولا جزع، بل بحزن عطوف.. وفكّر «سأقصد سارة غدًا».

٢

كان بوريس ينظر إلى الخوان ذي المربّعات الحمراء ويفكِّر بماتيو دولارو. كان يفكِّر: «إنَّ هذا الشخص عظيم». وكانت الجوقة قد صمتت، والهواء شديد الزرقة، والناس يتحدّثون فيما بينهم. وكان بوريس يعرف الجميعِ في القاعة الضيِّقة الصغيرة. لم يكونوا أشخاصًا قد قَدِموا للهزل والمجون، وإنّما كانوا يجيئون بعد الفراغ من عملهم، جادِّين جائعين. أمّا الزنجي الذي يواجه «لولا»، فهو مغنّي «البارادايز»؛ و«أمّا الأشخاص الستّة الجالسون في الداخل مع نسائهم، فهم موسيقيّو «نينيت»»، ولا ريب في أنّهم قد حدث لهم شيء، سعادةٌ غير منتظرة، وربَّما عقدٌ للصيف (لقد تحدّثوا عشيّة الأمس حديثًا مبهمًا عن مربع في قسنطينة) لأنّهم كانوا قد طلبوا شمبانيا، وكانوا في العادة أقرب إلى البخل. ورأى بوريس كذلك الشقراء التي كانت ترقص رقصة «جاوى» وهي بثوب البحّارة. أمّا ذلك الطويل الهزيل ذو النظّارات الذي كان يدخِّن سيكارًا، فهو مدير ملهى في شارع تولوزيه أغلقته دائرة الشرطة منذ حين. وكان يقول إنّه سيُعاد فتحه عمّا قريب، لأنّه مدعوم من المراجع العليا. وكان بوريس يأسف بمرارة لأنّه لم يقصده، وسوف يقصده بالتأكيد إذا فُتح مرَّة أخرى. كان الرجل مع فتى صغير يبدو من بعيد جذّابًا، وهو أشقر ذو وجه دقيق، فيه جمال، وهو لا يأتي بكثير من الحركات المصطنعة. لم يكن بوريس يطيق اللواطيِّين

كثيرًا، لأنَّهم كانوا يلاحقونه طوال الوقت، ولكنّ إيفيش كانت تقدِّرهم وتقول: «إنَّ هؤلاء يجرأون، على الأقلّ، على ألّا يكونوا كسائر الناس». كان بوريس ممتلئ التقدير لآراء أخته، ويبذل جهودًا كثيرة ليحترم العمّات. وكان الزنجي يأكل الكرنب. وفكّر بوريس: «إنّني لا أحبّ الكرنب» وكان يودّ لو يعرف اسم الطعام الذي قُدِّم لراقصة «جاوى»: طعام أسمر. يبدو أنّه لذيذ. وكان على الخوان لطخة من الخمر الأحمر. لطخة جميلة، حتى لكأنّ الخوان كان، في ذلك المكان، من الحرير الأطلس. وكانت لولا قد نثرت بعض الملح على اللطخة، لأنّها تحبّ الترتيب. وكان الملح ورديًّا. وليس صحيحًا أنّ الملح يشرب اللطخات، وأوشك أن يقول للولا إنّ الملح لم يكن ليشرب اللطخات. ولكن ذلك كان يقتضيه أن يتكلّم: وكان بوريس يشعر بأنّه لم يكن يستطيع أن يتكلَّم، كانت لولا بالقرب منه، متعبة حارّة، ولم يكن بوسعه أن ينتزع من نفسه أدنى كلمة، فقد كان صوته ميِّتًا. سأكون كذلك لو كنت أبكم. كان لذيذًا أنّ صوته يخفق في داخل حنجرته، رقيقًا كالقطن، ولم يكن يستطيع مع ذلك أن يخرج. كان ميتًا. وفكّر بوريس: «أحبّ كثيرًا دولارو» واغتبط. وقد كان اغتباطه يزداد لو لم يكن يشعر، بجانبه الأيسر كلّه، من الصدغ حتى الخاصرة، أنّ لولا كانت تنظر إليه. ولا ريب في أنّها كانت نظرة مشغوفة، فهي لم تكن تستطيع قطّ أن تنظر إليه على نحو آخر. وكان ذلك مزعجًا بعض الشيء، لأنَّ النظرات المشغوفة تستدعي بالمقابل حركات ودِّيّة أو بسمات، وما كان بوريس ليستطيع القيام بأيّة حركة. كان مشلولاً. غير أنّ ذلك لم يكن عظيم الأهمّيّة: فإنّه لم يكن مفروضًا فيه أن يرى نظرة لولا: كان يحزرها ولكن ذلك كان شأنه. كان هناك مديرًا ظهره، وشعره في عينيه، فلم يكن يرى أدنى طرفٍ من لولا، وكان بوسعه أن يفترض بأنّها كانت تنظر القاعة والناس. لم يكن بوريس ناعسًا، بل كان مرتاحًا، لأنَّه يعرف جميع الناس في القاعة. رأى لسان الزنجي الوردي، وكان يحترم هذا الزنجي: فحين خلع الأخير حذاءه أخذ علبة من الثقاب بين أصابع قدميه، ففتحها وأخرج

منها عودًا فأشعله. . كلّ ذلك بقدميه. وفكّر بوريس بإعجاب: «هذه عمليّة عظيمة. إنّ على الجميع أن يحسنوا استعمال أقدامهم كأيديهم». وكان جانبه الأيسر يؤلمه لفرط ما نُظر إليه، وكان يعلم أنّها تقترب، تلك اللحظة التي ستسأله فيها لولا: «بمَ تفكِّر؟» فقد كان من المستحيل إطلاقًا تأخير هذا السؤال. إنّ ذلك لم يكن يتوقّف عليه. فإنَّ لولا ستطرحه في أوانه، بلونٍ من القدريّة. وكان بوريس يشعر بأنّه ينعم بردح قصير من الزمن، ثمين جدًّا. وفي الحقيقة، كان ذلك لذيذًا: كان بوريس يرى الخوان، ويرى قدح لولا (كانت لولا قد تناولت طعامًا بسيطًا، لأنَّها لم تكن تتعشّى قبل دورها الغنائي: وكانت قد شربت قدحًا من «شاتوغرويو»، وكانت شديدة العناية بنفسها، وتستجيب لطائفة من الهوايات الصغيرة، لأنَّها كانت شديدة اليأس من الشيخوخة). وكان قد بقي بعض الخمرة في القدح، كدمٍ مغبَرّ. بدأ الجاز يعزف: «إذا أصبح لون القمر أخضر». فتساءل بوريس: «أتراني أحسن غناء هذا اللحن؟» كم كان يبدو عظيمًا لو تمخطر في شارع بيغال، تحت ضوء القمر، وهو يصفِّر لحنًا صغيرًا. كان دولارو قد قال له «إنّك تصفِّر كالخنزير» وأخذ بوريس يضحك في داخله، وفكّر: «ذلك الحمار!» وكان يفيض ودًّا لماتيو. ألقى نظرة سريعة مواربة، من غير أن يحرِّك رأسه، فرأى عينيْ لولا الثقيلتين تحت خصلة رائعة من الشعر الأحمر، والحقّ أنَّه بإمكان المرء أن يحتمل نظرة ما. بحسبك أن تعتاد هذه الحرارة الخاصّة التي تلهب وجهك حين تشعر بأنّ أحدًا يراقبك بشغف. وكان بوريس يُسلم نظرات لولا جسمَه ورقبته الهزيلة وهذا الجانب من وجهه الذي كانت تحبّه كثيرًا. وبهذا الثمن، كان بوسعه أن يتغلغل عميقًا في نفسه، ويشغل ذاته بأفكار صغيرة مستحبَّة كانت تخطر له.

وسألتْه لولا: ـ بمَ تفكِّر؟

ـ بلا شيء.

ـ إنَّ الإنسان يفكِّر دائمًا بشيء ما.

فقال بوريس: ـ كنت أفكِّر بلا شيء.

ـ حتى ولا أنّك تحبّ اللحن الذي يعزفونه، أو تودّ أن تتعلّم استعمال «المصفّقات».

ـ مثل هذا، بلى.

ـ أترى إذن؟ لماذا تقول لي ذلك؟ أودّ أن أعرف جميع ما تفكِّر به.

ـ إنّ هذا لا يُقال ولا أهمّيّة له.

ـ لا أهمّيّة له! يخيّل إليّ أنّك لم تعط لسانًا إلّا للتحدّث في الفلسفة مع أستاذك.

فنظر إليها وابتسم: «أحبّها كثيرًا لأنّها صهباء، ولأنّها تبدو مسنّة». قالت لولا: «أيّ طفل عجيب»!

غمز بوريس بعينيه واتّخذ موقف الابتهال. إنّه لم يكن يحبّ أن يحدِّثوه عن نفسه، فقد كان ذلك شديد التعقيد بحيث يضيع فيه. وكان يبدو على لولا أنّها غاضبة، ولكنّ ذلك يعود بكلّ بساطة إلى أنّها تحبّه بشغف، وأنّها تتألّم بسببه. كانت تمرُّ لحظات كهذه تشعر فيها أنّه قد أُسقط بيدها، فكانت تعذِّب نفسها بلا سبب، وتنظر إلى بوريس بشرود. وتكفّ عن أن تعرف ما عساها تفعل به، وكانت يداها تضطربان من تلقائهما. كان بوريس في أوّل الأمر يدهش لذلك، ولكنّه قد اعتاده الآن. وضعت لولا يدها على رأس بوريس، وقالت:

ـ أتساءل عمّا في داخل رأسك. إنّ هذا يخيفني.

فقال بوريس ضاحكًا: ـ لماذا؟ أقسم لكِ بأَنّ الأمر بريء.

ـ نعم، ولكنّي لا أستطيع أن أقول لك... إنّه يأتي من تلقاء نفسه؛ فكلّ فكرة من أفكارك فرارٌ صغير.

وأشعثت شعره، فقال بوريس:

ـ لا ترفعي خصلتي، فأنا لا أحبّ أن يرى الناس جبيني.

وتناول يدها، فلامسها قليلاً. ثم أراحها على الطاولة. قالت لولا:
ـ أنت هنا، رقيق لطيف، وأعتقد أنّك مرتاح معي. وفجأة، لا يبقى ثمّة أحد، فأتساءل: أين عساك قد ذهبت؟

ـ إنّني هنا.

وكانت لولا تنظر إليه عن كثب، وقد شوّهت وجهها الباهت سماحةٌ حزينة. كانت تلك هي الهيئة نفسها التي تتّخذها حين تغنّي أغنية «المسلوخين». تمدّ شفتيها، هاتين الشفتين الغليظتين بزواياهما المرتخية، اللتين أحبّهما في البدء. ومنذ أحسّ بهما على فمه، كان يستشعر عريًا لزجًا محمومًا وسط قناع من الجبس، وهو الآن يفضّل بشرة لولا التي بلغ من بياضها أن توهم أنّها غير حقيقيّة.

سألته لولا بخجل:

ـ هل... تشعر بالانزعاج معي؟

ـ لا أشعر أبدًا بالانزعاج.

تنهّدت لولا، وفكّر بوريس برضى: عجيب أن تبدو مسنّة إلى هذا الحدّ، إنّها لا تعلن عن عمرها، ولكنّها بكلّ تأكيد في حدود الأربعين. وكان يحبّ كثيرًا أن يبدو الأشخاص الذين يرتبطون به مسنّين، إذ كان يجد ذلك مدعاة للاطمئنان. وبالإضافة إلى ذلك، كان هذا يكسبهم نوعًا من الهشاشة مريعًا بعض الشيء، لا يظهر للوهلة الأولى، لأنّهم كانوا يملكون جميعًا إهابًا مدبوغًا كأنّه الجلد. وأخذته الرغبة في أن يقبّل وجه لولا المضطرب. فكّر بأنّها متلاشية القوى، وأنّها قد ضيّعت حياتها، وأنّها كانت وحيدة. بل ربّما كانت أشدّ وحدة منذ بدأت تحبّه. وفكّر باستسلام: «إنّني لا أملك شيئًا لها». وفي تلك اللحظة، كان يجدها لطيفة إلى حدٍّ بعيد.

قالت لولا: ـ أشعر بخجل.

وكان صوتها ثقيلاً مظلمًا كأنّه بساط من القطيفة الحمراء.

ـ لماذا؟

ـ لأنّك طفل.

وقال:

ـ إنّني اغتبط إذ تقولين: طفل. إنّها كلمة جميلة بالنسبة لصوتك. أنت تقولين «طفل» مرّتين في «المسلوخين»، وهذا وحده كافٍ لحملي على الذهاب للاستماع إليك. هل كان الحضور وافرين، ذلك المساء؟

ـ كانوا من الطغمة. لا أدري من أين جاءوا. وكانوا يثرثرون. ورغبتهم في الاستماع إليّ مثل رغبتهم في أن يُشنقوا. وقد اضطرّ سارونيان إلى إسكاتهم. كنت قد تضايقت جدًّا، لو تعلم، وشعرت بأنّي مبتذلة. على أنّهم مع ذلك قد صفّقوا حين دخلت.

ـ هذا طبيعي.

فقالت لولا: ـ لقد مللت. إنّني أنفر من الغناء لهؤلاء الحيوانات. أشخاص جاءوا لأنّه كان عليهم أن يردّوا الدعوة لزوجين. ليتك رأيتهم قادمين جميعًا وهم يبتسمون، وينحنون ويمسكون كرسي المرأة إذ تجلس. وأنت بالطبع ستضايقهم حين تأتي، فينظرون إليك من فوق إلى تحت. (وقالت لولا فجأة) إنّني يا بوريس أغنّي لأعيش.

ـ طبعًا.

ـ لو كنت فكّرت أنّ الأمر سينتهي بي هكذا، لما بدأت قطّ.

ـ مهما يكن من أمر، فقد كنت تعيشين أيضًا من الغناء، حين كنت تغنّين في الموزيك هول.

ـ لم يكن الأمر كذلك.

وساد صمت، ثم أسرعت لولا تضيف:

ـ اسمع: الشخص القصير الذي يغنّي بعدي، الشخص الجديد، لقد حدّثته هذا المساء. إنّه لطيف، ولكنّه ليس روسيًّا أكثر منّي.

وفكّر بوريس: «تظنّ أنّها تضجرني» وعزم على أن يقول لها مرّة أولى وأخيرة إنّها لا تضجره قطّ. ولكنّ ذلك سيكون فيما بعد، لا اليوم.

ـ لعلّه قد تعلّم الروسيّة؟

فقالت لولا: ـ نعم، وعليك أن تقول لي إن كانت لهجته جيِّدة.

ـ لقد ترك أهلي روسيا عام ١٧، وكان عمري ثلاثة أشهر.

فانتهت لولا إلى القول: ـ إنّه مضحك ألَّا تعرف الروسيّة.

وفكّر بوريس بأنّها طريفة، وأنّها تخجل من أن تحبّني لأنّها أسنّ منِّي. أمّا أنا، فأجد ذلك طبيعيًّا، إذ لا بدّ من أن يكون هناك من هو أكبر من الآخر. خصوصًا وأنّ ذلك أكثر أخلاقيّة. فإنّ بوريس ما كان ليعرف أن يحبّ فتاةً في مثل سنِّه. فإذا كان الاثنان في عمر الشباب، فإنّهما لا يحسنان التصرّف، بحيث إنّ الأمر يضطرب، كما لو أنّهما يلعبان أو يعبثان. وليس الأمر كذلك مع الأشخاص الناضجين. إنّهم أشدّاء، وهم يقودونك، ثم إنّ لحبِّهم وزنًا. وحين يكون بوريس برفقة لولا، فإنّه يشعر برضى الضمير، ويحسّ أنّه مبرَّر. لقد كان بالطبع يؤثر صحبة ماتيو، لأنَّ ماتيو لم يكن امرأة، والرجل أطرف، ثم إنّ ماتيو كان يشرح له بعض الغوامض. غير أنّ بوريس كان غالبًا ما يتساءل عمّا إذا كان ماتيو يكنّ له الصداقة، فقد كان قاسيًا لامباليًا. صحيح أنّه ينبغي ألَّا يكون الأصدقاء فيما بينهم أرقّاء، ولكن هناك ألف طريقة أخرى ليظهر المرء أنّه حريص على شخص آخر، ويرى بوريس أنّه كان بوسع ماتيو بين الفينة والفينة أن يقول كلمة أو يُظهر حركة تنمّ عن ودِّه. لقد كان ماتيو يسلك مع إيفيش مسلكًا مختلفًا جدًّا. واستعاد بوريس فجأة صورة وجه ماتيو إذ كان يومًا يساعد إيفيش على ارتداء معطفها، فأحسّ في قلبه بانقباض مزعج. بسمة ماتيو: على ذلك الفم المرّ الذي كان بوريس يحبّه كثيرًا، تلك البسمة الرقيقة الخجول. ولكن سرعان ما امتلأ رأس بوريس بالدخان، ولم يعد يفكّر بشيء. قالت لولا:

ـ هوذا يذهب مرَّة أخرى.

وكانت تنظر إليه بضيق.

ـ بمَ كنت تفكِّر؟

قال بوريس على مضض:

ـ كنت أفكِّر بدولارو.

وابتسمت لولا بسمة حزينة.

ـ ألا تستطيع أيضًا، في بعض الأحيان، أن تفكِّر بي؟

ـ لا حاجة بي إلى التفكير فيكِ، ما دمتِ هنا.

ـ ولماذا تفكِّر دائمًا بدولارو؟ كنت تودّ أن تكون معه؟

ـ إنِّني مسرور بأن أكون هنا.

ـ أنت مسرور بأن تكون هنا أو بأن تكون معي؟

ـ الأمر سواء.

ـ الأمر سواء بالنسبة إليك. لا بالنسبة إليّ. حين أكون معك، لا يهمّني أن أكون هنا أو في مكان آخر. والحقّ أنِّني لا يسرّني قطّ أن أكون معك.

فسألها بوريس دهشًا: ـ صحيح؟

ـ ليس هو سرورًا. ولست بحاجة إلى أن تتغابى، فأنت تعرف ذلك جيّدًا: لقد رأيتك مع دولارو، وأنت لا تدري بعد أين تكون، حين يكون هنا.

ـ هذا لا يشبه ذاك.

أدنت لولا منه وجهها المتهدِّم، وكان يبدو عليها الابتهال:

ـ ولكن أنظر إليّ، وقل لي لماذا تتعلَّق هذا التعلُّق الشديد به؟

ـ لا أدري. إنِّني لا أتعلَّق به إلى هذا المقدار. إنّه عظيم. اسمعي يا

لولا: يضايقني أن أحدِّثك عنه، لأنّك قلت لي إنّك لا تطيقينه.

واغتصبت لولا بسمة:

ـ عجيب كم تدور على نفسك! ولكن يا عزيزي لم أقل لك إنِّني لا أطيقه. كلّ ما هناك أنِّي لم أفهم قطّ ما تجده فيه من الأمور العظيمة. ولكن اشرح لي، فأنا لا أريد إلَّا أن أفهم.

وفكّر بوريس: «هذا غير صحيح. فلن أقول ثلاث كلمات إلَّا وتأخذ في السعال».

وقال بتحفّظ: ـ أجد أنّه لطيف قريب إلى النفس.

ـ إنّك تقول لي ذلك دائمًا. ليست هذه هي الكلمة التي اختارها لو سُئلت. قل لي إنّه يبدو ذكيًا، وإنّه مثقّف، فأنا أقرّك على ذلك. ولكنّه ليس لطيفًا قريبًا إلى النفس. على كلّ حال، أتحدّث عن شعوري. الشخص اللطيف القريب في رأيي هو من يشبه بوريس، ومن يكون صريحًا. أمّا هو، فإنّه يجعل الناس في ضيق لأنّه متشكِّك متردِّد: يخدع من حوله. انظر مثلاً إلى يديه.

ـ ما بال يديه؟ إنّني أحبّهما.

ـ إنّهما يدان ضخمتان لعامل. وهما ترتجفان دائمًا بعض الشيء كما لو ينتهي لساعته من عمل مرهق.

ـ من أجل هذا أحبّهما!

ـ ولكنّ الواقع أنّه ليس عاملاً. حين أراه يقبض بيده الكبيرة على كأس الويسكي، يشعرني حقيقة بالقسوة والمتعة، وأنا لا أكره هذا، ولكن بعد ذلك ينبغي ألَّا يراه أحد وهو يشرب، بذلك الفم الغريب الذي يملكه، فم الأكليريكي. إنِّني لا أستطيع أن أشرح لك، فأنا أجده صارمًا، ثم إنّك إذا نظرت إلى عينيه، ظهر لك بوضوح أنّه ذو ثقافة: إنّه شخص لا يحبّ شيئًا ببساطة، لا أن يشرب، ولا أن يأكل، ولا أن يضاجع النساء، يحبّ

أن يفكِّر بكلّ شيء: وهو في ذلك يشبه الصوت الذي يملكه، صوت حاسم قاطع لرجل لا يخطئ قطّ. أنا أعرف أنّ المهنة تقتضي ذلك، حين يشرح المعلِّم الدرس للأطفال: كان لي مدرِّس يتكلّم مثله، ولكنِّي لست بعد في المدرسة، وهذا يضايقني. أنا أفهم أن يكون أحدنا هذا كلّه أو ذاك كلُّه، أن يكون وحشًا، أو أن يكون من النوع المتميِّز، معلِّمًا أو راعيًا، ولكنِّي لا أفهم أن يكون الاثنين معًا. ولا أدري إن كانت هناك نساء يروق لهنّ ذلك، ويجب الاعتقاد بأنّ هناك مثل هؤلاء النساء. أمّا أنا فأصارحك بأنّني أشمئزّ من أن يمسّني شخص مثل هذا. وأنا لا أحبّ أن أشعر بيديه، يدي المصارع، تمسّانني، فيما يُريق عليّ حمّامًا باردًا بنظره المثلّج.

واستعادت لولا نَفَسها. وفكّر بوريس: «ما الذي لديها أيضًا؟». ولكنّه كان هادئًا جدًّا. إنّ الأشخاص الذين كانوا يحبّونه لم يكونوا مضطرِّين إلى أن يتبادلوا الحبّ فيما بينهم، وكان بوريس يجد من الطبيعي جدًّا أن يحاول كلّ منهم أن يُنفِّره من الآخر.

وتابعت لولا بلهجة مصالحة:

ـ إنِّني أفهمك جيِّدًا، فأنت لا تراه بالعينين اللتين أراه بهما، وأنت متأثِّر لأنّه كان أستاذك، ودليلي على ذلك طائفة من الحركات الصغيرة، فأنت مثلاً شديد القسوة على الطريقة التي يرتدي بها الناس ثيابهم، إذ لا تجدهم قطّ أنيقين، بينما هو بالذات قبيح اللباس دائمًا، ويرتدي ربطة عنق يأنف منها صبيّ فندقي... والأمر لديك سواء.

وأحسّ بوريس بأنّه مخدَّر مسالم، فقال موضحًا:

ـ لا بأس في أن يرتدي الإنسان ثيابًا قبيحة إذا لم يكن يهتمّ بثيابه. أمّا المزعج فهو أن يريد أن يبهر الناس، ثم يفشل في ذلك:

قالت لولا: أمّا أنت، فإنّك لا تفشل، أيّها البغيّ الصغير!

فقال بوريس بتواضع: ـ إنِّني أعرف ما يناسبني.

وفكّر في أنّه كان يرتدي صدارة زرقاء ذات جانبين كثيفين، فأخذه السرور: صدارة جميلة. كانت لولا قد تناولت كفّه وأخذت تلاعبها بين يديها. نظر بوريس إلى يده التي كانت تقفز وتسقط، وفكّر: إنّها ليست لي، فكأنّها قرص معجّنات. ولم يعد يشعر بها. فأحسّ من ذلك بالتسلية، وحرّك إصبعًا ليردّها إلى الحياة. لامس الإصبع راحة لولا، فرمت له بنظرة عرفان. وفكّر بوريس بانزعاج: إنّ هذا هو الذي يرعبني. وقال في نفسه إنّه قد يكون أيسر عليه أن يبدو رقيقًا لو لم تكن لولا تتّخذ غالبًا مثل هذه المظاهر الخاضعة المائعة. أمّا أن يسمح أمام الناس بأن تداعب امرأة يديه، فإنّ ذلك لم يكن ليزعجه قطّ. كان يفكّر دائمًا بأنّ ذلك يناسبه: فحتى لو كان وحده، في المترو مثلاً، فالناس ينظرون إليه دهشين، والساقطات الصغيرات اللواتي يخرجن من المشغل يهزأن به. قالت لولا فجأة:

ـ لم تقل لي حتى الآن لماذا تراه عظيمًا إلى هذا الحدّ؟

كانت هكذا أبدًا، لا تستطيع قطّ أن تقف إذا ما بدأت. وكان بوريس على يقين من أنّها تعذّب نفسها، ولكنّها كانت ولا شكّ تحبّ ذلك، في آخر الأمر. نظر إليها، وكان الهواء حولها أزرق، وكان وجهها بلون أبيض مزرقّ. ولكنَّ عينيها ظلّتا محمومتين قاسيتين.

ـ قل، لماذا؟

فهدر بوريس قائلاً: ـ لأنّه عظيم. كفاك ملاحقة لي. إنّه لا يتعلَّق بشيء.

ـ وهل من الخير ألَّا يتعلَّق أحدٌ بشيء؟ ألّا تتعلَّق بشيء أنت؟

ـ بلا شيء.

ـ على أيّ حال، ألا تتعلَّق بي قليلاً؟

ـ آه بلى. إنّي أتعلَّق بك.

بدا على وجه لولا طابع الشقاء، وأدار بوريس رأسه. إنّه بالرّغم من

كلّ شيء لم يكن يحبّ أن يطيل النظر إليها إذ تبدو كذلك. كانت تتآكل نفسها، وكان يجد هذا شيئًا سخيفًا، ولكنّه لم يكن له في الأمر حيلة. كان يفعل كلّ ما كان يتوقّف عليه. كان أمينًا للولا، وغالبًا ما يتلفن لها، يذهب ثلاث مرَّات في الأسبوع لمرافقتها بعد خروجها من مربع «سومطرا»، وينام عندها في تلك الليالي. أمّا ما دون ذلك، فالأرجح أنّه كان قضيّة مزاج. وقضيّة سنٍّ أيضًا، فالمسنّون شرسون، وهم يعتقدون أنّ حياتهم هي دائمًا في خطر. حين كان بوريس صغيرًا، ترك ملعقته ذات يوم تسقط إلى الأرض، فأمروه أن يلمّها، فرفض، وركبه العناد. وإذ ذاك، قال والده بلهجة جلال لا تُنسى: «حسنًا، أنا الذي سألمّها». ورأى بوريس جسمًا كبيرًا ينحني بتصلّب، ورأسًا أصلع، وسمع طقطقة. كان ذلك تجديفًا لا يُحتمل، وإذا هو ينفجر باكيًا. ومنذ ذلك الحين، أخذ بوريس يعتبر البالغين كأنّهم آلهة ضخام كساح. فإذا ما انحنوا، خيِّل إلى الناس أنّهم سينكسرون، وإذا ما تعثَّروا أو سقطوا، كنّا بين أن يأخذنا الضحك أو تأخذنا الرهبة الدينيّة. أمّا إذا امتلأت عيونهم بالدمع، كما هو شأن لولا الآن، أُسقط في أيدينا. إنّ دموع البالغين هي كارثة صوفيّة، شيء يشبه الدموع التي يذرفها الإلٰه على خباثة الإنسان. ومن وجهة نظر أخرى، كان يحمد لدى لولا أن تكون شغوفًا إلى هذا الحدّ. لقد سبق لماتيو أن شرح له أنّ على المرء أن يكون لديه شغف وحماسة، وكذلك قال ديكارت.

وقال متابعًا فكرته بصوت عالٍ:

ـ إنّ لدى دولارو شغفًا وحماسة، ولكن ذلك لا يمنعه من ألَّا يتعلَّق بشيء. إنّه حرّ.

ـ إذا كان الأمر كذلك، فأنا أيضًا حرّة، لأنِّي لا أتعلَّق إلَّا بك.

فلم يجب بوريس. وسألت لولا:

ـ ألست حرّة؟

ـ ليس الأمران سواء.

وكان ذلك أعسر من أن يُشرح. لقد كانت لولا ضحيّة، ثم إنّها لم تكن محظوظة، ثم إنّها كانت مقلقة أكثر ممّا ينبغي. وذلك كلّه لم يكن في صالحها. ثم إنّها كانت تنزع إلى أن تصبح بطلة، وقد كان ذلك أمرًا حسنًا على نحو ما، بل كان حسنًا جدًّا، مبدئيًّا. وقد سبق لبوريس أن حدّث إيفيش بذلك، فاتّفقا على أنّ ذلك كان حسنًا. ولكن كانت هناك الطريقة: فإن كان المرء ينزع إلى البطولة ليهدم نفسه، أو بدافع من اليأس، أو ليؤكّد حرِّيّته، فهو لا يستحق إلَّا الثناء. أمّا لولا، فكانت تفعل ذلك بتخلٍّ نهم، وكانت تلك فترة استرخائها. بل إنّها لم تكن حتى متسمِّمة.

وقالت لولا بلهجة جافّة:

ـ إنّك تضحكني. إنّها دائمًا طريقتك في أن تضع دولارو مبدئيًّا فوق الآخرين. ذلك أنّي أتساءل، فيما بيننا، عمّن يكون أكثر حرِّيّة: هو أم أنا؟ إنّ له بيته المؤثّث. وله راتبه الثابت، وتقاعده المضمون، وهو يعيش كموظّف صغير. وبعد هذا كلّه، حدّثني عن تلك الحياة التي يعيشها مع تلك المرأة التي لا تخرج قطّ، فكلّ شيء كامل، وليس هناك من يتمتّع بالحرِّيّة أفضل من ذلك. أمّا أنا، فليس لي إلَّا أطماري، وأنا وحيدة، أعيش في الفندق، بل لست أدري إن كنت سأوفّق إلى عقدٍ للصيف القادم.

فردّد بوريس: ـ ليس الأمران سواء.

وكان منزعجًا. كانت لولا لا تأبه كثيرًا للحرِّيّة، وإنّما كانت تعلّق عليها تلك الأهمّيّة الكبيرة ذلك المساء، لأنّها كانت تريد أن تهزم ماتيو في ميدانه بالذات.

ـ أوه! سأقتلك يا عزيزي إذا ظللت هكذا. ماذا؟ أيّ الأمرين ليسا سواء.

فقال موضحًا:

ـ أنت حرّة من غير أن تريدي ذلك. إنّ هذا يحدث عفوًا. أمّا ماتيو،

فالأمر لديه يأتي بالعقل والمحاكمة.

فهزّت لولا رأسها وهي تقول: ـ ما زلت غير فاهمة.

ـ اسمعي: إنّه لا يكترث ببيته، فهو يعيش هناك كما يعيش في أيّ مكان آخر، وأعتقد كذلك أنّه لا يكترث بالمرأة التي يعيش معها. وهو يبقى معها لأنّه يجب أن يضاجع امرأة ما. إنَّ حرِّيّته لا تُرى، إنّها في الداخل.

وكانت لولا تبدو وكأنّها غائبة، وكانت له رغبة لأن يعذِّبها قليلاً ليرى ردّ فعلها، وأضاف:

ـ إنّك تتعلَّقين بي أكثر ممّا ينبغي، أمّا هو فلن يسمح لنفسه أبدًا أن يؤخذ على هذا النحو.

فصاحت لولا مجروحة: ـ هكذا إذن! إنِّني متعلِّقة بك أكثر ممّا ينبغي، أيّها الوحش الصغير! وتعتقد أنّه لا يتعلّق هو أكثر ممّا ينبغي بأختك؟ لم يكن لك إلّا أن تنظر إليه، ذلك المساء في «سومطرا».

فسألها بوريس: يتعلّق بإيفيش؟ إنّك تحزنينني بهذا الكلام.

قهقهت لولا، وملأ الدخان فجأة رأس بوريس. وانقضت لحظة، ثم حدث أن كانت موسيقى الجاز تعزف لحن «مستشفى سان جيمس»، فأخذت بوريس الرغبة في الرقص.

ـ هل نرقص هذا اللحن؟

ورقصا. كانت لولا قد أغمضت عينيها، فكان يسمع صوت نفَسها القصير. وكان اللوطي الصغير قد نهض واتّجه ليدعو راقصه «الجاوى» إلى الرقص. فكّر بوريس بأنّه سيراه عن كثب، فاغتبط لذلك. وكانت لولا ثقيلة بين ذراعيه، وكانت تجيد الرقص، ينبعث منها عطر لذيذ، ولكنّها كانت أثقل ممّا ينبغي. فكّر بوريس بأنّه يؤثر الرقص مع إيفيش. وكانت إيفيش تجيد الرقص إجادة عظيمة. وفكّر: «يجب على إيفيش أن تتعلّم استعمال المصفّقات». ثم لم يعد يفكّر بشيء، بسبب رائحة لولا. وضمّ لولا إليه

واستنشق بقوّة. ففتحت عينيها ونظرت إليه باهتمام:

ـ هل تحبّني؟

فقال بوريس مقطّبًا وجهه: نعم.

ـ ولماذا تقطّب وجهك؟

ـ هكذا. إنّك تضايقينني.

ـ ولماذا؟ أليس صحيحًا أنّك تحبّني؟

ـ بلى.

ـ لماذا لا تقول لي ذلك قطّ من تلقاء نفسك؟ هل يجب عليّ دائمًا أن أسألك عنه؟

ـ لأنّه لا يخطر لي. إنّ هذه أمور متكلّفة، وأجد ألّا يقولها الإنسان.

ـ أيزعجك أن أقول لك إنّي أحبّك؟

ـ لا، تستطيعين أنت أن تقولي ذلك ما دام يخطر لك، ولكن يجب ألّا تسأليني إذا كنت أحبّك.

ـ يا عزيزي، من النادر أن أسألك عن شيء. يكفيني معظم الوقت أن أنظر إليك وأشعر أنّي أحبّك. ولكن هناك لحظات أرغب فيها أن ألمس حبّك أنت.

فقال بوريس برصانة:

ـ فهمت، ولكن عليك أن تنتظري أن يخطر لي ذلك، فإن لم يأت من تلقاء نفسه، فلا معنى له بعد.

ـ ولكنّك أنت نفسك تقول، أيّها الساذج الصغير، بأنّه لا يخطر لك حين لا تُسأل عن شيء.

فأخذ بوريس يضحك، وقال:

ـ هذا صحيح، إنّك تريدين إحراجي. ولكن تعلمين أنّ بوسع الإنسان

أن يكنّ لأحد عواطف طيّبة، غير أنّه لا يرغب في التحدّث عنها.

فلم تجب لولا. وتوقّفا، وصفّقا، ثم استؤنفت الموسيقى. ورأى بوريس بسرور أنّ اللوطي يتّجه نحوهما وهو يرقص. ولكن حين تمكّن من رؤيته، أصيب بخيبة شديدة: لقد كان في حوالى الأربعين. كان وجهه يحتفظ بطلاء الشباب، ولكنّه كان قد شاخ من تحته، وله عينا دمية كبيرتان زرقاوان وفمٌ طفولي، ولكن كانت تحت عينيه الخزفيّتين جيوب وتجاعيد حول فمه، وكان منخراه مقروضين كما لو أنّه موشك على الموت، ثم إنّ شعره الذي يشبه من بعيد بخارًا مذهّبًا، كان من القلّة بحيث لا يكاد يغطّي صلعته. ونظر بوريس بذعر إلى هذا الصبي المسنّ الأمرد، وفكّر «لقد كان شابًّا». كان هناك أشخاص جُعلوا ليكون عمرهم خمسة وثلاثين عامًا ـ ماتيو مثلاً ـ لأنّهم لم يكن لهم قطّ شباب. أمّا الشخص الذي كان حقًّا شابًّا، فقد كان يبقى كذلك طوال عمره. ويمكن أن يمتدّ حتى خمسة وعشرين عامًا. أمّا بعد ذلك... فكان شيئًا مريعًا. وأخذ ينظر إلى لولا، وقال لها بسرعة:

ـ لولا، انظري إليّ. إنّني أحبّك.

وأصبحت عينا لولا ورديّتين، ومشت على قدم بوريس. واكتفت بالقول:

ـ حبيبي.

وودّ أن يصرخ: «ولكن ضمّيني إليك ضمًّا أقوى، أشعريني بأنّي أحبّك». بيد أنّ لولا لم تكن تقول شيئًا، كانت بدورها وحيدة، وقد آن لذلك الأوان! كانت تبتسم بغموض، وقد أسبلت جفنيها، وانغلق وجهها على سعادتها. وجه هادئ فارغ. أحسّ بوريس بأنّه قد تُرك، وغمرته فجأة الفكرة الخائفة: لا أريد، لا أريد أن أشيخ. في العام الماضي، كان هادئًا لا يفكّر قطّ بهذه الأمور، أمّا الآن، فهو متشائم يحسّ طوال الوقت بأنّ شبابه يسيل من بين أصابعه. «حتى الخامسة والعشرين. وفكّر بوريس: لديّ

بعد خمسة أعوام سعيدة، وبعد ذلك أنسف عربتي». ولم يعد يحتمل سماع هذه الموسيقى والشعور بهؤلاء الناس حوله. وقال:

ـ هل نخرج؟

ـ للحال، يا أعجوبتي الصغيرة.

وعادا إلى طاولتهما. نادت لولا الخادم ووقفت، ثم ألقت معطفها المخملي على كتفيها وقالت: «هيا بنا».

وخرجا. ولم يعد بوريس يفكِّر بأشياء كثيرة، ولكنّه كان يحسّ بالكآبة. وكان شارع «بلانش» غاصًّا بالأشخاص، أشخاص قساة ومسنّين. التقيا المايسترو «بيرانيز» من ملهى «الشابوتيه» فحيّياه، وكانت ساقاه القصيرتان تدرمان تحت كرشه. «ربَّما ترهّلت أنا أيضًا» فلا أستطيع بعد أن أنظر إلى نفسي في مرآة، وأشعر بأنّ حركاتي جافّة وكاسرة كما لو كنت الخشب الميِّت... وكانت كلّ لحظة تمرّ، كانت كلّ لحظة تنهك شبابه. «ليتني أستطيع أن أوفِّر نفسي، أن أعيش على مهل، في بطء، إذن لربّما كسبت بعض السنوات. ولكن من أجل ذلك، ينبغي ألَّا أنام كلّ ليلة في الثانية صباحًا»؛ ونظر إلى لولا بحقد: «إنّها تقتلني» وسألته لولا:

ـ ما بالك؟

ـ ليس بي شيء.

كانت لولا تسكن في فندق بشارع نافارين. وتناولت مفتاحها من على اللوحة وصعدا في صمت. كانت الغرفة عارية.. في إحدى الزوايا محفظة تغطّيها البطاقات، وعلى الجدار الداخلي صورة لبوريس مثبّتة بالمسامير. كانت صورة هويّة كبّرتها لولا. وفكّر بوريس: «هذه، هذه ستبقى، حين أكون قد أصبحت جسمًا مهدَّمًا، وستظلّ هيئتي هنا هيئة الشباب». وكانت به رغبة لتمزيق الصورة.

قالت لولا: إنّك كئيب، فماذا هناك؟

فقال بوريس: ـ إنّي منهوك، وأحسّ بألم في رأسي.

وبدت لولا قلقة:

ـ هل أنت مريض يا حبيبي؟ ألا تريد قرصًا؟

ـ لا، لا بأس، إنَّ الألم يتقلّص.

وأخذت لولا ذقنه، ورفعت له رأسه:

ـ يبدو عليك أنّك ناقمٌ عليّ. ألست ناقمًا عليّ؟ بلى! أنت ناقم! ماذا فعلت؟

وبدا عليها أنّها مذعورة. فاحتجّ بوريس برخاوة:

ـ لست ناقمًا عليكِ. أنتِ مجنونة.

ـ بلى أنت ناقم. ولكن ماذا فعلت لك؟ الأفضل أن تقول لي ذلك، لأنّي أستطيع إذ ذاك أن أشرح لك. إنّه بكلّ تأكيد سوء تفاهم. وليس إصلاحه بالأمر المستحيل. بوريس، أبتهل إليك، قل لي ماذا هناك؟

ـ لا شيء.

وأحاط بذراعيه عنق لولا وقبّلها في فمها. ارتعشت لولا. وتنشّق بوريس نَفَسًا معطّرًا. كان يشعر وهو بإزاء فمها بعري لزج، وكان مهتاجًا. غطّت لولا وجهه بالقبل، وكانت تلهث بعض الشيء.

شعر بوريس بأنّه كان راغبًا في لولا، فسرّه ذلك: لقد كانت الرغبة تتعب الأفكار السوداء، بل جميع الأفكار الأخرى. وخلق لنفسه حركة كبيرة في رأسه، وأفرغ رأسه نفسه من فوق بسرعة. وكان قد وضع يده على كشح لولا، يلامس بشرتها عبر الثوب الحريري: فلم يكن بعد إلّا يدًا ممدّدة على بشرة من حرير. وشنّج قليلاً يده فانزلق القماش تحت أصابعه كجلد ناعم ميت. أمّا البشرة الحقيقيّة، فقد كانت تصمد من تحت، مطّاطة، مثلجة كقفاز من جلد جدي مدبوغ. وقذفت لولا، بحركة طائرة، معطفها على السرير، فانبثقت ذراعاها عاريتين، وانعقدتا حول عنق

بوريس: كانت تنبعث منها رائحة عطر. وكان بوريس يرى إبطيها المحلوقين المنقّطين بنقط صغيرة قاسية ذات لون مزرقّ: فكأنّها رؤوس شظايا صغيرة مغروزة بعمق. وبقي بوريس ولولا واقفين حيث داهمتهما الرغبة لأنّهما لم يكونا يملكان بعد قوّة الذهاب. وأخذت ساقا لولا ترتجفان، وتساءل بوريس عمّا إذا كانا سيسقطان على مهل فوق السجّادة. ضمّ إليه لولا، وأحسّ بعذوبة نهديها الثقيلة. تنهّدت لولا:

ـ آه!

وكانت قد انقلبت إلى خلف، فإذا هو مسحور بهذا الرأس الأصفر ذي الشفتين المنتفختين، هذا الرأس الميدوزي. وفكّر: «إنّ هذه هي آخر أيّامها الجميلة، وشدّها إليه شدًّا أقوى. «سيأتي صباحٌ تنهار فيه فجأة». لم يكن يكرهها، وكان يحسّ وهو مشدود إليها بأنّه قاس هزيل ممتلئ عضلات، وكان يغمرها بذراعيه ويحميها من الشيخوخة. ثم أخذته لحظة شرود ونعاس: نظر إلى ذراعي لولا البيضاوين كشعر امرأة عجوز، فحسب أنّه يمسك بالشيخوخة بين يديه، وأنّ عليه أن يشدّها بكلّ قواه حتى ليخنقها. وهمهمت لولا سعيدة.

ـ ما أشدّ ما تضمّني. إنّك توجعني. إنّني أشتهيك.

وتخلّص بوريس: لقد كان مصدومًا بعض الشيء.

ـ اعطني منامتي، فسوف أخلع ثيابي في غرفة التواليت.

ودخل غرفة التواليت وأغلق الباب بالمفتاح: وكان يكره أن تدخل لولا فيما هو يخلع ثيابه، وغسّل وجهه وقدميه وتسلّى بذرّ المسحوق على ساقيه. كان قد استعاد هدوءه تمامًا، وفكّر: «إنّ هذا لطريف» وكان رأسه شاردًا ثقيلاً، ولم يعرف جيّدًا ما يفكّر به. وانتهى إلى القول «يجب أن أحدّث دولارو بهذا». وخلف الباب، كانت تنتظره، ولا شكّ في أنّها كانت عارية. ولكن لم تكن به رغبة في الاستعجال. جسم عار، مليء بالروائح العارية، شيء يبعث على الاضطراب، وذلك ما لم تكن لولا تريد

أن تفهمه. وكان عليه الآن أن يدع نفسه يسيل في صميم شهوة باهظة، ذات مذاق قويّ. إنّ من الممكن احتمالها إذ ينغمر فيها الإنسان: أمّا قبل ذلك، فلم يسعه ألَّا يخاف منها. وفكّر في غيظ: «مهما يكن من أمر، فإنِّي لا أريد أن أقع في الإغماء كالمرّة السابقة». ومشّط شعره بعناية فوق المغسلة ليرى إذا كان يفقد شعره. ولكن لم تسقط منه شعرة على الخزف الأبيض. وحين ارتدى منامته، فتح الباب ودخل الغرفة.

وكانت لولا متمدِّدة على السرير عارية. كانت لولا أخرى، مسترخية ومخيفة، وكانت تترصّده عبر جفونها. وجسدها فوق الغطاء الأزرق ذو لون أبيض مفضَّض، كبطن سمكة، مع طاقة شعر أحمر في شكل مثلّث. كانت جميلة. واقترب بوريس من السرير وتأمّلها في مزيج من الاغتلام والاشمئزاز، وبسطت له ذراعيها، وقال بوريس:

ـ انتظري.

وضغط على الزرّ، فانطفأ النور. وأمست الغرفة حمراء كلّها: فقد كان معلّقًا منذ حين على البناية المقابلة، في الطابق الثالث، إعلان مضيء. وتمدّد بوريس إلى جانب لولا وأخذ يلامس كتفيها ونهديها. وكانت بشرتها من العذوبة حتى ليخال أنّها كانت محتفظة بثوبها الحريري. وكان نهداها رخوين بعض الشيء، ولكن بوريس كان يحبّ ذلك: لقد كانا نهديْ امرأة عاشت. وكان إطفاء النور بلا جدوى، فقد كان بوريس يرى، بسبب ذلك الإعلان اللعين، وجه لولا مصفرًّا في اللون الأحمر، ذا شفتين سوداوين: كان يبدو عليها أنّها تتألّم، وكانت عيناها قاسيتين. وأحسّ بوريس بأنّه ثقيل فاجع، كما حدث له في «نيم» حين قفز الثور الأوّل إلى الحلبة: إنّ شيئًا ما سيقع، شيئًا لا مفرّ منه، شيئًا مريعًا تافهًا، كموت الثور الدامي.

وقالت لولا مبتهلة: ـ اخلع منامتك.

فقال بوريس: ـ لا.

وكان هذا أمرًا طقسيًّا. كانت لولا في كلّ مرّة تطلب منه أن يخلع

منامته وكان بوريس مضطرًّا للرفض. وانزلقت يدا لولا تحت سترته وأخذتا تلامسانه على مهل. وأخذ بوريس يضحك.

ـ إنّكِ تدغدغينني.

وتعانقا. وبعد لحظة، أخذت لولا يد بوريس وضغطتها على بطنها، لدى طاقة الشعر الأحمر: كان لها دائمًا متطلِّبات غريبة، وكان بوريس يضطرّ أحيانًا لمقاومتها. وترك، لبضع لحظات، يده ممدودة بلا حركة عند فخذيْ لولا، ثم صعد بها على مهل حتى كتفيها. وقالت لولا وهي تجذبه إليها:

ـ تعال، إنِّني أعبدك، تعال! تعال!

وما لبثت أن همهمت، وقال بوريس في نفسه: «حسنًا، سوف أقع في الإغماء!» وكانت موجة لزجة تصعد من جنبيه إلى رقبته. قال بوريس وهو يكزّ على أسنانه «لا أريد»، ولكن خُيّل إليه فجأة أنّه كان يُرفع من عنقه، كأنّه أرنب، فترك جسده ينبطح على جسد لولا، ولم يعد إلّا دورانًا شهوانيًّا أحمر. قالت لولا:

ـ حبيبي.

وأزاحته جانبًا على مهل وخرجت من السرير. ظلّ بوريس متلاشيًا، ورأسه في الوسادة. وسمع لولا تفتح باب غرفة التواليت وفكّر: «حين ينتهي الأمر معها، فسأكون طاهرًا. إنِّني لا أريد قصصًا بعد. إنِّني أشمئزّ من المضاجعة. ولكي أكون منصفًا، أعترف بأنّني لا أشمئزّ من ذلك إلى هذا الحدّ، ولكنِّي أستفظع السقوط في الإغماء. إنَّ المرء لا يدري عند ذلك ما يفعله بعد، ويشعر بأنّه قد سيطر عليه، فماذا يجدي بعد هذا أن يكون قد اختار امرأة ما؟ سيكون الأمر سواء مع جميع النساء، إذ يصبح فيزيولوجيًا». وردّد بنفور: فيزيولوجي! وكانت لولا تغتسل لليل. كان صوت الماء عذبًا بريئًا، فاستمع إليه بوريس بسرور. لقد كان مهلوسو العطش في الصحراء يسمعون مثل هذه الأصوات، أصوات ينبوع. وحاول

بوريس أن يتصوّر أنّه كان مهلوسًا. لقد كانت الغرفة، والضوء الأحمر، وقرقرة المياه، كلّ ذلك كان هلوسات، وأنّه يوشك أن يجد نفسه في الصحراء، مضطجعًا على الرمل، وعلى عينيه خوذته الفلّينيّة. وبرز له فجأة وجه ماتيو، ففكّر: «إنّ هذا لظريف. إنّني أحبّ الرجال أكثر من النساء، إنّني إذ أكون مع امرأة، لا أبلغ من السعادة ربع ما أبلغه إذ أكون مع رجل. على أنّني لا أودّ بأيّ ثمن أن أنام مع رجل». وابتهج وهو يفكّر: «راهبًا سأصبح حين أترك لولا!» وأحسّ بأنّه خشنٌ نقيّ. وقفزت لولا إلى السرير وأخذته بين ذراعيها وهي تقول:

ـ يا صغيري! يا صغيري!

وداعبت شعره، وسادت لحظة صمت طويلة. كان بوريس قد بدأ يرى نجومًا تدور حين أخذت لولا تتكلّم. وكان صوتها غريبًا جدًّا في الليل الأحمر.

ـ ليس لي غيرك يا بوريس! إنّني وحيدة في العالم، فيجب أن تحبّني كثيرًا، وأنا لا أستطيع أن أفكّر بسواك. إذا فكّرت في حياتي، تأخذني الرغبة في أن ألقي بنفسي في الماء، فيجب أن أفكّر فيك طوال النهار. فلا تكن قاسيًا يا حبيبي ولا تؤذني، أنت كلّ ما بقي لي. إنّني بين يديك يا حبيبي، فلا تؤذني. لا تؤذني أبدًا، إنّني وحيدة جدًّا!

واستفاق بوريس منتفضًا وواجه الموقف بوضوح، فقال بصوت جليّ:

ـ إذا كنتِ وحيدة، فلأنّك تحبّين ذلك، ولأنّك ذات كبرياء. وإلّا لأحببتِ رجلاً أكبر منك سنًّا. أمّا أنا، فإنّني شابّ أكثر ممّا ينبغي، ولا أستطيع أن أمنعك من أن تكوني وحيدة. وعندي فكرة أنّك قد اخترتني من أجل هذا.

قالت لولا:

ـ لا أدري، إنّني مشغوفة بحبّك. هذا كلّ ما أدريه.

كانت تضمّه بوحشيّة بين ذراعيها، وسمعها تقول كذلك: «إنّني أعبدك» ثم استغرق في نوم عميق.

ـ ٣ ـ

الصيف. كان الهواء فاترًا كثيفًا، وكان ماتيو يسير وسط المرتفع، تحت سماء صافية، وكانت ذراعاه تجدِّفان، وهما تُبعدان بُسُطًا ذهبيّة ثقيلة. الصيف. صيف الآخرين. أمّا في نظره، فقد كان نهار أسود يبتدئ، وهو سيزحف متلوّيًا حتى المساء، عمليّة دفن تحت الشمس. عنوان. المال. لا بدّ من الركض في أربع زوايا باريس. سارة ستعطي العنوان. ودانيال يديِّنه المال. أو جاك. لقد حلم بأنّه كان قاتلاً، وكان باقيًا له شيء من الحلم في جوف عينيه، سحقه ضغط النور الباهر. ١٦ شارع دولامبر. كانت سارة تسكن هناك، في الطابق السادس، وكان المصعد لا يعمل طبعًا. رقي ماتيو الدرج على قدميه. كانت خلف الأبواب المغلقة نساء يرتِّبن البيوت وقد ربطن على صدورهنّ وزرة، وعقدن على رؤوسهنّ منشفة، كان النهار بالنسبة إليهنّ أيضًا يبتدئ. أيّ نهار؟ كان ماتيو يلهث لهاثًا خفيفًا حين دقّ الجرس، وفكّر: «يجب عليّ أن أتريّض»، وفكّر بضجر: «أقول ذلك كلّما رقيت درجًا». سمع كردحة دقيقة، وفتح له الباب رجل قصير أصلع ذو عينين صافيتين، وكان يبتسم. وعرفه ماتيو: كان ألمانيًّا مهاجرًا سبق له أن رآه مرارًا في مقهى «الدوم» وهو يرشف مفتونًا فنجان قهوة بالكريم، أو هو منحن فوق شطرنج يتأمّل أحجاره ويلحس شفتيه الغليظتين. قال ماتيو:

ـ أودّ أن أرى سارة.

فاكتسى وجه الرجل القصير بالجدّ، وانحنى وهو يصفِّق عقبيه، وكانت أذناه بنفسجيّتين. وقال بتصلُّب:

ـ اسمي ويمولر.

فقال ماتيو من غير أن يتأثّر: ـ واسمي دولارو.

استعاد الرجل القصير ابتسامته البشوش وقال:

ـ ادخل، ادخل. إنّها تحت، في الاستديو. وستكون سعيدة جدًّا. وأدخله في الممرّ ثم اختفى وهو ينطنط. دفع ماتيو الباب الزجاجي وولج استوديو غوميز. وتوقَّف على سطحيّة الدرج الداخلي وقد بهره النور الذي يتدفَّق من الشبابيك الزجاجيّة الكبيرة المغبرّة. طرف بعينيه، وكان رأسه يؤلمه.

وقال صوت سارة: ـ من هناك.

فانحنى ماتيو فوق الدرابزين. وكانت سارة جالسة على الديوان، وهي تلبس «كيمونو» أصفر، كان يرى رأسها تحت شعر متصلِّب قليل. وكان يضيء قبالتها مصباح: هذا الرأس الأحمر، رأس الأصعل[1]. وفكّر ماتيو منزعجًا: «إنّه برونيه»، ولم يكن قد رآه منذ ستّة أشهر، ولكن لم يكن يسرُّه قطّ أن يلقاه ثانية لدى سارة: إنّ ذلك مربكٌ حقًّا، إذ لديهما أشياء كثيرة يقولانها، وصداقتهما المحتضرة كانت منتصبة بينهما. ثم إنّ برونيه كان يجلب معه جوّ الخارج، عالمًا سليمًا برمّته، عالمًا قصيرًا عنيدًا بثوراته وعنفه، وعمله اليدوي وجهوده الصابرة ونظامه. إنَّه لم يكن بحاجة للاستماع إلى السرّ الصغير المعيب، سرّ المخدع، الذي قَدِم ماتيو ليبوح به إلى سارة. رفعت سارة رأسها وابتسمت قائلة:

ـ مرحبًا، مرحبًا.

---

(١) القصير الرأس.

فبادلها ماتيو بسمتها: وكان يرى، من فوق، هذا الوجه المسطّح الذي زال رونقه وتأكّلته الطيبة، ويرى تحته الثديين الكبيرين الرخوين اللذين كانا يبدوان إلى نصفهما خارج الكيمونو. وأسرع بالهبوط، وسألته سارة:

ـ ما الذي جاء بك؟

فقال ماتيو: يجب أن أسألكِ شيئًا.

تورّد وجه سارة شراهة وقالت:

ـ كلّ ما تريد.

وأضافت، وقد أبهجها السرور الذي كانت تقدِّر أنّها ستمنحه إيَّاه:

ـ أتدري مَنْ عندي؟

والتفت ماتيو إلى برونيه وصافحه. وكانت سارة ترنو إليهما بعين حنان. قال برونيه:

ـ مرحبًا، أيّها الاشتراكي الخائن العتيق!

وكان ماتيو مسرورًا بأن يسمع هذا الصوت، رغم كلّ شيء. وكان برونيه هائلاً وشديدًا، ذا وجه فلّاحي بطيء التعبير.. ولم يكن يبدو عليه أنّه قريب إلى القلب بصورة خاصّة. قال ماتيو:

ـ مرحبًا، حسبتك قد متّ.

فضحك برونيه من غير أن يجيب. وقالت سارة بنهم:

ـ اجلس بالقرب منِّي.

وكانت تعلم أنّها ستؤدِّي له خدمة، فهو الآن ملكها. جلس ماتيو. وكان بابلو الصغير يلعب تحت الطاولة بأجسام مكعّبة. سأل ماتيو:

ـ ما أخبار غوميز؟

قالت سارة: ـ إنّها الأخبار عينها. إنَّه في برشلونة.

ـ وهل بلغكِ شيء من أنبائه؟

فأجابت سارة ساخرة: ـ في الأسبوع الماضي كتب لي يروي انتصاراته!

والتمعت عينا برونيه:

ـ أتعلم أنّه أصبح كولونيلاً؟

كولونيل. وفكّر ماتيو برجل الأمس، فانقبض قلبه. أمّا غوميز، فقد ذهب، هو. كان ذات يوم قد علم من جريدة «باري سوار» سقوط «إيرون». فظلّ وقتًا طويلاً يذرع مرسمه جيئة وذهابًا، وهو يمرّر أَصابعه في شعره الأسود ثم نزل مكشوف الرأس وهو يرتدي سترته، كما لو أنّه ذاهب ليشتري سكاير من «الدوم» ولم يعد. وظلّ المرسم في الحالة التي تركه عليها: لوحة غير ناجزة على المسند، ولوح من النحاس محفور نصف حفر على الطاولة، وسط زجاجات الحامض. وكانت اللوحة والنقش يمثِّلان الآنسة ستيمسون. وكانت عارية في اللوحة. وتمثَّلها ماتيو ثملةً رائعة تغنِّي بصوت أبحّ وذراعها في ذراع غوميز. وفكّر: «مهما يكن من أمر، فقد كان أقسى ممّا ينبغي مع سارة». وسألت سارة بصوت جذل:

ـ أيكون الوزير هو الذي فتح لك؟

لم تكن تريد أن تتحدّث عن غوميز. وكان قد سبق لها أن غفرت له كلّ شيء، خياناته وفراره وقسوته. ولكنّها لم تغفر له هذا، رحيله إلى إسبانيا: فقد ذهب ليقتل بشرًا. وقد قتل بعض البشر. وقد كانت الحياة البشريّة، في رأي سارة شيئًا مقدَّسًا.

وسألها ماتيو دهشًا: أيّ وزير؟

فقالت سارة باعتزاز ساذج:

ـ الفأر الصغير ذو الأذنين الحمراوين، وهو وزير. لقد كان عضوًا في حكومة ميونيخ الاشتراكيّة عام ٢٢. أمّا الآن، فهو يموت جوعًا.

ـ وطبعًا، التقطتِه أنتِ؟

فأخذت سارة تضحك.

ـ لقد جاءني يحمل محفظته، والحقيقة أنّه لم يبق له مكان يذهب إليه. وقد طردوه من فندقه لأنّه لم يكن يملك بعد ما يدفعه.

فعدّ ماتيو على أصابعه، وقال:

ـ مع «أنيا» و«لوبيز» و«سانتي» يصبح نزلاؤك أربعة. فقالت سارة بلهجة اعتذار:

ـ أمّا «أنيا» فذاهبة. لقد وجدت عملاً.

قال برونيه: ـ يا للحماقة!

فانتفض ماتيو والتفت نحوه. فقد كانت نقمة برونيه ثقيلة وهادئة. وكان ينظر إلى سارة بهيئته الأكثر فظاظة، وردّد: ـ هذه حماقة.

ـ ماذا؟ ما هي الحماقة؟

قالت سارة وهي تضع يدها على ذراع ماتيو:

ـ آه، تعال لنجدتي، يا عزيزي ماتيو.

ـ ولكنّ ما هي القصّة؟

قال برونيه لسارة بلهجة استياء:

ـ إنَّ الأمر لا يهمّ ماتيو.

ولم تكن تصغي إليه بعد، فقالت بلهجة إشفاق:

ـ إنَّه يريدني أن أطرد وزيري.

ـ تطردينه؟

ـ ويقول إنّي مجرمة لاحتفاظي به.

فقال برونيه بهدوء: ـ إنَّ سارة تبالغ.

والتفت إلى ماتيو، وأخذ يشرح له، على مضض:

ـ الواقع، إنّ لدينا معلومات سيّئة عن هذا الرجل؛ ويبدو أنّه كان منذ

ستّة أشهر يجوس ممرّات السفارة الألمانيّة. وليس المرء بحاجة لأن يكون داهية ليفهم ما يمكن لمهاجر يهودي أن يفعل هناك.

قالت سارة: ـ ليست لديك أدلّة.

ـ أجل. ليس لنا أدلّة. ولو كان هناك أدلّة، ما كان هنا قطّ. ولكن حتى ولو لم يكن هناك إلّا تخمينات، فإنَّ سارة عديمة الحذر بإيوائه.

قالت سارة بحماسة: ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟

قال برونيه برقّة: ـ اسمعي يا سارة! إنّكِ على استعداد لنسف باريس كلِّها من أجل أن تجنِّبي الذين تحمينهم أيّ إزعاج!

فابتسمت سارة ابتسامة خفيفة وقالت:

ـ ليس باريس كلّها. ولكن المؤكّد أنّني لن أضحّي بـ «ويمولر» من أجل قضاياك الحزبيّة. إنّ. . . إنّ الحزب أمر مجرّد تمامًا.

قال برونيه: ـ هذا ما كنت أقوله بالذات.

فهزّت سارة رأسها بعنف، وكان وجهها قد احمرّ وعيناها الكبيرتان الخضراوان قد دمعتا، فقالت بغيظ:

ـ الوزير الصغير، لقد رأيته يا ماتيو، فهل يمكن أن يؤذي حتى ذبابة؟

كان هدوء برونيه عظيمًا. كان هدوء البحر. وكان ذلك مهدِّئًا ومغيظًا في الوقت نفسه. لم يكن يبدو عليه قطّ أنّه رجل واحد، بل كان يعيش حياة جمهور كامل بكلّ هدوئها وصمتها وصخبها. وأوضح قائلاً:

ـ إنَّ غوميز يرسل لنا أحيانًا بعض الرسل، وهم يأتون إلى هنا، فنلتقيهم في منزل سارة، وأنت تدرك أنّ الرسائل التي يحملونها سرِّيّة. أفيكون هذا المكان الذي تختاره من جميع الأمكنة لتستضيف فيه رجلاً اشتهر بأنّه جاسوس؟

فلم يجب ماتيو. كان برونيه قد استعمل الصيغة الاستفهاميّة، ولكن ذلك كان أمرًا خطابيًّا: إنّه لم يكن يسأله رأيه. ولقد انقضى وقت طويل

على انقطاع برونيه عن أخذ رأي ماتيو في أيّ أمر من الأمور.

ـ إنّني أجعلك حكمًا يا ماتيو: إذا طردت «ويمولر»، قذف نفسه في نهر السين. (ثم أضافت بلهجة يائسة) فهل يحقّ لنا حقًّا أن ندفع إنسانًا إلى الانتحار لمجرّد شبهة؟

وكانت قد انتصبت، قبيحة ومشرقة، لتولّد في نفس ماتيو شعور المشاركة الملطّخة الذي يحسّ به المرء تجاه المسحوقين والمصابين والمرضى بالالتهابات والقروح. وسأل:

ـ هل الأمر جدّ؟ هل سيقذف نفسه في السين؟

فقال برونيه: ـ طبعًا لا، بل سيعود إلى السفارة الألمانيّة وسيحاول أن يبيع نفسه كليًّا...

قال ماتيو: ـ الأمر سواء. إنّه في جميع الأحوال هالك.

فهزّ برونيه كتفه بلامبالاة، وقال:

ـ نعم، صحيح.

قالت سارة وهي تنظر إليه بقلق:

ـ أتسمعه يا ماتيو؟ إذن، من هو على صواب؟ قلْ شيئًا.

ولم يكن لدى ماتيو ما يقوله. لم يكن برونيه يسأله رأيه، وما عساه يجديه رأي رجل بورجوازي، مثقّف قذر، كلب حراسة؟ «سوف يستمع بتأدُّب مثلّج، ولكنّه لن يكون أشدّ تأثّرًا من صخرة، وسيدينني بما أقوله، وهذا كلّ ما في الأمر». ولم يكن ماتيو يريد أن يدينه برونيه. وقد كان ثمّة فترة لم يكن أحدهما يدين فيها الآخر، بصورة مبدئيّة. كان برونيه يقول آنذاك: «إنّ الصداقة ليست مجعولة للانتقاد، وإنّما هي مجعولة لتمنح الثقة». ولعلّه ما زال يقول ذلك، ولكنّه إذا قاله الآن، فإنّما يعني رفاقه في الحزب.

وقالت سارة: ـ ماتيو!

فانحنى برونيه نحوها ولامس ركبتها وهو يقول بهدوء:

ـ اسمعي يا سارة. إنِّني أحبّ كثيرًا ماتيو، وأقدِّر كثيرًا ذكاءه. وحين يكون الأمر أن يُوضَّح مقطعٌ من سبينوزا أو من كانط، فهو الذي أستشيره بكلّ تأكيد. أمّا هذه القضيّة، فهي بليدة جدًّا، وأقسم لك أنَّني لست بحاجة إلى حَكَم، حتى ولو كان أستاذ فلسفة. لقد حدّدت موقفي.

وفكّر ماتيو: طبعًا. طبعًا. وكان قلبه قد انقبض، ولكنّه لم يكن ناقمًا على برونيه. من أكون حتى أعطي النصائح؟ وما الذي فعلته في حياتي؟ وكان برونيه قد نهض، فقال:

ـ يجب أن أمضي. وطبعًا، ستعملين ما تشائين، يا سارة. أنتِ لست من الحزب، ومع ذلك فإنّ ما تؤدِّينه لنا عظيم. ولكن إذا احتفظت به، فإنِّي أطلب إليك ببساطة أن تمرِّي عليّ حين يرسل لكِ غوميز أخباره.

فقالت سارة: ـ حسنًا.

وكانت عيناها تلتمعان، وكان يبدو أنّها تحرّرت. قال برونيه:

ـ ولا تدعي شيئًا يظهر. احرقي كلّ شيء.

ـ أعدك بذلك.

والتفت برونيه إلى ماتيو:

ـ هيّا، إلى اللقاء، أيّها الأخ القديم.

ولم يمدّ له يده، وكان يتأمَّل بتنبّه، وبشيء من القسوة، نظرة مارسيل، مساء أمس، ودهشتها الحاقدة. وكان عاريًا تحت هذه النظرات، شخصًا طويلاً عاريًا، مثل لبِّ الخبز. شخصًا مرتبكًا عديم الحذق. من أكون حتى أعطي نصائح؟ وطرف بعينه: كان برونيه يبدو قاسيًا ذا عقد. أمّا أنا، فإنِّي أحمل الإجهاض على وجهي. وتكلّم برونيه، فلم يكن صوته ذاك الصوت الذي كان ماتيو ينتظره، إذ قال بهدوء:

ـ إنّ سحنتك رديئة. فما الذي تشكوه؟

وكان ماتيو قد نهض أيضًا:

ـ إنِّني واقع في... ارتباك. ولكن لا أهمّيَّة لذلك.

فوضع برونيه يده على كتفه. وكان ينظر إليه متردِّدًا:

ـ إنَّها لحماقة. يضيِّع المرء كلّ وقته وهو يعدو ذات اليمين وذات الشمال، ولا يجد وقتًا للاهتمام بالأصدقاء القدامى. فلو أنّك متّ، فسأعلم نبأ موتك بعد شهر، وبالصدفة.

قال ماتيو ضاحكًا: ـ لن أموت في مثل هذا التاريخ المبكِّر.

وشعر بقبضة برونيه على كتفه، وفكّر «إنّه لا يحاكمني». فأحسّ بعرفان متواضع يستولي عليه. وظلّ برونيه جادًّا، فقال:

ـ لا، ليس في مثل هذا التاريخ المبكِّر. ولكن...

وبدا عليه أخيرًا أنّه يعزم:

ـ هل أنت حرٌّ حوالى الساعة الثانية؟ إنّ عندي بعض فراغ، وبوسعي أن أقفز إلى بيتك، ويمكننا أن نتحدّث قليلاً، كالسابق.

فقال ماتيو:

ـ كالسابق، إنِّني حرّ تمامًا. وسأنتظرك.

وابتسم له برونيه بصداقة. وكان قد احتفظ ببسمته الساذجة المرحة. واستدار حول نفسه، وتوجّه نحو السلّم. وقالت سارة:

ـ سأرافقك.

وتبعهما ماتيو بعينيه. وكان برونيه يرقى الدرج بمرونة أخّاذة. وقال في نفسه: «لم يضع كلّ شيء». واختلج شيء ما في صدره، شيء فاتر ومتواضع كان يشبه الأمل. وخطا خطوات. اصطفق الباب فوق رأسه. وكان بابلو الصغير ينظر إليه بوقار. اقترب ماتيو من الطاولة وأخذ مقصًّا. طارت ذبابة كانت قد حطّت على صفحة النحاس، كان بابلو ما يزال ينظر إليه. أحسّ ماتيو بالانزعاج، من غير أن يعرف السبب. وكان لديه شعور

بأنّ عينيّ الصبيّ تبتلعانه. وفكّر «إنَّ الصبيان هم شرهون صغار، وجميع حواسِّهم أفواه». لم يكن نظر بابلو نظرًا إنسانيًّا بعد، ومع ذلك، فقد كان شيئًا أكثر من الحياة: فلم يمض وقت طويل على خروج الطفل من بطن، وكان هذا يُرى واضحًا، كان هناك، صغيرًا، متردِّدًا، وكان لا يزال يحتفظ بأثرٍ مخملي وخم من شيء مُقاء، ولكن كان يكمن وراء الأخلاط المضطربة التي كانت تملأ محجريه وجدان صغير نهم. كان ماتيو يلعب بالمقصّ. وفكّر «إنّ الطقس حارّ». كانت الذبابة تطنّ حوله، وهناك، في حجرة ورديّة، داخل بطن آخر، جسم صغير متجعِّد ينتفخ. وسأله بابلو:

ـ أتعلم بمَ حلمت؟

ـ كلّا.

ـ حلمت بأنِّي كنت ريشة.

فقال ماتيو في نفسه: «إنّه يفكِّر!» وسأله:

وماذا كنت تفعل حين كنت ريشة؟

ـ لا شيء. كنت نائمًا.

ورمى ماتيو فجأة المقصّ على الطاولة، فأخذت الذبابة ترفرف مذعورة، ثم حطّت على صفحة النحاس بين فرضتين رقيقتين تمثِّلان ذراع امرأة. كان لا بدّ من الإسراع، لأنّ الجسم الصغير كان ينتفخ في هذه الأثناء، وكان يبذل جهودًا غامضة لكي ينتزع عنه الغطاء اللزج، ولكي ينتزع نفسه من الظلمات، ويصبح شبيهًا بهذا، بهذا الحجم الشاحب الرخو الذي كان يلتهم العالم.

خطا ماتيو بضع خطوات على الدرج. كان يسمع صوت سارة. لقد فتحت الباب ووقفت على العتبة تبتسم لبرونيه. ما الذي تنتظره لتهبط؟ وانفتل إلى الصبيّ وإلى الذبابة. صبيّ. لحم مفكِّر يصرخ وينزف حين يُقتل. إنَّ الذبابة أسهل قتلاً من صبيّ. وهزّ كتفيه: «إنِّني لن أقتل أحدًا.

إنّما سوف أمنع طفلاً من أن يولد». وكان بابلو قد عاد يلعب بمكعّباته، وكان قد نسي ماتيو. مدّ ماتيو يده ولمس الطاولة بإصبعه. وكان يردِّد لنفسه بدهشة «أمنع ولادة...» فكأنّما كان ثمّة في مكان ما طفل جاهز ينتظر ساعة القفز من هذه الناحية من الديكور، في هذه الغرفة تحت هذه الشمس، وكان ماتيو يسدّ عليه الطريق. والواقع أنّ ذلك كان كذلك تقريبًا: كان ثمّة رجل قصير مفكِّر وماكر، كاذب وأليم، ذو بشرة بيضاء، وأذنان عريضتان وشامات، مع قبضة من العلامات الفارقة تشبه تلك التي توضع على الجوازات، رجل قصير لن يعدو قطّ في الطرقات، لأنّ له قدمًا على الرصيف وأخرى في الساقية، وكان ثمّة عينان، عينان خضراوان كعيني ماتيو أو سوداوان كعيني مارسيل اللتين لن تريا أبدًا سماوات الشتاء المخضرَّة الزرقة، ولا البحر، ولا أيّ وجه، وكان ثمّة أيدٍ لن تمسّ الثلج أبدًا، ولا بشرة النساء، ولا لحاء الشجر: كان ثمّة صورة للعالم دامية، مضيئة، عابسة مهووسة، كئيبة، تفيض بالآمال، صورة تغمرها الحدائق والبيوت وفتيات فارعات رقيقات، وحشرات مريعة، صورة توشك أن تُفجَّر برأسِ دبوس ككرة من كرات اللوفر. قالت سارة:

ـ ها أنذا، هل جعلتك تنتظر!

رفع ماتيو رأسه وأحسّ بالفرج: كانت منحنية على الدربزين، ثقيلة قبيحة، كانت امرأة بالغة، لحمًا قديمًا يبدو وكأنّه خارج من المُلوحة وكأنّه لم يولد قطّ، وابتسمت له سارة وهبطت الدرج مسرعة. كان الكيمونو يتطاير حول ساقيها القصيرتين. وقالت بلهفة:

ـ نعم؟ ماذا هناك؟

كانت عيناها الكبيرتان المضطربتان تتفحّصانه بإلحاح. وانفتل وقال بجفاء:

ـ إنَّ مارسيل حامل.

ـ أوه!

وكان يبدو على سارة أنّها أقرب لأن تكون مغتبطة. وسألت بخجل:

ـ إذن.. سوف؟

قال ماتيو بحماسة: ـ لا، لا. إنّنا لا نريد أطفالاً.

قالت: ـ حسنًا، فهمت.

وخفضت رأسها ولزمت الصمت. ولم يستطع ماتيو أن يحتمل هذا الحزن الذي لم يكن حتى عتابًا، فاستطرد يقول بوحشيّة:

ـ أظنّ أنّ ذلك قد حصل مرّة معك، كما أخبرني غوميز.

ـ نعم. في الماضي.

ورفعت عينيها فجأة وأضافت باندفاع:

ـ إنَّ هذا ليس ذا أهمّيّة على الإطلاق إذا أُدرك في حينه.

كانت تمتنع عن إدانته، وكانت تتخلَّى عن تحفّظاتها وعن مآخذها، ولم يكن لها بعد إلَّا رغبة واحدة، هي أن تطمئنه.

ـ ليس الأمر بذي بال على الإطلاق...

وكان يوشك أن يبتسم وأن يواجه المستقبل بثقة، ستكون وحدها التي تحمل الحداد بسبب هذه الميتة الصغيرة الخفيّة. وقال ماتيو مغتاظًا:

ـ اسمعي يا سارة، وحاولي أن تفهميني: إنّني لا أريد أن أتزوّج.

وليس ذلك بدافع من أنانية: ولكنّي أجد الزواج...

وصمت.

كانت سارة متزوِّجة، كانت قد تزوَّجت غوميز منذ خمس سنوات. وأضاف بعد لحظة:

ـ ثم إنَّ مارسيل لا تريد أولادًا.

ـ ألا تحبّ الأولاد؟

ـ إنّ هذا لا يهمّها.

فبدا على سارة الامتعاض، وقالت:

ـ نعم، نعم. . إذن، في الحقيقة. . .

وأخذت يديه:

ـ ماتيو، يا صديقي المسكين، لا بدّ أنّك كثير الانزعاج. ! بودّي لو أستطيع أن أساعدك.

قال ماتيو: ـ هذا بالذات ما أريده. إنّك تستطعين أن تساعدينا. حين حدث لك ذلك. . . الانزعاج، ذهبت ترين أحدًا ما، رجلاً روسيًّا، على ما أظنّ.

قالت سارة: ـ نعم، (وتغيّرت سحنتها) كان ذلك مريعًا!

فقال ماتيو بصوت عكر: ـ آه. . إنّه. . إنّه مؤلم جدًّا.

ـ ليس آلم ممّا ينبغي، ولكن. . . (وقالت بلهجة إشفاق) كنت أفكِّر بالطفل. أنت تعلم أنّ غوميز كان يريده. وحين كان يريد شيئًا ما، في ذلك العهد. . . ولكنّ ذلك كان مريعًا. . وأبدًا لن. . إنَّ بوسعه أن يبتهل إليّ وهو جاثٍ على ركبتيه، الآن، ولكنّني لن أعيدها أبدًا.

ونظرت إلى ماتيو بعينين شاردتين:

ـ لقد أعطوني حزمة صغيرة، بعد العمليّة، وقالوا لي «إقذفي ذلك في بالوعة». في بالوعة. كجرذ ميِّت!

وأضافت وهي تضمّ يديه بقوّة: ـ اسمع يا ماتيو! إنّك لا تعلم ما أنت قادم عليه!

فسألها ماتيو غاضبًا:

ـ وإذا وضعتِ ولدًا، أتراك تكونين أكثر علمًا منّي؟

طفل: وجدان جديد، نور صغير جديد يطير مستديرًا، فيصطدم بالجدران ويعجز عن الفرار بعد.

ـ لا، وإنّما أقصد: أنت لا تعلم ما الذي تطلبه من مارسيل، إنّني أخشى أن تكرهك فيما بعد.

وتمثّل ماتيو عينيّ مارسيل، عينيها الكبيرتين القاسيتين المحاطتين بدائرة مزرقّة. وسأل بجفاء:

ـ هل تكرهين غوميز؟

فأتت سارة حركة إشفاق وعجز: إنّها لم تكن تستطيع أن تكره أحدًا، ولا سيّما غوميز. ثم قالت بلهجة غامضة:

ـ مهما يكن من أمر، فليس بوسعي أن أرسلك إلى هذا الروسي الذي ما زال يعمل، ولكنّه يشرب الآن، فليست لي به ثقة بعد، وقد حدثت له قصّة قذرة منذ عامين.

ـ ألا تعرفين شخصًا آخر؟

فقالت سارة بهدوء: ـ لا أعرف أحدًا.

ولكن طيبتها كلّها ما لبثت أن انبثقت على وجهها فجأة، فصاحت:

ـ بلى، بوسعي أن أرشدك، فكيف لم أفكّر بذلك؟ سوف أتدبّر الأمر، والدمان. ألم تره عندي؟ يهودي متخصّص بالأمراض النسائيّة. إنّه اختصاصي الإجهاض، على نحو ما. وستكون معه مطمئنًّا. لقد كان له في برلين زبائن كثيرون. وحين استولى النازيّون على السلطة، ذهب يقيم في ڤيينا. وبعد ذلك، حدث الأنشلونس، فأبحر إلى باريس حاملاً بيده محفظة صغيرة. ولكن كان قد حوّل كلّ ماله إلى زوريخ قبل ذلك بوقت طويل.

ـ أتظنّين أنّه سيقبل؟

ـ طبعًا. إنّني ذاهبة لأراه اليوم بالذات.

فقال ماتيو: ـ إنّني مسرور. مسرور جدًّا. هل يأخذ أجرًا غاليًا جدًّا؟

ـ كان يتقاضى هناك حتى ألفي مارك.

امتقع ماتيو:

ـ عشرة آلاف فرنك؟

فأضافت بحيويّة:

ـ ولكن ذلك سرقة. كأن يحمل الناس على أن يدفعوا ثمن شهرته. أمّا هنا، فلا يعرفه أحد، ولا بدّ أن يكون معقولاً. وسوف أعرض عليه ثلاثة آلاف فرنك.

فقال ماتيو وهو يكزّ على أسنانه: ـ حسنًا.

وكان يتساءل: «من أين آتي بهذا المال؟».

قالت سارة: ـ اسمع، لماذا لا أقصده منذ هذا الصباح؟ إنّه يسكن شارع «بليز ديغوف» وهو قريب جدًّا. سوف أرتدي ثيابي وأهبط. فهل تنتظرني؟

فقال ماتيو: ـ لا . . . إنّ عندي موعدًا في العاشرة والنصف. إنّك جوهرة يا سارة.

وأخذها من كتفيها وهزّها وهو يبتسم. لقد أزالت عنه أعمق مخاوفه وجعلت من نفسها، بدافع السماحة، شريكة عمل كان يوحي لها بالذعر: كانت تشعّ سرورًا. وسألته:

ـ أين ستكون حوالى الحادية عشرة؟ إنَّ بوسعي أن أتلفن لكَ.

ـ سأكون في مقهى «ديبون لاتن» بشارع سان ميشال. وبوسعي أن أبقى فيه حتى تتّصلي بي.

ـ في «ديبون لاتن»؟ اتّفقنا.

وكان مئزر سارة قد انفتح عن ثدييها الهائلين. فضمّها ماتيو إليه بدافع حنان، وحتى لا يرى جسدها بعد. قالت سارة:

ـ إلى اللقاء، إلى اللقاء، يا عزيزي ماتيو.

ورفعت إليه وجهها الرقيق الذي زال رونقه. وكان في هذا الوجه تواضع يثير الاضطراب والشهوة ويرغِّب في إيذائها وإرهاقها بالخجل. كان دانيال يقول: «حين أراها، أفهم معنى الساديّة». وقبّلها ماتيو على خدّيها.

* * *

«الصيف!» كانت السماء تتسلّط على الشارع، وكانت شبحًا معدنيًا، كان الناس يعومون في السماء، ووجوههم تتوهّج. وتنشّق ماتيو رائحة خضراء حيّة، غبارًا فتيًّا، وطرف بعينيه وابتسم. «الصيف!» وخطا بضع خطوات، فعلق بنعله القطران الأسود الذائب المنقَّط بحبّات بيضاء: لقد كانت مارسيل حاملاً، وليس هو بعد الصيف ذاته.

كانت نائمة، وكان جسدها سابحًا في ظلّ كثيف، يرشح وهي نائمة. وكان نهداها الجميلان البنفسجيّان قد ارتخيا، وقُطيرات تنبجس حول حلمتيها، بيضاء مالحة كالزهور، إنّها تنام. إنّها تنام دائمًا حتى الظهر. أمّا الجسم المتجعِّد الصغير، في جوف بطنها، فلم يكن لينام، وهو لا يملك وقتًا للنوم: إنّه يتغذّى وينتفح. كان الزمن يسيل دفعات صلبة لا تنقطع. كان الجسم المتجعِّد ينتفخ، وكان الوقت يسيل. «يجب أن أجد المال في الثماني والأربعين ساعة».

حديقة اللوكسمبورغ، حارّة بيضاء، تماثيل وحمام: وأطفال. الأطفال يركضون، والحمام يطير. ركضٌ، بروق بيضاء، فرق صغيرة تتبدّد. وجلس على كرسيّ من حديد: «أين أجد المال؟ إنّ دانيال لن يعيرني إيَّاه. ومع ذلك فسوف أطلبه منه.. ثم، كآخر سهم، ستكون لي إمكانيّة التوجّه إلى جاك». وكان العشب يزبد حتى قدميه، وكان تمثال يمدّ له مؤخِّرته الحجريّة الفتيّة، وكان الحمام يسجع، طيور من حجر: «ليست القضيّة، بعد كلّ حساب، إلّا قضيّة خمسة عشر يومًا، وسوف ينتظر هذا اليهودي حتى آخر الشهر، ويوم ٢٩ سأقبض راتبي».

توقّف ماتيو فجأة: كان يرى نفسه وهو يفكِّر، وكان يشمئزّ من نفسه: «في هذه الساعة، يضرب برونيه في الشوارع، على هواه في النور، وهو خفيف لأنّه ينتظر، وهو يمشي عبر مدينة من زجاج مفضَّض لن يلبث أن يكسره، إنّه يستشعر القوّة، وهو يمشي متمايلاً مترنِّحًا، بكلّ حذر، لأنّ الوقت لم يحن بعد لتحطيم كلّ شيء، إنّه ينتظر، إنّه يأمل. أمّا أنا، أمّا

أنا! إنّ مارسيل حامل. هل ستقنع سارة ذلك اليهودي؟ أين أجد المال؟ هذا ما أفكِّر به!» واستعاد فجأة صورة عينين متقاربتين تحت حاجبين كثيفين أسودين: «مدريد كان بودّي أن أذهب إليها. أقسم لك. ولكن ذلك لم يتمّ! وفكّر فجأة: «لقد شخت».

إنِّني أشيخ. هأنذا مسترخ على كرسي، منخرطٌ حتى العنق في حياتي، وغير مؤمن في شيء. ومع ذلك، فقد وددت أنا أيضًا أن أذهب إلى «إسبانيا» ما. ثم لم يتمّ ذلك. هل هناك «إسبانيّات»؟ إنِّني هنا، أتلمّظ، وأحسّ مذاق الدم القديم والمياه المعدنيّة، مذاقي أنَّني مذاقي بالذات، أنَّني موجود. ذلك هو الوجود: أن يشرب الإنسان نفسه على غير عطش. أربعة وثلاثون عامًا. منذ أربعة وثلاثين عامًا وأنا أتذوّق نفسي، وأنا شيخ. لقد عملت، وانتظرت، وكان لي ما أريد: مارسيل، باريس، الاستقلال، وانتهى الأمر، فأنا لا أنتظر بعد شيئًا. وكان ينظر إلى هذه الحديقة النمطيّة، الجديدة دائمًا، التي هي نفسها دائمًا، كالبحر، تجتازها منذ مئة عام مويجات الألوان والأصوات نفسها. كان هناك ما يلي: هؤلاء الأطفال الذين كانوا يركضون بلا انتظام، الأطفال أنفسهم منذ مئة عام، وهذه الشمس نفسها تنصبّ على ملكات الجبس ذوات الأصابع المكسورة وجميع هذه الأشجار. وكانت هناك سارة وكيمونوها الأصفر، ومارسيل حبلى، والمال. إنّ ذلك كلّه كان من الطبيعيَّة والعاديّة والرتابة بحيث كان يكفي لأن يملأ حياة، تلك هي الحياة. أمّا الباقي، الإسبانيّات، والقصور في إسبانيا، فقد كان... ماذا؟ دينٌ لادينيّ صغير حارٌّ يصلح لي؟ المصاحبة الخفيّة السارفيميّة لحياتي الحقيقيّة؟ لا دليل؟ كذلك كانوا يرونني، هم، دانيال، ومارسيل وبرونيه وجاك: الإنسان الذي يريد أن يكون حرًّا. إنّه يأكل ويشرب كسائر الناس، وهو موظّف في الحكومة، وهو لا يتعاطى السياسة. وهو يقرأ جريدتي «الأوفر» و«البوبولير». وهو يعاني ضيقًا ماليًّا. ولكنّه يريد فحسب أن يكون حرًّا، كما يريد آخرون مجموعة من الطوابع.

إنّ الحرّيّة هي حديقته المقدّسة، ضلوعه اليسير مع نفسه. شخص كسول بارد، خيالي بعض الشيء: ولكنّه في الحقيقة عظيم الرشاد، صنع لنفسه سعادة جمود عاديّة وصلبة، وهو يبرِّر نفسه بين الفينة والفينة باعتبارات رفيعة. أيكون هذا هو ما أنا؟

كان في السابعة من عمره، وكان في «بتبفييه» عند عمِّه جول طبيب الأسنان، وحيدًا في قاعة الانتظار، وكان يتكلّف منع نفسه من أن يوجد: كان عليه أن يحاول ألّا يلتهم نفسه، كشأن من يحتفظ على لسانه بمائع مثلج فيما هو يمسك حركة الابتلاع الصغيرة التي تجعله يسيل إلى الحنجرة. وكان قد نجح بأن يُفرغ رأسه تمامًا. ولكن هذا الفراغ كان ما يزال يحتفظ بمذاق. كان يوم حماقات. وكان يقع في حرارة ريفيّة تنبعث منها رائحة الذباب، والواقع أنّه كان قد قبض على ذبابة ونزع جناحيها. ولاحظ أنّ رأسها كان يشبه طرف عود ثقاب، فذهب إلى المطبخ وأتى بالمبرد وراح يحكّه به ليرى إذا كان سيشتعل. ولكن كان يفعل ذلك كلّه بإهمال: كانت مهزلة حقيرة فارغة، فهو لا ينجح في الاهتمام بنفسه، وكان يعلم جيّدًا أنّ الذبابة لن تشتعل. كان على الطاولة مجلّات ممزّقة وآنية صينيّة جميلة، خضراء ورماديّة، ذات عُرى تشبه براثن الببغاء، وكان عمّه جول قد قال له إنّ عمر هذه الآنيّة ثلاثة آلاف عام. كان ماتيو قد اقترب من الآنيّة، ويداه خلف ظهره ونظر إليها وهو يتراقص في قلق: إنَّه لمخيف أن يكون الإنسان كريَّة من العجين، في هذا العالم الهرم المشويّ، تجاه آنيّة عديمة الإحساس ذات الثلاثة آلاف عام! وكان قد أولاها ظهره وأخذ يقلِّب عينيه وينخر أمام المرآة، من غير أن ينجح في تسلية نفسه، ثم عاد فجأة إلى الطاولة، ورفع الآنيّة التي كانت ثقيلة جدًّا، وقذف بها أرضًا: هكذا خطر له ذلك، وما لبث أن شعر بأنّه خفيف، كخيط من خيوط «العذراء». وقد نظر إلى شظايا البورسلين مسحورًا. لقد حدث شيء ما لهذه الآنيّة ذات الثلاثة آلاف عام بين هذه الجدران الخمسينيّة، تحت نور الصيف القديم،

شيء وقح يشبه الصباح. وكان قد فكّر: «أنا الذي فعلت ذلك!» واستشعر الفخر، وأحسّ بأنّه متحرِّر من العالم وبلا جذور، بلا أسرة، بلا أصول، وأنّه انبثاق صغير عنيد فجّر قشرة الأرض.

كان في السادسة عشرة، وحشًا صغيرًا، مستلقيًا على الرمل، في «أركاشون»، ينظر إلى أمواج المحيط المسطّحة. وكان قد ضرب شابًّا من بوردو قذفه بالحجارة، فأجبره على أكل التراب. وفيما كان جالسًا في ظلّ الصنوبر، متقطّع الأنفاس، مملوء المنخرين برائحة الصمغ الصنوبري، كان لديه إحساسٌ بأنّه انفجار صغير معلّق في الهواء، انفجار صريح، شرس، غير قابل للتفسير. وكان قد قال لنفسه: «سأصبح حرًّا» أو إنّه بالأحرى لم يقل لنفسه شيئًا على الإطلاق. وإنَّما كان هذا ما يودّ أن يقوله، وكان ذلك رهانًا. لقد راهن بأنّ حياته كلّها ستشبه هذه اللحظة الفريدة. وكان في الحادية والعشرين، يقرأ سبينوزا في غرفته، يوم ثلاثاء المرفع، وكانت شاحنات كبيرة ملوّنة تعبر الشارع وهي محمّلة بدمًى من الورق المقوّى، وكان قد رفع عينيه وراهن مرّة أخرى، بذلك التفخيم الفلسفي الذي اعتادا عليه منذ حين، هو وبرونيه، كان قد قال لنفسه: «سوف أصنع سلامي»! وعشر مرَّات، ومئة مرَّة، أعاد مراهنته. كانت الكلمات تتغيّر مع السنّ، ومع الطُرُز الفكريّة، ولكنّ الرهان ظلّ هو هو، ولم يكن ماتيو، في نظر نفسه بالذات، شخصًا طويلاً ثقيلاً بعض الشيء، يدرِّس الفلسفة، في معهد للذكور، ولم يكن كذلك شقيق جاك دولارو، النائب في المحاكم، لا عشيق مارسيل ولا صديق دانيال وبرونيه: إنَّه لم يكن شيئًا آخر غير هذا الرهان.

أيّ رهان؟ وأمرّ يده على عينيه اللتين أتعبهما النور: إنّه لا يعرفه بعد معرفة جيّدة، كان له الآن ـ أكثر فأكثر غالبًا ـ فترات نفيٍ طويلة. ولا بدّ له لكي يفهم رهانه أن يكون في أفضل حالات نفسه.

ـ الكرة، من فضلك.

وتدحرجت كرة التنس حتى قدميه، وكان صبيٌّ صغير يعدو نحوه. وفي يده مضرب. التقط ماتيو الكرة وقذفها إليه. ولم يكن بالتأكيد في أفضل حالاته: فقد كان يأسن في تلك الحرارة الكئيبة، وكان ضحيّة الإحساس الرتيب القديم بالشيء اليومي المألوف: لقد جهد عبثًا في ترديد العبارات التي كانت تثير حماسته في الماضي: «أن أكون حرًّا، أن أكون قضيّتي، أن أستطيع القول: إنّني موجود لأنّني أريد ذلك، أن أكون بداءتي بالذات». ولكن هذه كانت كلمات فارغة طنّانة جوفاء، كلمات مثقَّف مزعجة.

ونهض. نهض موظّف، موظّف كان يشكو قلّة المال، وهو قادم على لقاء أخت أحد تلامذته الأقدمين، وفكّر: «هل فات الأوان؟ ألست بعد إلّا موظّفًا؟» لقد سبق له أن انتظر طويلاً، ولم تكن سنواته الأخيرة إلّا حراسة سلاح. كان ينتظر عبر الألف همّ يوميّ صغير، وبالطبع كان يجري وراء النساء المسنَّات، في ذلك العهد، وكان يسافر، ثم كان عليه أن يكسب عيشه. ولكن عَبْرَ ذلك كلّه، كان اهتمامه الوحيد هو أن يظلّ على استعداد لعمل ما. عملٍ حرٍّ وواعٍ يُلزم حياته كلّها ويكون بدء وجود جديد. إنّه لم يستطع قطّ أن ينخرط كلّيًّا في حبّ ما، في لذّة ما، ولم يكن قطّ شقيًّا حقًّا: كان يخيّل إليه دائمًا أنّه كان في مكان آخر، وأنّه لم يولد بعد تمامًا. كان ينتظر. وفي هذه الأثناء، كانت السنوات قد جاءت على مهل، وبصورة خفيّة، وقبضت عليه من الخلف، أربع وثلاثون سنة. «كان عليّ، وأنا في الخامسة والعشرين، أن ألتزم. مثل برونيه. هذا صحيح، ولكنّ المرء، في تلك السنّ، لا يلتزم وهو مدرك القضيّة تمام الإدراك». سيكون المرء مخدوعًا. وأنا لا أريد أن أكون مخدوعًا. وكان قد فكّر بالذهاب إلى روسيا، وبالانصراف عن دراسته، وبتعلُّم مهنة يدويّة. ولكن ما كان يُمسكه كلّ مرّة على حافّة هذه الألوان من النقض العنيف، هو أنّه كان يفتقر إلى الأسباب الكافية لتنفيذها. إنَّها، بلا أسباب، ما كانت لتكون إلّا ضربًا من

العناد. وهكذا استمرّ في الانتظار...

وكانت قوارب شراعيّة تدور في حوض اللوكسمبورغ، تصفعها فوّارة الماء بين الفينة والفينة. وتوقَّف لينظر إلى حفلتها الاستعراضيّة المائيّة الصغيرة. وفكّر: «لن أنتظر بعد. إنّها على حقّ: لقد أفرغت نفسي وعقَّمتها حتى لم أعد إلّا انتظارًا. صحيح أنّي الآن مُفرغ. ولكنّي لا أنتظر بعد شيئًا».

وهناك، بالقرب من فوّارة الماء، كان قارب صغير في طريق الضياع، تائهًا على حدة. وكان جميع الناس يضحكون وهم ينظرون إليه، وكان صبيّ شقيٌّ يحاول أن يقبض عليه بواسطة عُقّافة.

٤

نظر ماتيو إلى ساعته: «العاشرة وأربعون دقيقة. لقد تأخّرت». ولم يكن يحبّ أن تتأخّر، وكان يخشى دائمًا أن تكون قد تركت نفسها تموت. كانت تنسى كلّ شيء، وكانت تهرب من نفسها، تنسى نفسها بين دقيقة وأخرى، تنسى أن تأكل، وتنسى أن تنام. وسوف تنسى يومًا أن تتنفّس وينتهي كلّ شيء. وكان شابّان قد توقّفا بالقرب منه: يتأمّلان طاولةً بعبوس.

قال أحدهما: ـ «سيت داون».

فأجاب الآخر: ـ إنَّني أسيت داون.

وضحكا وجلسا. وكان لهما أيدٍ معتنًى بها، الهيئة قاسية والبشرة رقيقة. وفكّر ماتيو في حنق «ليس هنا إلَّا المماحين»! تلامذة أو طلّاب ليسيه، الشباب الذكور المحاطون بإناث رماديّات كانوا يشبهون حشرات لامعة عنيدة. وفكّر ماتيو: «إنّ الشباب شيء ظريف: بريق في الخارج، وفي الداخل لا تحسّ شيئًا». صحيح أنّ إيفيش كانت تحسّ بشبابها، وكذلك بوريس، ولكنّهما يدخلان في الاستثناء. إنّهما من شهداء الشباب. «لم أكن أدري أنِّي أنا كنت شابًّا، ولا برونيه ولا دانيال. وإنّما شعرنا بذلك فيما بعد».

وحلم، في غير سرور بالغ، بأنّه سيصطحب إيفيش إلى معرض غوغان. كان يحبّ أن يُريها لوحات جميلة وأفلامًا جميلة، وأشياء جميلة، لأنّه لم يكن جميلاً، وكان ذلك بمثابة الاعتذار. ولكن إيفيش لم تكن لتعذره: إنّها ستنظر إلى اللوحات هذا الصباح، كما كانت تنظر في المرّات السابقة، نظرتها الهوساء المتوحِّشة، وسيقف ماتيو إلى جانبها، قبيحًا، ثقيل الظلّ، منسيًّا. ومع ذلك، فإنّه لم يكن بودِّه أن يكون جميلاً: ذلك أنّها ليست أكثر وحدة إلّا تجاه الجمال. وقال لنفسه: «لا أدري ما الذي أريده منها». وفي هذه اللحظة بالذات، لمحها، كانت تهبط الجادّة إلى جانب فتى طويل مجعّد كان يضع النظّارات، وكانت ترفع نحوه وجهها وتمنحه بسمتها المشرقة. كانا يتحدّثان بحيويّة. وحين رأت ماتيو، انطفأت عيناها، وحيّت رفيقها تحيّة سريعة، ثم عبرت شارع «ذيزيكول» بهيئة مستنيمة، ونهض ماتيو:

ـ مرحبًا إيفيش.

فقالت: ـ صباح الخير.

وكان وجهها في أفضل زينته: كانت قد ردّت خصلاتها الشقراء حتى أنفها، وكان هدبها يهبط حتى عينيها. أمّا في الشتاء، فقد كان الهواء يناثر شعرها ويعرِّي وجنتيها البارزتين الممتقعتين وذلك الجبين المنخفض الذي كانت تدعوه «جبيني الكلموكي». وكانت تبدو سحنة عريضة صفراء طفوليّة وشهوانيّة كالقمر بين غمامتين. أمّا اليوم، فإنّ ماتيو لم يكن يرى إلّا وجهًا مزيّفًا ضيِّقًا نقيًّا كانت تغطِّي به وجهها الحقيقي كقناع مثلَّث. والتفت الشبّان المجاورون لماتيو إليها: وكانوا يفكِّرون: الفتاة الجميلة. ونظر إليها ماتيو بحنان. لقد كان بين هؤلاء جميعًا، الوحيد الذي يعرف أنّ إيفيش كانت بشعة وجلست هادئة مستوحشة. ولم تكن قد طَلَت وجهها بالمسحوق، لأنّ المسحوق كان يتلف البشرة.

وسأل الخادم:

ـ وماذا تطلب السيّدة؟

فابتسمت له إيفيش، وكانت تحبّ أن تُدعى «سيّدة»، ثم التفتت إلى ماتيو متردِّدة، فقال ماتيو:

ـ خذي قدح «بيبرمنت»، فأنتِ تحبِّين ذلك.

فقالت وقد راقها هذا: ـ أحبّ ذلك؟ إذن أريده: (وسألته حين مضى الخادم) وما هذا المشروب؟

ـ إنّه نعنع أخضر.

ـ ذلك الشيء الأخضر اللزج الذي شربته في المرّة السابقة؟ أوه! إنِّني لا أريده. فهو يدبق الفم. إنِّني أنساق دائمًا، فيجب عليّ ألَّا أصغي إليك. إنّ ذوقينا مختلفان.

فقال ماتيو منزعجًا: ـ ولكنّكِ قلت إنَّك تحبِّين هذا؟

ـ صحيح. غير أنِّي فكّرت بعد ذلك، وتذكّرت الطعم. (وارتعشت) لن أشرب منه بعد أبدًا.

فصاح ماتيو ينادي الخادم.

ـ لا، لا. دعه يأتي به، إنّ منظره جميل. كلّ ما هنالك أنّني لن أمسّه. فلست عطشى.

وصمتت. ولم يدر ماتيو ما ينبغي أن يقول لها: نادرة هي الأشياء التي كانت تثير اهتمام إيفيش، ثم إنّه لم يكن راغبًا في الكلام. كانت مارسيل هناك، إنّه لم يكن يراها، ولم يكن يسمِّيها، ولكنّها كانت هناك. أمّا إيفيش، فكان يراها، وكان يستطيع أن يدعوها باسمها أو أن يلمس كتفيها: ولكنّها كانت بمعزل عن الإدراك، بقامتها الدقيقة وعنقها الجميل القاسي، كان يبدو أنّها مطليّة مبرنقة، كأنّها امرأة من تاهيتي مرسومة على لوحة لغوغان، غير قابلة للاستعمال. ستتلفن سارة الساعة، فينادي الخادم: «السيّد دولارو»، وسيسمع ماتيو في آخر لحظة صوتًا أسود: «إنّه يطلب

عشرة آلاف فرنك، لا تنقص فلسًا واحدًا». مستشفى، عمليّة جراحيّة، رائحة أثير، قضايا ماليّة. وجهد ماتيو ليلتفت إلى إيفيش التي كانت قد أغمضت عينيها وكانت تُمرّ إصبعًا خفيفًا على جفنيها. وفتحت عينيها:

ـ لديّ شعور بأنّهما تبقيان مفتوحتين من تلقاء نفسهما. وبين فترة وفترة أغمضهما لأريحهما. هل هما حمراوان؟

ـ كلّا.

ـ إنّها الشمس، إنّ عينيّ تؤلمانني دائمًا في الصيف. وأيّام كهذه، ينبغي ألّا يخرج فيها المرء إلّا حين يهبط الليل، وإلّا فهو لا يدري أين يلتجئ لأنّ الشمس تلاحقه في كلّ مكان. ثم إنّ أيدي الناس لزجة.

ولمس ماتيو بإصبعه، تحت الطاولة، باطن كفّه بالذات: فكان جافًّا. إنّ الآخر، الفتى الطويل المجعّد، هو الذي كانت يداه دبقتين. وكان ينظر إلى إيفيش من غير اضطراب، ويحسّ أنّه مذنب ومتحرِّر، لأنّه كان أقلّ تعلّقًا بها.

ـ أيزعجك أنّي اضطررتك إلى الخروج هذا الصباح؟

ـ على أيّ حال، كان من المستحيل أن ألازم غرفتي.

فسألها ماتيو دهشًا: ولماذا؟

فنظرت إليه إيفيش بنفاد صبر:

ـ أنت لا تدري ما عساه أن يكون بيتٌ للطلّاب. إنّ الفتاة تُحمى فيه حماية حقيقيّة، ولا سيّما في فترة الامتحانات. ثم إنّ المرأة قد أحبّتني، فهي تدخل كلّ لحظة إلى غرفتي بحجج مختلفة، فتلامس شعري، وأنا أكره أن أُلمس.

وكان ماتيو لا يكاد يصغي إليها: فقد كان يعلم أنّها لم تكن تفكّر بما تقوله. وهزّت إيفيش رأسها مغتاظة:

ـ إنّ سمينة «البيت» هذه تحبّني لأنّي شقراء. ويحدث دائمًا الشيء

نفسه فهي ستحتقرني بعد ثلاثة أشهر: ستقول إنِّي مرائيّة.

فقال ماتيو: ـ أنت مرائيّة.

قالت بلهجة طويلة تذكّر بوجنتيها الممتقعتين: ـ طبعًا...

ـ ثم إنَّ الناس ينتهي بهم الأمر إلى ملاحظة أنّك تخفين عنهم خدّيك وأنّك تسبلين عينيك أمامهم كقدِّيسة منافقة.

ـ حسنًا! هل يروق لك أنت أن يُعرف من تكون؟ (وأضافت بشيء من الاحتقار): صحيح أنّك لا تتأثّر بهذه الأمور. أمّا فيما يخصّ نظري إلى الناس مواجهة، فإنِّي لا أستطيع ذلك: إنّ عينيّ تزعجانني على الفور.

قال ماتيو: ـ غالبًا ما أزعجتني في البدء. كنت تنظرين إليّ فوق الجبين، في مستوى الشعر، أنا الذي أخشى كثيرًا أن أصبح أصلع... كنت أحسب أنّك قد لاحظت فجوة مضيئة وأنّك لا تستطعين بعد أن تنزعي عنها نظرك.

ـ إنِّني أنظر إلى الجميع على هذا النحو.

ـ نعم، أو من جانب: هكذا...

ورماها بنظرة خفِّية سريعة. فضحكت، وقد راقها ذلك وأغضبها.

ـ حسبك! لا أريد أن يقلِّدني أحد.

ـ ولكنِّي لم أقصد الخبث.

ـ طبعًا، غير أنِّي أخاف حين تأخذ منِّي تعابيري.

قال ماتيو وهو يبتسم: ـ إنِّي أفهم ذلك.

ـ ليس هذا ما يبدو عليك أنّك تعتقده: فلو كنت أجمل إنسان في الدنيا، لما اختلف الأمر عندي.

وأضافت بلهجة مغايرة:

ـ وددتُ لو أنّ عينيّ لا تُؤلماني إلى هذا الحدّ.

قال ماتيو:

ـ اسمعي، سأقصد صيدليّة لآتيك بقرص. ولكنّي أنتظر مخابرة تلفونيّة. فإذا طلبني أحد، فستكونين لطيفة إذا قلت للخادم بأنّي سأعود على التوّ، فليطلبني مرّة أخرى.

قالت ببرود: ـ لا، لا تذهب، فإنّي أشكرك كثيرًا، ولا فائدة من ذلك. إنّها هذه الشمس.

وصمتا. ففكّر ماتيو في لون من السرور المعذّب «إنّني أبعص نفسي». وكانت إيفيش تملّس تنّورتها بباطن كفّيها وهي ترفع أصابعها قليلاً كما لو أنّها ستضرب أصابع البيانو. كانت يداها أبدًا محمرّتين، لأنَّ جريان دمّها كان رديئًا، وكانت تدعهما على العموم في الهواء وتحرّكهما لتجعلهما تصفرّان. ولم تكونا تفيدانها قطّ للأخذ، وإنّما كانتا صنمين صغيرين خشنين في طرف ذراعيها، تلامسان الأشياء بحركات دقيقة غير ناجزة وتبدوان أقرب إلى تسويتها منهما إلى التقاطها. نظر ماتيو إلى أظافر إيفيش الطويلة المقرّنة، المطليّة بصورة عنيفة، التي تكاد تكون صينيّة: كان يكفي المرء أن يتأمّل هذه الزينة المربكة الطريّة حتى يدرك أنّ إيفيش لم تكن تستطيع أن تصنع شيئًا بأصابعها العشرة. وقد سقط أحد هذه الأظافر، ذات يوم، من تلقاء نفسه، فكانت تحتفظ به في تابوت صغير، وبين فترة وأخرى، كانت تتفحّصه بمزيج من النفور واللّذّة. وقد سبق لماتيو أن رآه: كان محتفظًا بطلائه، وكان يشبه جُعْلاً ميّتًا. «إنّني أتساءل: ما الذي يشغلها، إنّها لم تكن أكثر إزعاجًا ممّا هي الآن. لا بدَّ أنّ السبب امتحاناتها، إلّا أن تكون منزعجة معي: إنّني، في آخر المطاف، رجل كبير».

وقالت إيفيش فجأة بلهجة محايدة:

ـ إنَّ الأمر، بكلّ تأكيد، لا يبدأ هكذا حين يصبح الإنسان أعمى.

فقال ماتيو وهو يبتسم:

ـ لا، بالتأكيد. أنتِ تذكرين ما قاله لك الطبيب في «لاون»: أنت مصابة بطرفٍ من التهاب الملتحمة.

وكان يتكلّم بعذوبة، يبتسم بعذوبة، يشعر أنّه مطليٌّ بالعذوبة: كان ينبغي له وهو مع إيفيش أن يبتسم دائمًا، وأن يأتي حركات عذبة وبطيئة.. كدانيال مع قططه.

قالت إيفيش: ـ إنَّ عينيّ تؤلمانني.. يكفي شيء تافه لذلك... (وتردّدت) إنّني... إنّني أشعر بالألم في أعماق عينيّ. في صميم أعماقهما. ألا يوجد هذا أيضًا في بدء ذلك الجنون الذي كنت تحدِّثني عنه؟

فسألها ماتيو: ـ آه! قصّة ذلك اليوم؟ اسمعي يا إيفيش: في المرَّة الأخيرة كانت القضيّة تتعلَّق بقلبك، كنت تخافين من نوبة قلبيّة. فيا لك من شخص عجيب! لكأنّك بحاجة إلى تعذيب نفسك، ثم تصرِّحين فجأة، في مرَّات أخرى، أَنّك رخصة العود، فيجب أن تختاري.

وكان صوته يخلِّف لديه، في أعماق فمه، مذاق سكَّر.

وكانت إيفيش تنظر عند قدميها نظرة غامضة.

ـ لا بدّ أن يحدث لي شيء.

فقال ماتيو: ـ أعرف ذلك. إنَّ خطّ حياتك قد انكسر؛ ولكنّك قلت لي إنّك لا تعتقدين ذلك حقًّا.

ـ أجل لا أعتقد ذلك حقًّا... وهناك أيضًا أنّي لا أستطيع أن أتصوّر مستقبلي: إنّه مسدود.

وصمتت، فنظر إليها ماتيو في صمت. بلا مستقبل... وفجأة أحسَّ في فمه بمذاقٍ مرّ، وشعر بأنّه كان متعلِّقًا بإيفيش بكلّ قواه. كان صحيحًا أنّه لم يكن لها مستقبل: إيفيش في الثلاثين من عمرها، إيفيش في الأربعين، إنّ ذلك لم يكن ذا معنى. وفكّر: إنّها غير قابلة للحياة. حين

يكون ماتيو وحده، أو حين كان يتكلّم مع دانيال، مع مارسيل، كانت حياته تنبسط أمامه واضحة رتيبة: بضع نساء، بضع رحلات، بضعة كتب. منحدر طويل كان ماتيو يهبطه على مهل، على مهل، بل كان يجد غالبًا أنّ ذلك لم يكن يمضي بسرعة كافية. وفجأة، حين يرى إيفيش، كان يخيّل إليه أنّه يعيش كارثة. كانت إيفيش عذابًا صغيرًا شهوانيًّا وفاجعًا ليس له من غد: إنّها ستذهب، ستصبح مجنونة. ستموت بنوبة قلبيّة، أو أنّ أهلها سيحجزونها في «لاون». ولكن ماتيو لم يكن يطيق أن يعيش من دونها. وتحرّكت يده حركة حيّية: لقد ودّ لو يأخذ ذراع إيفيش فوق المرفق ويضمّها بكلّ قواه. «إنّي أكره أن يمسّني أحد»، وسقطت يد ماتيو. وقال بسرعة:

ـ إنَّ «بلوزتك» جميلة جدًّا يا إيفيش.

وكانت هذه غلطة: حنت إيفيش رأسها بتصلّب وربتت على بلوزتها بهيئة ضيق. كانت تتلقّى التهاني كأنّها إهانات: وكان الأمر كما لو أنّ صورة عنها كانت تُقدُّ بضربات فأس، صورة مشوّهة وباهرة. كانت تخشى أن تؤخذ بها. وهي وحدها تستطيع أن تفكِّر بشخصها كما ينبغي. كانت تفكِّر فيه بلا كلام، وكان ذلك يقينًا صغيرًا رقيقًا، ملاطفة. نظر ماتيو بذلٍّ إلى كتفي إيفيش الهزيلتين، وإلى عنقها المستقيم المستدير. كانت غالبًا ما تقول: «إنّني أشمئزّ من الأشخاص الذين لا يحسّون أجسامهم». وكان ماتيو يحسّ جسمه، ولكنّه يحسّه على أنّه أقرب إلى أن يكون حزمة كبيرة مُربكة.

ـ أما زلتِ راغبة في رؤية صور غوغان؟

ـ أيّة صور؟ آه! المعرض الذي حدّثتني عنه؟ حسنًا بوسعنا أن نذهب إليه.

ـ لا يبدو أنّك راغبة في ذلك.

ـ بلى.

ـ ولكن يجب أن تقولي، يا إيفيش، إذا لم تكوني راغبة في ذلك.

ـ ولكن أنت راغب في ذلك.

ـ أنت تعلمين أنِّي سبق أن ذهبت إليه. وأنا راغب في أن أُريك إيَّاه إذا كان ذلك يسرّك. ولكن إذا لم تكوني حريصة على ذلك، فإنّه لا يهمّني.

ـ في هذه الحالة، أفضِّل أن أذهب إليه في يوم آخر.

قال ماتيو خائب الظنّ: ـ ولكنّ المعرض ينتهي غدًا.

فقالت إيفيش بلهجة رخوة:

ـ فليكن، لا بدّ أن يُعاد هذا المعرض... هذه المعارض تُعاد، أليس كذلك؟

قال ماتيو بعذوبة حانقة:

ـ ها أنت ذي يا إيفيش. قولي إنّك لست راغبة بعد في رؤية المعرض، إنّك تعرفين أنّه لن يُعاد قبل مضيِّ وقت طويل.

فقالت بلطف: طيّب، لا أريد أن أذهب إليه، لأنّ ذلك الامتحان قد خلّف عندي الاشمئزاز. إنّه أمرٌ جهنّمي أن يحملونا على انتظار النتائج هذه الفترة الطويلة.

أليس موعد إعلانها غدًا؟

ـ تمامًا.

وأضافت وهي تلامس بطرف إصبعها كُمّ ماتيو:

ـ يجب ألّا تهتمّ بي اليوم، فلست بعدُ أنا. إنِّني متوقِّفة على الآخرين، وهذا مذلّ. إنّ في ذهني طوال الوقت صورة ورقة صغيرة بيضاء ملصقة على جدار رماديّ. إنّهم يفرضون عليك أن تفكِّر بذلك. حين نهضت هذا الصباح، أحسست بأنِّي أصبحت في الغد، أمّا اليوم فهو يوم لا جدوى منه، يوم محذوف. لقد سرقوه منِّي، ولم يبق لي منه شيء يذكر.

وأضافت بصوت منخفض سريع:

ـ لقد فوّتُّ إعداد درس علم النبات.

فقال ماتيو: ـ فهمت.

وودّ لو يجد في ذكرياته ضيقًا يتيح له أن يفهم ضيق إيفيش. ربّما كان ذلك عشيّة امتحان «الأغريغاسيون»... كلّا، إنّ الأمر لم يكن مشابهًا في أيّ حال. لقد عاش تلك الحالة هادئًا آمنًا بلا أخطار. أمّا الآن، فقد كان يحسّ أنّه رخص العود، وسط عالم مهدِّد، ولكن ذلك كان عَبْرَ إيفيش.

قالت إيفيش:

ـ إذا نجحت في الامتحان التحريري، فسأشرب قليلاً قبل أن أذهب إلى الشفهي.

فلم يجب ماتيو. وردّدت إيفيش:

ـ قليلاً جدًّا.

ـ لقد قلتِ ذلك في شباط، قبل أن تذهبي لتأدية الامتحان الشفهي، وكان الأمر في آخر المطاف أنّكِ شربتِ أربعة أقداح من الروم، وكنتِ ثملة تمامًا.

قالت بلهجة مزيّفة: ـ الحقّ أنّني لن أنجح في التحريري.

ـ هذا مفهوم، ولكن لنفرض أنّك نجحت؟

ـ لن أشرب عند ذاك.

ولم يلحّ ماتيو: كان على يقين من أنّها ستتقدّم إلى الامتحان الشفهي وهي ثملة: «ما كنت أنا الذي أفعل ذلك، فقد كنت شديد الحذر». وكان حانقًا على إيفيش ومشمئزًّا من نفسه. وأتى الخادم بقدح فملأه إلى النصف بالنعنع الأخضر.

ـ سأعطيك في الحال دلو الثلج.

قالت إيفيش: ـ شكرًا.

وكانت تنظر إلى القدح، وكان ماتيو ينظر إليها. وكانت رغبة عنيفة غامضة قد غمرته: أن يكون، لمدّة لحظة، هذا الوعي المهووس الممتلئ براحته بالذات، أن يشعر من الداخل بهاتين الذراعين الطويلتين الدقيقتين، أن يحسّ، لدى الثنية، بشرة الساعد تلتصق كالشَّفة ببشرة الذراع، أن يحسّ هذا الجسم وجميع القبلات الصغيرة المتحفِّظة التي يمنحها لنفسه بلا انقطاع. أن أكون إيفيش دون أن أكفّ عن أن أكون أنا. وأخذت إيفيش الدلو من يديْ الخادم، ووضعت مكعّب ثلج في قدحها. وقالت:

ـ لم آخذه لأشرب، وإنّما هو جميل المنظر.

وطرفت بعينيها قليلاً ثم ابتسمت بسمة طفوليّة.

ـ إنّه جميل.

ونظر ماتيو إلى القدح بغيظ، وجهد في مراقبة تحرّك المائع تحرّكًا كثيفًا مرتبكًا، وبياض قطعة الثلج العكر. وعبثًا كان ذلك. كان القدح في نظر إيفيش شهوة صغيرة لزجة خضراء تدبقها حتى أطراف أصابعها، وأمّا في نظره، فلم يكن شيئًا. بل كان أقلّ من لا شيء: قدحًا فيه نعنع. وكان بوسعه أن يفكِّر بما كانت تحسّه إيفيش، ولكنّه لم يكن يشعر بشيء قطّ، كانت الأشياء في نظرها ألوانًا من الحضور الخانق الضالع في الذنب، دوّامات واسعة تخترقها حتى اللَّحم، ولكن ماتيو كان ينظر إليها دائمًا عن بعد. ورمى إليها بنظرة وتنهّد: لقد كان متأخِّرًا، على مألوف عادته؛ إنَّ إيفيش قد كفّت عن النظر إلى القدح، وكانت تبدو حزينة، وكانت تضغط بعصبيّة على إحدى خصلات شعرها.

ـ أريد سيكارة.

وتناول ماتيو علبة «الغولد فلاك» من جيبه، ومدّها لها:

ـ سأشعلها لك.

ـ شكرًا، أفضّل أن أشعلها بنفسي.

وأشعلت السيكارة وسحبت منها بعض المجّات. وكانت قد أدنت يدها من فمها وأخذت تتسلّى ـ بهوس ـ بأن تُركض الدخان في باطن كفِّها. وأوضحت كأنّما توضح لنفسها:

ـ أودّ لو كان الدخان كأنّما يخرج من يدي. سيكون شيئًا ظريفًا: يد تنفث الضباب.

ـ إنّ هذا لا يمكن. فالدخان يسرع أكثر ممّا ينبغي.

ـ أعرف ذلك، وهو ما يزعجني، ولكنِّي لا أستطيع أن أكفّ، إنِّي أحسّ نَفَسي يدغدغ يدي، وهو يمرّ في الوسط تمامًا، فكأنّها مفصولة بجدار إلى قسمين.

فضحكت ضحكة قصيرة وصمتت، وكانت ما برحت تنفخ على يدها مستاءة، عنيدة. ثم ألقت بسيكارتها وهزّت رأسها، وبلغت رائحة شعرها منخري ماتيو. وكانت رائحة حلوى وسكّر معطّر بالونيلة، لأنّها كانت تغسل شعرها بصفار البيض، ولكن عطر هذه الحلوى كان يخلِّف مذاقًا شهوانيًّا.

أخذ ماتيو يفكِّر في سارة.

وسألها: ـ بمَ تفكّرين يا إيفيش؟

فلبثت لحظة فاغرة الفم، مضطربة، ثم استعادت هيأتها التأمّليّة، فانغلق وجهها من جديد. وأحسّ ماتيو بأنّه متعبٌ من فرط النظر إليها، وكان يشعر بالألم في زاوية عينيه. كرّر سؤاله:

ـ بمَ تفكِّرين؟

فانتفضت إيفيش: ـ إنِّني... إنّك تسألني هذا السؤال طوال الوقت، أنا لا أفكِّر بشيء محدَّد. تلك هي أمورٌ لا يمكن قولها، فهي لا تتّخذ شكلاً.

ـ ولكن مع ذلك؟

ـ نعم، كنت أنظر مثلاً إلى هذا الرجل القادم. ماذا يريدني أن أقول؟ يجب أن أقول له إنّه سمين، وهو يمسح جبينه بمنديل، ويرتدي ربطة عنق جاهزة... إنّه طريف أن تقسرني على أن أسرد ذلك (قالتها فجأة بخجل وغيظ) إنّه لا يستحقّ أن يُقال.

ـ بلى، بالنسبة لي، لو كان بوسعي أن أتمنّى شيئًا، لتمنّيت أن تكوني مضطرة إلى التفكير بصوت عال.

وابتسمت إيفيش بالرّغم منها، وقالت:

ـ هذا اعتراف. إنّ الكلمة لم تُصنع لمثل هذا.

ـ هذا طريف، فأنت تكنِّين للكلمة احترامًا يشبه احترام المتوحِّشين. فيبدو عليك الإيمان بأنّها لم تُصنع إلّا لإعلان الموتى والزيجات أو للنطق بالقدّاس. والحقّ أنّك لم تكوني تنظرين إلى الأشخاص، يا إيفيش، لقد رأيتكِ كنتِ تنظرين إلى يدك، ثم نظرت إلى قدمك. ثم إنِّي أعرف بما تفكِّرين.

ـ ولماذا إذن تسألني عنه؟ لا ينبغي للإنسان أن يكون داهية ليحزره، كنت أفكّر بذلك الامتحان.

ـ أنتِ تخافين أن تسقطي، أليس كذلك؟

ـ طبعًا، أخاف أن أسقط. أو بالأحرى لا. لست خائفة. فأنا أعلم أنِّي ساقطة.

واستشعر ماتيو في فمه من جديد مذاق كارثة. إذا سقطت، فلن أراها بعد. وستكون ساقطة بالتأكيد: إنّ هذا أمر بديهيّ.

وقالت إيفيش يائسة:

ـ إنِّني لا أريد العودة إلى «لاون». فإذا عدت إليها وأنا ساقطة فلن أخرج منها أبدًا. لقد قالوا لي إنّ هذه هي فرصتي الأخيرة.

وعادت تضغط خصلات شعرها. وقالت متردِّدة:

ـ لو كانت لديّ شجاعة. . .

فقال ماتيو قلقًا: ـ ماذا كنتِ تفعلين؟

ـ أيّ شيء. كلّ شيء ولا العودة إلى هناك. إنّني لا أريد أن أقضي حياتي هناك، لا أريد.

ـ ولكن سبق أن قلتِ لي إنّ أباكِ ربّما باع المنشر قبل عام أو عامين، وأنّ الجميع سيأتون للإقامة في باريس.

قالت إيفيش وهي تدير إليه عينين تقدحان شرر الغضب:

ـ تطلبون منّي مزيدًا من الصبر! هكذا أنتم جميعًا. وددت لو رأيتكم هناك! عامان في ذلك الكهف، أصبر عامين؟! ألا يمكنك أن تضع في رأسك أنّهم إنّما يسرقون منّي عامين؟

وأضافت بغضب:

ـ ليست لي إلّا حياة واحدة. إنّ من يسمعك تتكلّم على هذا النحو يظنّ أنّك تعتقد نفسك خالدًا. إنّ عامًا، في نظرك، يمكن أن يعوَّض! (وطفرت إلى عينيها الدموع) ليس صحيحًا أنّ هذا يعوّض. . إنّ شبابي هو الذي يفرّ هناك قطرة قطرة. إنّي أريد أن أعيش على التوّ، فأنا لم أبدأ وليس لي وقت للانتظار، لقد بدأت أشيخ، فأنا في الحادية والعشرين.

قال ماتيو: ـ أرجوكِ يا إيفيش، إنّك تخيفينني. حاولي مرّة واحدة على الأقلّ أن توضحي لي كيف نجحت في أعمالك التطبيقيّة. أنت تارة مسرورة وتارة يائسة.

فقالت إيفيش بلهجة كئيبة: ـ لقد سقطت في كلّ شيء.

ـ كنت أظنّ أنّك نجحت في الفيزياء.

قالت بسخرية:

ـ ماذا تقول! ثم إنّ الكيمياء كانت تدعو إلى الرثاء. إنّني لا أستطيع أن أحشو رأسي بمقادير الجرعات. . . فما أقسى ذلك!

ـ ولكن لماذا اخترت ذلك؟

ـ ماذا؟

ـ الفيزياء والكيمياء وعلم الحياة.

فقالت بلهجة متوحِّشة:

ـ كان لا بدَّ من الخروج من «لاون».

فأتى ماتيو بحركة عجز، وصمتا. خرجت امرأة من المقهى ومرَّت أمامهما. وكانت جميلة، ذات أنف صغير جدًّا في وجه أملس، وكان يبدو عليها أنّها تبحث عن شخص ما. بلغ عطرها أنف إيفيش: فرفعت رأسها الكئيب على هينة ثم رأتها فتغيّرت سحنتها.

وقالت بصوت منخفض عميق: ـ يا للمخلوقة الرائعة!

فنفر ماتيو من هذا الصوت.

جمدت المرأة وهي تطرف بعينيها للشمس، وكان عمرها يقدَّر بالخامسة والثلاثين، وكانت ساقاها الطويلتان يشفّ عنهما نسيج ثوبها الخفيف، ولكن ماتيو لم يكن راغبًا في رؤيتهما، وإنّما كان ينظر إلى إيفيش. كانت إيفيش قد أصبحت قبيحة تقريبًا، وكانت تضغط بقوّة يديها فيما بينهما. لقد قالت لماتيو ذات يوم: «إنّ الأنوف الصغيرة ترغِّبني في عضِّها». وانحنى ماتيو قليلاً فرأى ثلاثة أرباع وجهها، وكانت تبدو مستنيمة قاسية، ففكّر بأنّها كانت راغبة في أن تعضّ.

قال ماتيو بعذوبة: ـ إيفيش.

فلم تجب. وكان يعلم أنّها لا تستطيع أن تجيب: فهو لم يكن موجودًا بعد في نظرها، وكانت وحيدة.

ـ إيفيش!

في مثل هذه اللَّحظات كان يشعر بأنّه أشدّ تعلّقًا بها، حين تسكن جسمَها الصغير اللذيذ الذي يكاد يتصنّع اللطافة قوّةٌ أليمة، حبٌّ للجمال

ملتهب متعكِّر، فاقد الرونق. وفكّر: لست جميلاً. وأحسّ بدوره أنّه وحيد.

وذهبت المرأة. وتبعتها إيفيش بعينيها وتمتمت بسورة من الغضب:

ـ هناك لحظات أودّ فيها لو كنت رجلاً.

وندّت عنها ضحكة صغيرة جافّة، ونظر إليها ماتيو بحزن. وصاح الخادم.

ـ السيّد دولارو مطلوب على التلفون.

فقال ماتيو: ـ هأنذا.

ونهض.

ـ اعذريني. إنّها سارة غوميز.

فابتسمت له إيفيش ببرودة، ودخل المقهى وهبط الدرج.

ـ السيّد دولارو؟ الحجرة الأولى.

وتناول ماتيو السمّاعة، ولم يكن باب الحجرة ينغلق.

ـ آلو، سارة؟

فقال صوت سارة المغنّ:

ـ مرحبًا مرَّة أخرى. لقد سُوِّي الأمر.

ـ آه، إنّني مسرور.

ـ ولكن يجب أن تعجِّل: إنّه مسافر يوم الأحد إلى الولايات المتّحدة، وهو يريد أن يُجري ذلك بعد غدٍ على الأبعد، ليكون لديه الوقت لمراقبتها قليلاً في الأيّام الأولى.

ـ حسنًا... إذن سأخبر مارسيل هذا اليوم بالذات. غير أنّه يفاجئني بعض الشيء، فيجب أن أجد المال. كم يريد؟

فقال صوت سارة:

ـ آه! إنّني متأسّفة. هو يريد أربعة آلاف نقدًا. وأقسم لك بأنّني ألححت، وقلت إنّك كنت متضايقًا، ولكنّه لم يرد أن يعرف شيئًا.

وأضافت وهي تضحك: ـ إنّه يهودي قذر!

وكانت سارة تفيض شفقة مكتومة، ولكنّها حين تبادر إلى تأدية خدمة ما، تصبح متوحّشة ومنشغلة كأخت من أخوات الإحسان. أبعد ماتيو السمّاعة قليلاً، وكان يفكّر: أربعة آلاف فرنك، ثم يسمع ضحكة سارة تفرقع على القطعة الصغيرة السوداء، لقد كان ذلك كابوسًا.

ـ من هنا إلى يومين؟ حسنًا... سوف... سوف أتدبّر الأمر، شكرًا يا سارة، إنّك جوهرة. هل ستكونين في البيت هذا المساء، قبل العشاء؟

ـ طوال النهار.

ـ حسنًا. سأمرّ. هناك شؤون أخرى يجب تسويتها.

ـ إلى هذا المساء.

وخرج ماتيو من الحجرة.

ـ أريد قسيمة للتلفون يا آنسة. أوه! ولكن لا، لا حاجة بي إلى ذلك.

رمى عشرين فلسًا في صحن، ورقي الدرج على مهل. لم تكن به حاجة إلى الاتّصال بمارسيل قبل أن يسوّي قضيّة المال هذه. «سأذهب ظهرًا للقاء دانيال». وعاد يجلس بالقرب من إيفيش، ونظر إليها بلا حنان. قالت بلطف:

ـ لقد ذهب عنّي الصداع.

فقال ماتيو: ـ إنّني مسرور بذلك.

وكان قلبه مليئًا بالسخام.

نظرت إليه إيفيش من جانب، عبر أهدابها الطويلة. وابتسمت بسمة مختلطة ملاطفة.

ـ بوسعنا . . بوسعنا مع ذلك أن نذهب لرؤية معرض غوغان.

فقال ماتيو بلا اندهاش: كما تشائين.

ونهضا. لاحظ ماتيو أنّ قدح إيفيش كان فارغًا، صاح:

ـ تاكسي.

قالت إيفيش: ـ ليس هذا التاكسي. . . إنّه مكشوف وسيكون الهواء في وجهينا.

فقال ماتيو للسائق: ـ لا، لا، تابع سيرك، فإنّي لم أكن أناديك أنت.

وقالت إيفيش: ـ أوقف هذا التاكسي، انظر ما أجمله! لكأنّه عربة القربان المقدّس! ثم إنّه مغلق.

توقّف التاكسي فصعدت إيفيش. وفكّر ماتيو: «سوف أطلب ألف فرنك زيادة من دانيال ما دمت سأستدين منه، إنّ ذلك يتيح لي الإنفاق حتى آخر الشهر».

ـ غاليري ديبوزار، شارع سانت أونوريه.

وجلس صامتًا بالقرب من إيفيش. وكانا منزعجين، كلاهما. رأى ماتيو، بين قدميه، ثلاث سكاير محترقة إلى النصف، ذات أطراف مذهّبة.

ـ كان في هذا التاكسي من كان ثائر الأعصاب.

ـ ولماذا؟

فأراها ماتيو السكاير. قالت إيفيش:

ـ إنّها امرأة. فهناك آثار حُمرة.

فابتسما وصمتا، وقال ماتيو:

ـ ذات مرّة، وجدت في تاكسي مئة فرنك.

ـ ولا بدّ أنّك سررت بذلك.

ـ أوه! أرجعتها إلى السائق.

قالت إيفيش: ـ عجبًا! لو كنت أنا، لاحتفظت بها. فلماذا فعلت ذلك؟

فقال ماتيو: ـ لا أدري.

عبر التاكسي ساحة سان ميشال، وكان ماتيو يقول: «انظري ما أشدّ اخضرار السين» ولكنّه لم يقل شيئًا. وقالت إيفيش فجأة:

ـ كان بوريس يفكِّر بأنّنا سنذهب ثلاثتنا هذا المساء إلى «سومطرا»، أودّ لو...

وكانت قد لفتت رأسها، ونظرت إلى شعر ماتيو وهي تمدّ فمها بصورة رقيقة. لم تكن إيفيش مغناجة بالذات، ولكنّها كانت تتّخذ بين الفينة والفينة هيئة حنان، رغبة منها بأن تحسّ وجهها ثقيلاً عذبًا كالثمرة. وحكم ماتيو عليها بأنّها مزعجة وغير لائقة. وقال:

ـ يسرّني أن أرى بوريس وأن أكون معك، غير أنّ ما يزعجني قليلاً هو وجود لولا كما تعلمين. إنَّها لا تستطيع أن تهضمني.

ـ وماذا في ذلك؟

وساد صمت، كأنّهما قد تمثّلا في وقت واحد أنّهما كانا رجلاً وامرأة، مسجونين معًا في تاكسي. وقال لنفسه بانزعاج: «ينبغي ألّا يكون ذلك». واستطردت إيفيش:

ـ لا أرى أنّ لولا تستحقّ أن يُهتمّ بها. إنَّها جميلة وهي تغنِّي جيّدًا، وهذا كلّ ما في الأمر.

ـ إنِّني أجدها قريبة للنفس.

ـ طبعًا. إنَّ هذه هي أخلاقيّتك. أنت تريد دائمًا أن تكون كاملاً. فما إن يزدريك الناس حتى تجهد لاكتشاف مزايا لديهم. (وأضافت) إنِّني لا أجدها قريبة للنفس.

ـ ولكنّها لطيفة معك.

ـ لا يسعها أن تكون غير ذلك، ولكنّي لا أحبّها، فهي تمثّل.

رفع ماتيو حاجبيه وقال: ـ تمثّل؟ إنّ هذا هو آخر شيء آخذه عليها.

ـ من الغريب أنّك لم تلاحظ ذلك: إنّها تطلق تنهّدات أكبر منها ليظنّ الناس أنّها يائسة. ثم تطلب لنفسها الدسم.

وأضافت بخبث خفيّ:

ـ لقد كنت أظنّ أنّ البائسين لا يبالون كثيرًا بأن يموتوا: ويدهشني دائمًا أن أراها تحسب نفقاتها فلسًا فلسًا وتوفّر المال.

ـ إنّ هذا لا يمنع أن تكون يائسة. فكذلك يفعل البشر الذين يشيخون: حين يشمئزّون من أنفسهم ومن حياتهم، يفكّرون بالمال ويعتنون بأنفسهم.

فقالت إيفيش بجفاف:

ـ إذن، ينبغي ألّا يشيخ المرء أبدًا.

فنظر إليها نظرة ضيق وسارع يضيف:

ـ أنت على حقّ، فليس جميلاً أن يشيخ المرء.

قالت إيفيش: ـ أمّا أنت، فليست لك سنّ، ويخيّل إليّ أنّك كنت دائمًا كما كنت، إنّك تتمتّع بشباب الجماد. وأحاول أحيانًا أن أتصوّر كيف كنت في طفولتك، ولكن يعجزني ذلك.

فقال ماتيو: ـ كانت لي خصلات شعر.

ـ أمّا أنا، فأتصوّر أنّك كنت دائمًا كما أنت اليوم، أقصر قليلاً.

ولا بدّ أنّ إيفيش لم تعرف هذه المرّة أنّها كانت تبدو رقيقة. وشاء ماتيو أن يتكلّم، ولكن كان في حنجرته لون غريب من الدغدغة، وكان خارج نفسه. كان قد خلّف وراءه مارسيل وسارة وممرّات مستشفى لا

تنتهي كان يعبرها منذ الصباح، لقد كفّ عن أن يكون في أيّ مكان وكان يشعر بأنّه حرّ، وكان هذا النهار الصيفي يلامسه بكتلته الكثيفة الحارّة، وكانت به رغبة لأن يستسلم له بكلّ ثقله. خُيِّل إليه لحظة أخرى أنّه كان معلّقًا في الفراغ، مع إحساس بالحرِّيّة لا يُحتمل، ثم مدّ ذراعه فجأة، فأخذ إيفيش من كتفيها وجذبها إليه. وتركته إيفيش يفعل وهي متصلِّبة، كتلة واحدة، كما لو أنّها كانت تفقد توازنها. ولم تقل شيئًا. كان يبدو عليها مظهر الحياد.

كان التاكسي قد سلك شارع ريفولي، وكانت قناطر اللوفر تتطاير ثقيلةً عبر الزجاج، كأنّها حمامات كبيرة. وكان الطقس حارًّا، وماتيو يحسّ جسمًا حارًّا في جنبه، وعبْر المرآة الأماميّة كان يرى أشجارًا وعلمًا مثلّث الألوان في رأس صارٍ. وتذكّر حركة رجل رآه مرّة في شارع «موفتار»، رجلٍ أنيق المظهر، ذي وجه رماديٍّ، وكان قد اقترب من مقلاةٍ في الطريق، فنظر طويلاً إلى قطعة من لحم باردٍ موضوعة في صحن، حيث تُعرض المآكل، ثم مدّ يده وتناول قطعة اللَّحم، وكان يبدو عليه أنّه يجد ذلك في غاية البساطة، فلا بدّ أنّه كان يشعر بأنّه هو أيضًا حرّ. وقد صاح البائع، فاستاق شرطيٌّ ذلك الرجل الذي بدا مندهشًا. وظلّت إيفيش على صمتها.

فكّر ماتيو بغيظ: «إنّها تدينني».

وانحنى، ولكي يعاقبها، لامس بطرف شفتيه فمًا باردًا ومغلقًا؛ وكان مصدومًا. ظلّت إيفيش صامتة. وحين رفع رأسه رأى عينيها فتلاشت فرحته الطاغية. وفكّر: «رجل متزوِّج يداعب فتاة في تاكسي» وسقطت ذراعه، ميّتةً، متزغبرة. وانتصب جسم إيفيش في نوسانٍ آلي كرقّاصٍ أُبعد عن موضع توازنه. قال ماتيو في نفسه: «انتهى الأمر. ولا مجال بعد لإصلاحه». وكان يكوِّر ظهره، ويودّ لو يذوب. رفع شرطيٌّ عصاه، فتوقّف

التاكسي. وكان ماتيو ينظر أمامه باستقامة، ولكنّه لم يكن يرى الشجر، كان ينظر إلى حبِّه.

كان ذلك حبًّا. إنّه الآن حبّ. وفكّر ماتيو: «ماذا فعلت؟» لخمس دقائق خلت، لم يكن ذلك الحبّ موجودًا، كان بينهما عاطفة نادرة وثمينة، لم يكن لها اسم، ولم تكن تستطيع أن تعبِّر عن نفسها بالحركات. وهو قد قام بحركة، الحركة الوحيدة التي ما كان ينبغي له أن يقوم بها ـ والحقّ أنّه لم يتقصّدها، وإنّما جاءت من تلقاء نفسها. حركة ظهر هذا الحبّ بعدها أمام ماتيو، كشيء ضخم مزعج ومبتذَل. ستفكِّر إيفيش بعد الآن بأنّه كان يُحبّها، وستفكِّر: إنّه كالآخرين، بعد الآن سيحبّ ماتيو إيفيش، كسائر النساء اللواتي أحبّهنّ. «ما الذي تفكِّر به؟» كانت جالسة إلى جانبه متصلِّبة صامتة، وكانت هذه الحركة بينهما، إنّني أكره أن يمسّني أحد، هذه الحركة الخرقاء الرقيقة، التي كانت قد اكتسبت عناد الأشياء الماضية، ذلك العناد الذي لا يُلمس. «إنّها تغلي غضبًا، إنّها تحتقرني، إنّها تفكِّر بأنّي كالآخرين». وفكّر بيأس: ليس هذا ما كنت أبغيه منها. ولكنّه لم ينجح في أن يتذكّر ما الذي كان يريده قبلاً. كان الحبّ هناك، صادقًا مخلصًا، برغباته البسيطة ومسالكه المبتذلة، وكان ماتيو هو الذي ولّده حرًّا كلّ الحرِّية. وفكّر بقوّة: «ليس هذا صحيحًا، فأنا لا أشتهيها، ولم أشتهها قطّ». ولكنّه كان مدركًا أنّه سيشتهيها، فإنّ الأمور كلّها تنتهي هناك. سوف أنظر إلى ساقيها وإلى صدرها، ثم.. ذات يوم... ورأى فجأة مارسيل متمدِّدة على السرير، عارية كلَّها، مغمضة العينين: كان يكره مارسيل.

وكان التاكسي قد توقّف، فتحت إيفيش الباب وهبطت إلى الأرض. ولم يتبعها ماتيو على التوّ. كان يتأمّل بعين صريحة هذا الحبَّ الجديد كلّ الجدّة، والقديمَ مع ذلك، هذا الحبّ لدى رجل متزوِّج، خجول ومداور، هذا الحبّ المذلّ لها، الذليل مسبقًا، وكان يتقبّله كأنّه قدر. وهبط

أخيرًا، فدفع ولحق بإيفيش التي كانت تنتظره تحت الباب الكبير. «ليتها تستطيع أن تنسى». ورمى إليها بنظرة عجلى، فألفى القسوة على وجهها. وفكّر: «إذا وضعنا الأمور في أفضل مواضعها نرى أنّ شيئًا ما قد انتهى بيننا». ولكن لم تكن لديه رغبة بالامتناع عن حبِّها. ودخلا المعرض من غير أن يتبادلا كلمة.

٥

«الملاك الأعظم!» تثاءبت مارسيل، واستوت قليلاً، ونفضت رأسها، وكانت أوّل فكرة لها: «إنَّ الملاك الأعظم يأتي هذا المساء». وكانت تحبّ زياراته العجيبة، ولكنّها كانت، ذلك اليوم، تفكِّر بها من غير سرور. كان في الجوّ حولها هولٌ ثابت، هولٌ ظُهريّ. وكانت حرارة متدرِّجة تملأ الغرفة، وكانت قد قامت بمهمّتها في الخارج، وخلَّفت إشراقها في ثنايا الستار وأسِنَت هناك، جامدة كئيبة كأنّها قدر. «لو كان يدري، ما أشدّ نقاوته، أنّني سوف أنفِّره. وكانت قد جلست على حافّة السرير، كالليلة البارحة، حين كان ماتيو عاريًا إزاءها، وهي تنظر إلى أصابع رجليه باشمئزاز ضجر، وكانت عشيّة الأمس ما تزال هنا، دقيقة جدًّا، بنورها الوردي الميِّت، كأنّها رائحة قد بردت. لم أستطع... لم أستطع أن أقول له». وكان يمكن أن يقول: «حسنًا! سنتدبّر الأمر!» بلهجة حيّة مرحة، وكأنّه يلتهم عقارًا. وكانت تعلم أنّها ما كان لها أن تحتمل هذا الوجه، وقد بقي ذلك في حنجرتها. وفكّرت: «الظهر!» وكان السقف رماديًّا كالفجر الكاذب، ولكنّ الحرارة كانت حرارة ظُهريّة. كانت مارسيل تنام متأخِّرة ولا تعرف بعدُ الإصباح، وكان يُخيَّل إليها أحيانًا أنّ حياتها قد توقّفت ذات يوم ظُهرًا، وأنّها كانت ظُهرًا أبديًّا مسترخيًا على الأشياء، ممطرًا، وبلا أملٍ، وغير مجدٍ إلى حدٍّ بعيد. وفي الخارج، كان النهار المشرق، والتبرُّج

المنبسط. كان ماتيو يسير في الخارج، في النثار الحيّ المرح لذلك النهار المبتدئ بدونها، والذي كان قد أصبح له ماضٍ. وفكّرت بغير شعور صداقة: «إنّه يفكّر بي. إنّه ينشغل». وكانت منزعجة لأنّها كانت تتخيّل تلك الشفقة القويّة تحت الشمس المشرقة، شفقة الإنسان السليم المنهمكة المرتبكة. كانت تحسّ أنّها بطيئة لزجة، ما تزال ملطّخة بآثار النوم، على رأسها تلك القبّعة النحاسيّة، وفي فمها مذاق نشّافة، وفي جانبها ذلك الدفء، وتحت ذراعيها، في رأس الشعيرات السود، تلك الجواهر من البرد. وكانت بها رغبة للتقيّؤ، ولكنّها كانت تتماسك: إنَّ نهارها لم يبدأ بعد، إنّه هناك، رابضٌ تجاه مارسيل، في توازن غير مستقرّ، وإنّ أيّة حركة غير متوازنة، أقلّ حركة، ستجعله ينهار كجرف ثلجيّ. وأخذتها ضحكة قاسية: «حرّيّته!» حين يستيقظ المرء في الصباح، متعكّر القلب، وأمامه خمس عشرة ساعة يقتلها قبل أن يتمكّن من العودة إلى النوم، فماذا يجديه أن يكون حرًّا؟ «إنَّ الحرّيّة لا تعين المرء على الحياة» وكانت ريشات صغيرة دقيقة مطليّةٌ بالمقر تداعب أعماق حنجرتها، ثم إنّ نفورًا من كلّ شيء تجمّع كتلة على لسانها، كان يشدّ شفتيها إلى خلف. «إنّني محظوظة، فيبدو أنّ هناك نساء يتقيّأن طوال النهار، في الشهر الثاني، أمّا أنا، فأقيء قليلاً في الصباح، وأجدني بعد الظهر متعبة، ولكنّني أظلّ صامدة، وقد عرفت أمّي نساء لم يكنّ يطقن رائحة التبغ، وليس ينقصني بعد غير هذا».

ونهضت فجأة وهرعت إلى المغسلة، فقاءت ماء مزبدًا عكرًا يشبه بياض بيضة مخفوقة قليلاً. وتشبّثت مارسيل بطرف المغسلة الخزفيّة ونظرت إلى المائع المنتفخ بالهواء: إنّه في نهاية المطاف يشبه المني. وراودتها بسمة صفراء وتمتمت «ذكرى حبّ». ثم ساد صمت معدنيّ كبير في رأسها وابتدأ نهارها. لم تكن تفكّر بعد في شيء، فأمرّت يدها في شعرها، وانتظرت: «إنّني في الصباح أقيء دائمًا مرّتين» ثم تمثّلت فجأة وجه ماتيو، وهيئته الساذجة المقتنعة حين قال: هل نجهضه؟ واخترقها برقٌ من الحقد.

واقترب القيء. وفكّرت أوّلاً بالزبدة فأخذها الاشمئزاز، وكان يخيّل إليها أنّها تمضغ قطعة من الزبدة صفراء وزنخة، ثم أحسّت بما يشبه ضحكة كبيرة داخل حنجرتها. فانحنت فوق المغسلة. كان خيط طويل يتدلّى من شفتيها، وكان لا بدّ لها من أن تسعل لتتخلّص منه. ولم يكن ذلك ينفّرها. ومع هذا، فقد كانت سريعة في النفور من نفسها، فحين أصيبت في الشتاء الماضي بالإسهال، لم تكن تريد أن يمسّها ماتيو بعد، وكان يخيّل إليها طوال الوقت أنّها كانت ذات رائحة. ونظرت إلى البلغم الذي كان يتسرّب على مهل إلى ثقب التفريغ، تاركًا آثارًا ملتمعة لزجة كأنّها البزّاق. وقالت بصوت منخفض: «طريف! طريف!» ولم يكن ذلك ينفّرها: لقد كان هذا من الحياة. كبرعمات الربيع اللزجة، لم يكن ذلك أبعث على النفور من النسغ الأحمر الزكيّ الذي يطلي البراعم. «ليس هذا ما ينفّر» وأجرت قليلاً من الماء لتنظيف الطست، ونزعت قميصها بحركات رخوة. وفكّرت: «لو كنت حيوانًا لتركوني وشأني» وكان بوسعها أن تستسلم لهذا الاسترخاء الحيّ، وأن تستحمّ فيه كما لو أنّها وسط تعب كبير سعيد. إنّها لم تكن حيوانًا. «هل نجهضه؟» إنّها تشعر، منذ عشيّة الأمس، بأنّها كانت مطاردة.

وكانت المرآة تعكس صورتها محاطةً بإشعاعات رصاصيّة. اقتربت منها، ولم تنظر إلى كتفيها ولا إلى نهديها. إنّها لم تكن تحبّ جسمها. ونظرت إلى بطنها، وإلى حوضها الواسع الخصيب. لسبع سنوات خلت، ذات صباح ـ وكان ماتيو قد قضى الليل معها، وكانت هي المرّة الأولى ـ كانت قد اقتربت من المرآة بهذا الاندهاش المتردِّد نفسه، وكانت آنذاك تفكّر: «صحيح إذن أنّ بوسع المرء أن يحبّني!» وكانت تتأمّل بشرتها الملساء الحريريّة، كأنّها هي قطعة نسيج، ولم يكن جسمها إلّا سطحًا، لا شيء إلّا سطحًا مجعولاً ليعكس ألعاب النور العقيمة، وليتغضّن تحت الملامسات كالماء تحت الريح. إنّها لم تكن اليوم تلك البشرة نفسها:

كانت تنظر إلى بطنها فتجد إزاء غزارة هذه البراري الغذائيّة الهادئة إحساسًا سبق أن راودها إذ كانت صغيرة وهي ترى أثداء النساء اللواتي كنّ يرضعن أولادهنّ في حديقة اللوكسمبورغ: فقد كان وراء الخوف والاشمئزاز، نوعٌ من الأمل، وفكّرت: «إنّه هنا». في هذا البطن كانت حبّة فريز دمويّة صغيرة تعجّل لتحيا، في سرعة بريئة، حبّةُ فريز دمويّة بليدة كلّ البلادة لم تبلغ بعد أن تكون حيوانًا، وسيسقطونها بطرف سكّين. «هناك أخريات، في هذه الساعة، ينظرن إلى بطونهنّ ويفكّرن أيضًا: إنّه هنا. ولكن هؤلاء فخورات». وهزّت كتفيها: أجل، إنّه مجعول للأمومة، هذا الجسم الذي كان يتفتّح بكيفيّة غير معقولة. ولكنّ الرجال قد قرّروا في ذلك شأنًا آخر. سوف تقصد تلك العجوز: لم يكن لها إلّا أن تتخيّل أنّه ورمٌ ليفي. «والحقّ أنّه في هذه الساعة ليس إلّا ورمًا ليفيًّا». ستقصد العجوز، وسترفع ساقيها في الهواء وسوف تحكّ العجوز بآلتها ما بين فخذيها. ثم يكفّ الحديث عن ذلك إلى الأبد. ولا يكون بعد إلّا ذكرى مقيتة يملك جميع الناس أمثالها في الحياة. وستعود إلى غرفتها الورديّة، وستستأنف القراءة، والتألّم في الأحشاء، ويستمرّ ماتيو في رؤيتها أربع ليال في الأسبوع، وسيعاملها فترة أخرى بلطف ورقّة، كأمّ صغيرة، وحين يضاجعها يضاعف احتياطاته، وسوف يأتي أيضًا دانيال، دانيال الملاك الأعظم، بين فترة وأخرى... ماذا! إنّها فرصة قد فاتتِ... وفاجأت عينيها في المرآة، وانفتلت بحيويّة: إنّها لم تكن تريد أن تكره ماتيو. وفكّرت: «لقد آن لي أن أبدأ زينتي».

ولكنّها لم تكن تملك الشجاعة على ذلك. فعادت تجلس على السرير، ووضعت يدها بعذوبة على بطنها، فوق الشعيرات السود تمامًا، وضغطت قليلاً، لا أكثر ممّا ينبغي، وفكّرت بشيء من الحنان: «إنّه هنا» ولكنّ الكره لم يكن لينهزم. وقالت لنفسها في حرص: «لا أريد أن أكرهه». إنّه على حقّ. فلقد تعاهدنا في أنّه حال حدوث... ولم يكن يستطيع هو أن يعرف. إنّها غلطتي، فأنا لم أقل له شيئًا قطّ» وحسبت ذات

لحظة أنّ نفسها ستنفرج، فهي لم تكن تخشى شيئًا كأن تحتقره. ولكنّها ما لبثت أن انتفضت: «وكيف كان لي أن أخبره؟ إنّه لا يسألني عن شيء أبدًا». طبعًا: لقد تعاهدا مرّةً وإلى الأبد أن يتكاشفا كلّ شيء. ولكن هذا كان مناسبًا له خصوصًا. كان يحبّ خاصّةً أن يتحدّث عن نفسه، أن يعرض حالاته الضميريّة الصغيرة، ودقائقه الأخلاقيّة. أمّا مارسيل فقد كانت تثق به: بدافع الكسل. ولم يكن يتبرّم من أجلها، وكان يفكّر: لو كانت تشكو شيئًا لأنبأتني. ولكنّها لم تكن تستطيع أن تتكلّم: إنّ ذلك لم يكن يخرج من فمها. «يجب أن يعرف مع ذلك، أنّني لا أستطيع أن أتحدّث عن نفسي، فأنا لا أحبّ نفسي بما فيه الكفاية لأتحدّث عن نفسي». إلّا مع دانيال، فقد كان دانيال يعرف كيف يحملها على الاهتمام بنفسها: فما كان ألطف طريقته في سؤالها، وفي النظر إليها بعينيه الجميلتين المداعبتين، ثم إنّه كان بينهما سرّ. فما كان أعجب دانيال: كان يراها بالخفية، وكان ماتيو يجهل كلّ شيء عن علاقتهما، ولم يكونا يفعلان شيئًا ضارًّا، بل كان بينهما شبه لعبة، ولكنّ هذا الضلوع كان يخلق بينهما صلة لذيذة وخفيّة، ثم إنّ مارسيل لم يكن ليؤذيها أن يكون لها شيء من الحياة الشخصيّة، شيء يكون حقًّا ملكها، ولا تكون مضطرة إلى مشاركة أحد فيه. وفكّرت: «ليس له إلّا أن يفعل كدانيال. لماذا لا يكون هناك أحد غير دانيال يستطيع أن يحملني على الكلام؟ ليته ساعدني قليلاً...» لقد أحسّت طوال نهار أمس بانقباض في حلقها، وكانت تودّ لو تقول له: «وماذا لو احتفظنا به؟» آه! ليته تردّد، ولو لحظة، إذن لقلت له ذلك. ولكنّه جاء، واتّخذ مظهره الساذج: «ألا نجهضه؟» ولم يستطع ذلك أن يخرج من فمها. كان قلقًا حين خرج: إنّه لم يكن يريد أن تهدمني تلك المرأة. هذا صحيح: سوف يبحث عن عناوين، وسيشغله ذلك، الآن وقد انتهت أعماله التدريسيّة، وهذا خيرٌ له من أن يتسكّع مع تلك الصغيرة. ثم إنّه قد ارتبك كمن كسر إناءً من فخّار. ولكنّ ضميره، في صميمه، مرتاح كلّ الراحة.. ولا بدّ أنّه عاهد نفسه على أن يملأني حبًّا. وضحكت ضحكة قصيرة: «لا بأس. غير أنّ عليه أن يعجّل:

فعمّا قليل سأتجاوز سنّ الحبّ».

وشنّجت يديها على القماش، وكانت مذعورة: «إذا بدأت أحتقره، فماذا يبقى لي؟» ولكن، هل كانت تعلم إن كانت تريد طفلاً؟ كانت ترى من بعيد، عبر المرآة، كتلة مظلمة متراخية بعض الشيء: وكان ذلك جسمها، جسم السلطانة العقيم. «ولكن أتراه كان حقًّا سيعيش؟ إنِّني مهترئة». سوف تقصد هذه العجوز، متخفّية في الليل، وستُمِرّ العجوز يدها في شعرها، كما أمرّتها في شعر «أندريه»، وتناديها بلهجة ضلوع قذرة: يا قطّتي الصغيرة: «حين لا تكون المرأة متزوِّجة، فإنّ حبلها مُربكٌ كالسيلان. إنِّني مصابة بمرضٍ جنسي، هذا ما ينبغي أن أقوله لنفسي».

ولكنّها لم تستطع الامتناع عن أن تمرّ يدها متمهِّلة على بطنها. وفكّرت: إنّه هنا. هنا. شيء حيّ قليل الحظّ مثلها. حياة نافلة، ولامعقولة، كحياتها... وفكّرت فجأة في هوس: «مهما يكن، فإنّه كان سيكون لي، حتى ولو كان أبله، ولو كان مشوّهًا، كان سيكون لي» ولكنّ هذه الرغبة الخفيّة، وهذا القسم الغامض، كانا من التوحُّد وطاقة الكتمان، وكان ينبغي إخفاؤهما على كثير من النساء، بحيث أحسّت فجأة بأنّها مذنبة، وشعرت بالاشمئزاز من نفسها.

٦

كانت تُرى أوّلاً فوق الباب لافتة «ج. ف» والأعلام المثلّثة الألوان: وكان هذا ينبئ فورًا بالموضوع. ثم كان المرء يلج الصالونات الكبيرة الخالية، ويغرق في نور أكاديمي يسقط من شبّاك قد زال صقله: وكان ذلك يدخل عينيك مذهّبًا، ثم يأخذ في الذوبان، ويصبح رماديًّا. جدران مشرقة، وبُسطٌ من المخمل البيج. وفكّر ماتيو: «الروح الفرنسيّة». حمّام من الروح الفرنسيّة. وكان هناك مثله في كلّ مكان، على شعر إيفيش، وعلى يدي ماتيو: كانت تلك الشمس المنقّاة وصمت هذه الصالونات الرسمي. أحسّ ماتيو بأنّه مرهق بغمامة من التبعات المدنيّة: كان ينبغي أن يتحدّث المرء بصوت منخفض، وألّا يمسّ الأشياء المعروضة، وأن يمارس باعتدال، ولكن بحزم، حسَّه النقدي، وألّا ينسى في أيّ حال أوفر الفضائل «فرنسيّة»: الانسجام. وبعد هذا، طبيعي أن يكون على الجدران لطخات، هي اللوحات، ولكنّ ماتيو كان قد فقد كلّ رغبةٍ في النظر إليها. ومع ذلك، فقد اقتاد إيفيش، وأراها، من غير أن يتكلّم، منظرًا من مناظر «بريتاني» مع تلٍّ نُصب عليه صليب، ومسيحًا على صليب، وباقةً، وامرأتين من تاهيتي راكعتين على الرمل، وجماعةً من الفرسان المساوريس. ولم تكن إيفيش تقول شيئًا، وكان ماتيو يتساءل عمّا عساها تفكّر به. يحاول أحيانًا أن ينظر إلى اللوحات، ولكنّ ذلك لم يكن ينتج شيئًا. وفكّر بانزعاج: «اللوحات

أمرٌ لا يأخذك، إنّها تعرض نفسها، ووجودها أو عدم وجودها متوقّف عليّ، فأنا حرّ إزاءها». حرٌّ أكثر ممّا ينبغي: لقد كان ذلك يخلق له مسؤوليّةً إضافيّة، وكان يحسّ نفسه في الزيف. وقال:

ـ هذا هو غوغان.

وكانت لوحةً صغيرة مربّعة وعليها عنوان «صورة الفنّان، بريشته» غوغان ممتقع مسرّح، ذو ذقن ضخم، وهيئة ذكاء مبتذل وعبوس صبيّ. ولم تجب إيفيش فرمى ماتيو إليها نظرة خفيّة: فلم ير إلّا شعرها الذي كان بريق النهار الكاذب قد أذهب لمعانه الذهبي. وكان ماتيو، حين نظر إلى هذه الصورة للمرّة الأولى في الأسبوع السابق، قد وجدها جميلة. أمّا الآن، فهو يستشعر الجفاف، والحقّ أنّه لم يكن يرى اللوحة: فقد كان ممتلئًا حتى درجة الإشباع بالواقع والحقيقة، مرتعد الفرائص بروح الجمهوريّة الثالثة، وكلّ ما كان واقعيًّا، كان يراه. وكان يرى كلّ ما يمكن أن يوضح هذا النور الكلاسيكي، والجدران، والأقمشة في أطرها، والألوان المتصلِّبة على اللوحات. ولكن ليس اللوحات؛ كانت اللوحات قد انطفأت، وكان يبدو بشعًا ومريعًا، في أعماق هذا الحمّام الصغير من الانسجام، أن يكون قد وُجد أشخاصٌ ليرسموا ويمثِّلوا على الأقمشة أشياء غير موجودة.

ودخل رجل وسيّدة. كان الرجل طويلاً مورّدًا ذا عينين تشبهان أزرار الحذاء العالي وشعر ناعم أبيض، أمّا المرأة فكانت أقرب إلى نوع الغزال. وكان عمرها يقدّر بالأربعين. وما كادا يدخلان حتى بدا عليهما وكأنّهما في منزلهما: ولا بدّ أنّ ذلك كان عادة، فقد كان ثمّة صلة لا تُنكر بين مظهرهما الفتيّ وميزة النور، ولا بدّ أنّ نور المعارض الوطنيّة هو الذي كان يحفظهما خير حفظ. وأشار ماتيو يُري إيفيش عفونةً كبيرة مظلمة على جانب الجدار الداخلي:

ـ إنّه هو أيضًا.

كان غوغان، وهو عارٍ حتى النطاق تحت سماء عاصفة، يحدِّد فيها نظرةً قاسية مزيّفة هي نظرة المهلوسين وكانت الوحدة والتكبّر قد التهمتا وجهه، وكان جسمه قد أصبح ثمرة سمينة طريّة من ثمرات المناطق الاستوائيّة مع جيوب مليئة بالماء. كان قد فقد «الجدارة» ـ تلك الجدارة الإنسانيّة التي لا يزال ماتيو يحتفظ بها ولا يدري ماذا يفعل بها ـ ولكنّه كان يحتفظ بالعزّة. وكان خلفه موجودات غامضة، جماعة من الأشكال السوداء. وحين رأى ماتيو للمرّة الأولى هذا اللحم الداعر الرهيب، أخذه انفعال شديد، ولكنّه كان وحده. أمّا اليوم فقد كان إلى جانبه جسم صغير حاقد، وكان هو خجلاً من نفسه. لقد كان زائدًا عن الضرورة: نفاية ضخمة عند أسفل جدار.

واقترب الرجل والسيِّدة، وأقبلا ينزرعان بلا تكلُّف أمام القماشة. اضطرت إيفيش إلى التنحِّي خطوة جانبيّة، لأنّهما كانا يمنعان عنها الرؤيا. وانقلب الرجل إلى خلف ونظر إلى اللوحة بقسوة آسفة. لقد كان رجل اختصاص، وكان يضع عقدة على هيئة وردة. وقال وهو يهزّ رأسه:

ـ تس، تس! ما أقلّ ما أحبّ هذا! أقسم بأنَّه يظنّ نفسه المسيح. وذلك الملاك الأسود خلفه، هناك، هناك... إنّ هذا ليس بالأمر الجدِّي.

وأخذت السيّدة تضحك، وقالت بصوت زهري:

ـ يا إلٰهي! صحيح.. ذلك الملاك.. إنّ هذا شيء أدبيّ...

وقال الرجل بعمق: ـ لا أحبّ غوغان حين يفكّر. إنّ غوغان الأصيل هو غوغان الذي يرسم الديكور...

وكان ينظر إلى غوغان بعينيه، عينيْ اللعبة، ويبدو جافًا وهزيلاً في ثوبه الفلانيل الرمادي الجميل تجاه هذا الجسم الكبير العاري. وسمع ماتيو نقنقة غريبة فالتفت: كانت إيفيش مأخوذة بضحكة مجنونة، وقد رمت له نظرة يائسة وهي تعضّ على شفتيها: وفكّر ماتيو في إشراقة من فرح: «إنّها غير عاتبة عليّ»، وأخذها من ذراعها واقتادها وهي منحنية إلى أريكة من

الجلد، في وسط القاعة. تهالكت إيفيش فوق الأريكة وهي تضحك، وكان جميع شعرها قد تناثر على وجهها. قالت بصوت مرتفع:

ـ هذا فظيع! كيف كان يقول: «لا أحبّ غوغان حين يفكّر!» والسيِّدة الفاضلة؟ إنّه يلائمه تمامًا أن يكون مع سيّدة مثلها.

وكان الرجل والسيِّدة منتصبين: كان يبدو أنّهما يتشاوران فيما ينبغي عمله. وقال ماتيو بحياء:

ـ هناك لوحات أخرى، في القاعة المجاورة.

فكفّت إيفيش عن الضحك، وقالت بصوت شرس:

ـ لا، إنّ الوضع مختلف الآن. فهناك أشخاص...

ـ أتريدين أن نخرج؟

ـ أفضِّل ذلك، فإنّ جميع هذه اللوحات أعادت لي الصداع. أودّ أن أتنزّه قليلاً في الهواء الطلق.

ونهضت. فتبعها ماتيو وهو يلقي نظرة أسف على اللوحة الكبيرة المعلّقة على الجدار الأيسر: فقد كان يودّ أن يُريها إيَّاها. كانت صورة امرأتين تطآن بأقدامهما العارية، عشبًا ورديًّا. وكانت إحداهما ترتدي قبّعة، وكانت ساحرة. أمّا الأخرى، فكانت تمدّ ذراعها بهدوء نبويّ. ولم تكونا حيّتين تمامًا. وكان يبدو أنّهما فوجئتا وهما تتحوّلان إلى شيئين.

في الخارج، كان الشارع يشتعل. وأحسّ ماتيو بأنّه إنّما كان يعبر أتونًا. وقال بالرّغم عنه: ـ إيفيش.

فقطّبت إيفيش ورفعت يديها إلى عينيها، وقالت بغضب:

ـ كأنّهما تُفقآن بالدبابيس. أوه إنِّي أكره الصيف.

ومشيا بضع خطوات. كانت إيفيش تترنّح قليلاً، وهي ما تزال تضغط بيديها على عينيها.

وقال ماتيو: ـ حذار، إنَّ الرصيف يتوقَّف.

وخفضت إيفيش يديها فجأة، فرأى ماتيو عينيها الصفراوين متباعدتين. وعبرا الرصيف صامتين. وقالت إيفيش فجأة:

ـ ينبغي ألّا تكون عامّة.

فسألها ماتيو مندهشًا: ـ تعنين المعارض؟

ـ نعم.

ـ لو لم تكن عامّة (كان يحاول أن يستعيد لهجة الألفة المرحة التي كانا معتادين عليها) فإنّي أتساءل كيف كان لنا أن نذهب إليها.

فقالت إيفيش بجفاء: ـ كنّا لا نذهب إليها.

وصمتا. وفكّر ماتيو: «لم تكفّ عن الحقد عليّ». ثم اخترقه فجأةً يقين غير مُحتمل: «إنّها تريد أن تفرنقع. وهي لا تفكّر بغير هذا. لا بدّ أنّها تفتّش في رأسها عن عبارة للاستئذان المهذّب، فإذا وجدتها تركتني. ولست أريد أن تذهب». فكّر في ذلك بقلق. وسألها:

ـ أليس لديك شيء خاصّ تعملينه؟

ـ متى؟

ـ الآن.

ـ كلّا. لا شيء.

ـ ما دمت تريدين أن تتنزّهي، فإنّي أفكّر... هل يزعجك أن ترافقيني حتى منزل دانيال، شارع مونتمارتر؟ نستطيع أن نفترق عند بابه وستسمحين لي أن أمنحك تاكسي لتدخلي إلى المعهد.

ـ كما تريد، غير أنّي لن أعود إلى المعهد، بل سأذهب لرؤية بوريس.

«إنّها باقية» ولم يكن ذلك يثبت له أنّها سامحته. كانت إيفيش تجزع من ترك الأمكنة والناس، حتى ولو كانت تكرههم، لأنّ المستقبل كان يخيفها. وكانت تستسلم بتثاقل متجهّم إلى أشدّ المواقف إغاظة، ثم ينتهي بها الأمر إلى أن تجد فيها نوعًا من الراحة. ومع ذلك، فقد كان ماتيو

مسرورًا: فما دامت معه: فسيمنعها من التفكير. إذا تكلّم بلا انقطاع، وإذا فرض نفسه، استطاع أن يؤخِّر قليلاً تفتُّح الأفكار الغاضبة والمزدرية التي ستولد لديها. كان ينبغي أن يتكلّم على التوّ، في أيّ موضوع. ولكن ماتيو لم يكن يجد ما يقوله. وانتهى إلى أن يسألها بارتباك:

ـ لقد راقت لك هذه اللوحات، بالرّغم من كلّ شيء؟

فهزّت إيفيش كتفيها: ـ طبعًا.

وكان ماتيو راغبًا في أن يمسح جبينه، ولكنّه لم يجرؤ على ذلك. «ستكون بعد ساعة حرّة، وستحكم عليّ حكمًا مبرمًا ولن يَسعَني بعد أن أدافع عن نفسي. ليس ممكنًا أن أدعها تذهب هكذا (هذا ما قرّره) يجب أن أشرح لها».

انفتل إليها، ولكنّه رأى عينيها الشاردتين قليلاً، فلن يتأتّى له الكلام.

وسألت إيفيش فجأة: ـ أتظنّ أنّه كان مجنونًا؟

ـ غوغان؟ لا أدري. أبسبب صورته تسألينني هذا السؤال؟

ـ بسبب عينيه. ثم إنّ هناك هذه الأشكال السوداء خلفه، فكأنّها همسات.

وأضافت في شيء من الأسف: ـ لقد كان جميلاً.

فقال ماتيو وقد بوغت: ـ عجبًا! هذه فكرة ما كانت لترد على بالي.

وكانت لإيفيش طريقة في التحدُّث عن المشاهير من الموتى تُثير استغرابه بعض الشيء: فهي لم تكن تقيم بين الرسّامين الكبار وبين لوحاتهم أيّ صلة، لقد كانت اللوحات أشياء، أشياء جميلة شهوانيّة ينبغي امتلاكها، وكان يخيّل إليها أنّها كانت موجودة منذ الأبد، أمّا الرسّامون فقد كانوا بشرًا كسائر البشر: إنّها لم تكن تحمد لهم أعمالهم، ولم تكن تحترمهم. وكانت تسأل عمّا إذا كانوا لذيذين ظرفاء، وعمّا إذا كانت لهم خليلات؛ وقد سألها ماتيو يومًا عمّا إذا كانت تحبّ لوحات تولوز ـ لوتريك فأجابت:

«أيّة فظاعة! ما كان أقبحه!» فأحسّ ماتيو بأنّه شخصيًّا قد جُرح.

قالت إيفيش باقتناع:

ـ أجل، لقد كان جميلاً.

فهزّ ماتيو كتفيه. لقد كانت إيفيش تستطيع ـ ما شاءت ـ أن تأكل بعينيها طلبة السوربون التافهين النضرين كالبنات. بل إنّ ماتيو قد وجدها جذّابة، ذلك اليوم الذي كانت تتأمّل فيه فتى قاصرًا من فتيان الميتم ترافقه راهبتان، فقالت برصانة حائرة بعض الشيء: «أعتقد أنّي سأصبح لوطيّة!» وكان يمكن لها أن تجد النساء جميلات. أمّا غوغان، فلا. ليس هذا الرجل الناضج الذي صنع لها لوحاتٍ كانت تحبّها. وقال:

ـ كلّ ما هنالك، أنّي لا أجده قريبًا إلى القلب.

فقلبت إيفيش شفتيها استياء وصمتت.

وقال ماتيو بحيويّة: ـ ماذا هناك يا إيفيش؟ إنّك تلومينني لأنّي قلت إنّه لم يكن قريبًا إلى القلب؟

ـ لا، ولكنّي أتساءل لماذا قلت ذلك.

ـ هكذا. لأنّ هذا هو شعوري: إنّ هيئة التكبُّر التي يبدو عليها تجعل عينيه شبيهتين بعيني سمكة مسلوقة.

وأخذت إيفيش تشدّ على خصلة شعرها، وكانت قد اتّخذت هيئة عناد تافه.

وقالت بلهجة محايدة: ـ إنّ له هيئة من النبل.

فقال ماتيو باللهجة نفسها: ـ صحيح. إن كنت تقصدين هيئة التعجرف.

فقالت إيفيش بضحكة قصيرة: ـ طبعًا.

ـ لماذا تقولين طبعًا؟

ـ لأنّي كنت واثقة من أنّك ستصف ذلك بالتعجرف.

فقال ماتيو بعذوبة:

ـ لم أكن أريد أن أقول عنه أيّ سوء. فأنتِ تعلمين أنّي أحبّ أن يكون الإنسان متكبّرًا.

وسادت فترة صمت طويلة. ثم قالت إيفيش بفظاظة، وبلهجة بليدة مغلقة:

ـ إنَّ الفرنسيِّين لا يحبّون ما هو نبيل.

وكانت إيفيش تتحدّث بكلّ رضى عن المزاج الفرنسي إذ تكون غاضبة، وهي تتحدّث دائمًا بهذه اللهجة البليدة. وأضافت بصوت مفرط اللطافة:

ـ والواقع أنّي أدرك سبب ذلك. فلا بدّ أنّ ذلك يبدو، من الخارج، مبالغًا فيه جدًّا.

ولم يجب ماتيو: لقد كان أبو إيفيش نبيلاً. ولولا ثورة ١٩١٧ لرُبِّيَتْ إيفيش في موسكو، في المدرسة الداخليّة لآنسات النبالة، ولقُدِّمت إلى القصر، ولتزوَّجت ضابطًا من الحرس، طويلاً وجميلاً، ذا جبين ضيِّق ونظرة ناعسة. أمّا الآن، فإنّ السيّد سيرغن هو صاحب منشرةٍ آليّة في لاون. وكانت إيفيش في باريس، كانت تتنزّه في باريس مع ماتيو، وهو بورجوازي فرنسي لم يكن يحبّ النبالة، وسألت إيفيش فجأة:

ـ أهو الذي... رحل؟

فقال ماتيو على عجل: ـ أجل، هل تريدين أن أروي لك قصّته؟

ـ أحسب أنّي أعرفها: كان متزوّجًا، وكان له أولاد، أليس كذلك؟

ـ أجل، كان يعمل في مصرف. ثم كان ينطلق يوم الأحد إلى الضاحية وهو يحمل مرسمًا وعلبة ألوان. كان ما يسمّى برسّام أيّام الأحد.

ـ رسّام أيّام الأحد؟

ـ نعم: في البدء، كان كذلك، يعني أنّه كان هاويًا يخربش اللوحات يوم الأحد كما يصطاد صيّاد الشبكة، بدافع من المحافظة على الصحّة، لأنّ من يرسم المناظر في الريف يستنشق الهواء النقي.

وأخذت إيفيش تضحك، ولكن ليست الضحكة التي كان يتوقّعها ماتيو، فسألها بقلق:

ـ هل يسلّيك أنّه بدأ بأن يكون رسّام أيّام الأحد؟

ـ لم أكن أفكّر به.

ـ وبمَ كنت تفكّرين؟

ـ كنت أتساءل عمّا إذا كانوا يتحدّثون أيضًا، في بعض الأحيان، عن كتّاب يوم الأحد.

ـ كتّاب الأحد: بورجوازيّون صغار يكتبون كلّ عام قصّة قصيرة أو خمس قصائد أو ستًّا ليطعّموا حياتهم بشيء من المثالية. بدافع من المحافظة على الصحّة. وارتعش ماتيو وسألها بجذل:

ـ أتقصدين أنّي أحدهم؟ حسنًا، ترين أنّ ذلك يفضي إلى كلّ شيء، فلعلّني أرحل يومًا ما إلى تاهيتي.

فالتفتت إليه إيفيش ونظرت إليه وجهًا لوجه. وكان يبدو عليها الاستياء والخوف: فلا بدّ أنّها كانت خائفة من جرأتها هي بالذات.

وقالت بصوت لا طابع له:

ـ سأستغرب ذلك.

فقال ماتيو: ـ ولِمَ لا؟ قد لا أرحل إلى تاهيتي، وإنّما إلى نيويورك. إنّ بودّي لو أذهب إلى أميركا.

وكانت إيفيش تشدّ على خصلاتها بعنف، وقالت:

ـ نعم، إذا كان ذلك في بعثة، مع أساتذة آخرين.

فنظر ماتيو إليها صامتًا، واستطردت:

ـ ربّما كنت على خطأ... إنِّني أستطيع أن أتمثّلك وأنت تلقي محاضرة في جامعة أمام طلّاب أميركيّين، ولكن لا على ظهر سفينة، مع مهاجرين. وربَّما كان ذلك لأنّك فرنسي.

فسألها وهو يحمرّ خجلاً: ـ أتعتقدين أنّه يلزمني غرفٌ من الدرجة الممتازة؟

فقالت إيفيش بإيجاز: ـ لا، بل من الدرجة الثانية.

فشقّ عليه قليلاً أن يبتلع ريقه. «أودّ كثيرًا لو أراها، هي، على ظهر سفينة، مع مهاجرين، إذن لماتت قهرًا».

وانتهى يقول: ـ أخيرًا، مهما يكن من أمر، فإنِّي أجد غريبًا منك أن تقرّري هكذا أنِّي لن أستطيع الذهاب. والواقع أنّك على خطأ، فقد راودتني الرغبة كثيرًا في الماضي. غير أنّ ذلك قد زال لأنِّي أجده أمرًا بليدًا. ثم إنّ هذه الحكاية كلّها مضحكة، خاصّة وأنّها جاءت بصدد غوغان الذي ظلّ بيروقراطيًّا حتى الأربعين من عمره.

فانفجرت إيفيش بضحكة ساخرة، وسألها ماتيو:

ـ أليس ذلك صحيحًا؟

ـ بلى.. ما دمت تقوله. مهما يكن من أمر، فيكفي أن ننظر إليه على قماشته...

ـ ماذا ترين؟

ـ أتصوّر أنّه لا ينبغي أن يكون هناك كثير من البيروقراطيِّين على شاكلته. لقد كان يبدو... ضائعًا.

وتمثّل ماتيو وجهًا ذا ذقن هائلة. لقد فقد غوغان الكرامة الإنسانيّة، وقد قبل أن يفقدها. وقال:

ـ فهمت. تقصدين اللوحة الكبيرة في الداخل؟ لقد كان مريضًا جدًّا في تلك الأثناء.

فابتسمت إيفيش بازدراء:

ـ إنّما أتكلّم عن اللوحة الصغيرة التي كان ما يزال فيها شابًّا: إنّه يبدو جديرًا بأيّ شيء. ونظرت إلى الفراغ، بشيء من الشرود، فأحسّ ماتيو للمرّة الثانية بعضّة الحسد.

ـ طبعًا، إذا كان هذا ما تقصدينه، فلست رجلاً ضائعًا.

قالت إيفيش: ـ أوه! كلّا.

فقال: ـ ثم إنّي لا أفهم لِمَ تكون هذه مزيّة، وإلّا فإنّي لا أفهم ما تقصدين.

ـ حسنًا! لا نتكلّم بعدُ في ذلك.

ـ طبعًا. أنت كذلك دائمًا: توجّهين انتقادات مغلّفة، ثم ترفضين أن تشرحيها. إنّ ذلك أسهل ممّا ينبغي.

فقالت بلا اكتراث: ـ أنا لا أوجّه انتقادات إلى أحد.

كفّ ماتيو عن السير ونظر إليها. وتوقّفت إيفيش على مضض، وقفزت خطوة وهي تتفادى نظر ماتيو:

ـ اسمعي يا إيفيش! ستقولين لي ما تقصدين بذلك؟

فقالت بدهشة: ـ بأيّ شيء؟

ـ بقصّة هذا الرجل «الضائع».

ـ أما زلنا نتحدّث في هذا الموضوع؟

قال ماتيو: ـ إنّ ذلك يبدو بليدًا، ولكنّي أودّ أن أعرف ماذا تقصدين بذلك.

فعادت إيفيش تشدّ على خصلات شعرها. كان هذا مغيظًا.

ـ إنّني لا أقصد شيئًا. هي كلمة خطرت لي.

وتوقّفت، وكان يبدو أنّها تفتّش. وكانت بين وقت وآخر تفتح فمها فيحسب ماتيو أنّها ستتكلّم، ولكنّها لم تقل شيئًا. ثم قالت:

ـ سيّان عندي أن يكون المرء كذلك، أو يكون شيئًا آخر.

وكانت قد لفّت خصلة حول إصبعها وأخذت تشدّ عليها كما لو أنّها تريد أن تنتزعها. وأضافت فجأة بصوت سريع، وهي تحدّد نظرها في رأس حذائها:

ـ أنت مستقرّ، ولن تتغيّر ولو وهبوك ذهب الدنيا.

قال ماتيو: ـ هكذا تظنّين إذن؟ وما هو دليلك؟

ـ إنّه شعور: إنّ المرء يُحسّ أنّ لك حياة مصنوعة ناجزة، ولا سيّما أفكارك. وإذن فإنّك تمدّ يدك إلى الأشياء حين تظنّ أنّها في متناولك ولكنّك لا تزعج نفسك لتذهب فتأخذها.

فردّد ماتيو: ـ وما هو دليلك؟ (ولم يكن يجد شيئًا آخر يقوله: كان يفكّر بأنّها على حقّ).

فقالت إيفيش في ضجر: ـ كنت أظنّ... كنت أظنّ أنّك لا تريد أن تجازف بشيء، وأنّك أذكى من أن تفعل ذلك. (ثم أضافت بلهجة مصطنعة) ولكن ما دمت تقول إنّك لست كذلك..

فكّر ماتيو فجأة بمارسيل، فأخذه الخجل، وقال بصوت منخفض:

ـ كلّا، إنّني كذلك، إنّني كما تظنّين.

فقالت إيفيش بلهجة انتصار: ـ آه! أترى!

ـ وأنتِ.. هل تجدين ذلك يستحقّ الاحتقار؟

فقالت إيفيش في رفق:

ـ بل على العكس. إنّني أجد هذا أفضل بكثير. لا بدّ أنّ الحياة مع

غوغان مستحيلة (وأضافت دون أن يبدو في لهجتها أيّ سخرية) أمّا معك، فإنّ المرء يحسّ بالطمأنينة، ولا مجال لأن يخشى أبدًا ما هو غير متوقّع.

فقال ماتيو بجفاف: ـ صحيح. إذا كنت تعنين أنّني لا أنساق للأهواء... أنت تعلمين أنّ بوسعي أن أنساق لها كأيّ إنسان آخر، ولكنّي أجد ذلك قبيحًا.

قالت إيفيش: ـ أعرف ذلك. إنّ كلّ ما تفعله منهجي... جدًّا.

فشعر ماتيو بأنّه يصفرّ:

ـ بأيّ صدد، تقولين هذا يا إيفيش؟

قالت إيفيش بلهجة غامضة: ـ بصدد كلّ شيء.

ـ أوه! لا بدّ أنّ لديك فكرة صغيرة معيّنة.

فهمهمت من غير أن تنظر إليه:

ـ لقد كنت كلّ أسبوع تأتي ومعك «الأسبوع في باريس» ثم تنظّم برنامجًا...

فقال ماتيو مغتاظًا: ـ ولكن ذلك كان من أجلك يا إيفيش...

قالت إيفيش بتأدّب: ـ أعرف هذا، وإنّي أكنّ لك العرفان.

بدا ماتيو مباغَتًا أكثر منه مجروحًا:

ـ إنّني لا أفهم يا إيفيش. ألم تكوني تحبّين سماع الموسيقى أو مشاهدة اللوحات؟

ـ بلى.

ـ كم تقولين ذلك برخاوة!

ـ كنت أحبّ ذلك كثيرًا في الحقّ. (وأضافت بعنف مفاجئ) ولكنّي أستفظع أن تُخلق لي واجبات تجاه الأشياء التي أحبّها.

فردّد ماتيو: ـ آه.. إنّكِ.. إنّكِ لم تكوني تحبِّين ذلك.

وكانت قد رفعت رأسها وقذفت شعرها إلى الخلف، فانكشف وجهها الأصفر العريض، وكانت عيناها تطلقان الشرارات. كان ماتيو جزعًا مرهقًا: ينظر إلى شفتي إيفيش الدقيقتين الرخوتين، ويتساءل كيف استطاع أن يقبِّلهما. واستطرد يقول بإشفاق:

ـ كان ينبغي أن تخبريني، ولو فعلت لما قسرتك قطّ.

لقد جرّها إلى الحفلات الموسيقيّة وإلى المعارض، وكان يشرح لها اللوحات، وفي هذه الأثناء كانت تكرهه.

وقالت إيفيش وكأنّها لم تسمعه.

ـ ما عسى أن تهمّني أنا، اللوحات، إذا لم أكن أستطيع أن أمتلكها؟ كنت كلّ مرّة أنفجر غضبًا ورغبة في أن أحملها، ولكن لم يكن ممكنًا حتى لمسها. وكنت أشعر بك إلى جانبي هادئًا ولائقًا: فقد كنتَ تذهب إلى هناك، كما لو أنّك ذاهب إلى القدّاس.

وصمتا. كانت إيفيش قد احتفظت بهيئتها القاسية. وأحسّ ماتيو فجأة بانقباض في حنجرته:

ـ إيفيش، أرجوك أن تعذريني بسبب ما حدث في هذا الصباح.

قالت إيفيش: ـ هذا الصباح؟ إنّني لا أفكّر به بعد، بل كنت أفكّر بغوغان.

قال ماتيو: ـ إنّ ذلك لن يحدث مرّة أخرى، بل إنّني لم أفهم كيف أمكن أن يحدث ذلك.

وكان يتكلّم تبرئة لضميره، فقد كان مدركًا أنّ قضيّته كانت خاسرة. ولم تجب إيفيش، فاستطرد ماتيو جاهدًا:

ـ وكانت هناك المتاحف وحفلات الموسيقى أيضًا... ليتك تعلمين

كم أنا آسف! إنّ المرء يظنّ أحيانًا أنّه على وفاق مع إنسان آخر. . . ولكنّك لم تكوني تقولين شيئًا قطّ.

وكان يحسب، لدى كلّ كلمة، أنّه سيتوقّف. ثم كانت تأتيه كلمة أخرى من جوف حنجرته وهي ترفع له لسانه. . فيتكلّم باشمئزاز وبتشنّجات صغيرة. وأضاف:

ـ سأحاول أن أتغيّر.

وفكّر: «إنّني كريه» وكان غضب يائس يعانق وجنتيه. وهزّت إيفيش رأسها وقالت:

ـ لا يستطيع الإنسان أن يتغيّر.

كانت تتكلّم بلهجة متعقّلة، فاحتقرها ماتيو بكلّ صراحة. ومشيا صامتين، جنبًا إلى جنب، والنور يغمرهما، وكان أحدهما يكره الآخر. ولكن في الوقت نفسه كان ماتيو يرى نفسه بعينيْ إيفيش، فيأخذه الاشمئزاز من نفسه. ورفعت كفّها إلى جبينها وضغطت صدغيها بين أصابعها:

ـ ألا نزال بعيدين؟

ـ ربع ساعة. هل أنت متعبة؟

ـ أوه! نعم. اعذرني، إنّ السبب هو هذه اللوحات. (وضربت برجلها الأرض ونظرت إلى ماتيو نظرة تائهة).

ها هي تفلت منّي، وتختلط جميعًا في رأسي. وهذا يحدث كلّ مرّة.

وأحسّ ماتيو ببعض الارتياح: ـ هل تريدين أن تعودي؟

ـ أعتقد أنّ ذلك أفضل.

فنادى ماتيو سيّارة تاكسي. وكان على عجلٍ ليكون وحده الآن. وقالت إيفيش من غير أن تنظر إليه: ـ إلى اللقاء.

فكّر ماتيو: وملهى «سومطرا»؟ هل ينبغي لي، بالرّغم من ذلك، أن أقصده وحدي؟

ولكن لم تكن به رغبة حتى الآن لأن يراها مرّة أخرى. وأعادت:

ـ إلى اللقاء.

وابتعد التاكسي، وتبعه ماتيو بعينيه بضع لحظات في ضيق. ثم انصفق بابٌ فيه، وأُغلق زجاجه، فأخذ يفكِّر في مارسيل.

٧

كان دانيال يحلق ذقنه أمام مرآة خزانته، وهو عارٍ حتى نطاقه: «إنّ هذا هو لهذا الصباح، وعند الظهر سينتهي كلّ شيء». ولم يكن ذلك مجرّد مشروع: فقد كان الأمر هنا، في النور الكهربائي، وفي صرير آلة الحلاقة. ولم يكن ممكنًا محاولة إبعاده حتى ولا تقريبه لتنتهي القضيّة بسرعة: كلّ ما هنالك أنّه كان ينبغي أن يُعاش. وكانت الساعة لم تتجاوز العاشرة، ولكنّ الظهر كان حاضرًا في الغرفة، محدَّدًا، صريحًا، يشبه العين. وفيما بعد ذلك، لم يكن ثمّة إلّا أصيلٌ مبهم كان يتلوّى كالدودة. وكان داخل عينيه يؤلمه لأنّه كان قد نام قليلاً، ولأنّ بثرًا كان قد نبت تحت شفته، احمرارٌ صغير ذو رأس أبيض: إنّ الأمر قد أصبح الآن كذلك، كلّما شرب الخمر. وأرهف دانيال أذنه: كلّا، كانت هذه ضجّة في الشارع. ونظر إلى البثر المحمرِّ المحموم. وكانت هناك أيضًا الدوائر الكبيرة المزرقّة تحت عينه ـ وفكّر: «إنّني أهدم نفسي»، وكان يُعنى عناية كبيرة بأن يُمرّ الموسى حول البثر لئلّا يجلفه، سوف تبقى هناك باقة صغيرة من الهُلب الأسود، ولكن فليكن: كان دانيال يستفظع جلف البثور. وفي الوقت نفسه كان يرهف أذنه: لقد كان باب غرفته مشقوقًا ليستطيع أن يسمع بوضوح: وكان يقول لنفسه: «لن أخطئها هذه المرّة».

كان ثمّة حفيف خفيف يكاد لا يُسمع، ولكنّ دانيال كان قد قفز،

والموسى في يده، وفتح باب الدخول فورًا. غير أنّه كان قد فات الأوان، فقد فرّت الصبيّة، ولا بدّ أنّها قابعة الآن في زاوية سُلّم، وأنّها تنظر خافقة القلب، ممسكة أنفاسها.

واكتشف دانيال فوق القشّ، عند قدميه، باقة من القرنفل: وقال بصوت مرتفع: «أنثى صغيرة قذرة!» كان على يقين بأنّها ابنة البوّابة. وكان حسبه أن ينظر إلى عينيها، عيني السمكة المقليّة، حين كانت تسلِّم عليه. وهذا مستمرّ منذ خمسة عشر يومًا: كلّ يوم، لدى عودتها من المدرسة، كانت تضع زهورًا أمام باب دانيال. ورفس باقة القرنفل إلى أسفل السلّم. «يجب أن أرهف السمع وأنا في الغرفة الصغيرة طوال الصباح، فبهذا وحده أستطيع أن أقبض عليها». سوف يظهر عاريًا حتى النطاق، ويحدِّد فيها نظرًا قاسيًا. وفكّر: «إنّها إنّما تحبّ رأسي. رأسي وكتفيّ لأنّ لها مثلاً أعلى. وسيؤثِّر فيها أن ترى أنّ لي شعرًا في صدري». وعاد إلى غرفته واستأنف حلاقة ذقنه. وكان يرى في المرآة وجهه الغامض المتكبِّر ذا الوجنتين الزرقاوين، وفكّر في شيء من الاستياء: «إنّ هذا هو ما يهيِّجهنّ». وجه ملاك، كانت مارسيل تدعوه بملاكها العزيز. وينبغي له الآن أن يتحمّل نظرات هذه العفريتة المنتفخة بالمراهقة. وفكّر دانيال بغيظ: «القذارات!» وانحنى قليلاً، وبضربة ماهرة من موساه، قطع بثره. ليست دُعابة رديئة أن يشوِّه هذا الوجه الذي كنّ يحببنه إلى ذلك الحدّ. «من يدري؟! إنّ وجهًا مجروحًا يظلّ وجهًا، وهو يعني دائمًا شيئًا ما: ولسوف أضجر من ذلك بأسرع من السابق!». اقترب من المرآة ونظر إلى نفسه من غير رضى، وقال لنفسه: «الواقع أنّي أحبّ أن أكون جميلاً» وكان يبدو عليه التعب، وقرص نفسه لدى جنبيه: «يجب أن أنقص كيلوغرامًا» سبعة أقداح ويسكي، ليلة أمس، وحده، في «جوني» وحتى الساعة الثالثة لم يكن قد استطاع أن يقرِّر العودة إلى البيت، لأنّه كان كئيبًا أن يضع رأسه على الوسادة، وأن يحسّ أنّه ينسرب في الظلام، وهو يفكِّر بأنّ ثمّة غدًا. وفكّر دانيال في كلاب

قسنطينة: لقد طوردت في الشوارع ووُضعت في أكياس أو في سلال، ثم أُطلقت في جزيرة جرداء، فأخذت تلتهم بعضها، وكانت ريح البحر تحمل عواءها أحيانًا إلى مسامع البحّارة: «ليست الكلاب هي ما كان ينبغي أن توضع في تلك الجزيرة». ولم يكن دانيال يحبّ الكلاب. وارتدى قميصًا من الحرير الأصفر وبنطلونًا من الفلانيل الرمادي، واختار بعناية ربطة عنق: ستكون اليوم الربطة الخضراء ذات الخطوط، لأنّ سحنته كانت سيِّئة. ثم فتح الباب، فدخل الصباح إلى غرفته، صباح ثقيل، خانق، مُعدّ سلفًا لهذا الظرف. واستسلم دانيال لحظة للحرارة الآسنة، ثم نظر فيما حوله: كان يحبّ غرفته لأنّها كانت لاشخصيّة، ولم تكن تكشفه، فكأنّها غرفة فندق. أربعة جدران عارية، أريكتان، كرسي، طاولة، خزانة، سرير؛ ولم تكن لدانيال ذكريات. ورأى سلّة الخيزران الكبيرة، مفتوحة في وسط القاعة، فصرف بصره: كان لذلك اليوم.

كانت ساعة دانيال تسجِّل العاشرة والخامسة والعشرين، وفتح باب المطبخ ثم صفّر، وظهر «سيبيون» أوّلاً. كان أبيض وأحمر ذا لحية صغيرة. نظر إلى دانيال بقسوة وتثاءب بوحشيّة، وهو يقيم من ظهره جسرًا. وركع دانيال في لطافة وأخذ يربت على فقمه. كان القطّ يرسل له، وهو مغمض عينيه نصف إغماض، ضربات من رجله على كمِّه. وبعد لحظة، أخذه دانيال من جلد رقبته ووضعه في السلّة، فظلّ فيها سيبيون بلا حركة، مسحوقًا خاضعًا. جاءت «ملفينا» بعد ذلك، وكان دانيال يحبّها أقلّ من الآخرين لأنّها كانت ممثِّلة ولئيمة. وحين اطمأنّت إلى أنّه كان يراها، أخذت تدندن من بعيد، وتتظاهر بالدلال، وكانت تفرك رأسها بمصراع الباب. لامس دانيال بإصبعه رقبتها السمينة، فانقلبت على ظهرها، متصلِّبة القدمين، فدغدغ حلمتيها تحت فروها الأسود، وهو يقول بصوت مُغِنٍّ محسوب: «هاها! هاها!» وكانت هي تتدحرج من جنب إلى آخر مع حركات من رأسها لطيفة. وفكّر: «انتظري قليلاً لنرى، انتظري حتى

الظهر». وأمسكها من رجليها ووضعها بالقرب من سيبيون. كان يبدو عليها بعض الدهشة، ولكنّها تدحرجت وهي متجمِّعة، وعادت إلى الدندنة.

نادى دانيال: «بوبيه، بوبيه، بوبيه!» ولم تكن بوبيه لتأتي قطّ حين كانت تُنادى، فاضطرّ دانيال للذهاب إلى المطبخ بحثًا عنها. وحين رأته، قفزت إلى فرن الغاز وهي تخور بعض خوار مغتاظ. وكانت قطّة مزاريب، لها جرح كبير يعترض جانبها الأيمن. كان دانيال قد وجدها في اللوكسمبورغ، ذات مساء شتوي، قبيل إغلاق الحديقة، فحملها إلى بيته. كانت متغطرسة ورديئة، غالبًا ما تعضّ ملفينا: وكان دانيال يحبّها. أخذها بين ذراعيه، فارتدّت برأسها إلى خلف وهي ترخي أذنيها وتمدّ عنقها: كان يبدو عليها الاستغراب. وأمرّ أصابعه على فمها، فعضّت طرف هذا الأصبع، وهي هائجة ملتذّة، وإذ ذاك قرَصها في رقبتها فرفعت رأسها الصغير العنيد. ولم تكن تهمهم ـ كانت بوبيه لا تهمهم قطّ ـ ولكنّها نظرت إليه مواجهةً، ففكّر دانيال، بدافع العادة: «من النادر أن تنظر إليك قطّة في عينيك». وفي الوقت نفسه كان يشعر بأنّ ضيقًا لا يُحتمل كان يغمره، فكان عليه أن يصرف نظره وقال: «هنا، هنا، يا ملكتي، هنا، هنا!» وابتسم لها من غير أن ينظر إليها. وكانت الأخريان قد بقيتا جنبًا إلى جنب، بليدتين مهمهمتين، فكأنّه غناء زيزان. وتأمّلها دانيال في عزاء غير مقتنع: «لحم محمَّر!» وكان يفكِّر بحلمتي ملفينا الورديّتين. ولكنّه اضطرّ إلى بذل جهود كثيرة لإدخال بوبيه في السلّة: كان عليه أن يدفعها من مؤخِّرتها، فانقلبت وهي تبصق، وأرسلت له ضربة مخلب، فقال دانيال: آه! هكذا إذن؟» وأخذها من رقبتها ومن جنبيها، وطواها بالقوّة، فصرّ الخيزران تحت مخالب بوبيه. وأخذت القطّة لحظة ذهول، فاغتنم دانيال الفرصة ليردّ الغطاء بالقوّة ويغلق القفلين وهو يقول: «أف». وكانت يده تؤلمه قليلاً، ألمًا يسيرًا جافًّا، كأنّه الدغدغة. ونهض وهو يتأمّل السلّة برضًى ساخر: «لقد حُبست!» وكانت على ظاهر كفّه ثلاثة خدوش، وفي أعماق نفسه

دغدغة أخرى، دغدغة غريبة توشك أن تسوء. وتناول لفيفة الخيوط من على الطاولة ووضعها في جيب بنطلونه.

وتردّد: «أمامي طريق طويلة. وسوف يصيبني الحرّ». وكان بودّه لو يأخذ سترته من الفلانيل، ولكنّه لم يكن قد اعتاد أن يخضع بسهولة لرغباته، ثم إنّه سيكون مضحكًا أن يسير تحت الشمس، محمرًّا سائل العرق، وبين ذراعيه هذا العبء، مضحكًا وغريبًا بعض الشيء: وقد ابتسم لهذا، فاختار سترته من التويد البنفسجي التي لم يكن يحتملها بعد منذ نهاية أيّار. ورفع السلّة من عروتها وفكّر: «ما أثقلها، هذه الحيوانات القذرة!» وكان يتصوّر وضعها الذليل المربك وذعرها الشديد. «هذا إذن ما كنت أحبّه!». كان حسبه أن يحبس المعابيد الثلاثة في سجن من الخيزران لتعود قططًا، مجرّد قطط، ضرعيّات صغيرة مغرورة ومحدودة تموت من الرعب ـ فاقدة القدسيّة إلى أبعد حدّ ممكن. «قطط! لم تكن إلّا قططًا» وأخذ يضحك: وكان يشعر كما لو أنّه يمثّل على أحد. وحين اجتاز باب الدخول، أخذه غثيان، ولكنّ ذلك لم يدم: كان يشعر وهو على الدرج بأنّه قاسٍ وجاف، وتحت ذلك نتانةٌ غريبة، نتانة لحم نيء. وكانت البوّابة على عتبة الباب، فابتسمت له. وكانت تحبّ دانيال كثيرًا لأنّه كان شديد اللياقة والأناقة:

ـ أنت مبكّر جدًّا يا سيّد سورينو.

فأجاب دانيال بلهجة اهتمام: ـ كنت أخشى أن تكوني مريضة يا سيّدتي العزيزة. لقد عدت متأخّرًا مساء أمس، فرأيت النور تحت باب غرفتك.

فقالت البوّابة وهي تضحك: ـ لقد كنت من فرط التعب بحيث نمتُ من غير أن أُطفئ النور. وفجأة سمعتك تدقّ الجرس، فقلت: آه، هذا السيّد سورينو. ولم يكن خارج البناية سواك. وبعد ذلك مباشرة أطفأت النور، وكانت الساعة زهاء الثالثة، أليس كذلك؟

ـ تقريبًا . . .

قالت: ـ حسنًا! أظنّ أنّ معك سلّة كبيرة؟

ـ إنّها قِطّتي.

ـ أتكون مريضة، الحيوانات المسكينة الصغيرة؟

ـ لا، ولكنّي آخذها إلى بيت أختي في «مودون». إنَّ الطبيب البيطري يقول إنّها بحاجة إلى الهواء.

وأضاف بجدّ: ـ أتعرفين أنّ القطط يمكن أن تصبح مسلولة؟

فقالت البوّابة مأخوذة: ـ مسلولة؟ إذن، اعتنِ بها جيِّدًا. (وأضافت) على أيّ حال، إنّ ذهابها سيحدث فراغًا لديك، وقد اعتدت على رؤيتها، هذه الحيوانات اللطيفة، حين كنت أرتِّب بيتك. ولا بدّ أنّ ذلك يُحزنك.

فقال دانيال: ـ يحزنني كثيرًا، أيّتها السيِّدة ديبوي.

وابتسم لها بسمة رصينة وتركها. «المرائية العجوز، إنّها تكذِب، فلا بدّ أنّها كانت تدلِّلها حين لا أكون في البيت: على أنّي كنت قد منعتها من أن تلمسها، وهي تحسن صنعًا بأن تراقب ابنتها». وعبَرَ المدخل المكشوف فبهره النور، النور القذر المحرق النافذ. وكان يؤلمه في عينيه، وكان هذا متوقّعًا: فليس أفضل من الأصباح الغائمة لمن يكون قد شرب في العشيّة. ولم يكن يرى شيئًا بعد، وكان يسبح في النور وحول رأسه دائرة من حديد. وفجأة رأى ظلّه ضخمًا كثيفًا، مع ظلّ سلّة الخيزران التي كان يؤرجحها في ذراعه. وابتسم دانيال: لقد كان طويلاً جدًّا. وانتصب على طول قامته، ولكنّ الظلّ بقي قصيرًا مشوَّهًا، فكأنّما هو ظلّ قرد من فصيلة الشامبنزي. وقال في نفسه: «الدكتور جيكل ومستر هايد. . . كلَّا لا حاجة بي إلى تاكسي. سوف أنزِّه مستر هايد حتى موقف ٧٢. وسيوصله الأوتوبيس ٧٢ إلى شارنتون». وكان دانيال يعرف، على بعد كيلومتر من هناك، ركنًا منعزلاً على شاطئ السين. وقال في نفسه: «إنِّني بالرّغم من كلّ

شيء لن يُغمى عليّ، فإنّه لا ينقص بعد غير هذا!» وكان ماء السين شديد السواد كثيف الأقذار في ذلك الموضع، مع بقع مخضرّة من الزيت، بسبب مصانع «فيتري». وتأمّل دانيال نفسه في نفور: وكان يحسّ نفسه من شدّة العذوبة، في الداخل، من شدّة العذوبة بحيث إنّ ذلك لم يكن طبيعيًّا. وفكّر: «هو ذا الإنسان» في شيء من الرضى. لقد كان قاسيًا كلّه ومسدودًا، وكانت تحت ذلك ضحيّةٌ صغيرة تطلب الرحمة. وفكّر: «غريب أن يستطيع المرء أن يكره نفسه كأنّما هو إنسان آخر». والواقع أنّ ذلك لم يكن صحيحًا: فمهما فعل، فإنّه لم يكن ثمّة إلّا دانيال واحد. حين كان يحتقر نفسه، كان يحسّ بأنّه ينفصل عن نفسه، وبَأنّه يسبح، كأنّه قاضٍ مجرَّد، فوق خرير غير نقي، ثم كان فجأة يُؤخذ، ويُشْرَق من تحت ويتدبّق في نفسه. وفكَّر «طزّ! سأشرب قطرة». وكان عليه أن يقوم بدورة صغيرة، وسوف يتوقّف عند «شامبيونيه» شارع تايدوس. وحين دفع الباب، كانت الحانة خالية، وكان الخادم يمسح الغبار عن طاولات الخشب الأحمر التي كانت على شكل براميل. كان الظلام لذيذًا في عيني دانيال، وفكّر: «إنَّ بي صداعًا كبيرًا». ووضع السلّة وجلس على كرسيّ عالٍ من كراسي المشرب. وقال الساقي مؤكِّدًا:

ـ طبعًا، قدح ويسكي صغير كثيف.

فقال دانيال بجفاف: ـ كلّا.

فلينفلقوا بعادتهم تلك في تصنيف الناس، كأنّما هم مظلّات أو ماكنات خياطة. أنا لست... إنَّ المرء ليس شيئًا قطّ. ولكنّهم يعرِّفونك بحركة يد. فهذا يمنح هبات سخيّة، وذلك خفيف الظلّ، وأنا أحبّ أقداح الويسكي الصغيرة الكثيفة.

وقال دانيال: ـ قدح جن ـ فز.

فأتاه الساقي بما طلب من غير أن يبدي أيّة ملاحظة: لا بدّ أنّه كان منزعجًا. هذا أفضل. لن أضع قدمي بعد الآن في هذه الحانة، إنّهم أكثر

ألفة ممّا ينبغي. ثم إنّ مذاق الجن ـ فز، كان مذاق ليموناضة تطهيريّة. وكانت تتناثر غبارًا محمضًا على اللسان وتنتهي بمذاق فولاذي. وفكّر دانيال: إنّها لا تؤثّر فيّ بعد.

ـ أعطني قدح فودكا مفلفلة في كأس مستديرة.

وشرب الفودكا وظلّ لحظة وهو يحلم، وفي فمه شُهُبٌ ناريّة. كان يفكّر: «ألن ينتهي ذلك أبدًا؟» ولكنّها كانت أفكارًا سطحيّة، كما هو المألوف، شيكاتٍ بلا رصيد. «ما الذي لن ينتهي أبدًا؟ ما الذي لن ينتهي أبدًا؟» وسُمع مواءٌ قصير وخربشة، فقفز الساقي، وقال دانيال بإيجاز:

ـ إنّها قطط.

ونزل عن الكرسيّ العالي، ورمى عشرين فرنكًا على الطاولة ثم أخذ السلّة. وحين رفعها، اكتشف أنّها خلّفت على الأرض نقطة صغيرة حمراء: وكان ذلك دمًا. وفكّر دانيال في ضيق: «ما عساها تصنع في الداخل؟» ولكنّه لم يكن راغبًا في رفع الغطاء. لم يكن في السلّة، هذه اللحظة، إلّا خوف كثيف غير متميِّز: فإذا فتح السلّة، عاد هذا الخوف فأصبح قططه، وهذا ما لم يكن دانيال ليحتمله. «آه! لن تستطيع احتماله؟ وإذا رفعته، ذلك الغطاء؟» ولكنّ دانيال كان قد خرج، وعاد النور يعشي عينيه، وكان عشاءً شفّافًا لزجًا: إنّ عينيك تتأكلانك، فتحسب أنّك لا ترى إلّا نارًا، ثم تلاحظ فجأة أنّك إنّما كنت ترى بيوتًا لفترة طويلة، بيوتًا تبعد عنك مئة خطوة، مشرقة وخفيفة، كأنّها الدخان: وفي جوف الطريق، كان ثمّة جدار كبير أزرق. وفكّر دانيال: «إنّ من المحزن أن يرى المرء بوضوح». وكان يتخيّل الجحيم على هذا الشكل: نظرًا يخترق كلّ شيء، وبه يستطيع المرء أن يرى آخر الدنيا حتى أعماق نفسه. وتحرّكت السلّة من تلقاء نفسها في ذراعه، إنّها تخربش في الداخل. هذا الذعر الذي يحسّه قريبًا من يده، لم يكن ليدرك تمامًا إذا كان يُحدث لديه اشمئزازًا أم يُحدث لذّة: والحقّ أنّ ذلك سواء. وفكّر دانيال: «مهما يكن، فإنّ هناك ما يطمئنها، إنّها تشعر

برائحتي. هذا صحيح. فأنا بالنسبة إليها رائحة». ولكن صبرًا: إنّ دانيال لن يلبث طويلاً حتى يفقد هذه الرائحة المألوفة، وسوف يتنزّه بلا رائحة، وحيدًا بين الناس الذين لا يملكون حواسَّ مرهفةً تمكّنهم من أن يعرفوك بالرائحة. إنّه يودّ أن يكون بلا رائحة ولا ظلّ، ولا ماض، ألّا يكون شيئًا آخر غير انتزاع من نفسه، لا يُلحظ، نحو المستقبل. ولاحظ دانيال أنّه يرى نفسه قادمًا، وهو يعرج قليلاً بسبب حمله، غارقًا في العرق. كان يرى نفسه قادمًا، ولم يكن بعد إلّا مجرّد نظر. ولكن مرآة مصبغةٍ عكست له صورته، فتبدّد الوهم. وامتلأ دانيال بماء موحل وتافه: هو نفسه. سيملأ ماء السين التافه الموحل السلّة، وستتمزّق القطط فيما بينها بمخالبها. وغمره اشمئزاز كبير، ففكّر: «إنّه عمل مجّاني» وكان قد توقّف ووضع السلّة أرضًا: «إنّ المرء يعذّب نفسه عبر الأذى الذي يُلحقه بالآخرين. وليس بوسعه قطّ أن يبلغ نفسه مباشرة». وفكّر من جديد بالقسطنطينيّة: لقد كانوا يحبسون الزوجات الخائنات في كيس مملوء بالقطط الكلبة ثم يرمون بالكيس في البوسفور. براميل، أكياس من جلد، سلال من خيزران: سجون. «هناك ما هو أسوأ من ذلك». وهزّ دانيال كتفيه: فكرة أخرى ليس لها من رصيد. إنّه لم يكن يريد أن يمثّل دورًا فاجعًا، فهو قد فعل ذلك بما فيه الكفاية في الماضي، وإنّ من يمثّل الأدوار الفاجعة يأخذ نفسه أخذًا جادًّا. وأبدًا، أبدًا، لن يأخذ دانيال نفسه أخذًا جادًّا. وظهر الأوتوبيس فجأة، فأشار دانيال للسائق وصعد في الدرجة الأولى.

ـ كم إلى نهاية الخطّ؟

ـ فقال قاطع التذاكر: ـ ستّ قسائم.

سيثير ماء السين جنونها. الماء البنّي ذو الانعكاسات البنفسجيّة. وأقبلت امرأة تجلس قبالته، برصانة واكفهرار، ومعها طفلة. ونظرت الطفلة إلى السلّة باهتمام، ففكّر دانيال «ذبابة صغيرة قذرة» وماءت السلّة، فانتفض كما لو أنّه أُخذ بجرم قتل. سألت الطفلة بصوت واضح:

ـ ما هذا؟

فقالت أمّها: ـ شت.. أتريدين أن تتركي السيّد وشأنه؟

قال دانيال: ـ إنّها قطط.

وسألت الطفلة: ـ وهل هي لك؟

ـ نعم.

ـ ولماذا تحملها في سلّة؟

فأجاب دانيال بعذوبة: لأنّها مريضة.

ـ هل أستطيع أن أراها؟

قالت أمّها: إنّك تبالغين يا جانين.

ـ لا أستطيع أن أريك إيّاها، فإنّ المرض قد جعلها شرِّيرة.

فقالت الطفلة بلهجة تعقُّل ساحرة:

ـ أوه... إنّها لن تكون معي شرِّيرة.

فقال دانيال بصوت منخفض سريع:

ـ أتظنِّين ذلك؟ اسمعي يا صغيرتي العزيزة.. إنِّني أريد أن أغرقها، قططي... هذا ما سأفعل، وهل تعرفين لماذا؟ لأنّها، في هذا الصباح بالذات، مزّقت وجه فتاة صغيرة جميلة مثلك أتت تحمل إليّ الزهور. وسوف يضطرّون إلى أن يضعوا لها عينًا من زجاج.

فقالت الطفلة مذعورة: ـ ها!

ونظرت لحظة إلى السلّة بجزع ثم ارتمت في أحضان أمّها. وقالت الأمّ وهي تدير نحو دانيال عينين مغتاظتين:

ـ لا لا! أترين؟ يجب أن يكون الأطفال هادئين وألّا يثرثروا في كلّ لحظة. ولكن لا بأس يا قطّتي الصغيرة، لا شيء هناك، وإنّما أراد السيّد أن يمزح.

وبادلها دانيال نظرتها بهدوء، «إنّها تحتقرني»، هذا ما فكّر به وهو راضٍ. وكان يرى خلف الزجاج بيوتًا رماديّة تنخطف، وكان يعلم أنّ المرأة تنظر إليه: «أمّ مغتاظة. إنّها تبحث عمّا يمكنها أن تحتقره فيّ. وليس ذلك وجهي». فلم يكن ثمّة من يحتقر وجه دانيال. «ولا ثوبي فهو جديد ورقيق. آه! ربّما يديّ». كانت يداه قصيرتين وقويّتين، وسمينتين بعض الشيء، وعلى أصابعهما شعرٌ أسود. وبسطهما على ركبتيه: «انظري إليهما، هيا انظري إليهما!» ولكنّ المرأة كانت قد تخلّت عن متابعة المباراة: كانت تحدِّد نظرها أمامها تحديدًا غليظًا، وكانت تلتمس الراحة. وتأمّلها دانيال في شيء من الشراهة: هؤلاء الناس الذين كانوا يرتاحون، كيف كانوا يعملون؟ كانت قد تركت نفسها تسقط بكلّ قوّتها في نفسها بالذات وتذوب فيها. ولم يكن شيء في هذا الرأس يشبه فرارًا مجنونًا من الذات، أو فضولاً أو حقدًا أو أيّة حركة، حتى ولا تموّجًا خفيفًا: لا شيء إلّا عجينة النوم الكثيفة. واستيقظت فجأة، وأقبلت هيئة انتعاش ترتسم على وجهها وقالت:

ـ هنا، هنا. تعالي إذن! ما أشدّ ما يزعجني أن أجرجرك دائمًا!

وأخذت ابنتها من يدها وسحبتها. وقبل أن تنزل الطفلة التفتت وألقت نظرة ذعر على السلّة وانطلق الأوتوبيس ثم توقّف، ومرّ أمام دانيال أشخاص يضحكون، وصاح به قاطع التذاكر:

ـ آخر الخطّ.

وانتفض دانيال: كانت السيّارة فارغة. نهض ثم هبط. كانت ساحة تغصّ بالنساء، والحانات منتشرة فيها، وجماعة من العمّال والنساء متجمِّعة حول عربة. نظرت بعض النساء إليه بدهشة. فحثّ خطاه إلى زقاق قذر يهبط نحو السين. وكان على جانبي الطريق براميل ومستودعات. وكانت السلّة قد أخذت تموء بلا انقطاع، ودانيال يكاد يعدو: كان يحمل دلوًا مثقوبًا يسقط منه الماء نقطة نقطة. وكانت كلّ موأة نقطة ماء. كان الدلو

ثقيلاً، فأخذه دانيال بيده اليسرى، ومسح جبينه باليمنى. كان لا ينبغي التفكير بالقطط. آه! إنّك لا تريد التفكير بالقطط؟ طيّب! ينبغي إذن أن تُفكِّر فيها بالذات، وهذا أمرٌ شديد اليسر! وتمثّل دانيال عيني بوبيه الذهبيّتين وفكّر بسرعة في أيّ شيء، في البورصة حيث ربح عشرة آلاف فرنك في الليلة الماضية، وفي مارسيل، التي كان ينبغي أن يراها في المساء نفسه، فإنّ هذا كان يومه: «الملاك الأكبر!» وقهقه دانيال: كان يحتقر مارسيل احتقارًا عميقًا: «إنّهما لا يملكان الجرأة للاعتراف بأنّ أحدهما لا يحبّ الآخر بعد. ولئن كان ماتيو يرى الأمور على حقيقتها، فعليه أن يتَّخذ قرارًا. ولكنّه لا يريد. إنّه لا يريد أن يضيِّع نفسه. إنّه هو، طبيعي سليم». هكذا فكّر دانيال بسخرية. وماءت القطط كما لو أنّها قد غطست في ماء غالٍ وأحسّ دانيال بأنّه يضيِّع رشده. وضع السلّة أرضًا ثم رفسها رفستين عنيفتين، فقامت فيها فوضى واضطراب، ثم صمتت القطط. وظلّ دانيال جامدًا لحظة وهو يشعر برعشة خلف أذنيه. وخرج عمّالٌ من أحد المستودعات، فتابع دانيال سيره. وصل وهبط درجًا حجريًّا إلى شاطئ السين وجلس أرضًا بالقرب من حلقة حديديّة، بين برميل من القطران وركام من البلاط. وكان السين أصفر تحت السماء الزرقاء. وقوارب سوداء مملوءة بالبراميل مربوطة إلى الرصيف المقابل. كان دانيال جالسًا في أشعّة الشمس، وصدغاه يؤلمانه. ونظر إلى الماء المتموِّج المنتفخ الذي كانت تنبعث منه إشعاعات لبنيّة، ثم أخرج من جيبه مكبّه وقطع بسكِّينه طرفًا طويلاً من خيط. ومن غير أن ينهض، تناول بيده اليسرى بلاطة، فأطبق أحد طرفي الخيط على عروة السلّة ولفّ بقيّته حول البلاطة، ثم عقد عدّة عقد ووضع البلاطة على الأرض. فإذا هو أمام آلة غريبة. وفكّر دانيال بأنّ عليه أن يحمل السلّة باليد اليمنى والبلاطة باليد اليسرى فيسقطهما في الماء في وقت واحد. وربَّما عامت السلّة عُشر ثانية ثم تجذبها قوّة وحشيّة إلى أعماق الماء فتغرق فورًا. وفكّر دانيال بأنّ الحرّ يزعجه، فلعن سترته السميكة ولكنّه لم يرد أن ينتزعها. كان ذلك يخفق فيه، ويطلب الرحمة،

وكان دانيال ينظر إلى نفسه وهو يئنّ، قاسيًا جافًّا: «إنّ من لا يملك الجرأة على أن يقتل نفسه بالجملة، يجب أن يفعل ذلك بالتفصيل» لسوف يقترب من الماء، وسوف يقول: وداعًا لما أحبّه أكبر الحبّ في هذا العالم...» ونهض قليلاً على يديه، ونظر حوله: إلى اليمين كان الشاطئ خاليًا، وإلى اليسار، في البعيد، رأى صيّادًا أسود في الشمس. إنّ التموّجات ستنتشر تحت الماء، حتى تبلغ فلّينة شبكته: «وسوف يظنّ أنّ سمكة ما تعضّ». وضحك وأخرج منديله ليمسح العرق الذي كان يتلألأ على جبينه. كان عقربا الساعة اليدويّة يشيران إلى الحادية عشرة وخمس وعشرين. «عند الحادية عشرة والنصف». وكان ينبغي أن يطيل هذه اللحظة العجيبة: لقد كان دانيال مزدوجًا، وقد أحسّ نفسه ضائعًا في غيمة عقيقيّة، تحت سماء من رصاص، وفكّر بماتيو بشيء من الكبرياء، وقال لنفسه «أنا الحرّ». ولكنّها كانت كبرياء لاشخصيّة، لأنّ دانيال لم يكن بعد أحدًا. ونهض في الحادية عشرة والدقيقة التاسعة والعشرين وكان يحسّ أنّه من الضعف بحيث اضطرّ إلى الاعتماد على البرميل. وعلقت بسترته التويد لطخة من القطران فنظر إليها.

ورأى اللطخة السوداء على القماشة البنفسجيّة وشعر فجأة أنّه لم يكن بَعدُ إلّا واحدًا. واحدًا. جبانًا. شخصًا كان يحبّ قططه ولا يريد أن يقذف بها في الماء. وأخذ سكّينه وانحنى فقطع الخيط. في صمت: فحتى في داخله كان يسود الصمت، وكان من الخجل بحيث لم يطق أن يتحدّث أمام نفسه. وأخذ السلّة وعاد يصعد الدرج: فكان كما لو أنّه يمرّ وهو يلفت رأسه أمام إنسان كان ينظر إليه بازدراء. وكان الخلاء والصمت ما يزالان في نفسه. وحين بلغ أعلى الدرجات، جرؤ على أن يوجد لنفسه الكلمات الأولى: «ماذا كانت تلك القطرة من الدم؟» ولكنّه لم يجرؤ على فتح السلّة: فأخذ يمشي وهو يعرج. هذا أنا. هذا أنا. هذا أنا. القذر. ولكن كان في أعماقه نوع غريب من الابتسام لأنّه أنقذ بوبيه. وصاح:

ـ تاكسي!

فتوقّف التاكسي. وقال دانيال:

ـ ٢٢، شارع مونمارتر. هل تريد أن تضع هذه السلّة بالقرب منك؟

واستسلم لهدهدة التاكسي. ولم يعد يحتقر نفسه. ثم تغلّب الخجل مرّة أخرى وعاد يرى نفسه: وكان هذا غير مُحتمل. وفكّر بمرارة: «لا بالجملة ولا بالتفصيل» وحين تناول محفظته ليدفع للسائق، لاحظ بلا فرح أنّها كانت محشوة بالأوراق الماليّة. «أن أربح المال، نعم، أستطيع أن أفعل ذلك».

وقالت البوّابة:

ـ ها أنت ذا قد عدت، يا سيّد سورينو؟ إنّ أحدًا قد صعد اللحظة إلى بيتك. أحد أصدقائك، رجل طويل ذو كتفين هكذا. وقلت له إنّك غير موجود. فقال: ليس موجودًا؟ إذن سأدع ورقة تحت بابه.

ونظرت إلى السلّة وقالت:

ـ ولكنّك أعدتها، الحيوانات اللطيفة؟

فقال دانيال:

ـ ماذا تريدين أيّتها السيّدة ديبوي؟ قد يكون ذلك عملاً إجراميًا، ولكنّني لم أستطع أن أنفصل عنها.

وفكّر وهو يرقى السلّم: «إنّه ماتيو. إنّ هذا يجيء في أوانه تمامًا». وكان مسرورًا أن يستطيع كره أحد. والتقى بماتيو عند الشقّة الثالثة، فقال ماتيو:

ـ مرحبًا، كان أملي قد انقطع في رؤيتك.

فقال دانيال: ـ لقد ذهبت أنزّه قططي.

وأدهشه أن يستشعر في داخله لونًا من الحرارة. وسأله بسرعة:

ـ إنّك تصعد معي ثانية؟

ـ نعم. إنّ لديّ خدمة أودّ أن أطلبها منك.

فرماه دانيال بنظرة سريعة ولاحظ أنّ وجهه كان معفّرًا، وفكّر: «يبدو عليه أنّه منزعج». وكان راغبًا في مساعدته. وصعدا. ووضع دانيال المفتاح في القفل ثم دفع الباب. وقال: «تفضّل ادخل» ولمس كتفه لمسًا خفيفًا ثم سحب يده على الفور. ودخل ماتيو غرفة دانيال واقتعد أريكة وقال:

ـ لم أفهم شيئًا ممّا قالته لي البوّابة. كانت تزعم أنّك حملت قططك إلى بيت أختك. فهل تصالحت مع أختك؟

فتثلّج شيء في نفس دانيال: «ما عساها تكون هيئته لو عرف من أين أنا آتٍ؟» ونظر من غير ودّ إلى عينيْ صديقه النافذتين الجادّتين: «هذا صحيح. إنّه هو طبيعي وسليم». وأحسّ أنّ هوّة تفصله عنه. وضحك وقال:

ـ آه! نعم! بيت أختي... لقد كانت كذبة صغيرة بريئة. وكان يعلم أنّ ماتيو لا يلحّ: فقد كان ماتيو معتادًا عادة مزعجة وهي أن يعامل دانيال كإنسان مولع بالكذب، ويتصنّع أنّه لا يهتمّ قطّ لمعرفة الدوافع التي كانت تدفعه إلى الكذب. والواقع أنّ ماتيو حدَّج السلّة بنظر حائر، وصمت.

وسأله دانيال: ـ أتسمح لي بلحظة؟

وكان قد أصبح جافًّا كلّيًّا. ولم تكن له إلّا رغبة واحدة. أن يفتح السلّة بأسرع وقت ممكن: «ماذا كانت تلك النقطة من الدم؟» وركع وهو يفكّر: «سوف تثب على وجهي». وقرّب وجهه فوق الغطاء بحيث يكون في متناولها تمامًا. وفكّر وهو يفتح الغطاء: «إنّه محتاج إلى بعض الإزعاج. وهذا ما يفقده لفترة من الزمن تفاؤله وهيئته المستقرّة» وأفلتت بوبيه من السلّة وهي تزمجر وفرّت إلى المطبخ. وخرج سيبيون بدوره: وكان قد حافظ على كرامته، ولكن لم يكن يبدو قَطّ مطمئنًّا. ومشى على مهل حتى

الخزانة، ونظر فيما حوله نظرة عجلى، ثم تمطّى وتسرّب تحت السرير. ولم تكن ملڤينا لتتحرّك. ففكّر دانيال: «إنّها مجروحة» وكانت قابعة في قعر السلّة، متلاشية. ووضع دانيال أصبعًا تحت ذقنها وقسرها على أن ترفع رأسها: لقد تلقّت ضربة مخلب قويّة على أنفها. كانت عينها اليسرى مغمضة، ولكنّ الدم كان قد انقطع. وعلى فقمها قشرة مسودّة، وشعرها حول القشرة متصلّب ولزج.

سأل ماتيو: «ماذا هناك؟» وكان قد نهض وجعل ينظر إلى القطّة بتأدّب. «إنّه يجدني مضحكًا لأنّني منشغل بقطّة. وكان يبدو له ذلك طبيعيًّا جدًّا لو كنت منشغلاً بطفل». وأوضح دانيال:

ـ لقد أصيبت ملڤينا بضربة سيّئة. ولا شكّ أنّ بوبيه هي التي خمشتها. إنّها لا تُطاق. أعذرني يا عزيزي، فأنا أطلب منك دقيقة صغيرة لأعالجها.

ونهض يأتي بزجاجة أرنيكة وعلبة قطن من الخزانة. تبعه ماتيو بعينيه من غير أن يقول كلمة، ثم أمرّ يده على جبينه بحركة عاجزة. وأخذ دانيال يغسل أنف ملڤينا، وكانت القطّة تتخبّط تخبّطًا ضعيفًا. قال دانيال:

ـ كوني جميلة، كوني عاقلة. هيّا، هيّا.

وكان يفكّر بأنّه يزعج ماتيو إلى أبعد حدّ، وذلك يزيده رغبة في العمل. ولكنّه حين رفع رأسه، رأى أنّ ماتيو كان ينظر إلى الفراغ نظرة قاسية.

قال دانيال بأعمق صوت يملكه: ـ اعذرني يا عزيزي، إنّني أحتاج بعد إلى دقيقة صغيرة فقط. كان لا بدّ من أن أغسل هذه الدابّة، فأنت تعرف أنّ الجرح يلتهب بسرعة. ألا أزعجك أكثر ممّا ينبغي؟

أضاف هذه العبارة الأخيرة وهو يوجِّه له بسمة صريحة، فارتعش ماتيو ثم أخذ يضحك. وقال:

ـ تابع، تابع، ولا تنظر بعينيك المخمليّتين.

عيناك المخمليّتان! لقد كان شعور ماتيو بالتفوّق شيئًا كريهًا: «هو يحسب أنّه يعرفني، وهو يتحدّث عن أكاذيبي. وعن عينيّ المخمليّتين. إنّه لا يعرفني على الإطلاق، ولكن يسلّيه أن يلصق عليّ طابعًا، كما لو كنت شيئًا».

وضحك دانيال في ودّ ومسح بعناية رأس ملقْينا. كانت ملقْينا تغمض عينيها، وعليها مظاهر النشوة، ولكنّ دانيال كان يعلم جيّدًا أنّها تتألّم. وربت على جنبيها تربيتة صغيرة. وقال وهو ينهض:

ـ هكذا! غدًا لن يظهر الجرح بعد. ولكنّ الأخرى بعثت لها بضربة مخلب شديدة لو تعلم!

فقال ماتيو بلهجة غياب: ـ بوبيه؟ إنّها خبيثة.

ثم قال فجأة:

ـ إنّ مارسيل حامل.

ـ حامل!

وكانت دهشة دانيال قصيرة المدى، ولكن كان عليه أن يقاوم رغبة شديدة في الضحك. هكذا إذن! «صحيح.. إنّهنّ يَبُلن دمًا كلّ شهر قمري، وهنّ فوق ذلك قادرات على التناسل كالوَرَنك[1]». وفكّر باشمئزاز في أنّه سيراها في المساء ذاته. «إنّني أتساءل عمّا إذا كانت لديّ الشجاعة للمس يدها».

قال ماتيو بلهجة موضوعيّة:

ـ إنّني مرتبك ارتباكًا قذرًا.

فنظر إليه دانيال وقال بإيجاز:

---

(١) سمك بحري.

ـ أنا أفهم موقفك.

ثم سارع يوليه ظهره بحجّة أنّه ذاهب يضع زجاجة الأرنيكة في الخزانة. وكان يخشى أن ينفجر فيه ضاحكًا. وأخذ يفكّر في موت أمّه، وكان هذا يخطر دائمًا على باله في مثل هذه المناسبات. وانتفض انتفاضتين متشنّجتين أو ثلاثًا. كان ماتيو ماضيًا في التكلّم خلف ظهر دانيال. فقال:

ـ القضيّة أنّ هذا يُذلّها. أنت لم ترها كثيرًا، فلم تستطع أن تدرك الأمر. إنّها نوع من «الوالكيري» (وأضاف بلا خباثة) والكيري في الغرفة. والأمر في نظرها سقوط مريع.

فقال دانيال في دافع من المشاركة:

ـ أجل، ثم إنّ القضيّة بالنسبة إليك لا تستحقّ هذا. فبالرّغم ممّا أحسنت إليها، لا تتورّع عن أن تجلب لك الذعر الآن. أنا أعلم أنّ مثل هذا يقتل الحبّ عندي لو حدث.

فقال ماتيو: ـ لا أكنُّ لها بعد حبًّا.

ـ صحيح؟

وكان دانيال عميق الدهشة والتسلية: «ستشهد هذا المساء فصلاً رياضيًّا». وسأله:

ـ هل قلت لها هذا؟

ـ بالطبع لا.

ـ ولماذا «بالطبع»؟ ينبغي لك أن تصارحها بذلك. هل...

ـ لا، لا أريد أن أتركها، إذا كان هذا ما تقصد إليه.

ـ وإذن؟

كان دانيال يجد متعة كبيرة، وكان يستعجل الزمن ليجتمع بمارسيل. قال ماتيو:

ـ إذن لا شيء. فليكن. فليست هي غلطتها إذا لم أَعُدْ أحبّها!

ـ وهل هي غلطتك؟

فقال ماتيو باختصار: ـ نعم.

ـ ستستمرّ في رؤيتها بالسرّ وفي...

ـ سأستمرّ في رؤيتها وفي...

ـ وبعد ذلك؟

فقال دانيال: ـ إذا مثّلت طويلاً هذا الدور، فسينتهي بك الأمر إلى أن تكرهها.

بدت على ماتيو القسوة وكأنّه صُدم:

ـ لا أريد أن يلحق بها الضيق والانزعاج.

قال دانيال بلا مبالاة: ـ هذا إذا كنت تؤثر أن تضحّي بنفسك.

وحين كان ماتيو يقلّد شيعة «الكواكر»[1]، فإنّ دانيال كان يكرهه.

ـ ما عساني أضحّي به؟ سأذهب إلى المعهد، وسأرى مارسيل. وسأكتب قصّة كلّ عامين. وهذا هو بالذات ما فعلته حتى الآن. ثم أضاف بمرارة لم يكن دانيال يعهدها عنده:

ـ أنا كاتب من كتّاب الأحد. ومن جهة أخرى، أراني متعلّقًا بها، وأنّه يزعجني كثيرًا ألّا أراها. غير أنّ ذلك يشبه الآن الصلات العائليّة.

وساد صمت.. وأقبل دانيال يجلس في الأريكة، تجاه ماتيو. قال ماتيو:

ـ يجب أن تساعدني. إنّ عندي عنوانًا. ولكنّ ليس معي مال. أعرني خمسة آلاف فرنك.

---

(١) شيعة المرتعشين البروتستانتيّة.

فردّد دانيال بلهجة غير واثقة: ـ خمسة آلاف فرنك؟

محفظته المتورِّمة، المحشوّة في جيبه الداخلي، محفظة بائع الخنازير، كان حسبه أن يفتحها، وأن يتناول منها خمس أوراق. لقد سبق لماتيو أن أدّى له الخدمات مرارًا. وقال ماتيو:

ـ سأردّ لك نصف المبلغ في آخر الشهر. والنصف الآخر يوم ١٤ تمّوز، لأنّني في ذلك اليوم سأقبض راتبيْ آب وأيلول معًا.

ونظر دانيال إلى سحنة ماتيو المعفّرة وفكّر: «إنّ هذا الشخص منزعج تمامًا». ثم فكّر بالقطط وأحسّ أنّه غير قابل للرحمة والشفقة. وقال بصوت آسف:

ـ خمسة آلاف فرنك! ولكنّي لا أملكها يا عزيزي، وإنّي شديد الأسف.

ـ لقد قلت لي ذات يوم إنّك ستعقد صفقة طيّبة.

فقال دانيال: ـ اسمع يا عزيزي المسكين: إنَّ صفقتك الطيّبة كانت خيبة عظيمة، وأنت تعرف ما هي البورصة. ثم إنّ الأمر بسيط جدًّا، فليس لديّ بعد إلّا ديون.

ولم يسبغ على صوته كثيرًا من الإخلاص لأنّه لم يكن راغبًا في الإقناع. ولكن حين رأى أنّ ماتيو لم يكن يصدِّقه، أخذه الغضب: «ليحلّ عن ظهري: إنّه يحسب نفسه عميقًا، ويتخيّل أنّه يقرأ في أعماقي. وأنا أتساءل: لماذا يريدني أن أساعده: فليس عليه إلّا أن يلجأ لأمثاله». والذي كان أمرًا لا يُطاق هو هذه الهيئة الطبيعيّة المركّبة التي لم يكن ماتيو ينجح في فقدها، حتى في الأوضاع الفاجعة. قال ماتيو باندفاع:

ـ حسنًا! إذن لا تستطيع حقًّا؟

وفكّر دانيال: «لا بدّ أنّه محتاج إليها حاجة ماسّة حتى يلّح هذا الإلحاح».

ـ لا أستطيع حقًّا. إنّني متأسِّف يا عزيزي.

وكان منزعجًا بانزعاج ماتيو، ولكن ذلك كان أمرًا لا يخلو من اللذّة: فقد كان لديه شعور بأنّه يردّ لنفسه ظِفْرًا. وكان دانيال يحبّ المواقف الزائفة حبًّا كبيرًا.

وسأله بروح المشاركة: ـ هل أنت محتاج إليها حاجة عاجلة؟ ألا يمكنك أن تستعين بآخرين؟

ـ أوه! أنت تعلم، كان هذا خصوصًا لتفادي اللجوء إلى جاك.

فقال دانيال خائبًا بعض الشيء: ـ صحيح. إنّ هناك أخاك. أنت في هذه الحالة واثق من الحصول على حاجتك.

فبدا على ماتيو اليأس:

ـ ليس الأمر كذلك. لقد قرّر في رأسه أنّه ينبغي ألّا يعيرني بعد فلسًا، وأنّ ذلك بمثابة خدمة سيّئة لي. وقد قال لي: «إنَّ عليك، وأنت في هذه السنّ، أن تكون مستقلًّا».

فقال دانيال في وضوح:

ـ أوه! ولكن في مثل هذه الحالة، أكيد أنّه يعيرك مالاً.

ومدّ على مهل طرف لسانه وأخذ يلحس به الشفّة العليا برضى: لقد عرف أن يجد على التوّ تلك اللهجة التفاؤليّة السطحيّة المتحمِّسة التي كانت تثير غضب الناس. وكان ماتيو قد احمرّ:

ـ لا أستطيع أن أقول له إنّ ذلك من أجل هذا بالذات.

قال دانيال: ـ هذا صحيح. (وفكّر لحظة) مهما يكن من أمر، فأمامك بعد كما تعلم تلك الشركات التي تُقرض الموظّفين. وعليّ أن أقول إنّ الناس يقعون في معظم الأحوال على مرابين. ولكنّ الفائدة لا تؤثِّر عليك، بمجرّد أن يكون معك المال.

فبدا على ماتيو الاهتمام، وفكّر دانيال في ضجر بأنّه قد طمأنه بعض الشيء:

ـ من هم هؤلاء الناس؟ هل يعيرون المال على التوّ؟

فقال دانيال بحيويّة: ـ آه، كلّا فذاك يقتضي عشرة أيَّام. يجب عليهم أن يحقِّقوا في الأمر.

وصمت ماتيو، وكان يبدو أنّه يفكِّر. استشعر دانيال فجأة صدمة صغيرة ليّنة: لقد قفزت ملڤينا إلى ركبتيه فاستقرّت عليهما وهي تهمهم: «هذه واحدة ليس عندها حقد». هذا ما يفكِّر به في اشمئزاز. وأخذ يربت عليها بيد خفيفة مهملة. لم تكن الحيوانات ولم يكن الناس يبلغون أن يكرهوه: بسبب نوع من الجمود المفرط البساطة، ربّما بسبب وجهه. وكان ماتيو قد استغرق في حساباته البائسة الصغيرة: هو أيضًا لم يكن لديه حقد. وانحنى دانيال فوق ملڤينا وأخذ يحكّ رأسها: وكانت يده ترتجف.

قال من دون أن ينظر إلى ماتيو:

ـ سأكون في الحقيقة مسرورًا بأن لا يكون معي مال. وقد فكّرت في ذلك: أنت الذي تريد دائمًا أن تكون حرًّا، إنّ ذلك يمنحك فرصة رائعة لتقوم بعمل من أعمال الحرِّيّة.

ولم يبدُ على وجه ماتيو أنّه فهم، فقال:

ـ عملٍ من أعمال الحرِّيّة؟

ورفع دانيال رأسه، وقال:

ـ نعم، ليس لك إلّا أن تتزوَّج مارسيل.

فنظر إليه ماتيو وهو يقطِّب حاجبيه: ولا بدَّ أنّه كان يتساءل عمّا إذا لم يكن دانيال يسخر منه. وحدّد دانيال بصره بجد متواضع. فسأله ماتيو:

ـ هل أنت مجنون؟

ـ ولماذا؟ ليس أمامك إلّا كلمة تقولها فتتغيّر حياتك كلّها، وهذا ما لا يحدث كلّ يوم.

فأخذ ماتيو يضحك، وفكّر دانيال منزعجًا: «إنّه يفضِّل من الموضوع

جانبه المضحك»، وقال ماتيو:

ـ إنّك لن تنجح في إغرائي، ولا سيّما في هذه اللحظة.

فقال دانيال باللهجة الخفيفة نفسها:

ـ ولكنّ الحقيقة أنّه لا بدّ أن يكون مسلّيًا جدًّا أن يفعل الإنسان عكس ما يريده. فهو إذ ذاك يشعر بأنّه أصبح شخصًا آخر.

فقال ماتيو: ـ وأيّ شخص آخر؟ أتريدني أيضًا أن أصنع ثلاثة أطفال، لمجرّد اللذّة في أن أُحسّني شخصًا آخر حين آخذهم إلى النزهة في اللوكسمبورغ؟ إنّني أتصوّر في الحقيقة أنّني سأتغيّر إذا أصبحت شخصًا هالكًا تمامًا.

فقال دانيال: «ليس إلى هذا الحدّ، ليس إلى هذا الحدّ الذي تظنّ». ثم قال:

ـ يبدو أنّه ليس مزعجًا إلى حدٍّ كبير أن يكون المرء شخصًا هالكًا، ولكنّه في هذه الحالة هالك برمّته، مدفون. شخص متزوّج وله ثلاثة أطفال كما تقول. ولا بدّ أنّ هذا يهدّئك؟

قال ماتيو: ـ صحيح. إنّني ألتقي أشخاصًا كهؤلاء كلّ يوم. مثلاً: آباء طلّاب يأتون لرؤيتي. أربعة صبيان، أزواج مخدوعون، أعضاء جمعيّة أهل الطلّاب. إنّهم يبدون أقرب إلى الهدوء، بل إنّهم ذوو وداعة.

قال دانيال: ـ ولديهم أيضًا نوع من المرح. إنّهم يصيبونني بالدوار. وأنت، ألا يغريك ذلك حقًّا؟ إنّني أتمثّلك زوجًا ناجحًا، وستكون مثلهم، سمينًا مرتّبًا قريب النكتة، ذا عينين من السلولوئيد. وأحسبني أنا لا أحتقر ذلك.

قال ماتيو من غير أن ينفعل: ـ إنّ هذا يناسبك. أمّا أنا، فما زلت أفضّل أن أطلب خمسة آلاف فرنك من أخي.

ونهض. فوضع دانيال ملقينا أرضًا ونهض هو أيضًا. «هو يعلم أنّني

أملك المال، ومع ذلك لا يكرهني: فماذا ينبغي إذًا أن نفعل لهم؟».

وكانت المحفظة هناك، وكان بحسب دانيال أن يضع يده في جيبه ويقول: «خذ يا عزيزي، لقد أردت، على سبيل المزاح، أن أتفرّج عليك قليلاً». ولكنّه خشي أن يحتقر نفسه. وقال متردِّدًا:

ـ آسف. سوف أكتب لك إن وجدت وسيلة ما.

وكان قد رافق ماتيو حتى باب الدخول. فقال ماتيو بمرح:

ـ لا ترهق نفسك، سوف أتدبّر أمري.

وأغلق الباب. وحين سمع دانيال قدمه الخفيفة على الدرج، فكّر: «إنّ هذا غير قابل للإصلاح». وأحسّ بانقطاع نَفَسه. لكنّ ذلك لم يطل، فقال في نفسه: «إنّه لم يكفّ لحظة واحدة عن أن يكون معتدلاً، نشيطًا، في غاية الانسجام مع نفسه. صحيح أنّه منزعج، ولكنَّ ذلك يبقى أمرًا خارجيًّا. أمّا في الداخل، فهو في بيته». وذهب ينظر إلى وجهه الجميل القاتم في المرآة، وفكّر: «مهما يكن، فإنّه يساوي ألفًا لو كان مجبرًا على أن يتزوّج مارسيل».

٨

كان قد مضى على يقظتها وقت طويل، ولا بدّ أنّها كانت تتأكّل. وكان ينبغي طمأنتها والتأكيد لها بأنّها لن تذهب إلى هناك في أيّ حال. وتمثّل ماتيو بحنان وجهها المسكين الخرب الذي رآه ليلة أمس، فتبدّى له فجأة أنّه رخص بصورة مؤلمة. «يجب أن أتلفن لها». ولكنّه عزم أن يمرّ أوّلاً ببيت جاك: «لربّما كان عندي خبر جميل أبلغها إيّاه» وكان يفكّر بغيظ في الهيئة التي سيبدو عليها جاك: هيئة تسلية وتعقُّل تتجاوز التأنيب كما تتجاوز الرفق، مع رأس منحنٍ جانبًا وعينين نصف مغمضتين. «ماذا؟ بحاجة أيضًا إلى مال؟» وقف شعر ماتيو لذلك. واجتاز الرصيف وفكّر في دانيال: إنّه لم يكن عاتبًا عليه. هكذا. لم يكن مستطاعًا أن يعتب المرء على دانيال. بل كان عاتبًا على جاك. وتوقّف أمام مبنى مربّع في شارع ريومور، وقرأ بانزعاج، شأنه كلّ مرّة، «جاك دولارو، كاتب في محكمة، الطابق الثاني»: كاتب في محكمة! ودخل وأخذ المصعد، وهو يفكّر: «أرجو ألّا تكون أوديت موجودة».

وكانت موجودة، ولقد لمحها ماتيو عبر الباب الزجاجي للصالون الصغير. كانت جالسة على ديوان، أنيقة طويلة نظيفة إلى حدّ التفاهة، وكانت تقرأ. وكان جاك يقول برضى: إنّ أوديت إحدى نساء باريس النادرات اللواتي يجدن وقتًا للقراءة».

وسألت روز:

ـ هل يريد السيِّد ماتيو أن يرى السيِّدة؟

ـ نعم. سوف أسلِّم عليها، ولكن هل لكِ أن تخبري السيِّد أنّني سألقاه بعد لحظة في مكتبه؟

ودفع الباب، فرفعت أوديت نحوه وجهها الجميل العاق المزيّن، وقالت بلهجة مسرورة:

ـ مرحبًا، ماتيو. هل جئت تزورني؟

فقال ماتيو: «أزورك؟». وكان ينظر بودّ ممتعض هذا الجبن الهادئ العالي وهاتين العينين الخضراوين. كانت جميلة من غير شكّ ولكنّ جمالاً يبدو أنّه كان يفرّ من تحت الأنظار. وكان ماتيو قد حاول مئة مرّة، وهو الذي اعتاد وجوهًا كوجه لولا الذي كان حسّه يفرض نفسه منذ الوهلة الأولى بقسوة ـ حاول أن يمسك هذه الملامح الهاربة. ولكنّها كانت تفرّ، وكان مجموعها ينحلّ في كلّ لحظة فيحتفظ وجه أوديت بسرّه البرجوازي المخيِّب. وقال ماتيو:

ـ وددت لو كانت هذه الزيارة لكِ، ولكن يجب أن أرى جاك، فإنّ عندي خدمة أطلبها منه.

قالت أوديت: ولكنّك لست مستعجلاً إلى هذا الحدّ، إنّ جاك لن يهرب. اجلس هنا.

وأفسحت له مكانًا إلى جانبها. وقالت وهي تبتسم:

ـ حذار، فقد أغضب منك ذات يوم. إنّك تهملني. وإنّ لي الحقّ بأن تزورني شخصيًّا، فلقد وعدتني بذلك.

ـ يعني أنّك أنت التي وعدتني بأن تستقبليني ذات يوم.

فقالت ضاحكة:

ـ كم أنت مؤدَّب! إنّك لست مرتاح الضمير.

وجلس ماتيو. وكان يحبّ أوديت كثيرًا. ولكنّه لم يكن يدري قطّ ما ينبغي أن يقوله لها.

ـ كيف حالكِ يا أوديت؟

وسكب حرارة في صوته ليخفي بلادة سؤاله. فقالت:

ـ جيّدة جدًّا. أتدري أين كنت هذا الصباح؟ كنت في سان جرمان بسيّارتي لأرى فرانسواز، وقد سحرني ذلك.

ـ وجاك؟

ـ إنّه مشغول جدًّا في هذه الأيّام. فأنا لا أكاد أراه. ولكن صحّته فظيعة كالعادة.

وأحسّ ماتيو فجأة باستياء عميق. وفكّر! «إنّها لجاك». ونظر بضيق إلى الذراع الطويلة السمراء التي كانت تخرج من ثوب بسيط جدًّا يشدّه عند الخصر زنّار أحمر، ثوب يكاد يكون لفتاة. كانت الذراع والثوب والجسد الذي تحت الثوب ملك جاك، كهذه الأريكة ذات الوسادة، وهذه الخزانة البلاذريّة، وهذا الديوان. لقد كانت هذه المرأة المتحفّظة المحتشمة تفوح منها رائحة الامتلاك. وساد صمت. ثم اتّخذ ماتيو الصوت الحارّ الأنفي الذي كان يحتفظ به لأوديت، فقال:

ـ إنّ ثوبكِ جميل جدًّا.

قالت أوديت بضحكة مغتاظة:

ـ أوه، اسمع، دعِ هذا الثوب وشأنه! إنّك كلّما رأيتني حدّثتني عن أثوابي. قل لي بالأحرى ماذا فعلت هذا الأسبوع؟

وضحك ماتيو أيضًا وكان يحسّ نفسه منفرجًا:

ـ الحقّ أنّ عندي شيئًا أقوله عن هذا الثوب بالذات.

قالت أوديت: ـ يا إلٰهي، وما عساه يكون؟

ـ إنّني أتساءل عمّا إذا لم يكن واجبًا عليكِ أن تضعي في أذنيكِ أقراطًا حين ترتدينه.

ـ أقراط؟

ونظرت إليه أوديت نظرة فريدة. فقال ماتيو:

ـ هل تجدين أنّ ذلك سيكون مبتذلاً؟

ـ على الإطلاق. ولكن هذا يجعل الوجه غير متحفِّظ.

ثم أضافت فجأة وهي تضحك:

ـ لا شكّ في أنّك ستكون أكثر ارتياحًا معي إذا لبست أقراطًا!

فقال ماتيو بإبهام: ـ كلّا، ولماذا؟

وكان مدهوشًا، وفكَّر: «إنّها ليست غبيّة بالتأكيد». كان رأيه في ذكاء أوديت مثل رأيه في جمالها: لديها شيء لا يمكن لمسه.

وساد صمت؛ لم يدر ماتيو ما يقوله بعد. ومع ذلك، لم يكن راغبًا في الذهاب، كان يتذوّق لونًا من الطمأنينة. وقالت له أوديت بلطف:

ـ إنّني مخطئة في إمساكك. إذهب سريعًا إلى جاك، فيبدو عليك أنّك مهموم.

نهض ماتيو، وفكّر في أنّه سيطلب مالاً من جاك. لقد شعر بتنمّلات في أطراف أصابعه، وقال بشغف:

ـ إلى اللقاء يا أوديت. لا، لا. لا تزعجي نفسكِ سأمرّ ثانية لأودّعك.

وكان يتساءل، وهو يطرق باب جاك، إلى أيّ حدّ كانت هي ضحيّة؟ إنّ المرء لا يعرف الحقيقة مع هذا النوع من النساء.

قال جاك:

ـ ادخل.

ونهض نشيطًا مستقيمًا، وتقدّم من ماتيو. وقال بحرارة:

ـ مرحبًا، أيّها العزيز. كيف الحال؟

وكان يبدو أفتى كثيرًا من ماتيو بالرّغم من أنّه كان البِكر. وكان ماتيو يجده يسمن لدى الجنبين بالرّغم من أنّه كان لا بدّ يلبس مشدًّا.

وقال ماتيو ببسمة ودِّية:

ـ مرحبًا.

كان يستشعر الزيف، إنّه منذ عشرين عامًا يستشعر الزيف كلّما كان يفكِّر بأخيه أو يراه. وقال جاك:

ـ نعم. ما الذي أتى بك؟

فقام ماتيو بحركة مقطِّبة. فسأله جاك:

ـ ليس الأمر على ما يرام؟ ولكن اجلس على هذه الأريكة. هل تريد قدح ويسكي؟

قال ماتيو:

ـ لا بأس بالويسكي.

وجلس منقبض الحنجرة. كان يفكِّر: سأشرب الويسكي وأمضي من غير أن أقول كلمة. ولكنّ الأوان قد فات، فقد كان جاك يعرف تمامًا ما ينبغي عمله: «سيفكِّر ببساطة أنّني لم أجرؤ على طلب المعونة منه». وكان جاك ما يزال واقفًا. تناول زجاجة ويسكي وملأ قدحين وهو يقول:

ـ هذه آخر زجاجاتي. ولكنّني لن أجدِّد مؤونتي قبل الخريف. إنّنا لا ننفكّ نطلب كأسًا من الجن ـ فز، في أثناء الأيّام الحارّة، غير أنّ هذا أفضل، فما رأيك؟

فلم يجب ماتيو، وكان ينظر بلا وداعة إلى هذا الوجه الوردي النضر وهذا الشعر الأشقر المقصوص قصيرًا. كان جاك يبتسم ببراءة. شخصه كلّه يتنفّس البراءة، بيد أنّ عينيه كانتا قاسيتين. وفكّر ماتيو بغضب: «إنّه يتصنّع البراءة، وهو يعلم جيّدًا لماذا جئت وهو الآن يبحث عن شخصه». وقال بقسوة:

ـ أنت تحزر جيّدًا أنّي جئت أطلب منك معونة.

هكذا، لقد أُلقيتْ الكلمة. ولم يكن بوسعه الآن أن يتراجع؛ فقد بدأ أخوه يرفع حاجبيه كمن أصيب بدهشة عميقة. وفكّر ماتيو بامتعاض: «إنّه لن يوفِّر عليّ شيئًا». وقال جاك:

ـ ولكن لا، لم أحزر ذلك. ولماذا تريدني أن أحزره؟ هل تشير بذلك إلى أنّ هذا هو الغاية الوحيدة لزيارتك؟

وجلس، وهو ما يزال مستقيم القامة، متصلِّبًا بعض الشيء، وشبك ساقيه بمرونة، كأنّما ليعوِّض عن صلابة صدره. وكان يرتدي بذلة رياضيّة رائعة من القماش الإنكليزي. قال ماتيو:

ـ لا أريد أن أشير إلى شيء على الإطلاق.

وطرف بعينيه وأضاف وهو يضغط قدحه بقوّة:

ـ ولكنّي بحاجة إلى أربعة آلاف فرنك بين اليوم والغد.

«سيقول لا. المهمّ أن يرفض بسرعة فأستطيع أن أفرنقع».

ولكن جاك لم يكن مستعجلاً قطّ: كان كاتبًا في محكمة، وكان لديه الوقت الكافي وهو يهزّ رأسه هزّة عارف:

ـ أربع أوراق؟.. ولكن قل لي! من تظنّني؟

ومدّ ساقيه وتأمّل حذاءه برضى، وقال:

ـ إنّك تسلّيني يا ماتيو، تسلّيني وتعلّمني. أوه. لا تحمل ما أقوله على محمل السوء (قال ذلك حين رأى حركة من ماتيو)، فأنا لا أفكِّر في انتقاد مسلكك، ولكنّي مع ذلك أفكِّر، وأسائل نفسي وأرى ذلك من فوق، وكدت أقول «كالفيلسوف» لو لم أكن أتحدّث حقًّا إلى فيلسوف. اسمع! إنّني حين أفكِّر فيك، أزداد اقتناعًا بأنّ المرء ينبغي ألّا يكون رجل مبادئ. أمّا أنت، فمحشوّ بالمبادئ. وأنت تخترع المزيد منها ولا تنسجم معها. نظريًّا، ليس هناك من هو أكثر استقلالاً منك. وهذا جميل، إنّك تعيش

فوق الطبقات. غير أنّي أتساءل ما عساك تصبح لو لم أكن موجودًا. لاحظ أنّني أسعد ممّا ينبغي، أنا الذي ليس لي مبادئ، في أن أستطيع معاونتك بين وقت وآخر. ولكن يخيّل إليّ أنّني لو كنت أملك أفكارك، لحرصت على ألّا أطلب شيئًا من بورجوازي كريه (وأضاف وهو يضحك من كلّ قلبه): ذلك أنّني بورجوازي كريه.

واستطرد وهو لا يكفّ عن الضحك:

ـ وهناك ما هو أسوأ من ذلك. وهو أنّك ـ أنت الذي تبصق على العائلة ـ تستغلّ علاقاتنا العائليّة لتطلب منّي المعونة. فالحقّ أنّك ما كنت تتوجّه إليّ لو لم أكن أخاك.

ثم بدت عليه أمائر الاهتمام الصريح، فتساءل:

ـ ألا يزعجك هذا كلّه في آخر المطاف؟

قال ماتيو وهو يضحك أيضًا:

ـ إنّني مضطرّ إلى ذلك.

لن ينخرط في مناقشة فكريّة. فإنّ المناقشات الفكريّة مع جاك كانت تنتهي دائمًا نهاية سيّئة. وكان ماتيو يفقد فورًا رباطته. وقال جاك ببرودة:

ـ نعم. بالطبع، ألا تظنّ أنّ قليلاً من التنظيم؟... ولكن هذا هو بلا شكّ مناقض لأفكارك. لاحظ جيّدًا أنّي لا أقول إنّ هذه غلطتك: إنّها في نظري غلطة المبادئ.

قال ماتيو ليجيب بشيء ما:

ـ أنت تعلم أنّ رفض المبادئ هو أيضًا مبدأ..

قال جاك: ـ أوه. ليس هذا بالضرورة.

وقال ماتيو في نفسه: إنّه الآن سيدفع. ولكنّه نظر إلى خدّي أخيه الممتلئين وسحنته المزهرة وهيئته المكشوفة، والمصدومة مع ذلك، وفكّر والانقباض في صدره: «يبدو أنّ الانفراج ممتنع عليه». ولحسن الحظّ

استطرد جاك يقول مردِّدًا:

ـ أربع أوراق. إنّ هذه حاجة مفاجئة. فحين جئتني في الأسبوع الماضي تطلب خدمة صغيرة، لم يكن هذا الموضوع واردًا.

قال ماتيو: ـ صحيح. إنّ هذا... إنّ تاريخ هذا هو الأمس فقط.

وفكّر فجأة في مارسيل، وتمثّلها كئيبة عارية في الغرفة الورديّة، فأضاف بلهجة ملحّة أدهشته هو نفسه:

ـ جاك، إنّني بحاجة إلى هذا المال.

فرمقه جاك بفضول وعضّ ماتيو على شفتيه: إنّ الأخوين لم يعتادا، إذا كانا معًا، أن يُظهرا عواطفهما بمثل هذه الطريقة الحيّة.

ـ إلى هذا الحدّ؟ هذا غريب. إنّك مع ذلك آخر مَن... إنّك... عادة تستدين منّي قليلاً من المال لأنّك لا تعرف أو لا تريد أن تنظِّم نفسك. ولكنِّي ما كنت لأظنّ قطّ... (وأضاف بلهجة مستفهمة بعض الشيء) طبعًا لن أسألك شيئًا.

وكان ماتيو متردِّدًا: هل أقول له إنّها ضرائبي؟ ولكن لا. هو يعرف إنِّي قد دفعتها في أيّار. وقال فجأة:

ـ إنّ مارسيل حامل.

وأحسّ بأنّه يحمرّ، فهزّ كتفيه، ولِمَ لا، بعد كلّ حساب؟ ولماذا هذا الخجل المحرق المفاجئ؟ ونظر إلى أخيه مواجهة بعينين عدوانيّتين. وبدا على جاك الاهتمام.

ـ أكنت تريد ولدًا؟

كان يتقصّد ألّا يفهم. فقال ماتيو بلهجة كاسرة:

ـ كلّا، وإنّما كان ذلك عرضًا.

قال جاك: ـ إنّ هذا ليدهشني أيضًا. لقد كان بوسعك أن تريد دفع تجاربك حتى النهاية خارج النظام القائم...

ـ نعم. ولكن ليس الأمر هكذا على الإطلاق.

وساد صمت، ثم استأنف جاك وقد استعاد انطلاقه:

ـ وإذًا؟ متى يكون الزواج...

فاحمرّ ماتيو من الغضب: إنَّ جاك يرفض كعادته أن يواجه الموقف بطريقة شريفة، فهو يدور حوله بعناد، وفي هذه الأثناء يجهد فكره في إيجاد عشّ نسر يستطيع منه أن يأخذ نظرات سابحة على مسلك الآخرين. فمهما قيل له ومهما عُمل، فإنّ حركته الأولى إنّما يفعلها ليرتفع فوق المناقشة. وما كان يستطيع أن يرى منها شيئًا إلّا من علٍ، كان مشغوفًا بأعشاش النسور. وقال ماتيو بوحشيّة:

ـ لقد قرّرنا أن تجهض.

فلم يتحرّك جاك، وقال بلهجة محايدة: ـ وهل اجتمعت بطبيبك؟

ـ نعم.

ـ هل هو رجل مأمون؟ إنّ صحّة هذه المرأة الشابّة، هي على ما قلت لي، رقيقة.

ـ لديّ أصدقاء يضمنونه.

قال جاك: ـ نعم، نعم، طبعًا.

وأغمض عينيه لحظة ثم فتحهما. وضمّ يديه بأطراف أصابعه، وقال:

ـ إنَّ قضيّتك بالإجمال، إذا فهمتك جيِّدًا، هي التالية: لقد علمت أنَّ صديقتك حامل، وأنت لا تريد أن تتزوَّج لأسباب مبدئيّة، ولكنّك تعتبر نفسك ملتزمًا تجاهها بواجبات لا تقلّ حسمًا عن واجبات الزواج. ولمّا كنت لا تريد أن تتزوَّجها ولا أن تلحق الأذى بسمعتها، فقد قرّرت أن تجهضها في أفضل الظروف الممكنة. وقد أوصاك بعض أصدقائك بطبيب موثوق يطلب منك أربعة آلاف فرنك. فلم يبق لك إلّا أن تحصل على المبلغ. إنّ الأمر كذلك؟

قال ماتيو: ـ تمامًا!

ـ ولماذا أنت محتاج إلى المال بين اليوم والغد؟

ـ إنَّ الطبيب المشار إليه مسافر إلى أميركا بعد ثمانية أيَّام.

قال جاك: ـ حسنًا، فهمت!

ورفع يديه المضمومتين حتى مستوى عينيه وتأمّلهما بدقّة كمن ليس له بعد إلّا أن يستخرج النتائج ممّا قال. ولكن ماتيو لم ينخدع بذلك: إنّ كاتب محكمة لا ينتهي إلى النتائج بسرعة. وكان جاك قد خفض يديه ووضعهما على ركبتيه، بعد أن فكّهما واستغرق في أريكته وكفّت عيناه عن البريق. وقال بصوت ناعس:

ـ إنّهم ينظرون في هذه اللحظة إلى عمليّات الإجهاض نظرة قاسية جدًّا.

فقال ماتيو: ـ أعرف هذا. فإنّه يتّفق لهم ذلك بين وقت وآخر فيضعون في السجن بعض الأفراد المساكين الذين ليس لهم من يحميهم، ولكنّ الاختصاصيين الكبار لا يشعرون بأيّ قلق.

قال جاك: ـ تريد أن تقول: إنّ في هذا ظلمًا. وأنا من رأيك تمامًا ولكنِّي لا أستنكر النتائج كلِّيًا. فإنَّ أفرادك هؤلاء المساكين، هم بطبيعة الأشياء، من العقاقيريِّين أو من صانعات الملائكة الذين يتلفون امرأة تخصّك بآلات قذرة.

قال ماتيو متضايقًا:

ـ مهما يكن، فإنِّي جئت أطلب منك أربعة آلاف فرنك.

قال جاك: ـ و... هل أنت متأكّد تمامًا بأنَّ الإجهاض منسجم ومبادئك؟

ـ ولِمَ لا؟

ـ لا أدري. فعليك أنت أن تدري ذلك. أنت من دعاة السلام بدافع

من احترامك للحياة البشريّة، وها أنت ستهدم حياة.

فقال ماتيو: ـ إنّني مصمّم تمامًا. وقد أكون مسالمًا، ولكنّي لا أحترم الحياة البشريّة. فلا بدّ أنّك تخلط بينهما.

قال جاك: ـ آه.. كنت أظنّ.

وكان يتأمّل ماتيو بهدوء مرح.

ـ ها أنت ذا الآن تلبس جلد قاتل الأطفال. وكم يتعارض ذلك ونفسيّتك يا عزيزي ماتيو!

وفكّر ماتيو: إنّه يخشى أن يأخذوني: فهو لن يعطي فلسًا واحدًا. وكان يودّ لو يستطيع أن يقول له: «إذا دفعت، فلن تتعرّض لأيّة مخاطرة. لأنّي سوف أتوجّه إلى رجل بارع ليس اسمه مسجّلاً على لوائح الشرطة. أمّا إذا رفضت فسأضطرّ لإرسال مارسيل إلى عقاقيري، وفي هذه الحالة لن أضمن شيئًا، لأنّ الشرطة تعرفهم كلّهم وتستطيع أن تقبض عليهم بين ليلة وضحاها». ولكنّ هذه الحجج كانت مباشرة أكثر ممّا ينبغي بحيث لن تؤثّر على جاك، واكتفى ماتيو بالقول:

ـ إنّ الإجهاض ليس جريمة قتل ولد.

وتناول جاك سيكارة وأشعلها وقال بلا حماس:

ـ نعم. أقرّ لك. ليس الإجهاض قتل ولد. ولكنّه قتل «ميتافيزيقي». (وأضاف بجدّ) ليس لي يا عزيزي ماتيو اعتراض على القتل الميتافيزيقي، كما أنّه ليس لي اعتراض على الجرائم الكاملة. أمّا أن ترتكب أنت قتلاً ميتافيزيقيًّا، أنت، على ما أنت عليه...

وصفق لسانه بلهجة تأنيب وأضاف:

ـ كلّا. إنّ هذه بكلّ تأكيد نغمة ناشزة.

انتهى الأمر، إنّ جاك يرفض، وسيكون بوسع ماتيو أن يذهب، وقد أوضح صوته وسأل تبرئة لذمّته:

ـ إذًا فلا تستطيع أن تساعدني؟

فقال جاك: ـ افهمني جيِّدًا. فأنا لا أرفض أن أؤدِّي لك خدمة. ولكن أتكون هذه حقًّا خدمة؟ ثم إنِّي مقتنع بأنّك ستجد بسهولة المال الذي تحتاج إليه...

ونهض فجأة كما لو أنّه اتّخذ قرارًا ما، وأقبل يضع يده بودّ على كتف أخيه ويقول بحرارة:

ـ اسمع يا ماتيو. لنقل إنِّي رفضت. فأنا لا أريد أن أساعدك على أن تكذِّب على نفسك. ولكنِّي سأقترح عليك شيئًا آخر...

وكان ماتيو على وشك النهوض، فوقع على مقعده وأخذه مرّة أخرى غضبه الأخوي. إنّ ذلك الضغط الصلب والعذب على كتفه كان أمرًا غير مُحتمل، وارتدّ برأسه إلى خلف ورأى وجه جاك مختصرًا.

ـ أكذِّب على نفسي؟ اسمع يا جاك. قل بالأحرى إنّك لا تريد أن تلطّخ نفسك في عمليّة إجهاض أو إِنّك لا توافق على ذلك، أو إِنّك لا تملك المال الضروري، فهذا من حقِّك ولست أملك أن أؤاخذك عليه، ولكن لماذا تحدِّثني عن الكذب؟ فليس هنا أيّ كذب. إنِّي لا أريد أولادًا: ولكن يأتيني ولد، فأحذفه، هذا كل ما في الأمر.

وسحب جاك يده وخطا بضع خطوات وهو يفكِّر، وفكَّر ماتيو:

«سيلقي خطابًا، وقد كان عليّ ألّا أقبل أيّة مناقشة».

وقال جاك بصوت رصين:

ـ إنِّي يا ماتيو أعرفك أكثر ممّا تظنّ وإنّك لترعبني. لقد مضى وقت طويل وأنا أخشى شيئًا من هذا القبيل: إنَّ هذا الطفل الذي سيولد هو النتيجة المنطقيّة لوضع ارتضيته لنفسك، وتريد أن تحذفه لأنّك لا تريد أن تقبل جميع تبعيّات تصرّفاتك. اسمع، هل تريد أن أقول لك الحقيقة؟ ربّما

كنت لا تكذِّب على نفسك في هذه اللحظة بالذات، ولكنّ حياتك برمّتها قائمة على كذبة.

قال ماتيو، وكان يبتسم:

ـ أرجوك، لا تزعج نفسك: علِّمني ما أخفيه عن نفسي.

ـ فقال جاك: ـ إنَّ ما تخفيه عن نفسك هو أنّك بورجوازي مخجل. ولكنِّي عدت إلى البورجوازيّة بعد ألوان كثيرة من الضياع والشرود، فعقدت معها زواجًا عاقلاً، أمّا أنت، فإنّك بورجوازي بالذوق، بالمزاج، ومزاجك هو الذي يدفعك إلى الزواج (وأضاف بقوّة) ذلك أنّك متزوِّج يا ماتيو.

فقال ماتيو: ـ يا للنبأ الجديد!

ـ أجل. إنّك متزوِّج، ولكنّك تزعم العكس لأنّ لديك نظريّات. لقد أخذت عاداتك عند هذه المرأة الشابّة: فأنت تلتقي بها أربع مرّات في الأسبوع وتقضي الليل معها. وهذا مستمرّ منذ سبعة أعوام، فليس فيه بعد أيّ أثر من مغامرة، إنّك تحترمها وتشعر بواجبات نحوها، ولا تريد أن تتركها. وأنا على يقين بأنّك لا تلتمس اللذّة وحدها، بل أنا أتصوّر أنّ اللذّة مهما كانت قويّة، فلا بدّ أنّها مع الزمن قد ضعفت. والواقع أنّك لا بدّ أن تجلس إليها في المساء لتسرد عليها مطوّلاً حوادث اليوم وتطلب نصيحتها بصدد بعض الحالات الصعبة.

قال ماتيو وهو يهزّ كتفيه: «طبعًا» وكان غاضبًا على نفسه.

فقال جاك:

ـ حسنًا! هل تريد أن تقول لي بِمَا يختلف ذلك عن الزواج إلّا بالسُكنى الدائمة؟

فقال ماتيو ساخرًا:

ـ السُكنى الدائمة؟

ـ أتصوّر أنّه لن يكلِّفك كثيرًا أن تستنكف عنها.

وفكّر ماتيو: «لم يسبق له أن صارحني من قبل بهذا كلّه. إنّه ينتقد». وكان لم يبق له إلّا أن يصفق الباب. ولكنّ ماتيو كان يعرف أنّه باق حتى النهاية: كانت لديه رغبة مقاتلة ومستعدية في أن يعرف رأي أخيه. فقال:

ـ ولماذا تقول: إنّ ذلك لن يكلّفني كثيرًا؟

ـ لأنّك تكسب هناك الراحة وتكسب مظهرًا من الحرّيّة: إنّ لك جميع حسنات الزواج، ولكنّك تستخدم مبادئك لترفض مساوئه. إنّك ترفض أن تجعل الوضع شرعيًّا، وهذا أمر يسير عليك. فإذا كان هناك من يتألّم من ذلك، فلست إيَّاه.

قال ماتيو بصوت متجبّر:

ـ إنَّ مارسيل تشاطرني آرائي في الزواج.

وكان يستمع إلى نفسه وهو يلفظ كلّ كلمة، فيجد أنّه كريه جدًّا. وقال جاك:

ـ أوه! لو لم تكن تشاطرك إيَّاها فسوف تكون بلا شكّ أوفر كبرياء من أن تصارحك بها. أتدري أنّني لست أفهمك... أنت السريع الغضب إذا سمعت من يتحدّث عن الظلم، ومع ذلك تجعل هذه المرأة في وضع ذليل منذ أعوام لمجرّد اللذّة في أن تقول لنفسك إنّك منسجم ومبادئك. وليت هذا كان صحيحًا. ليتك تطابق حقًّا حياتك على أفكارك. ولكنّي أكرّر لك أنّك متزوّج وأنّ لك شقّة لطيفة، وأنّك تقبض في مواعيد محدّدة راتبًا طيّبًا، وليس عندك أيّ قلق بشأن المستقبل ما دامت الدولة تضمن لك تقاعدًا... وأنّك تحبّ هذه الحياة الهادئة المنظّمة، حياة موظّف حقيقيّة.

قال ماتيو: ـ اسمع، إنّ بيننا سوء تفاهم. إنّه لا يهمّني إلّا قليلاً أن أكون بورجوازيًّا أو لا أكون. بل كلّ ما أريده هو... (وأنهى عبارته بين أسنان مشدودة في شيء من الخجل) هو أن أحتفظ بحرّيّتي.

فقال جاك: ـ كنت أحسب أنا أنّ الحرّيّة هي في مواجهة الأوضاع

التي يختارها الإنسان بملء إرادته وفي قبول جميع تبعاتها. ولكن هذا ليس هو رأيك: إنّك تشجب المجتمع الرأسمالي، ومع ذلك، فأنت موظّف في هذا المجتمع، وإنّك تكنّ ودًّا مبدئيًّا للشيوعيِّين: ولكنّك تحاذر جدًّا أن تلتزم، وأنت لم تقترع قطّ. وإنّك تحتقر الطبقة البورجوازيّة وأنت مع ذلك برجوازي ابن برجوازي وأخو برجوازي وتعيش كأنّك برجوازي.

وأشار ماتيو بحركة من يده، ولكن جاك لم يدع له أن يقاطعه، فقال بشفقة مؤنِّبة:

ـ لقد بلغت مع ذلك سنّ الرشد يا عزيزي ماتيو. ولكنّك تخفي عن نفسك هذا أيضًا، وتريد أن تجعل نفسك أصغر ممّا أنت. والحقّ أنِّي ربّما كنت ظالمًا، فلعلّك لم تبلغ بعد سنّ الرشد. لأنّها سنّ معنويّة، ولعلّني بلغتها قبلك.

وفكّر ماتيو: «حسنًا، سيحدِّثني الآن عن شبابه». وكان جاك شديد الاعتزاز بشبابه، وكان ذلك ضمانته. كان يتيح له أن يدافع عن قضيّة النظام بضمير مرتاح. فطوال خمسة أعوام، قلّد باجتهاد جميع ألوان الشرود التي كانت شائعة، فاعتنق السرياليّة وكانت له علاقات مثيرة للغرور، وتشمّم أحيانًا، قبل أن يضاجع، منديلاً مبلّلاً بكلورور الخَدَر الأثيري. وذات يوم، نظّم حياته حين حملت له أوديت ستمئة ألف فرنك كمهر. وكان قد كتب لماتيو يقول: «ينبغي أن تكون لنا شجاعة أن نعمل كجميع الناس حتى لا نكون كأحد». وكان قد اشترى دراسة كاتب محكمة، وقال:

ـ إنِّني لا ألومك على شبابك، على العكس فقد كنت محظوظًا في تجنّب الانحرافات. غير أنِّي مع ذلك لست آسفًا على شبابي. والحقّ أنّه كان أمامنا نحن الاثنين، كما تعلم، أن نستهلك غرائز جدِّنا القرصان، غير أنِّي استنفدتها أنا كلّها دفعة واحدة. أمّا أنت فتستهلكها بالتقسيط. وينقصك أن تمسّ قعرها. وأعتقد أنّك في الأصل كنت أقلّ قرصنةً منِّي وهذا الذي يضيِّعك: إنّ حياتك هي تسوية أبديّة بين حسّ تمرّد وفوضى متواضع جدًّا

في حقيقته وبين نزعاتك العميقة التي تدفع بك إلى النظام والصحّة المعنويّة، وأكاد أقول الروتين. والنتيجة هي أنّك ظللت طالبًا قديمًا غير مسؤول. ولكن انظر إلى نفسك جيّدًا يا عزيزي. إنّك في الرابعة والثلاثين وإنّ شعرك يبيضّ قليلاً. ليس بقدر شعري طبعًا. ـ وليس فيك بعد شيء من الفتوّة. وإنّ حياة البوهيمي لا تناسبك. وما هي البوهيميّة حقًّا؟ لقد كان ذلك شيئًا جميلاً منذ مئة عام. أمّا اليوم فهي قبضة من التائهين لا يشكّلون خطرًا على أحد، وقد فاتهم القطار. إنّك في سنِّ الرشد يا ماتيو، إنّك في سنِّ الرشد، أو ينبغي أن تكون فيه.

قال ماتيو: ـ اسمع! إنّ سنّ رشدك أنت إنّما هي سنُّ الخضوع، وأنا لست حريصًا عليها على الإطلاق.

ولكن جاك لم يكن، لشروده، يصغي إليه. وقد أصبح نظره فجأة صافيًا ومرحًا، فاستطرد يقول بحيويّة:

ـ اسمع، قلت لك إنّي سأقدّم لك اقتراحًا، فإذا رفضت، فلن يصعب عليك أن تجد أربعة آلاف فرنك. ولن أندم. إنّني أضع عشرة آلاف فرنك تحت تصرّفك إذا تزوّجت صديقتك.

كان ماتيو قد تنبّأ بذلك، وكان هذا على أيّ حال ييسِّر له مخرجًا صالحًا ينقذ المظهر، فقال وهو ينهض:

ـ أشكرك يا جاك، إنّك لطيف جدًّا، ولكنّي لا أوافق على اقتراحك. أنا لا أقول إنّك مخطئ على طول الخطّ، ولكن إذا كان لا بدَّ لي من أن أتزوّج يومًا، فيجب أن تأتيني الرغبة لذلك. أمّا الآن، فلن يكون الزواج إلّا ضربة عناد بليدة لأخرج من المغطس.

ونهض جاك أيضًا وهو يقول:

ـ فكِّر جيِّدًا، إنّ امرأتك ستُستقبل هنا استقبالاً جيِّدًا. ولست بحاجة إلى أن أقول لك ذلك، فإنّي واثق باختيارك، وستكون أوديت سعيدة في أن

تعاملها كصديقة. والحقّ أنّ زوجتي تجهل كلّ شيء عن حياتك الخاصّة.

فقال ماتيو: ـ لقد فكّرت في الأمر مليًّا.

قال جاك بلهجة ودّيّة (أتراه كان مستاءً إلى هذا الحدّ؟». .

ـ كما تشاء. (وأضاف): متى نراك؟

فقال ماتيو: ـ سآتي يوم الأحد لتناول الغداء. إلى اللقاء.

قال جاك: ـ إلى اللقاء، و. . . إذا خطر لك أن تغيِّر رأيك، فإنّ اقتراحي يظلّ قائمًا.

ابتسم ماتيو وخرج من غير أن يجيب. وفكّر: «انتهى الأمر! انتهى الأمر!» وهبط السلّم وهو يعدو، ولم يكن جذلاً، لكنّه كان راغبًا في الغناء. والآن لا بدَّ أنّ جاك قد عاد يجلس إلى مكتبه، شارد العين، ذا ابتسامة حزينة ورصينة: «إنّ هذا الفتى يقلقني، بالرّغم من أنّه بلغ سنّ الرشد». أو ربّما ذهب يقوم بدورة لدى أوديت: «إنّ ماتيو يسبِّب لي القلق. إنِّي لا أستطيع أن أقول لك لماذا، ولكنّه ليس عاقلاً». وما عساها تقول؟ أتراها ستلعب دور المرأة الناضجة المفكِّرة، أمّ أنّها ستقتصر على بعض حركات الموافقة السريعة من غير أن ترفع أنفها عن كتابها؟

وقال ماتيو لنفسه: «عجبًا، لقد نسيت أن أودِّع أوديت!» وندم على ذلك: وكان مستعدًّا لأن يستشعر الندم. «لعلّ هذا صحيح! أتراني أجعل مارسيل حقًّا في وضع ذليل؟» وتذكّر هجمات مارسيل العنيفة ضدّ الزواج: «والحقّ أنّني عرضت عليها الزواج، مرّة، منذ خمس سنوات». والواقع أنّ ذلك كان في الهواء. ومهما يكن فقد سخرت منه مارسيل. وفكّر: «آه! الحقيقة أنّ عندي عقدة نقص إزاء أخي!» ولكن لا، لم يكن الأمر كذلك، مهما كان شعوره بالذنب، فإنّ ماتيو لم يكفّ قطّ عن أن يعطي نفسه الحقّ ضدّ جاك. «غير أنّ الأمر هو ما يلي: إنّه قذر يملك عليّ نفسي. فإذا لم أخجل أمامه، فإنِّي أخجل من أجله». آه! (وفكّر) «إنّ المرء لا ينتهي مع

أهله. وهذا يشبه الجدري. فهي تصيبك إذ تكون طفلاً وتطبعك مدى الحياة». وكانت هناك حانة عند زاوية شارع مونتورغوي، فدخل وأخذ قطعة بديلة من الصندوق. كانت غرفة التلفون في زاوية مظلمة. وكان منقبض القلب حين فتح الآلة...

ـ ألو! ألو! مارسيل؟

وكان تلفون مارسيل في غرفتها. فقالت:

ـ هذا أنت؟

ـ نعم.

ـ ماذا هناك؟

ـ كان الأمر مستحيلاً مع العجوز.

فقالت مارسيل بلهجة ارتياب: ـ همْ!

ـ أؤكِّد لك. كانت سكرى تقريبًا، وكان الوضع منتنًا عندها، ومقرفًا، وليتك رأيت يديها. ثم إنّها متوحِّشة.

ـ طيِّب. وبعد؟

ـ إنّ هناك شخصًا آخر. بواسطة سارة. شخصًا جيّد جدًّا.

وقالت مارسيل بلا اكتراث:

ـ آه! وكم؟

ـ أربعة آلاف.

فردّدت مارسيل غير مصدِّقة:

ـ كم؟

ـ أربعة آلاف.

ـ أترى إذًا؟ إنّ هذا غير ممكن، يجب أن أذهب...

قال ماتيو: ـ لن تذهبي. بل سأستدين.

ـ ممّن؟ من جاك؟

ـ إنّني خارج من لدنه. لقد رفض.

ـ ودانيال؟

ـ إنّه يرفض أيضًا، الحيوان! لقد رأيته هذا الصباح وأنا متأكّد أنّه محشوّ حشوًا.

فسألته مارسيل بحماسة:

ـ إنّك لم تقل له إنّ ذلك من أجل... هذا.

فقال ماتيو: ـ لا.

ـ وما الذي ستفعله؟

ـ لا أدري. (وشعر بأنّ صوته يعوزه التأكيد. فأضاف بحزم): «لا تنزعجي. إنّ أمامنا ثمانيَ وأربعين ساعة، وسوف أجد المال. حين يتدخّل الشيطان في الموضوع فإنّ أربعة آلاف فرنك لا بدّ أن توجد».

وقالت مارسيل بلهجة غريبة:

ـ حسنًا.. جِدْها، جِدْها.

ـ سأخبركِ. هل نحن على موعدنا مساء الغد؟

ـ نعم.

ـ وهل أنتِ بخير؟

ـ لا بأس.

ـ أنتِ لست...

فقالت مارسيل بصوت خافت:

ـ بلى. إنّني أشعر بالضيق. (وأضافت بلهجة اعتذار): مهما يكن، فاعمل جهدك أنت يا عزيزي المسكين.

قال ماتيو: ـ سآتيك بالآلاف الأربعة مساء الغد.

وتردّد وأضاف بجهد:

ـ أحبّك.

فأعادت مارسيل السمّاعة من غير أن تجيب.

خرج من الغرفة. وحين كان يعبر المقهى كان ما يزال يسمع صوت مارسيل الجافّ: «أشعر بالضيق». إنّها حاقدة عليّ. بالرّغم من أنّني أفعل ما أستطيع. «في وضع ذليل» أصحيح أنّي أضعها في وضع ذليل؟ وإذا... وتوقّف عند حافّة الرصيف. وإذا كانت تريد الطفل؟ في هذه الحالة، كلّ شيء ينقلب، كان يكفي التفكير بذلك لحظة ليأخذ كلّ شيء اتّجاهًا آخر. فتلك هي قصّة أخرى، وإنّ ماتيو، ماتيو نفسه، سيتغيّر من الرأس حتى القدم، وهو لم يكفّ عن أن يكذب على نفسه، إذ كان رجلاً قذرًا، رائع القذارة. ومن حسن الحظّ أنّ هذا لم يكن صحيحًا. ولا يمكن أن يكون صحيحًا. فلقد سمعتها غالبًا تسخر من صديقاتها المتزوّجات إذ يكنّ حاملات. وكانت تدعوهنّ «أوعية مقدّسة» وتقول: «إنّهنّ ينفجرن فخرًا لأنّهنّ سيبضن». وإنّ من يقول هذا، لا يحقّ له أن يغيّر رأيه برأي لطيف، لأنّ ذلك سيكون استغلالاً للثقة. وإنّ مارسيل غير جديرة باستغلال الثقة، وإلّا لقالت لي، ولماذا تراها لا تقول لي، ما دمنا نتكاشف كلّ شيء. أوه! ثم... كفى! لقد أتعبه أن يدور في هذا الدغل المعقّد. مارسيل، إيفيش، المال، المال، إيفيش، مارسيل، سأفعل كلّ ما ينبغي. ولكنّي أودّ أن لا أفكّر بعد ذلك، بحياة الربّ، أريد أن أفكّر بشيء آخر. وفكّر ببرونيه، ولكنّ ذلك كان أبعث على الحزن: صداقة ميّتة؟ وكان يحسّ أنّه ثائر الأعصاب وحزين لأنّه كان سيراه مرّة ثانية. ورأى كشكًا للصحف فاقترب منه: «باري ـ ميدي، من فضلك».

وكان قد نفد، فأخذ صحيفة بلا تمييز: وكانت «أكسلسيور». فدفع ثمنها ومضى. «أكسلسيور» لم تكن صحيفة مؤذية. وكانت من ورق سميك حزين ومخملي كأنّه التبيوكة. ولم يكن من شأنها أن تثير غضبك، وكلّ ما

هناك أنّها كانت تنزع منك مذاق الحياة فيما أنت تقرأها. وقرأ ماتيو: «قصف فالنسيا من الجوّ». ورفع رأسه مغتاظًا غيظًا مبهمًا: كان شارع ريومور من نحاس مسود. الساعة الثانية، لحظة النهار التي يبلغ فيها الحرّ أكثر صوره كآبة، إذ كان يتلوّى ويفرقع في وسط الرصيف كأنّه شرارة كهربائيّة طويلة. «أربعون طائرة تدور طوال ساعة فوق وسط المدينة وتقذف مئة وخمسين قنبلة. العدد الدقيق للموتى والجرحى لا يزال مجهولاً». ورأى من طرف عينه، تحت العنوان، نصًّا صغيرًا ضيّقًا، ذا حروف مائلة، كان يبدو فيه ثرثرة ووثائق: «من موفدنا الخاصّ»، وكان يحوي أرقامًا. وقلب ماتيو الصفحة، ولم تكن به رغبة لأن يعرف أكثر ممّا عرف. خطاب للسيّد فلندان في «بارك لودوك». فرنسا جاثمة خلف خطّ مجينو... ستوكوفسكي يصرّح لنا: «لن أتزوّج أبدًا غريتا غاربو». جديد حول قضيّة ويدمن. زيارة ملك إنكلترا: حين تنتظر باريس أميرها الساحر. جميع الفرنسيِّين... وانتفض ماتيو وفكّر: «جميع الفرنسيِّين قذرون». لقد كتبها له غوميز مرّة من مدريد. وأغلق الصفحة، وأخذ يقرأ في الصفحة الأولى برقيّة الموفد الخاصّ. كان تعداد القتلى خمسين والجرحى ثلاثمئة، ولم يكن هذا كلّ شيء، بل كان هناك بالتأكيد جثث تحت الأنقاض. لا طائرات ولا مدافع مضادّة. وكان ماتيو يحسّ بغموض أنّه مذنب. خمسون قتيلاً وثلاثمئة جريح، ما كان هذا يعني بالضبط؟ مستشفى مليء؟ شيء يشبه اصطدام قاطرة حديديّة؟ خمسون قتيلاً. لقد كان في فرنسا ألوف من البشر لم يستطيعوا أن يقرأوا صحيفتهم ذلك الصباح، من غير أن تصعد إلى حنجرتهم كتلة من الغضب، ألوف من البشر شدّوا قبضاتهم وهم يتمتمون: «قذرون» وحرّق ماتيو الإرم وتمتم: «قذرون!». واستشعر مزيدًا من الذنب. ليته على الأقلّ استطاع أن يجد في نفسه انفعالاً صغيرًا حيًّا ومتواضعًا، واعيًا لحدوده. ولكن لا. لقد كان فارغًا، وكان أمامه غضب كبير، غضب يائس، وكان يراه، وكان بوسعه أن يلمسه. غير أنّه كان غضبًا جامدًا، كان ينتظر ليحيا، لينفجر، ليتألّم، ليعيره جسمه، لقد كان غضب الآخرين

«قذرون»! كان يشدّ على قبضته، وكان يمشي بخطى كبيرة، ولكنّ الغضب لم يكن ليجيء، كان ما يزال خارجًا. لقد كنت أنا في فالنسيا. ورأيت فيها حلبة مصارعة الثيران في عام ٣٤، وسباقًا كبيرًا للثيران مع أورتيغا والأستودينت. وكانت فكرته تصنع دوائر حول المدينة، باحثة عن كنيسة، عن شارع، عن واجهة بيت يستطيع أن يقول عنه: «لقد رأيت هذا، وقد هدموه، فهو غير موجود بعد». وانقضّت الفكرة على شارع مظلم تسحقه بنايات ضخمة. لقد رأيت هذا، وكان يتنزّه فيه صباحًا، وكان يختنق في ظلّ محرق، والسماء تشتعل عالية، فوق الرؤوس. حسنًا: لقد سقطت القنابل في هذا الشارع، على البنايات الرماديّة الضخمة، فاتّسع الشارع اتّساعًا هائلاً فامتدّ الآن حتى داخل البيوت، فلم يعد من ظلّ بعد في الشارع، وقد سالت السماء الذائبة على الرصيف والشمس تصفع الأنقاض. كان ثمّة شيء ما يستعدّ للولادة، فجر غضب خجول. حسنًا! ولكنّ ذلك تلاشى، وتسطّح. وكان خلاء، وكان يمشي بخطى معدودة في وقار شخص يسير وراء جنازة، في باريس، لا في فالنسيا، في باريس، يسكنه شبح من الغضب. وكانت الواجهات تشتعل، وكانت السيّارات تجري في الشارع، وكان وهو يسير وسط رجال قصار يلبسون أقمشة فاتحة، وسط فرنسيِّين لم يكونوا ينظرون إلى السماء، لم يكونوا يخافون السماء، ومع ذلك، فهناك، في مكان ما تحت السماء نفسها، أمر واقعي: فقد توقّفت السيّارات، وتحطّم الزجاج، وقرفصت نساء بليدات خرساوات تبدو عليهنّ هيئة الدجاج الميِّت، بالقرب من جثث حقيقيّة، وهنّ يرفعن الرأس بين الفينة والأخرى، فينظرن إلى السماء، السماء السامّة، جميع الفرنسيِّين قذرون. وكان ماتيو يشعر بالحرّ، وكان حرًّا حقيقيًّا. أمرّ منديله على جبينه، وفكّر: «ليس بوسع الإنسان أن يتألّم من أجل ما يريد».

لقد كانت هناك قصّة فظيعة وفاجعة، تتطلب أن يتألّم من أجلها..

«إنِّني لا أستطيع، فلست في الميدان. إنّني في باريس، وسط موجوداتي

أنا، جاك خلف مكتبه يقول: «لا» ودانيال يقهقه، ومارسيل في الغرفة الورديّة، وإيفيش التي قبّلتها هذا الصباح. وجودي الحقيقي، المنفِّر، لفرط ما هو حقيقي. إنّ لكلٍّ عالمه، وعالمي هو مستشفى في داخله مارسيل حُبلى وهذا اليهودي الذي يطلب منّي أربعة آلاف فرنك. وهناك عوالم أخرى. غوميز. لقد كان في الميدان، لقد ذهب، وكان هذا نصيبه. وشخص الأمس. إنّه لم يذهب، ولا بدّ أنّه يتيه في الشوارع، مثلي. ولو أنّه يلتقط صحيفة فيقرأ: «قصف فالنسيا»، فلن يكون بحاجة إلى أن يبتسر نفسه، لأنّه سيتألّم هناك، في المدينة ذات الأنقاض. لماذا تراني في هذا العالم المنتن بالضوضاء وبالآلات الطبّيّة وبالتسليات الخفيّة في سيّارات التاكسي، في هذا العالم الذي لا إسبانيًّا فيه؟ لماذا لا أكون في الميدان مع غوميز ومع برونيه؟ لماذا لم تأخذني الرغبة في الذهاب للقتال؟ أكان بوسعي أن أختار عالمًا آخر؟ أتراني ما زلت حرًّا؟ إنّ بوسعي أن أذهب حيث أشاء، فلا أجد أيّة مقاومة، ولكن ذلك أسوأ: إنّني في قفص لا حواجز له. ولا يفصلني عن إسبانيا أيُّ شيء... ومع ذلك، فإنّ هذا الفاصل غير قابل للعبور: ونظر إلى الصفحة الأخيرة من أكسلسيور: صور من الموفد الخاصّ. أجسام ممدَّدة على الرصيف عند أسفل جدار. وفي منتصف الشارع امرأة ضخمة، ملقاة على ظهرها، وقد ارتفع ثوبها عن فخذيها ولم يكن لها رأس بعد. طوى ماتيو الصحيفة ورماها في الساقية.

وكان بوريس يترقّبه أمام باب البناية. وإذ لاحظ ماتيو بدت عليه هيئة برودة وتكلُّف رصانة: تلك كانت هيئته المجنونة. وقال:

ـ لقد طرقت بابك. ولكنّي أعتقد أنّك لم تكن في البيت.

فسأله ماتيو في اللهجة نفسها:

ـ هل أنت متأكِّد من ذلك؟

فقال بوريس:

ـ لست متأكّدًا تمامًا، وكلّ ما أستطيع أن أقوله لك هو أنّك لم تفتح لي الباب.

نظر إليه ماتيو وهو متردِّد. مهما يكن من أمر، فإنّ الساعة لم تكد تتجاوز الثانية، ولن يصل برونيه قبل نصف ساعة. وقال:

ـ اصعد معي، فسوف نُفرغ ما في قلبينا.

وصعدا. وعلى الدرج، قال بوريس بصوته الطبيعي:

ـ ألا يزال موعدنا قائمًا في «سومطرا» هذا المساء؟

فانفتل ماتيو وتصنّع أنّه يبحث عن مِفاتيحه في جيبه، وقال:

ـ لا أدري إن كنت سأذهب. لقد فكّرت بـ.. لعلّ لولا تفضِّل أن تكون لها وحدها.

قال بوريس: ـ طبعًا. ولكن ماذا في ذلك؟ إنّها ستكون مؤدَّبة. ومهما يكن، فإنّنا لن نكون وحدنا! ستكون هناك إيفيش.

فسأله ماتيو وهو يفتح الباب:

ـ هل رأيت إيفيش؟

فأجاب بوريس: ـ لقد تركتها الساعة.

قال متنحّيًا: تفضّل.

ودخل بوريس قبل ماتيو وتوجّه بألفة مليئة باليسر نحو المكتب. كان ماتيو ينظر بارتباك إلى ظهره الهزيل وفكّر: «لقد رآها». وقال بوريس:

ـ هل ستأتي؟

وكان قد التفت وتأمّل ماتيو بهيئة ضاحكة رقيقة. فسأله ماتيو:

ـ ألم تقل لك إيفيش.. شيئًا عن هذا المساء؟

ـ عن هذا المساء؟

ـ نعم. كنت أتساءل عمّا إذا كانت ستجيء: فهي تبدو شديدة الانهماك بامتحانها.

قال بوريس: ـ إنّها تريد أن تأتي بلا شكّ. وقد قالت إنّه سيكون طريفًا أن نلتقي نحن الأربعة معًا.

فردّد ماتيو: ـ نحن الأربعة؟ هل قالت نحن الأربعة؟

فقال بوريس ببراءة: ـ حتمًا: فإنّ هناك لولا.

ـ إنّها تنتظر إذًا أن آتي؟

فقال بوريس دهشًا: ـ طبعًا.

وساد صمت. وكان بوريس قد انحنى فوق الشرفة ينظر إلى الطريق. فتبعه ماتيو وأرسل له ضربة كبيرة من قبضته في ظهره. وقال بوريس:

ـ إنّني أحبّ شارعك كثيرًا، ولكنّه يوحي بالملل مع مرور الزمن. ويدهشني دائمًا أنّك تعيش في شقّة.

ـ ولماذا؟

ـ لا أدري. إنّ عليك أنت الحرّ أن تبيع أثاثك وتعيش في الفندق. هل تتصوّر ذلك؟ أن تقيم شهرًا في غرفة في مونتمارتر وشهرًا آخر في ساحة «التنبل» وشهرًا ثالثًا في شارع «موفتار»...

فقال ماتيو متضايقًا: ـ ليس لهذا أيّة أهمّيّة.

قال بوريس بعد أن حلم طويلاً: ـ نعم. ليس لهذا أيّة أهمّيّة. (وأضاف بلهجة منزعجة): إنّ الجرس يرنّ.

فذهب ماتيو يفتح الباب: وكان برونيه. قال ماتيو:

ـ مرحبًا، لقد جئت قبل الموعد.

فقال برونيه مبتسمًا: ـ صحيح، وهل هذا يزعجك؟

ـ على الإطلاق.

وسأل برونيه: ـ من هذا؟

فقال ماتيو: ـ بوريس سرغين.

قال برونيه: ـ آه! التلميذ العظيم؟ أنا لا أعرفه.

وانحنى بوريس ببرودة وتراجع حتى جوف الغرفة. وكان ماتيو واقفًا أمام برونيه مرتخي الذراعين.

ـ إنّه يكره أن يُعتبر تلميذي.

فقال برونيه من غير أن ينفعل: ـ مفهوم.

وكان يلفّ سيكارة بين أصابعه، صلبًا ولامباليًا تحت أنظار بوريس الحاقدة. وقال ماتيو.

ـ اجلس، خذ الأريكة.

جلس برونيه على كرسيّ وهو يقول مبتسمًا:

ـ لا. إنّ آرائكك مفسدة... (وأضاف) هكذا إذًا أيّها الاشتراكي الخائن القديم؟ يجب على من يريد لقاءك أن يأتي حتى عرينك.

فقال ماتيو: ـ ليست هي غلطتي: فقد سعيت غالبًا لرؤيتك ولكنّك تكاد لا توجد.

قال برونيه: ـ صحيح. فقد أصبحت نوعًا من وكلاء السفر. إنّهم يجعلونني أضرب في كلّ مكان حتى إنّني في بعض الأيّام يشقّ عليّ أن أجد نفسي بالذات.

واستطرد بلهجة ودّيّة:

ـ وإنّما أجد نفسي على أحسن صورها حين أراك، ويخيّل إليّ أنّني استودعت نفسي عندك.

فابتسم له ماتيو ابتسامة عرفان، وقال:

ـ لقد فكّرت مرارًا أنّ علينا أن نلتقي أكثر ممّا نفعل. ويخيّل إليّ أنّنا نشيخ شيخوخة أبطأ، إذا كان بإمكاننا أن نلتقي نحن الثلاثة بين فترة وأخرى.

فنظر إليه برونيه بدهشة: ـ نحن الثلاثة؟

ـ طبعًا: نعم، دانيال وأنت وأنا.

قال برونيه في ذعر:

ـ صحيح، دانيال! إنّ هذا الصديق ما يزال موجودًا! وأنت ما تزال تراه بين فترة وأخرى. أليس كذلك؟

فسقطت فرحة ماتيو: حين كان برونيه يلتقي بورتال أو بوروليبه فلا بدّ أنّه كان يقول لهما، باللهجة الضجرة نفسها: «ماتيو؟ إنّه أستاذ في معهد بوفون. وما زلت أراه بين فترة وأخرى». وقال بمرارة:

ـ أجل. ما زلت أراه، فتصوّر!

وساد صمت. كان برونيه قد وضع يديه على ركبتيه. وكان هناك ثقيلاً وكثيفًا، جالسًا على كرسي لماتيو، يحني وجهه بصورة عنيدة نحو شعلة عود ثقاب. كانت الغرفة ملأى بحضوره، وبدخان سيكارته، وبحركاته البطيئة. وكان ماتيو ينظر إلى يديه الكبيرتين، يدي الفلّاح، ويفكّر: «لقد جاء». وشعر بأنّ الثقة والفرح كانا يحاولان بحياء أن يولدا في قلبه من جديد. وسأله برونيه:

ـ وما عدا ذلك؟ ما هي أحوالك؟

أحسّ ماتيو بالضيق: ليس هناك شيء. وقال:

ـ لا شيء.

ـ إنّني أتمثّلك: أربع عشرة ساعة من الدروس أسبوعيًا، ورحلة إلى الخارج في العطلة الكبرى.

فقال ماتيو ضاحكًا وهو يتجنّب النظر إلى بوريس: ـ نعم.

ـ وأخوك؟ ألا يزال صليب نار؟

قال ماتيو: ـ كلّا. إنّه ينوّع. وهو يقول إنّ صلبان النار ليست ديناميكيّة بما فيه الكفاية.

قال برونيه: ـ هذا طريدة لدوريو.

ـ يتحدّثون عن ذلك... (وأضاف ماتيو من غير تفكير): لقد تنازعت معه اليوم.

فألقى برونيه عليه نظرًا سريعًا حادًّا:

ـ ولماذا؟

ـ إنّ الأمر دائمًا هكذا: أطلب منه خدمة فيجيبني بموعظة.

فقال برونيه ساخرًا: ـ ولهذا توسعه أنت شتمًا. أتراك ما تزال تأمل أن تغيِّره؟

فقال ماتيو متضايقًا: ـ كلّا. ليس الأمر كذلك.

وصمتا لحظة أخرى. وفكّر ماتيو بحزن: «إنّ الوضع يتبلّد». ليت بوريس يفكِّر في الذهاب. ولكن يبدو أنّه لا يفكِّر بذلك. فهو قائم في ركنه مقشعرًّا، شبيهًا بكلب مريض. وكان برونيه قد جلس على كرسيه منفرج الساقين، وكان هو أيضًا يلقي على بوريس نظرًا ثقيلاً. وفكّر ماتيو برضى: «إنّه يودّ لو يرحل». وأخذ يرمق بوريس بين عينيه: فربّما انتهى به الأمر إلى أن يفهم تحت نيران هذه الأنظار المشتركة. ولكن بوريس لم يكن ليتحرّك. وقال برونيه بصوت واضح:

ـ ألا زلت تدرس الفلسفة، أيّها الشابّ؟

فأومأ بوريس برأسه أن نعم.

ـ وأين وصلت فيها؟

فقال بوريس بجفاء: إنِّي أنهي شهادة الليسانس.

قال برونيه بلهجة استغراق: ـ شهادة الليسانس؟ الحمد لله. ثم قال بصراحة:

ـ أتراك ستكرهني إذا خطفت منك ماتيو مدّة لحظة؟ إنّ لك حظًّا في أن تراه كلّ يوم، أمّا أنا... (وسأل ماتيو) هل تأتي لنقوم بجولة في الخارج.

واقترب بوريس من برونيه بصلابة وقال:

ـ لقد فهمت. إبق هنا، إبق. فأنا الذي سأخرج.

وانحنى قليلاً: لقد كان مجروحًا، وتبعه ماتيو حتى الباب وقال له بحرارة:

ـ إلى هذا المساء. أليس كذلك؟ سأكون هناك حوالى الحادية عشرة.

فابتسم له بوريس ابتسامة آسفة: ـ إلى هذا المساء. أغلق ماتيو الباب وعاد إلى برونيه، يقول له وهو يفرك يديه:

ـ وإذًا؟ لقد طردته؟

وضحكا. وسأل برونيه:

ـ ربّما سلكت في ذلك مسلكًا شديدًا. إنّك غير عاتب عليّ.

قال ماتيو ضاحكًا: ـ على العكس. إنّه معتاد. ثم إنِّي مسرور جدًّا في أن أراك وحدك.

قال برونيه بصوت حازم:

ـ كنت حريصًا على أن يذهب بسرعة لأنِّي لا أملك إلّا ربع ساعة.

فتحطّمت ضحكة ماتيو وقال:

ـ ربع ساعة؟ أنا أعرف أنّك لا تملك وقتك: ولقد كنت لطيفًا بأن تجيء.

ـ الحقيقة أنِّي كنت مأخوذًا طوال النهار، ولكنِّي حين رأيت سحنتك هذا الصباح، فكّرت: يجب قطعًا أن أحدِّثك.

ـ وهل كانت سحنتي قذرة؟

ـ نعم يا عزيزي المسكين. كانت ممتقعة أكثر ممّا ينبغي ومتورِّمة أكثر ممّا ينبغي مع رجفة في الأجفان وفي زاوية الفم.

وأضاف بشغف: ـ وقلت في نفسي: إنّني لا أريد أن يتلفوه لي.
فسعل ماتيو وقال:

ـ لم أكن أعتقد أنّه كان لي وجه معبِّر إلى هذا الحدّ... كنت قد أرقت، وكانت لديّ هموم... أوه أنت تعلم، كهموم جميع الناس، مجرّد هموم ماليّة.

ولم يبد على برونيه أنّه اقتنع، فقال:

ـ إن لم يكن الأمر إلّا كذلك فلا بأس، لأنّ بوسعك أن تتدبّر أمرك دائمًا. ولكن كان يبدو عليك بالأحرى مظهر شخص أدرك أنّه قد عاش أفكارًا مزعجة.

قال ماتيو بحركة غامضة: ـ «أوه! الأفكار...» وكان ينظر إلى برونيه نظرة عرفان متواضع. وكان يفكّر: «لقد أتى من أجل هذا. كان نهاره مشغولاً بعدد من المواعيد الهامّة فأزعج نفسه ليأتي إلى نجدتي». ومهما يكن فقد كان أفضل لو أنّ برونيه استجاب لمجرّد الرغبة في رؤيته. وقال برونيه:

ـ اسمعني! فأنا لا أريد أن أحدِّثك بالمواربة، وإنّما جئت أقدّم لك عرضًا: هل تريد أن تدخل الحزب؟ إذا قبلت اصطحبتك وانتهت القضيّة في عشرين دقيقة.

فانتفض ماتيو وسأله:

ـ في الحزب الشيوعي؟

فأخذ برونيه يضحك، وتكسّرت جفونه وكان يكشف عن أسنانه الباهرة وقال:

ـ طبعًا، فأنت لا تريدني أن أدخلك عند «لاروك»؟

وساد صمت ثم سأله ماتيو برقّة:

ـ لماذا تريدني يا برونيه أن أصبح شيوعيًا؟ ألصالحي أم لصالح الحزب؟

قال برونيه: ـ لصالحك. وليست بك حاجة إلى أن تتّخذ هيئة رقابة، فإنّي لم أصبح رقيب دعاية للتجنّد في الحزب الشيوعي، ثم لنتفاهم: إنَّ الحزب لا يحتاج إليك قطّ. وأنت لا تمثِّل في نظره إلّا رأس مال صغير من الذكاء. وهذا، أقصد المثقّفين، نملك منه ما بوسعنا بيعه، ولكنّك أنت بحاجة إلى الحزب.

وردّد ماتيو: ـ لصالحي. لصالحي... (واستطرد فجأة) اسمع: إنّني لم أكن أتوقّع عرضك هذا فقد بوغتّ به. ولكن... أودّ لو تقول لي ما الذي تفكِّر به؟ أنت تعلم أنِّي أعيش محاطًا بصبية لا ينشغلون إلّا بأنفسهم وهم معجبون بي مبدئيًا. وليس هناك من يحدِّثني قطّ عن نفسي! وأنا أيضًا أحيانًا، أجد مشقّة في أن أعثر على نفسي. وإذن؟ أتظنّ أنِّي بحاجة إلى أن ألتزم؟

فقال برونيه بقوّة: ـ نعم. نعم. أنت بحاجة إلى أن تلتزم. أَوَلا تحسّ ذلك بنفسك؟

وابتسم ماتيو بحزن: كان يفكِّر في إسبانيا. وقال برونيه:

ـ لقد سلكت طريقك. أنت ابن برجوازي، ولم تكن تستطيع أن تأتي إلينا هكذا. بل كان يجب أن تتحرّر. وقد تمّ هذا الآن! فأنت حرّ. ولكن ما جدوى هذه الحرِّيّة إن لم تكن لتمكِّن المرء من الالتزام؟ لقد أنفقت خمسة وثلاثين عامًا وأنت تنظِّف نفسك، وكانت النتيجة فراغًا (وأضاف ببسمة ودِّيّة)، أنت، لو تدري، جسم غريب. إنّك تعيش في الهواء، ولقد قطعت صلاتك البرجوازيّة، وليست لك أيّة علاقة بالبروليتاريّة، فأنت عائم، أنت مجرّد، أنت غائب. ولا بدّ أنّ هذا ليس شيئًا طريفًا دائمًا.

قال ماتيو: ـ لا، ليس شيئًا طريفًا دائمًا.

واقترب من برونيه وهزّه من كتفيه: لقد كان يحبّه حبًّا قويًّا. وقال له:

ـ أيّها الداهية الملعون، أيّها المومس الملعون! يسرّني كثيرًا أن تقول لي كلّ هذا!

وابتسم له برونيه بشرود: كان يتابع فكرته، فقال:

ـ لقد تنازلتَ عن كلّ شيء لتكون حرًّا. فقم بخطوة أخرى، تنازل عن حرّيّتك نفسها: وسيُردّ لك كلّ شيء.

قال ماتيو ضاحكًا: ـ إنّك تتكلّم كالخوري. كلّا يا عزيزي! لنتكلّم بجدّ. فإنّ هذا لن يكون تضحية كما تعلم. أنا أعرف جيّدًا أنّني سأستردّ كلّ شيء، لحمًا ودمًا وحماسات حقيقيّة. ولكنّك تعرف يا برونيه أنّي انتهيت إلى فقدان حسّ الحقيقة: فليس هناك ما يبدو لي حقيقيًّا مئة بالمئة.

ولم يجب برونيه: كان يتأمّل. وكان له وجه ثقيل قرميديّ اللون ذو ملامح متهدّلة وأهداب صهباء، صفراء جدًّا وطويلة جدًّا. وكان يشبه بروسيًّا. كان ماتيو كلّما رآه أحسّ في منخريه بنوع من الفضول الحائر. وكان يتنفّس على مهل ويتوقّع أن يشمّ فجأة رائحة إنسانيّة قويّة. ولكن لم يكن لبرونيه رائحة. قال ماتيو:

ـ إنّك حقيقي أنت وكلّ ما تلمسه يبدو حقيقيًّا، فإنّ غرفتي منذ دخلتها تبدو حقيقيّة وتثير اشمئزازي.

وأضاف فجأة: ـ إنّك إنسان.

فسأله برونيه مدهوشًا: ـ إنسان؟ إنّ العكس مقلق. فماذا تريد أن تقول؟

ـ لا شيء غير ما قلت: لقد اخترتَ أن تكون إنسانًا.

إنسان ذو عضلات قويّة معقّدة بعض الشيء، يفكّر بحقائق قصيرة قاسية، إنسان مستقيم، مغلق، واثق من نفسه، أرضي، متمرِّد على المغريات الملائكيّة للفنّ وعلم النفس والسياسة، إنسان برمّته، ولا شيء

غير إنسان. وقد كان ماتيو هناك، تجاهه، متردِّدًا، رديء الشيخوخة رديء الصنع، تحاصره جميع دُوارات اللاّإنساني. وفكّر: «أمّا أنا، فلا أبدو إنسانًا». ونهض برونيه وأقبل على ماتيو يقول:

ـ وإذن؟ افعل مثلي، فما الذي يمنعك من ذلك؟ أتراك تتصوّر أنّ بوسعك أن تعيش كلّ حياتك بين هلالين؟

فنظر إليه ماتيو متردِّدًا، وقال:

ـ طبعًا، طبعًا. وإذا اخترت فإنِّي أختار أن أكون معكم، وليس هناك اختيار آخر.

فردَّد برونيه: ـ ليس هناك اختيار آخر. (وتلبث لحظة، ثم سأل): وإذن؟

قال ماتيو: ـ دعني قليلاً أتنفّس.

فقال برونيه: ـ تنفّس، تنفّس، ولكن عجِّل. فغدًا تصبح أكبر سنًّا ممّا ينبغي، وستكون لك عاداتك الصغيرة، وستكون عبد حرِّيّتك. وربَّما كان العالم أيضًا أكبر سنًّا ممّا ينبغي.

قال ماتيو: ـ إنّني لا أفهم.

فنظر إليه برونيه وقال بسرعة:

ـ ستنشب الحرب في أيلول.

قال ماتيو: ـ إنّك تمزح.

ـ يمكنك أن تصدِّقني. فالإنكليز يعرفون ذلك، وقد أُخطرتْ به الحكومة الفرنسيّة، وفي النصف الثاني من أيلول سيدخل الألمان إلى تشيكوسلوفاكيا.

قال ماتيو منزعجًا: ـ يا لهذه الأساليب!

فسأل برونيه متضايقًا: ـ ولكن ألا تفهم شيئًا؟

غير أنّه تدارك وأضاف برقّة:

ـ لو كنت تفهم، لما كنت بحاجة إلى أن أوضح لك وأضع النّقاط على الحروف. اسمع: إنّك مثلي من المشاة. إفرض أنّك تمضي في الحالة التي أنت فيها الآن: فإنّك توشك أن تنفجر كفقّاعة، وتكون قد حلمت حياتك خمسة وثلاثين عامًا، ثم تأتي ذات يوم قنبلة فتفجّر أحلامك، وستموت من غير أن تكون قد استيقظت. لقد كنت موظّفًا مجرّدًا، وستكون بطلاً مضحكًا، وستسقط من غير أن تكون قد فهمت شيئًا. كلّ ذلك ليتمكّن السيّد شنيدر من المحافظة على مصالحك في معامل سكودا.

وسأله ماتيو: ـ وأنت؟ (وأضاف مبتسمًا): إنّني أخشى يا عزيزي ألّا تستطيع الماركسيّة أن تحمي الناس من القنابل.

فقال برونيه: ـ وأنا أخشى ذلك أيضًا. أتدري أين سيرسلونني؟ إلى مقدّمة خطّ ماجينو: إنّه مرمى المضمون.

ـ وإذن؟

ـ ليس هو الأمر نفسه، فهذا خطر قد اضطلعنا به. إنّه لا شيء الآن يستطيع أن ينزع من حياتي معناها، لا شيء يستطيع أن يمنعها من أن تكون قدرًا.

وأضاف بحيويّة:

ـ كما هي حياة جميع رفاقي، في الواقع.

لكأنّه كان يخشى أن يأثم بدافع الكبرياء.

ولم يجب ماتيو. وذهب يرتفق حاجز الشرفة وهو يفكّر: لقد «عبّر خير تعبير». وكان برونيه على حقّ: لقد كانت حياته قدرًا. سنّه، طبقته، زمانه: لقد استردّ كلّ شيء، واضطلع بكلّ شيء، واختار العصا الرصاصيّة التي ستضربه في صَدغه، والقنبلة الألمانيّة التي ستبقر بطنه: لقد التزم، وتنازل عن حرّيّته، فلم يكن بعد إلّا جنديًّا. لقد أعادوا له كلّ شيء، حتى

حرِّيّته. «إنّه أكثر حرِّيّة منّي: إنّه متّفق مع نفسه ومتّفق مع الحزب». لقد كان هناك، حقيقيًّا تمامًا. وفي فمه مذاق حقيقي للتبغ، وكانت الألوان والأشكال التي يملأ بها عينيه أكثر حقيقة وأكثف من تلك التي كان ماتيو يستطيع أن يراها. ومع ذلك، فقد كان في اللحظة نفسها يتمدّد عبر الأرض كلّها، متألِّمًا ومكافحًا مع عمّال جميع البلاد. في هذه اللحظة، في هذه اللحظة بالذات، هناك أشخاص يطلقون على أنفسهم الرصاص في ضاحية مدريد، وهناك يهود نمساويّون يحتضرون في معسكرات الاعتقال، وهناك صينيّون في أنقاض ننكين، وأنا هنا طريٌّ نضر. أحسّني حرًّا، وسوف آخذ بعد ربع ساعة قبّعتي وأذهب لأتنزّه في حديقة اللوكسمبورغ. والتفت إلى برونيه ونظر إليه بمرارة وهو يفكّر: «إنّني غير مسؤول».

وقال فجأة: ـ لقد قصفوا فالنسيا.

فقال برونيه: ـ أعرف ذلك. ولم يكن هناك مدفع مضادّ في المدينة كلّها، وقد قذفوا قنابلهم على سوق.

لم يكن قد شدّ قبضته، ولم يكن قد تخلَّى عن بهجته المطمئنة وعن تدفّقه المستنيم، ومع ذلك، فقد كان هو الذي قُصف، وكان إخوته وأخواته وأولاده هم الذين قُتلوا. وذهب ماتيو يجلس على أريكة. «إنّ أرائكك مفسدة». وانتصب بحيويّة، وجلس على زاوية الطاولة. قال برونيه:

ـ وإذن؟

وكان يبدو أنّه يترصّده. قال ماتيو:

ـ إذن؟ إنّك محظوظ.

ـ محظوظ بأن أكون شيوعيًّا؟

ـ نعم.

ـ رأي عجيب! إنّ هذا يُختار يا عزيزي.

ـ أعرف ذلك. إنّك محظوظ في أن تكون قد استطعت الاختيار.

وقست ملامح برونيه قليلاً:

ـ هذا يعني أنّك لن تملك هذا الحظّ.

والآن تجب الإجابة. وانتظر: نعم أم لا؟ أن يدخل الحزب ويمنح حياته معنى، ويختار أن يكون إنسانًا ويعمل، ويؤمن، سيكون في ذلك الخلاص. ولم يكن برونيه ليغادره بعينيه:

ـ أترفض؟

فقال ماتيو يائسًا: ـ نعم، نعم يا برونيه: أرفض.

وكان يفكِّر: «لقد جاء يمنحني أفضل ما لديه!» وأضاف:

ـ أنت تعلم أنّ هذا ليس قرارًا نهائيًّا... ففيما بعد...

وهزّ برونيه كتفيه.

ـ فيما بعد؟ إذا كنت تعوِّل على إشراقة داخليّة لتقرِّر، فأنت توشك أن تنتظر طويلاً. هل تتصوّر أنّني كنت مقتنعًا حين دخلت الحزب الشيوعي؟ إنّ الاقتناع أمر يُصنع.

وابتسم ماتيو بحزن.

ـ أعرف ذلك جيِّدًا: إِركع فتؤمن. ربَّما كنت على حقّ. أمّا أنا فأريد أن أؤمن أوّلاً.

قال برونيه بنفاد صبر: ـ طبعًا. إنّكم كلّكم متشابهون، أنتم المثقّفين: كلّ شيء يتحطّم، كلّ شيء ينهار، البنادق ستنطلق من تلقاء نفسها وأنتم هنا هادئون، تطلبون حقّكم في أن تكونوا مقتنعين. آه! ليتك كنت تستطيع أن ترى نفسك بعينيّ أنا، إذًا لفهمت أنّ الزمن مستعجل.

ـ حسنًا. الزمن مستعجل، أجل! وبعد ذلك؟

وأرسل برونيه إلى مؤخِّرته صفعة غيظ.

ـ ها نحن ذا! أنت تتصنّع أنّك متأسِّف على شكِّك. ولكنّك تحرص

عليه. وتلك هي راحتك المعنويّة: فما أن يهاجموها حتى تتشبّث بها في شراسة، كما يتشبّث أخوك بماله.

وقال ماتيو بهدوء: ـ هل يبدو عليّ في هذه اللحظة أنَّني شرس؟

قال برونيه: ـ أنا لا أقول ذلك.

وساد صمت. وكان يظهر على برونيه أنّه قد رقّ، وفكّر ماتيو: ليته يستطيع أن يفهمني. وبذل جهدًا: إنّ اقتناع برونيه هو الوسيلة الوحيدة التي تبقى له لإقناع نفسه.

ـ ليس عندي ما أدافع عنه: فأنا لست فخورًا بحياتي ولا أملك فلسًا. حرّيّتي؟ إنّها تثقل عليّ: فهذه سنوات تنقضي وأنا حرّ من أجل لا شيء. وإنّني أذوب رغبة في استبدالها بيقين. إنّني لا أطلب أفضل من أن أعمل معكم، فهذا سيبدّلني من نفسي، وأنا بحاجة إلى أن أنسى نفسي قليلاً. ثم إنّني أفكّر مثلك بأنّ المرء لا يكون إنسانًا ما لم يجد شيئًا يقبل أن يموت من أجله.

وكان برونيه قد رفع رأسه فقال بما يشبه المرح: ـ وإذن؟

ـ إذن! أنت ترى: لا أستطيع الالتزام، فليست عندي أسباب كافية لذلك. إنّني أحتجّ مثلك ضدّ الأشخاص أنفسهم، وضدّ الأشياء نفسها، ولكن ليس بما فيه الكفاية. إنّني لا أستطيع في ذلك شيئًا. فإذا أخذت أجري في الاستعراض رافعًا قبضتي، منشدًا «الأنترناسيونال»، وإذا صرّحت لنفسي بأنّني راضٍ مع ذلك، فإنّما أكذّب على نفسي.

وكان برونيه قد تلبّس هيئته الأكثر كثافة والأكثر فظاظة، وكان يشبه بُرجًا. ونظر إليه ماتيو في يأس:

ـ هل تفهمني يا برونيه؟ قل لي هل تفهمني؟

فقال برونيه: ـ لا أدري إن كنت أفهمك جيّدًا؛ ومهما يكن من أمر، فليس لك أن تبرّر نفسك، لأنّه ليس ثمّة من يتّهمك. إنّك تحتفظ بنفسك

لمناسبة أفضل، وهذا حقّك، وأتمنّى أن تأتي هذه المناسبة في أقرب وقت ممكن.

ـ وأنا أتمنّى ذلك أيضًا.

ونظر إليه برونيه بفضول:

ـ هل أنت متأكّد من أنّك تتمنّى ذلك؟

ـ طبعًا...

ـ طبعًا؟ حسنًا، فليكن. غير أنّي أخشى ألَّا تأتي هذه المناسبة سريعًا.

فقال ماتيو: ـ لقد قلت لنفسي هذا أنا أيضًا. قلت لنفسي إنّها قد لا تأتي أبدًا، أو ربّما أتت بعد فوات الأوان. أو ربّما لم يكن هناك فرصة أصلاً.

ـ وإذن؟

ـ إذن! في هذه الحالة سأكون شخصًا مسكينًا. هذا كلّ ما في الأمر.

ونهض برونيه وهو يقول:

ـ هكذا، هكذا إذن يا عزيزي. مهما يكن من أمر، فإنّي مسرور بأنّي قد رأيتك.

ـ إنّك لن تذهب... لن تذهب هكذا. فإنّ عندك دقيقة أخرى، أليس كذلك!

ونظر برونيه إلى ساعته: لقد تأخّرت.

وساد صمت. كان برونيه ينتظر بأدب. وفكّر ماتيو: «يجب ألّا يذهب، يجب أن أحدِّثه». ولكنّه لم يكن يجد شيئًا يقوله له.

وقال بسرعة:

ـ يجب ألّا تحقد عليّ.

فقال برونيه: ـ ولكنّني لست حاقدًا عليك. إنّك لست مجبرًا على أن تفكِّر مثلي.

قال ماتيو آسفًا: ـ ليس هذا صحيحًا. إنّني أعرفكم جيِّدًا، أنتم الآخرين: فأنتم تعتقدون أنّ المرء مجبر على التفكير مثلكم، إلّا أن أكون قذرًا. إنّك تعتبرني قذرًا. ولكنّك لا تريد أن تقول لي ذلك، لأنّك تحكم أنّ الحالة ميئوس منها.

فابتسم برونيه ابتسامة خفيفة، وقال:

ـ إنّني لا أعتبرك قذرًا. كلّ ما هنالك أنّك أقلّ انفصالاً عن طبقتك ممّا كنت أظنّ.

وفيما كان يتكلّم، كان يقترب من الباب. وقال له ماتيو: ـ لا يمكن لك أن تعترف كم أثّر فيّ مجيئك لرؤيتي ومدُّك يد المعونة إليّ، لمجرّد أنّ سحنتي كانت قذرة هذا الصباح. أنت على حقّ لو تعلم، فأنا بحاجة إلى مساعدة. غير أنِّي أريد معونتك أنت.. لا معونة كارل ماركس. أودّ لو أراك غالبًا وأتحدّث معك، فهل هذا مستحيل؟

فصرف برونيه عينيه، وقال:

ـ أودّ ذلك كثيرًا، ولكنّي لا أملك كثيرًا من الوقت.

وفكّر ماتيو: «طبعًا. لقد أشفق عليّ هذا الصباح، فخيّبت شفقته. وقد عدنا الآن فأصبحنا غريبين أحدنا بالنسبة إلى الآخر. فليس لي أيّ حقّ في وقته». وقال بالرّغم منه:

ـ أتراك لا تذكر يا برونيه؟ لقد كنت خير أصدقائي.

وكان برونيه يلعب بمزلاج الباب:

ـ لماذا تظنّ أنّني جئت؟ لو أنّك قبلت عرضي، لكان بإمكاننا أن نعمل معًا...

وصمتا. وكان ماتيو يفكِّر: «إنّه مستعجل، وهو يذوب رغبة في الذهاب».

وأضاف برونيه، من غير أن ينظر إليه:

ـ إنّني ما زلت حريصًا عليك. حريصًا على سحنتك، على يديك، على صوتك، ثم إنّ هناك الذكريات بالرّغم من كلّ شيء. ولكن هذا لا يغيّر شيئًا في القضيّة: إنّ أصدقائي الوحيدين الآن، إنّما هم رفاق الحزب، فإنّ عندي مع هؤلاء، عالمًا مشتركًا برمّته.

فسأله ماتيو: ـ وتظنّ أنّه ليس بيننا بعد أيّ شيء مشترك؟

فرفع برونيه كتفيه من غير أن يجيب. وكان حسبه أن يقول كلمة، كلمة واحدة، حتى يجد ماتيو كلّ شيء من جديد، صداقة برونيه، وأسبابًا للحياة. وكان ذلك مغريًا كالنوم. وانتصب ماتيو فجأة، وقال:

ـ إنّني لا أريد أن أحجزك. فتعال لتراني حين تجد الوقت.

قال برونيه: ـ بكلّ تأكيد. وأنت إذا غيّرت رأيك، فأرسل لي كلمة.

قال ماتيو: ـ بكلّ تأكيد.

وكان برونيه قد فتح الباب. وابتسم لماتيو ومضى، وفكّر ماتيو: «لقد كان خير أصدقائي».

لقد ذهب. كان يذرع الشوارع وهو يتمايل ويتهادى كأنّه بحّار، فتصبح الشوارع حقيقيّة الواحد بعد الآخر. ولكن حقيقة الغرفة كانت قد اختفت معه. ونظر ماتيو إلى أريكته الخضراء المفسدة وإلى كراسيه وإلى ستائره الخضراء وفكّر: «إنّه لن يجلس بعد على كراسيّ، ولن ينظر بعد إلى ستائري وهو يلفّ سيكارة». ولم تكن الغرفة بعد إلّا لطخة نور خضراء كانت ترتجف لدى مرور الأوتوبيسات. واقترب ماتيو من النافذة وارتفق حاجز الشرفة. وكان يفكّر: لم يكن بوسعي أن أقبل. وكانت الغرفة خلفه كأنّها ماء هادئ، ولم يكن ثمّة إلّا رأسه خارجًا من الماء، كانت الغرفة المفسدة خلفه، وكان واضعًا رأسه خارج الماء، وهو ينظر في الشارع ويفكّر: هل هذا حقيقي؟ هل

حقيقيّ أنّني لم أكن أستطيع أن أقبل؟ وفي البعيد، كانت طفلة صغيرة تقفز بالحبل، وكان الحبل يرتفع فوق رأسها كأنّه عروة ويسوط الأرض تحت قدميها. أصيل صيفي. وكان النور قد حطّ في الشارع وعلى السقوف، متساويًا، ثابتًا، باردًا كأنّه حقيقة أزليّة. أصحيح أنّي لست إلّا قذرًا؟ إنّ الأريكة خضراء، وحبل القفز يشبه عروة: هذا أمر غير قابل للنقاش. ولكن حين تتعلّق القضيّة بالناس، فالنقاش ممكن دائمًا، لأنّ كلّ ما يفعله يمكن أن يشرح نفسه، من فوق أو من تحت، بحسب رغبتنا. لقد رفضت لأنّي أريد أن أظلّ حرًّا، وهذا ما أستطيع قوله، وأستطيع أن أقول كذلك: إنّني قد خفت؛ أحبّ ستائري الخضراء، أحبّ أن أستنشق الهواء مساء وأنا على شرفتي. ولا أريد أن يتغيّر ذلك. إنّه يروق لي أن أغضب وأغتاظ من الرأسماليّة ولا أريد أن تُلغى، لأنّه لا تبقى لي أسباب للغضب والغيظ، فيروق لي أن أحسّني مزدريًا ومتوحّدًا، يروق لي أن أقول لا، دائمًا لا. وسيخيفني أن يحاولوا حقًّا بناء عالم يمكن العيش فيه، لأنّه لا يبقى لي آنذاك إلّا أن أقول نعم، وأن أعمل كما يعمل الآخرون. من فوق أو من تحت، من الذي يقرِّر؟ لقد قرّر برونيه. فهو يفكّر بأنّي قذر، وجاك أيضًا، ودانيال أيضًا. لقد قرَّروا جميعًا أنّني قذر. ماتيو هذا المسكين، إنّه هالك، إنّه قذر. وماذا عساني أستطيع أن أعمل أنا ضدّهم جميعًا؟ يجب أن أقرِّر: ولكن ماذا أقرِّر؟ حين قال الساعة لا، كان يحسب نفسه صادقًا، وكانت حماسة مرّة قد نهضت فجأة في قلبه. ولكن من كان يستطيع أن يحتفظ، تحت هذا النور، بأصغر جزء من الحماسة؟ لقد كان نورًا لنهاية أمل، وكان يخلِّد كلّ ما كان يلمسه. إنّ الطفلة الصغيرة ستقفز بالحبل إلى الأبد، وسيرتفع الحبل أبدًا فوق رأسها وسيسوط أبدًا الرصيف تحت قدميها، وسينظر إليها ماتيو إلى الأبد. ما جدوى القفز بالحبل! ما جدواه؟ ما جدوى أن يقرِّر المرء، أن يكون حرًّا؟ فتحت هذا النور نفسه، في مدريد وفي

فلنسيا، كان بشرٌ قد وقفوا أمام نوافذهم ينظرون إلى الشوارع الخالية الأبديّة ويقولون: «ما النفع؟ ما جدوى متابعة النضال؟». دخل ماتيو إلى غرفته، ولكنّ النور تبعه إليها. أريكتي، أثاثي. وكان على الطاولة مثقلةٌ للورق تشبه عقربًا. فأخذها ماتيو من ظهرها، كما لو أنّها كانت حيّة. إنّها مثقلتي: ما النفع؟ ما النفع؟ وترك العقرب يسقط على الطاولة وقرّر: إنّني شخص هالك.

٩

كانت الساعة السادسة، وكان دانيال قد نظر إلى نفسه في المرآة وهو خارج من مكتبه، ففكّر: «الأمر يعود من جديد». وأحسّ بالخوف. وسلك شارع «ريومور»: كان بوسع المرء أن يختبئ فيه، فإنّه لم يكن إلّا قاعة كبيرة ذات سماء مفتوحة، قاعة خطى ضائعة. وكان المساء قد أفرغ البنايات التجاريّة التي كانت تملأ جانبيه، فعلى الأقلّ، لم يكن هناك ما يغري بتخيّل أمورٍ صميميّة خلف زجاجها الأسود. وكان نظر دانيال يتسرّب متحرِّرًا بين هذه الأجراف المثقوبة حتى بركة السماء الورديّة المنتنة التي كانت تحبسها عند الأفق.

ولم يكن الاختباء يسيرًا إلى هذا الحدّ، بل كان حتى بالنسبة لشارع ريومور أجلى ممّا ينبغي، لقد كانت الفتيات الفارعات المزيّنات اللواتي يخرجن من المحلّات يرمينه بنظرات جريئة، فكان يُحسّ بجسده ويقول بين أسنانه: «القَذِرات». كان يخشى أن يشمّ رائحتهنّ: إنّ رائحة المرأة تنبعث مهما حرصت على أن تغسل نفسها، ومن حسن الحظّ أنّ النساء كنّ هناك نادرات، فإنّ هذا الشارع لم يكن رغم كلّ شيء شارعًا للنساء، ولم يكن الرجال يهتمّون به، إذ كانوا يقرأون صحفهم وهم سائرون، أو يفركون بحركات ضجرة زجاج نظّاراتهم أو يضحكون في الفراغ باندهاش. وكان جمهورًا حقيقيًّا بالرّغم من أنّه كان منتثرًا قليلاً، وكان يسير ببطء، فيخيّل أنّ

قدرًا جماهيريًا ثقيلاً يسحقه. وانسجم دانيال مع هذا الصفّ البطيء، واستعار من هؤلاء البشر بسمتهم المستنيمة وقدرهم الغامض المهدِّد، فضاع: لم يبقَ بعدُ فيه إلّا صوتُ وابلٍ أصمّ، ولم يَعُدْ إلّا شاطئًا من النور المنسيّ:

«سأصل أبكر ممّا ينبغي إلى بيت مارسيل، ولديّ الوقت لأسير قليلاً».

وانتصب متصلِّبًا حذرًا: لقد وجد نفسه من جديد، ولم يكن يستطيع أن يضيِّع نفسه بعيدًا جدًّا: «لديّ الوقت لأسير قليلاً». وكان هذا يعني: سأقوم بجولة في السوق الخيريّة، وكان قد مضى وقت طويل لم يكن دانيال ينجح فيه بأن يخدع نفسه. وما جدوى هذا من جهة أخرى؟ لقد كان يريد أن يذهب إلى السوق الخيريّة؟ حسنًا، سيذهب. سيذهب لأنّه لم تكن لديه أدنى رغبة في أن يمتنع عن ذلك: هذا الصباح، القطط، زيارة ماتيو، وبعد هذا أربع ساعات من العمل الكريه، وهذا المساء، مارسيل، إنّ هذا غير مُحتمل، فبوسعي أن أعوِّض عن نفسي قليلاً.

مارسيل، كانت مستنقعًا. كانت تستسلم ساعات طويلة للوعظ والإرشاد، وكانت تقول نعم، نعم، دائمًا نعم، وكانت الأفكار تغوص في رأسها، فإذا هي غير موجودة إلّا في الظاهر. من المستحسن أن يتسلّى المرء لحظة مع الأغبياء، فيمدّ لهم الحبل ليرتفعوا في الأجواء هائلين ذوي خفّة كفِيَلةٍ مصنوعة من أحشاء الخراف، فإذا شُدّ على الحبل عادوا يعومون على مستوى الأرض وقد جُنّوا وذعروا، ورقصوا لكلّ هزّة من الخيط في وثبات ثقيلة، ولكن ينبغي غالبًا تغيير الأغبياء، وإلّا أدّى ذلك إلى الاشمئزاز. ثم إنّ مارسيل كانت الآن فاسدة، وسيكون الجوّ في غرفتها غير محتمل. إنّ المرء لا يستطيع الامتناع، حين يدخل غرفتها عادة، عن الاشمئزاز. لم يكن ثمّة رائحة شيء، ولكنّ المرء لم يكن واثقًا من شيء، فهو يحتفظ طوال الوقت بالقلق في أعماق رئتيه، وهذا ما يؤدِّي غالبًا إلى

الربو. سأذهب إلى السوق الخيريّة. ولم تكن ثمّة حاجة إلى كلّ هذا الاعتذار فإنّ الأمر كلّه بريء: كان يريد أن يراقب حركات العمّات وهنّ يصطدن. لقد كانت سوق جادّة سباستبول الخيريّة مشهورة في نوعها، فهناك أغرى «دورا» مراقب الماليّة الفتاةَ الصغيرة القذرة التي قتلته. أمّا السوقة الذين كانوا يتسكّعون أمام آلات النقود وهم ينتظرون الزبون فقد كانوا أظرف كثيرًا من زملائهم من مونبارناس: لقد كانوا ألسنة سوء للمناسبات، أو أفظاظًا صغارًا غير مهذّبين، متوحّشين، وسوقة، ذوي أصوات مبحوحة وحركات خفيّة مغلّفة، يسعون فقط إلى ربح عشرة فرنكات ووجبة عشاء. ثم كان هناك أيضًا «الممحونون» الذين كانوا يُميتون ضحكًا برقّتهم ونعومتهم وأصواتهم التي تشبه العسل، وما في أنظارهم من خفقان وتواضع وشرود. ولم يكن دانيال يستطيع أن يتحمّل خضوعهم. فقد كانوا يظهرون دائمًا بمظهر المذنبين. وكانت تأخذه الرغبة في ضربهم، فإنّنا نرغب في ضرب إنسان يحكم على نفسه بنفسه لنزيد في إرهاقه ونحطّم ألف قطعة ما بقي له من كرامة. وكانت عادته أن يستند إلى جذع ويحدّق فيهم بينما هم يتبخترون تحت أعين عشّاقهم الشباب، تلك الأعين الناعسة الماجنة. وكان الممحونون يظنّونه حاميًا لأحد الفتيان، وكان يفسد عليهم كلّ لذّتهم. وأخذت دانيال عجلةٌ مفاجئة، فحثّ خطاه: «سوف نضحك!» وكانت حنجرته جافّة. والهواء الجافّ يحرق ما حوله. ولم يكن ليرى شيئًا بعد، كانت ثمّة لطخة أمام عينيه، ذكرى نور كثيف أصفر، وكان هذا النور البغيض يدفعه ويجذبه في وقت واحد، وكان محتاجًا إلى أن يراه، ولكنّه كان ما يزال بعيدًا، يعوم بين جدران واطئة، كأنّه رائحة كهف. وتلاشى شارع ريومور، ولم يكن باقيًا أمامه إلّا مسافة ذات عقبات، هي الناس: وكان ذلك يُشعر بالكابوس. غير أنّ دانيال لم يكن يستطيع قطّ، في الكوابيس الحقيقيّة، أن يبلغ نهاية الشارع. وانعطف إلى جادّة سيباستبول وقد تكلّس تحت السماء المشرقة، وتباطأ في مشيته. سوق خيريّة: لقد رأى اللافتة، وتأكّد من أنّه لم يكن يعرف وجوه المارّة، فدخل.

كان ممرًّا طويلاً ضيِّقًا مغبرًّا، ذا جدران مطليّة باللون الأسمر وقبح قاس ورائحة مستودع خمر. انغمر دانيال في النور الأصفر الذي كان أشدّ حزنًا ولزوجة ممّا هو في العادة، وكان إشراق النهار يركنه في جوف القاعة، وفي عينيّ دانيال كان نور دوار البحر: يذكِّره بتلك الليلة التي قضاها مريضًا على باخرة بالرمو: فقد كان في غرفة الآلات الخالية ضباب أصفر مشابه جدًّا، كان يحلم به أحيانًا فيستيقظ منتفضًا، سعيدًا بأن يجد الظلمات من جديد. وكانت الساعات التي يقضيها في السوق الخيريّة تبدو له موقّعة بضربات صمّاء تصدر عن أذرعٍ دافعة. وقد أُسندت إلى الجدران علب ضخمة على أربعة أرجل، كانت تلك هي الألعاب. وكان دانيال يعرفها جميعًا: لاعبو كرة القدم، ستّة عشر تمثالاً خشبيًّا صغيرًا، مشكوكة على قضبان طويلة من النحاس، ولاعبو البولو، وسيّارة الحديد الأبيض التي كان يجب إركاضها على طريق من القماش، بين بيوت وحقول، والقطط الصغيرة السود الخمس على السقف، في ضوء القمر، التي كانت تُقتل بخمس طلقات من مسدّس، والبندقيّة الكهربائيّة، وآلات توزيع الشوكولا والعطور. وفي جوف القاعة، كانت ثلاثة صفوف من «الكينراما»، وكانت عناوين الأفلام تنفصل في حروف ضخمة سود: الزوجان الشابّان، الخادمات الفاجرات، الحمّام الشمسي، ليلة الزواج غير المستمرّة. وكان سيّد ذو نظّارة قد اقترب خفية من إحدى هذه الآلات، فأدخل عشرين فلسًا في الشقّ، وألصق عينيه بعجلة خرقاء على بلّور الميكا. وكان دانيال يختنق: كان هذا الغبار، وهذه الحرارة، ثم إنّهم أخذوا يضربون ضربات كبيرة، ذات أوقات منتظمة، فيما وراء الجدار. وإلى اليسار رأى المصيدة: كان شبّان يلبسون ثيابًا متواضعة قد تجمّعوا حول الملاكم الزنجي، وهو تمثال بطول مترين كان يضع في وسط بطنه وسادة من جلد وساعة. وكانوا أربعة، واحد أشقر الشعر، وآخر أحمره، وأسمران، كانوا قد نزعوا ستراتهم وشمّروا عن أكمامهم وكانوا يضربون بأذرعتهم الهزيلة على الوسادة كأنّهم صمّ. كان عقرب

على ميناء الساعة يشير إلى قوّة قبضاتهم. وراحوا ينظرون إلى دانيال نظرات خفية، ثم أخذوا يضربون ضربًا أشدّ. ووسّع دانيال عينيه ليظهر لهم أنّهم كانوا مخطئين بالعنوان ثم أولاهم ظهره، وإلى اليمين بالقرب من الصندوق، رأى في الظلّ شابًّا طويلاً ذا خدّين رماديين، كان يرتدي ثوبًا مدعوكًا كلّه، وقميصًا للنوم وحذاء من قماش. ولم يكن بالتأكيد ممحونًا كالآخرين! والواقع أنّه كان يبدو عليه أنّه لا يعرفهم. وقد دخل هناك بالمصادفة ـ وإنّ دانيال ليقسم على ذلك ـ وكان يبدو مستغرقًا في تأمّل آلة رافعة. وبعد لحظة، اقترب بلا ضجّة يجذبه من غير شكّ المصباح الكهربائي والكوداك اللذان كانا قائمين خلف الزجاج فوق ركام من الملبّس، وأدخل بخبث قطعة نقديّة في شقّ الآلة ثم ابتعد قليلاً، وبدا أنّه يسقط من جديد في تأمّله، وكان يلامس طرفي أنفه بإصبع متأمّل. وأحسّ دانيال بأنّ رعشة معهودة كانت تجري على رقبته وفكّر: «إنّه يحبّ نفسه جيّدًا، يحبّ أن يلامس نفسه». وكان هؤلاء أكثر الجميع جاذبيّة وأوفرهم روائيّة: أولئك الذين كانت أدنى حركة منهم تكشف عن دلال غير واعٍ، وعن حبّ للنفس عميق وملبّد. وأخذ الشابّ يديّ الآلة بحركة حيّةً وراح يحرّكهما ببراعة. استدارت الآلة الرافعة على نفسها بحركة دواميّة وارتجافات شيخيّة. فكانت المكنة كلّها تهتزّ منها. وكان دانيال يتمنّى له أن يربح المصباح الكهربائي، ولكنّ نافذةً بصقت ملبّسًا مختلف الألوان يشبه مظهر الفاصوليا البخيل المحدود. ولم يبد الشابّ خائبًا، وبحث في جيبه وأخرج قطعة نقود أخرى. وقرّر دانيال «إنّها آخر دراهمه، وهو لم يأكل منذ أمس». وكان ينبغي ألّا يقرِّر ذلك. كان ينبغي ألّا يستسلم، فيتصوّر خلف هذا الجسم الهزيل الساحر، المشغول بنفسه، حياةً غامضة من الحرمانات، والحرّيّة والأمل. ليس اليوم. وليس هنا، في هذا الجحيم، تحت هذا النور الكئيب، ومع هذه الضربات الصمّاء التي يُضرب بها الجدار، لقد عاهدت نفسي أن أصمد. ومع ذلك، كان دانيال يدرك تمامًا أنّ إحدى هذه الآلات يمكن أن تسرق الإنسان، فيفقد

فيها ماله شيئًا فشيئًا ويعود إلى تجربة حظّه مرّة ومرّة، وقد جفّ حلقه من الدوار والغضب: لقد كان دانيال يفهم جميع الدوارات. وأخذت الآلة الرافعة تدور بحركات حَذِرة متكرِّرة: وكان يبدو على هذه الآلة المنكِّلة أنّها راضية عن نفسها. أخذ دانيال الخوف: كان قد تقدّم خطوة إلى الأمام، وكان يذوب رغبة في وضع يده على ذراع الشابّ ـ وكان قد بدأ فعلاً يُحسّ ملمس القماش الخشن المنتوف ـ وفي أن يقول له: «كفاك لعبًا». وكان الكابوس يوشك أن يعود، بهذا المذاق من الأزليّة ومن «التام ـ تام» المنتصر من الجهة الأخرى من الجدار، وكان بحاجة إلى أيّام وليالٍ ليخرج من هذا المستنقع من الحزن المتطامن الذي كان يصعد فيه، هذا الحزن اللّامتناهي المألوف الذي كان يوشك أن يغمر كلّ شيء. ولكنّ رجلاً دخل، فتحرّر دانيال: لقد نهض وحَسب أنّه سينفجر ضحكًا، وفكّر: «هو ذا الرجل»، وكان تائهًا بعض الشيء، ولكنّه كان مسرورًا مع ذلك لأنّه صمد.

وتقدّم الرجل في نزق، كان يسير وهو يطوي ركبتيه، متصلِّب القامة، مَرن الساقين. وفكّر دانيال: «أنت؟ إنّك تلبس مشدًّا». وكان عمره يقدّر بالخمسين، وقد حلق ذقنه منذ وقت قريب، وكان ذا وجه متفهِّم يبدو أنّ الحياة قد دلّكته بحبّ، وبشرة خمريّة تحت شعر أبيض، وأنف فلورنسي جميل، ونظرٍ أقسى قليلاً وأحسر ممّا ينبغي: نظر المناسبة. وكان لدخوله تأثير: فقد انفتل السوقة الأربعة، وهم يتكلّفون المنظر نفسه من البراءة الفاسدة، ثم عادوا يرسلون قبضاتهم في بطن الجندي التمثال ولكن من غير حماسة. ترك الرجل نظره يحطّ قليلاً عليهم في تحفّظ لم تكن القسوة بعيدةً عنه، ثم انفتل واقترب من لعبة كرة القدم. وأدار القضبان الحديديّة وتفحّص التماثيل في جدٍّ باسم، كما لو أنّه يسلبه هو ذاته الهوس الذي اقتاده إلى هنا. ورأى دانيال هذه البسمة، فتلقّى ضربة زيفٍ في صدره واستفظع جميع هذه التصنّعات والأكاذيب، وأخذته الرغبة في الفرار.

ولكنّ ذلك لم يدم إلّا لحظة: كانت اندفاعة بلا عاقبة، وكان معتادًا على ذلك. واستند إلى جذع وأخذ يحدِج الرجل بنظر ثقيل. وإلى يمينه، كان الشابّ الذي يرتدي قميص النوم قد سحب من جيبه قطعة نقود ثالثة، وكان يستأنف للمرّة الثالثة رقصته الصغيرة الصامتة حول الآلة الرافعة.

انحنى الرجل الجميل على اللعبة وأمرّ سبّابته على الأجسام النحيفة للّاعبين الصغار من الخشب: لم يكن يريد الانحطاط إلى تقديم المغريات، ولا ريب أنّه كان يعتبر نفسه، بشعره الأبيض وثيابه الفاتحة، قطعة حلوى لذيذة لذّة كافية لاجتذاب جميع هذا الذباب الفتي. والواقع أنّ الصغير الأشقر، بعد لحظات من المشاورة، انفصل عن الفرقة، وكان قد رمى سترته على كتفيه من غير أن يرتديها، وأخذ يقترب من «الممحون» متهاديًا، ويداه في جيبه. وكان يبدو عليه الخوف والترقّب، وكان نظره، تحت حاجبيه الكثيفين نظر كلب. وتأمّل دانيال في اشمئزاز ردفه السمين وخدّيه الكبيرين الفلّاحين ولكن الرماديين اللذين كانت لحية صغيرة قد بدأت تلطّخهما. وفكّر: «لحم امرأة وهو يُفرك كعجين الخبز». سوف يقوده الرجل إلى بيته، فيغسله وينظّفه بالصابون، وربَّما عطّره. وإذ بلغ دانيال هذه الفكرة عاد إليه غضبه فتمتم: «قذرون!» وكان الشابّ قد توقّف على بضع خطى من الرجل الكهل وأخذ يصطنع بدوره أن يتفحّص الآلة. وكان كلاهما منحنيًا فوق القضبان يحدجها، من غير أن ينظر إلى الآخر، في مظهر اهتمام. وبعد ذلك، بدا على الشابّ أنّه يتّخذ قرارًا نهائيًّا: فقبض على زرّ وأدار أحد القضبان على نفسه في سرعة، فرسم أربعةُ لاعبين صغار نصف دائرة ثم توقّفوا ورؤوسهم منخفضة.

وسأل الرجل بصوت يشبه معجون اللوز:

ـ هل تحسن اللعبة؟ أوه! هل تريد أن تشرح لي؟ إنّني لا أفهم!

ـ تضع عشرين فلسًا ثم تسحب، فتأتيك الكرة، ويجب أن ترسلها إلى الثقب.

ـ ولكن يجب أن يلعب اثنان، أليس كذلك؟ إنّني أحاول أن أرسل الكرة إلى الهدف، وأنت، عليك أن تمنعني من ذلك؟

فقال الشابّ: ـ طبعًا (وأضاف بعد لحظة) يجب أن تكون على الطرفين، هنا واحد، وهناك واحد.

ـ أتريد أن تلعب معي دورًا؟

فقال الشابّ: ـ بكلّ ترحيب.

ولعبا. قال الرجل بصوت مرتفع:

ـ ولكن ما أبرع هذا الشابّ! كيف تراك تفعل حتى تربح طوال الوقت؟ علِّمني.

فقال الشابّ بتواضع: ـ إنّها العادة.

ـ آه! أنت تتدرّب! إنّك تأتي إلى هنا غالبًا، بلا شكّ؟ أمّا أنا، فيتّفق لي أن أمرّ فأدخل، غير أنِّي لم ألتق بك قطّ. ولو التقيت بك للاحظتك، أجل كنت لاحظتك، فأنا عالم بالفراسة، وأنّ لك وجهًا يثير الاهتمام. هل أنت من «تورين»؟

فقال الشابّ منزعجًا: ـ نعم، نعم، بالتأكيد.

وكفّ الرجل عن اللعب واقترب منه، فقال الشابّ بسذاجة:

ـ ولكنّ الدور لم ينته. فإنّ أمامك خمس كرات بعد.

فقال الرجل: ـ نعم! إذن، سنلعب عمّا قليل. إنّني أفضّل أن أتكلّم إن كان ذلك لا يضايقك.

فابتسم الشابّ ابتسامة مدروسة. واضطر الرجل إلى أن يستدير على نفسه ليلحق به. رفع رأسه وهو يمرّ لسانه على شفتيه الرقيقتين، فالتقى بنظر دانيال. فكشّر دانيال. وصرف الرجل عينه بسرعة، وبدا حائرًا، ففرك يديه فيما بينهما بحركة كاهن. ولم يكن الشابّ قد رأى شيئًا، وكان فاغر الفم، فارغ النظر، ممتثلاً، ينتظر أن يوجَّه إليه الكلام. وساد صمت ثم أخذ

الرجل يحدّثه في عذوبة، من غير أن ينظر إليه، بصوت مخنوق. وأجهد دانيال نفسه في الإنصات، فلم يسمع إلّا كلمتي «فيلا» و«بليار» وهزّ الشابّ رأسه في اقتناع، وقال بصوت مرتفع:

ـ لا بدّ أنّه من النيكل!

فلم يجب الرجل ورمى بنظره سريعًا تجاه دانيال. كان دانيال يحسّ بأنّ غضبًا جافًّا ولذيذًا يدفّئه. وكان يعرف جميع طقوس الذهاب: سوف يودّع أحدهما الآخر، فيذهب الرجل، أوّلاً، بخطوة عجلى. ويعود الفتى إلى رفاقه بلامبالاة فيضرب بطن الزنجي التمثال ضربة أو ضربتين، ثم يمضي بدوره بعد تحيّات رخوة، وهو يجرجر قدميه. وكان ينبغي أن يُتبع هو بالذات. ويكون العجوز يذرع الطريق المجاورة، فيرى فجأة دانيال في أعقاب الشابّ الجميل. ويا لها من لحظة! لقد كان دانيال يستمتع بها مقدّمًا، فيلتهم بعينيه وجه فريسته الرقيق التعب، وترتجف يداه، وتكون سعادته كاملة لولا أن يكون حلقه جافًّا وأنّه يكاد يموت من العطش. فإذا كان يجد فرصة مناسبة مارس عمل شرطة الأخلاق: وقد كان بوسعه دائمًا أن يأخذ اسم الكهل ويخضعه لذعر شديد: «فإذا طلب منّي بطاقة التفتيش فسوف أريه بطاقة السير الممنوحة لي من المحافظة».

قال صوت خجول: ـ مرحبًا يا سيّد لاليك.

وانتفض دانيال: لقد كان لاليك اسمًا حربيًّا يتّخذه لنفسه أحيانًا. والتفت فجأة وقال بقسوة:

ـ ماذا تفعل هنا؟ لقد منعتك من أن تضع قدمك في هذا المكان.

إنّه بوبي. وكان دانيال قد وظّفه لدى صيدلي. وقد سمن وترهّل، وكان يرتدي بذلة جميلة، ولم يكن يثير الاهتمام بعد على الإطلاق. كان بوبي قد أحنى رأسه على كتفه مقلّدًا الطفل: وينظر إلى دانيال من غير أن يجيبه ببسمة بريئة حذقة كما لو أنّه قال: «كوكو: هأنذا». وقد دفعت هذه البسمة بغضب دانيال إلى ذروته، فسأله:

ـ هل ستتكلّم؟

فقال الفتى بصوت المسترخي:

ـ إنّني أبحث عنك منذ ثلاثة أيّام، سيّد لاليك ولست أعرف عنوانك. وقد قلت لنفسي: إنّ السيّد دانيال سيأتي ذات يوم ليقوم بدورته الصغيرة...

«ذات يوم! يا للقذارة الوقحة:» لقد كان يسمح لنفسه أن يحكم على دانيال، وأن يقوم بتنبّؤاته الصغيرة: «هو يتصوّر أنّه يعرفني، وأنّ بوسعه أن يناور عليّ». ولم يكن ثمّة ما يُفعل: إلّا أن يُسحق كالبزّاق: لقد كانت صورةٌ لدانيال متكيّسة هناك، تحت هذا الجبين الضيّق، وستبقى فيه دائمًا. وكان دانيال، بالرّغم من نفوره، يشعر أنّه متضامن مع هذا الأثر الرخيّ الحيّ: إنّما كان هو نفسه الذي يعيش هكذا في ضمير بوبي.

وقال: ـ إنّك قبيح! لقد سمنت، ثم إنّ هذه البذلة لا تنسجم معك، فمن أين التقطتها؟ إنّه لمريعٌ كم يبدو ابتذالك واضحًا حين ترتدي ثياب الأحد!

ولم يبد على بوبي الانفعال. كان ينظر إلى دانيال مباعدًا ما بين عينيه بلطافة وهو دائم الابتسام. وكان دانيال يحتقر هذا الصبر الجامد، الذي يشبه صبر الفقير، وتلك الابتسامة المائعة اللزجة المطّاطيّة: فحتى لو مزّقت هذه الشفاه بالأظافر، لظلّت تلك الابتسامة دامية على الفم. وألقى دانيال نظرة سريعة نحو الرجل الجميل، فرأى في غيظ أنّه كان هادئًا غير منزعج، كان منحنيًا فوق الشابّ الأشقر يشمّ شعره وهو يضحك بجذل. وفكّر دانيال في غضب: «كان هذا متوقّعًا. إنّه يراني مع هذا الممحون فيظنّني زميلاً له، فهأنذا ملطّخ». وكان يكره روح المساعدة هذه المبوليّة. «إنّهم يتصوّرون أنّ جميع الناس ينتمون إليها. على أيّ حال، أفضّل أن أقتل نفسي على أن أشبه هذا الممحون!»

وسأل بوحشيّة: ـ ماذا تريد؟ إنّني مستعجل، ثم ارجع قليلاً إلى

الوراء، فإنّ رائحة «البريانتين» التي تتصاعد منك تفعم الأنف!

قال بوبي في بطء: ـ اعذرني، لقد كنت مستندًا هناك إلى العمود، ولم يكن يبدو عليك أنّك مستعجل قطّ، ولهذا سمحت لنفسي. . .

فقال دانيال وقد انفجر ضاحكًا:

ـ أوه! ولكنّ الحقيقة أنّك تحسن الكلام، فهل تراك اشتريت لسانًا مصنوعًا في الوقت الذي اشتريت فيه بذلتك المصنوعة؟

وانزلقت هذه السخرية على بوبي: وكان قد قلب رأسه وراح ينظر إلى السقف نظرة شهوة متواضعة عبر جفنيه المغمضين نصف إغماضة. «لقد راق لي لأنّه كان يشبه قطّة». ولم يستطع دانيال، إذ فكّر بهذا، أن يكبت انتفاضة غضب: أجل! ذات يوم! لقد راق له بوبي ذات يوم! فهل كان هذا يكسبه حقوقًا مدى العمر؟

وكان الرجل الكهل قد أخذ يد صديقه الشابّ واحتفظ بها بين يديه بحركة أبويّة. ثم حيّاه وهو يربت على خدّه، ورمى بنظرة ضالعة إلى دانيال ومضى في خطى واسعة راقصة. مدّ له دانيال لسانه، ولكنّ الآخر كان قد أولاه ظهره. وأخذ بوبي يضحك.

وسأل دانيال: ـ ماذا دهاك؟

فقال بوبي: ـ ذلك أنّك مددت لسانك للعجوز تاتا (وأضاف بلهجة ناعمة): «إنّك لا تتغيّر يا سيّد دانيال، وشيطنتك هي نفسها».

قال دانيال مذعورًا: ـ كفى! (وأخذه شكّ فسأله) وصيدليُّك؟ هل تركته؟

فقال بوبي في لهجة شاكية: ـ لم يؤاتني الحظّ عنده.

فنظر إليه دانيال في اشمئزاز.

ـ غير أنّك مع ذلك قد سمنت.

وخرج الشابّ القصير الأشقر من السوق الخيريّة بلا اكتراث، فلامس

دانيال وهو يمرّ. وما لبث رفاقه الثلاثة أن تبعوه، وراحوا يتزاحمون وهم يضحكون بأصوات عالية. فكّر دانيال: «ماذا أفعل هنا؟» وبحث بعينيه عن كتفي الشابّ صاحب قميص النوم، وعن رقبته الهزيلة، وقال بشرود:

ـ هيّا، تكلّم، ماذا فعلت له؟ هل سرقته؟

فقال بوبي: ـ بل إنّ السبب هو زوجة الصيدلي. إنّها لم تكن تطيقني.

وكان الشابّ ذو قميص النوم قد خرج. وأحسّ دانيال بأنّه ضجر وخفيف، وكان يخشى أن يجد نفسه وحيدًا مرّة أخرى. وتابع بوبي:

ـ لقد غضبتْ لأنّي كنت أرى رالف.

ـ لقد حذّرتك بألّا تعاشر رالف بعد. إنّه سارق قذر!

فسأله بوبي بغيظ: ـ إذن يجب التخلّي عن الأصدقاء بمجرّد أن يواتينا الحظّ؟ لقد كنت أراه أقلّ من السابق، ولكنّي لم أكن أريد التخلّي عنه دفعة واحدة. كانت تقول: «إنّه سارق، وأنا أمنعه من أن يضع قدميه في صيدليّتي». ماذا تريد، إنّها امرأة لئيمة. ولهذا كنت أراه في الخارج حتى لا تقبض عليّ. ولكن حدث أنّ المتمرّن رآنا معًا. يا للعكروت القذر، أعتقد أنّ عنده بعض الميول... في البدء، حين كنت هناك، كان يلاطفني جدًّا، فكيف أجرؤ على أن أصدّه؟ فإذا به يقول لي: سوف أقبض عليك! ودخل إلى الصيدليّة فسرد كلّ شيء، وقال إنّه رآنا معًا، وإنّنا كنّا في وضع سيّئ، وإنّ الناس كانوا يلتفتون إلينا. فقالت المعلّمة: ماذا قلت لك؟ إنّني أمنعك من رؤيته وإلّا فلن تبقى عندنا. وقلت لها: اسمعي يا سيّدتي: أنت التي تأمرين حين أكون في الصيدليّة، أمّا حين أكون خارجًا فليس لديك ما تقولينه. وهكذا كان؟!

كانت السوق الخيريّة خالية، من الجهة الأخرى للجدار. وكان الطّرْق قد كفّ. ونهضت أمينة الصندوق، وكانت شقراء سمينة، فمضت بخطى بطيئة إلى بائع للعطور، فنظرت إلى نفسها في المرآة وهي تبتسم. ودقّت

الساعة السابعة. وردّد بوبي بلطف:

ـ في الصيدليّة، أنت تأمرين، أمّا حين أكون خارجًا فليس لديك ما تقولينه.

انتفض دانيال وسأله بطرف شفتيه:

ـ وهكذا طردوك؟

فقال بوبي برصانة: ـ بل أنا الذي ذهبت، وأنا أقول: أفضّل أن أرحل. وتصوّر أنّه لم يكن باقيًا معي فلس واحد! إنّهم لم يريدوا أن يدفعوا ما أستحقّ، ولكن طزّ: إنّني هكذا. أبيت لدى رالف، وأنام بعد الظهر، لأنّه يستقبل في المساء امرأة مشهورة له علاقة بها. إنّني لم آكل منذ أمس الأوّل.

ونظر إلى دانيال نظرةَ ملامسة:

ـ وقد قلت في نفسي: سأحاول مع ذلك أن أرى السيّد لاليك، فهو سيفهمني.

فقال دانيال:

ـ إنّك أبله صغير. فأنت لا تثير اهتمامي بعد. إنّني أبذل جهدًا كبيرًا لأجد لك عملاً فتجعلهم يطردونك بعد شهر. وبعد ذلك، لا تتصوّر أنّي أصدِّق نصف ما تقوله لي. أنت تكذب كخالع الضرس.

فقال بوبي: ـ اسأل، وسترى إن كنت لا أقول الحقيقة.

ـ أسأل من؟

ـ امرأة الصيدلي.

فقال دانيال: ـ سوف أتفادى ذلك جيّدًا حتى لا أسمع القصص. ثم إنّي لا أستطيع شيئًا من أجلك.

وأحسّ بالاسترخاء ففكّر: «يجب أن أذهب» ولكنّ ساقيه كانتا مخدَّرتين.

قال بوبي بلهجة مجرّدة:

ـ لقد فكّرنا، أنا ورالف بأن نشتغل. وكنّا نريد أن نعمل لحسابنا.

ـ صحيح؟ وأنت آت تطلب منّي أن أسلِّفك مالاً لنفقاتك الأولى؟ احتفظ بهذه القصص لآخرين. كم تريد؟

فقال بوبي بصوت مبتل:

ـ إنّك شخص لطيف يا سيّد لاليك. والحقّ أنّي كنت أقول لرالف في هذا الصباح بالذات: لألتقِ بالسيّد لاليك، وسترى أنّه لن يتركني في المغطس.

وردّد دانيال: ـ كم تريد؟

وأخذ بوبي يتلوّى وهو يقول: ـ يعني، لو كنت تستطيع أن تديّنني، أتسمع: تديّنني؟ فسوف أردّها لك في آخر الشهر الأوّل.

ـ كم؟

ـ مئة فرنك.

فقال دانيال: ـ خذ، هذه خمسون فرنكًا، وأنا أهبك إيّاها. ولكن اختفِ الآن؟

ووضع بوبي الورقة في جيبه من غير أن يقول كلمة، وبقي أحدهما تجاه الآخر، متردِّدين.

وقال دانيال برخاوة: «اذهب» وكان جسمه كلّه واهنًا كالقطن.

فقال بوبي: «شكرًا يا سيّد لاليك» وخطا بخطوة زائفة، ثم عاد على أعقابه، واستطرد يقول:

ـ إذا أردت أحيانًا أن تتحدّث إليّ أو إلى رالف، فنحن نسكن في الجوار، ٦ شارع الأورس، الطابق السابع. وأنت مخطئ في حقّ رالف، فهو، لو كنت تعلم، يحبّك كثيرًا.

ـ اذهب.

فابتعد بوبي متراجعًا، وهو ما يزال يبتسم، ثم استدار على نفسه ومضى. واقترب دانيال من الآلة الرافعة ونظر إليها. كان إلى جانب الكوداك والمصباح الكهربائي نظّارة مزدوجة لم يلاحظها من قبل قطّ. أدخل قطعة من عشرين فلسًا في الشقّ وأدار الأزرار كيفما اتّفق، فأسقطت الآلة ملاقطها على سرير الملبّس وأخذت تقشره بصورة غريبة. والتقط دانيال خمس ملبّسات أو ستًّا في جوف يده وأكلها.

كانت الشمس تعلّق بعض الذهب على البنايات الكبيرة السوداء، وكانت السماء ملأى بالذهب، ولكنّ ظلًّا مائعًا عذبًا كان يصعد من الرصيف، والناس يبتسمون لمداعبات الظلّ. وكان دانيال على عطش جهنّمي، ولكنّه لم يكن يريد أن يشرب: مُتْ! مُت عطشًا! وفكّر: «مهما يكن من أمر، فإنِّي لم أفعل شيئًا سيّئًا». ولكن ذلك كان أسوأ: لقد استسلم للشرّ يلامسه، وكان قد سمح لنفسه بكلّ شيء، إلّا إرواء الغليل، بل هو لم يجرؤ حتى على إرواء الغليل. وها هو ذا الآن يحمل هذا الشرّ في نفسه كدغدغة حيّة، من أعلى جسده حتى أسفله، لقد كان منتنًا، وكان لا يزال لديه بعدُ ذلك المذاق الأصفر في عينيه، كانت عيناه تجعلان كلّ شيء أصفر. لقد كان أفضل لو قتل نفسه لذّةً وقتل الشرّ في نفسه. صحيح أنّ هذا الشرّ كان يولد دائمًا من جديد. والتفت فجأة وهو يفكّر: «إنّه جدير بأن يتبعني ليرى أين أسكن، وأنِّي أودّ لو يتبعني، حتى أضرَبه ضربًا شديدًا في وسط الشارع!» ولكن بوبي لم يكن ليظهر. لقد ربح الآن نهاره، فعاد إلى المنزل. منزل رالف، ٦ شارع الأورس. وانتفض دانيال: «ليتني أستطيع أن أنسى هذا العنوان! ليته يتأتّى لي أن أنسى هذا العنوان». وما الفائدة من ذلك؟ إنَّه لن يقوى على نسيانه.

وكان الناس يثرثرون حوله، آمنين مع أنفسهم، وقال رجل لزوجته: «هيه! ولكن هذا يرجع عهده إلى ما قبل الحرب. عام ١٩١٢. لا ١٩١٣.

كنت ما أزال لدى بول لوكاس». السلام. سلام الشجعان، الشرفاء، ذوي الإرادة الصادقة. ولماذا تكون إرادتهم هي الصادقة، لا إرادتي؟ لم يكن في اليد حيلة، فكذلك كانت الأمور. شيء ما في هذه السماء، في هذا النور، في هذه الطبيعة، قد قرّر ذلك كذلك. وكانوا يعرفون هذا، يعرفون أنّهم كانوا على حقّ، وأنّ الله، لو كان موجودًا، لكان في جانبهم. ونظر دانيال إلى وجوههم: كم كانوا قساةً، بالرّغم من استسلامهم. وكان حسبهم إشارة حتى يرتموا عليه ويمزّقوه. وستكون السماء والنور والأشجار والطبيعة كلّها على وفاق معه، كشأنها دائمًا: فقد كان دانيال إنسانًا ذا إرادة سيّئة.

وكان ثمّة بوّاب على عتبة بابه، سمين ممتقع، ذو كتفين منبسطتين، يستنشق الهواء. رآه دانيال من بعيد، ففكّر: هو ذا «الخير». وكان البوّاب جالسًا على كرسيّ ويداه على بطنه، كأنّه بوذا، ينظر إلى الناس يمرّون، ويقرّهم بين لحظة وأخرى بإيماءة من رأسه. وفكّر دانيال في حسد: «لو كنت هذا الشخص!» لا بدّ أنّه كان قلبًا فاضلاً، وإلى جانب ذلك، شديد الحساسيّة بالقوى الطبيعيّة الكبرى، الحرارة والبرد والنور والرطوبة. وتوقّف دانيال: لقد سحرته هذه الجفون الطويلة البليدة، وهذا الخبث المتكلِّف على خدّيه الممتلئين. إنّه يتوحّش ويخبل حتى لا يكون بعدُ إلّا هذا، حتى لا يبقى في رأسه إلّا عجينة بيضاء مع عطر يسير يشبه عطر معجون الحلاقة. وفكّر: «إنّه ينام الليل بطوله». ولم يكن يدري بعدُ إن كانت به رغبةٌ في قتله أم في التسلّل إلى دفء هذه الروح المنظَّمة.

ورفع الرجل السمين رأسه، فاستعاد دانيال سيره: «إنّ بوسعي أن أؤمِّل دائمًا، إذا استمرّت هذه الحياة التي أسوقها، بأن أصبح في أقرب وقت ممكن بليد الذهن، ضعيف الإدراك».

ألقى نظرة استياء إلى محفظته: لم يكن يحبّ أن يحملها في ذراعه، فإنّ ذلك كان يعطيه هيئة المحامي، ولكنّ استياءه سرعان ما تلاشى، لأنّه تذكّر أنّه لم يحملها من غير قصد، بل إنّها ستكون مفيدة له إلى حدّ بعيد.

ولم يكن يخفي عن نفسه أنّه يتعرّض للمخاطر، ولكنّه كان هادئًا باردًا منتعشًا بكلّ بساطة. «إذا وصلت طرف الرصيف في ثلاث عشرة خطوة. . .» وخطا ثلاث عشرة خطوة وتوقّف جامدًا على طرف الرصيف، ولكنّ الخطوة الأخيرة كانت أوسع من سائر الخطى بوضوح، إذ إنّه كان ينفسِح كأنّه خبير بالمسايفة: «والحقّ أنّه ليس لذلك أيّة أهمّيّة، فالقضيّة على كلّ حال في المحفظة». وما كان لذلك أن يخطئ، فإنّه أمرٌ علميّ، بل إنّ المرء ليتساءل كيف لم يخطر لأحد أن يفكّر من قبل. وفكّر في قسوة: «إنّ الأمر هو أنّ السارقين أغبياء». وعبر الرصيف ووضّح فكرته: «فقد كان عليهم منذ زمن طويل أن ينظّموا أنفسهم في نقابة، كالمشعوذين». جمعيّةٌ لتطبيق الأساليب التكنيكيّة تطبيقًا مشتركًا ولاستغلالها، ذلك ما كان ينقصهم. على أن يكون لهم مقرّ اجتماعي، ورتبة شرف، وتقاليد ومكتبة، وآلة للسينما أيضًا، وأفلام تفكّك ببطء الحركات الصعبة. وكلّ إتقان جديد يُصوَّر، وتُسجّل النظريّة على أسطوانات وتحمل اسم مخترعها، وكلّ شيء يُصنَّف في فئة، فيكون هناك مثلاً سرقة الأشياء المعروفة بالطريقة ذات الرقم ١٦٧٣، أو بطريقة «سرغين» المسمّاة أيضًا بيضة كريستوف كولومب (لأنّها سهلة جدًّا ولكن يجب إيجادها)، وأنّ بوريس مستعدّ لتصوير فيلم صغير توضيحيّ. وفكّر: «آه! وبعد ذلك دروس مجّانيّة عن علم نفس السرقة، فهذا أمرٌ لا بدّ منه». وكانت طريقته تعتمد كلّ الاعتماد على علم النفس. ونظر برضى إلى مقهى صغير ذي طابق واحد، ولونه أصفر، ولاحظ فجأة أنّه كان في وسط جادّة أورليان. وكان غريبًا أن يبدو الناس على مثل هذا اللطف والقرب من القلب، في جادّة أورليان، بين السابعة والسابعة والنصف مساء. ولا شكّ أنّ للنور أثرًا كبيرًا في الموضوع، إذ كان «شاشًا» أحمر رائعًا، وكان لطيفًا أن يوجد المرء في آخر باريس بالقرب من باب، والشوارع تجري تحت قدميه نحو وسط المدينة التجاري العتيق، نحو الأسواق، نحو أزقّة حيّ سانت أنطوان المظلمة، حيث يشعر بأنّه منغمر في منفى المساء والضواحي، ذلك المنفى الديني الرقيق. لقد

كان الناس يبدون وكأنّهم خرجوا إلى الشارع ليكونوا معًا، فهم لا يغضبون حين يُدفعون، بل يمكن الظنّ بأنّ هذا يسرّهم. ثم إنّهم ينظرون إلى الواجهات بإعجاب بريء مجرّد تمامًا. وفي جادّة سان ميشال ينظر الناس أيضًا إلى الواجهات، ولكنّ بنيّة الشراء. وصمّم بوريس في حماسة «سأجيء إلى هنا كلّ مساء». وفي الصيف القادم، سيستأجر غرفة في أحد البيوت ذات الطوابق الثلاثة التي كانت تبدو كأنّها توائم وتذكِّر بثورة ٤٨. ولكن إذا كانت النوافذ ضيّقة إلى هذا الحدّ، فإنّي أتساءل كيف كانت النساء تعمل لإخراج الفروش وإلقائها على جنود. وكانت النوافذ محاطة كلّها بسواد الدخان فكأنّما لحستها نيران حريق، ولم يكن هذا منظرًا حزينًا، فإنّ هذه الواجهات الكالحة المثقوبة بثقوب صغيرة سوداء تشبه فرجات سماء عاصفة تحت السماء الزرقاء، وإنّي أنظر إلى النوافذ، ولو كان بوسعي أن أصعد إلى سقف هذا المقهى الصغير، لرأيت الخزائن ذات المرايا وسط غرفٍ تشبه بحيرات عموديّة، والجمع يمرّ عبر جسمي، وأفكّر في حَرَس بلدي، وفي أبواب «باليه ـ رويال» المذهّبة، يوم ١٤ تمّوز، ولست أدري لماذا أفكّر في ذلك وفكّر فجأة: «ماذا أتى يفعل عند ماتيو ذلك الشيوعي؟» لم يكن بوريس يحبّ الشيوعيِّين، فهم أرصن ممّا ينبغي. ولا سيّما برونيه، فكأنّه البابا، وفكّر بوريس مقهقهًا «لقد طردني... الحيوان، طردني»، ثم أخذته فجأة الرغبة في أن يكون شرِّيرًا، كأنّها ريح سموم صغيرة في رأسه: «لعلَّ ماتيو لاحظ أنّه منخدعٌ على طول الخطّ، ففكّر في دخول الحزب الشيوعي». وتسلّى لحظة في تعداد العواقب التي لا تُحصى لمثل هذا الانضواء. ولكنّه شعر فجأة بالخوف فتوقّف. إنّ ماتيو لم ينخدع بكلّ تأكيد، فإنّ هذا سيكون خطيرًا جدًّا، الآن وقد التزم بوريس: ففي صفّ الفلسفة أحسّ بودٍّ غريب للشيوعيّة، ولكنّ ماتيو صرفه عنها. وهو يشرح له ما هي الحرِّيّة. وكان بوريس قد فهم على الفور: يجب على المرء أن يفعل كلّ ما يريد، وأن يفكِّر بكلّ ما يبدو التفكير فيه حسنًا، وألّا يكون مسؤولاً إلّا أمام نفسه، وألّا يكفّ لحظة عن وضع كلّ ما يفكِّر به، وكلّ الناس،

موضع الامتحان. كان بوريس قد بنى حياته على هذا، وكان حرًّا بصورة دقيقة: وكان خصوصًا يضع جميع الناس موضع الامتحان، باستثناء ماتيو وإيفيش، فقد كان لا جدوى من وضعهما كذلك، بالنظر إلى أنّهما كانا كاملين. وأمّا الحرِّيّة، فلم يكن كذلك حسنًا أن يتساءل المرء عنها، لأنّه يكفّ آنذاك عن أن يكون حرًّا. وحكّ بوريس رأسه في تململ، وتساءل من أين تأتيه هذه الدفعات التي كانت تأخذه بين الفينة والفينة لتحطيم كلّ شيء. وفكّر في دهشة لذيذة: «ربّما كنت في حقيقتي ذا مزاج قلق»، لأنّ ماتيو، إذا نظرنا إلى الأمور ببرودة، لم يكن منخدعًا، فقد كان هذا أمرًا مستحيلاً: لم يكن ماتيو ذلك الشخص الذي ينخدع. واغتبط بوريس، وجعل يؤرجح محفظته بجذل في ذراعه. وتساءل أيضًا إذا كان أخلاقيًّا أن يكون المرء ذا شخصيّة قلقة، فرأى لذلك حسنات وسيّئات، ولكنّه امتنع عن أن يذهب بتقديراته إلى أبعد من هذا، سوف يستشير في ذلك ماتيو. كان بوريس يجد شائنًا أن يفكِّر شخص في مثل سنّه تفكيرًا مستقلًّا بنفسه. وقد سبق له أن رأى كثيرًا من هؤلاء الخبثاء المزيّفين في السوربون، طلّابًا في دار المعلِّمين قذرين يلبسون النظّارات، الذين كانت لهم دائمًا نظريّة خاصّة محفوظة، وكان ينتهي بهم الأمر عادة إلى الإفلاس، بطريقة أو بأخرى، وكانت نظريّاتهم من غير هذا بشعة، مقرَّنة. كان بوريس يستفظع كلّ ما يدعو إلى الهُزْء، ولم يكن يريد أن يفلس، ويؤثر أن يصمت ويُعتبر رأسًا فارغًا، فقد كان ذلك أقلّ تكديرًا. وسيكون الأمر فيما بعد، طبعًا، شيئًا آخر، أمّا الآن، فهو يلجأ إلى ماتيو الذي كانت تلك مهمّته. ثم إنّه كان يغتبط دائمًا إذ يرى ماتيو يأخذ في التفكير: كان ماتيو يحمرّ، وينظر إلى أصابعه، ويتلعثم قليلاً، ولكنّ ذلك كان عملاً طيِّبًا وأنيقًا. وكانت تَرِد لبوريس، بين حين وآخر، فكرة صغيرة بالرّغم منه، فيجهد حتى لا يلاحظ ماتيو ذلك، ولكن إذا حدث أن لاحظ هذا اللئيم ذلك، قال له: «إنّ في رأسك شيئًا» ثم يرهقه بالأسئلة. ويقع بوريس في العذاب، يحاول مئة مرّة أن يغيّر وجهة الحديث، ولكن ماتيو كان عنيدًا كالقمل، وينتهي الأمر

ببوريس إلى أن يلفظ الفكرة وينظر إلى ما بين قدميه، فيكون أسوأ ما في الأمر أنّ ماتيو كان آنذاك يوسعه احتقارًا ويقول له بعد ذلك: «إنّ هذا سخيف جدًّا، وأنت تفكّر كالحمقى». كما لو أنّ بوريس ادّعى أنّه عثر على فكرة عبقريّة. وردّد بوريس مقهقهًا «اللئيم!» وتوقّف أمام مرآة صيدليّة جميلة حمراء وتأمّل صورته في غير ما تحيّز. وفكّر: «إنّني إنسان متواضع» وألفى نفسه قريبًا إلى القلب. وصعد إلى الميزان الآلي ووزن نفسه ليرى إذا كان قد سَمن منذ عشيّة الأمس. وأضاءت كرة حمراء وأحدثت الآلة حركات متحشرجة، ثم تلقّى بوريس تذكرة من الكرتون: سبعة وخمسين كيلو وخمسمئة وأخذته لحظة رعب، وفكّر: «لقد زدت خمسمئة غرام» ولكنّه لاحظ بسرور أنّه كان ما يزال يحمل المحفظة في يده. ونزل عن الميزان، واستأنف سيره. سبعة وخمسون كيلو بالنسبة لطول متر وثلاثة وسبعين: هذا أمر طيّب. وكان مزاجه رقيقًا جدًّا، ويشعر أنّه مخملي برمّته في داخله. وفي الخارج، كانت ثمّة تلك الكآبة الدقيقة لذلك اليوم المسنّ الذي كان يسودّ رويدًا حوله ويلامسه وهو يغور بضوئه الأحمر وعطوره الملأى بالأسف. ذلك النهار، ذلك البحر الاستوائي الذي كان ينسحب مخلّفًا إيّاه وحده تحت سماء مصفرّة، كان هو أيضًا مرحلة، مرحلة صغيرة. إنّ الليل قادم، وسوف يذهب إلى «سومطرا» وسيرى ماتيو، وسيرى إيفيش وسيرقص. وعمّا قليل، عند الرزّة التي تفصل بين النهار والليل، ستكون تلك السرقة الرائعة. انتصب وحثّ الخطى: ينبغي أن يكون منتبهًا كلّ التنبّه، بسبب هؤلاء الأشخاص الذين لا يبدو عليهم شيء،. بينما يقلّبون صفحات الكتب بجدّ، وليسوا هم إلّا من رجال التحرّي. وكانت مكتبة «غاربور» تستخدم ستّة منهم، وكان بوريس قد حصل على هذه المعلومات من «بيكار» الذي امتهن هذه المهنة ثلاثة أيَّام حين سقط في شهادة علم الأرض، فاضطرّ إلى ذلك بعد أن قطع عنه ذووه المؤن، ولكنّه ما لبث أن ترك هذه المهنة مشمئزًّا. إنّه لم يكن عليه فحسب أن يتجسّس على الزبائن كالديك المبتذل، بل لقد أُعطي الأوامر بأن يترصّد السذّج، لابسي

النظّارات مثلاً، الذين كانوا يقتربون بحياء من مكان العرض، وأن يثب عليهم فجأة متّهمًا إيّاهم بأنّهم كانوا يريدون أن يختلسوا كتابًا ويخفوه في جيوبهم. وكان المساكين ينحلّون بطبيعة الحال، فكانوا يقتادونهم إلى جوف ممرّ طويل في مكتب صغير مظلم، حيث كانوا يسلبونهم مئة فرنك تحت التهديد بالملاحقة القانونيّة. وأحسّ بوريس بأنّه ثمل: سوف ينتقم لهم جميعًا، فإنّهم لن يأخذوه، هو، وفكّر: «إنّ معظم الناس يسيئون الدفاع عن أنفسهم، فمن مئة شخص يسرقون، ثمانون يرتجلون ارتجالاً». أمّا هو، فلم يكن ليرتجل، صحيح أنّه لم يكن يعرف كلّ شيء. ولكن ما يعرفه قد درسه دراسة منهجيّة، لأنّه كان قد فكّر دائمًا بأنّ الإنسان الذي يعمل برأسه لا بدّ أن يملك فوق ذلك مهنةً يدويّة ليظلّ على اتّصال بالحقيقة. وحتى الآن، لم يكن قد أفاد أيّة إفادة مادّيّة من مشاريعه: فليس شيئًا هامًّا أن يملك ستّ عشرة فرشاة أسنان، وعشرين منفضة سجاير، وبوصلة، ومنفخ نار، وبيضة للرتي. وكانت الصعوبة التكتيكيّة هي ما كان يأخذه بعين الاعتبار في كلّ حالة. فقد كان أفضل، كما حدث في الأسبوع الماضي، أن يختلس علبة صغيرة من سوس «البلاكوبيد» تحت نظر الصيدلي، على أن يسرق محفظة نقود جلديّة من حانوت خالٍ. إنّ فائدة السرقة شيء معنوي كلّيًّا؛ ومن هذه الناحية، كان بوريس على وفاق تامّ مع الأسبرطيّين القدامى، فهذه عمليّة تقشّف. ثم إنّه كانت هناك لحظة متعة، هي حين يقول المرء لنفسه: سأعدّ حتى الخمسة، وعند الخمسة يجب أن تكون فرشاة الأسنان في جيبي، إنّه يشعر بانقباض في حلقه، وبإحساس هائل من الصفاء والقوّة. وابتسم: سوف يُدخل على مبادئه استثناء، فللمرّة الأولى، ستكون الفائدة هي دافع السرقة، فبعد نصف ساعة على الأغلب، سيمتلك هذه الجوهرة، هذا الكنز الذي لا غنى عنه: «تيزوروس هذا!» قال في نفسه بصوت منخفض لأنّه كان يحبّ كلمة «تيزوروس» التي كانت تذكّره بالقرون الوسطى، وأبيلارد، وبفوست وأحزمة الطهارة التي كانت تُرى في متحف «كلوني». «سوف يكون لي، فأستطيع أن أتصفّحه كلّ ساعة من النهار،

بينما كان حتى هذه اللحظة، مضطرًّا إلى تقليب أوراقه حيث هو معروض، وبسرعة، فضلاً عن أنّ الصفحات لم تكن مقصوصة؛ فلم يستطع غالبًا أن يقتبس إلّا معلومات ناقصة. سوف يضعه، في هذا المساء بالذات، على طاولة سريره، وحين يستيقظ في اليوم التالي، ستكون نظرته الأولى له؛ وقال في انزعاج: «آه! كلّا! سأنام لدى لولا هذا المساء». مهما يكن من أمر، فسيحمله إلى مكتبة السوربون وسيقطع بين فترة وأخرى عمل المراجعة، ليلقي عليه نظرة عجلى تسلّيه: وتعاهد مع نفسه أن يحفظ عبارة أو ربَّما عبارتين كلّ يوم، وسيساوي ذلك في ستّة أشهر، ستّة في ثلاثة ثمانية عشرة مضروبة باثنين: ثلاثمئة وستّين، فإذا أضاف إليها الخمسمئة أو الستمئة التي يعرفها، أصبح ذلك في حدود الألف، وهذا ما كان يسمّى معرفة متوسِّطة طيِّبة. واجتاز جادّة راسباي وسلك شارع دانفير ـ روشيرو بشيء من الاستياء. كان شارع دانفير ـ روشيرو يضجره كثيرًا، وربّما كان ذلك بسبب أشجار الكستناء؛ مهما يكن من أمر، فهو مكان أجرد، باستثناء مصبغة سوداء ذات ستائر حمر بلون الدمّ تتدلّى بصورة مزرية كخصلتين مسلوختين. وألقى بوريس نظرة ودّ إلى المصبغة، حين ألمّ بها، ثم انغمر في صمت الشارع الأشقر المميّز. شارع؟ إنّه لم يكن إلّا ثقبًا ذا بيوت على الجانبين. وفكّر بوريس: «نعم، ولكنّ المترو يمرّ من تحته». واستمدّ من هذه الفكرة بعض العزاء، وتمثّل لدقيقة أو دقيقتين أنّه كان يسير على قشرة رقيقة من الزفت لعلّها ستنهار. وقال بوريس في نفسه: «يجب أن أروي هذا لماتيو، فسوف يسيل له لعابه!» لا.. وصعد الدم فجأة إلى وجهه. إنّه لن يروي شيئًا على الإطلاق. بلى، سيروي ذلك لإيفيش: لقد كانت تفهمه، وإذا كانت هي نفسها لا تسرق، فلأنّها لم تكن موهوبة. وسيروي القصّة أيضًا لِلولا، ليجعلها تغرغر من الضحك. أمّا ماتيو، فلم يكن صريحًا في موضوع هذه السرقات. كان يقهقه برفق حين كان بوريس يحدّثه عنها، ولكنّ بوريس لم يكن على ثقة بأنّه سيقرّها. كان يتساءل مثلاً عن المآخذ التي يمكن لماتيو أن يأخذها عليه. إنّ ذلك كان يثير جنون لولا، ولكنّ هذا

كان طبيعيًا، فهي لم تكن تستطيع أن تفهم بعض الدقائق، لا سيّما وأنّها كانت بخيلة بعض الشيء. كانت تقول له: «لن تتورّع عن سرقة أمّك، ولا بدّ أن تسرقني يومًا». وكان يجيب: «هيه! هيه! لو أُتيح لي ذلك لما قلت لا!» وبالطبع، لم يكن جادًا في ذلك: إنّ المرء لا يسرق أصدقاءه الحميمين، فإنّ هذا أيسر من أن يُعمل، وإنّما كان يجيب بهذا الجواب بدافع الانزعاج: لقد كان يكره هذه الطريقة التي تلجأ إليها لولا لتردّ كلّ شيء إلى نفسها. أمّا ماتيو... أجل، فلم يكن يُفهم من موقفه شيء.

ما كان عساه أن يأخذ على السرقة، ما دامت تنفَّذ وفق القواعد؟ فقد تبرّم بوريس بضع لحظات من توبيخ ماتيو الصامت، ثم هزّ رأسه وقال في نفسه: «إنّ هذا ظريف!» فبعد خمس سنوات، أو سبع، ستكون له أفكاره فتبدو له أفكار ماتيو مثيرة للعطف ومسنّة، وسيكون آنذاك حَكَمَ نفسه: «ما يدريني أنّنا سنتقابل بعد؟» ولم تكن لدى بوريس أيّة رغبة في أن يأتي ذلك اليوم، وكان يلفى نفسه سعيدًا للغاية، ولكنّه كان عاقلاً، وكان يدري أنّها ضرورة: كان لا بدّ من أن يتغيّر، وأن يخلّف وراءه ركامًا من الأشياء والناس، وهو لم يُجعل بعد ذلك. لقد كان ماتيو مرحلة، شأنه شأن لولا، وفي اللحظات التي كان بوريس يكنّ له من الإعجاب أعظم الدرجات، كان يجد أنّ في ذلك الإعجاب شيئًا موقّتًا يتيح له أن يكون مولعًا بلا ذلّ. لقد كان ماتيو أفضل ما يمكن، ولكنّه لم يكن يستطيع أن يتغيّر في الوقت نفسه الذي يتغيّر فيه بوريس، بل لم يكن يستطيع أن يتغيّر قطّ، لأنّه كان أكمل من أن يتغيّر. وأظلمت نفس بوريس لهذه الأفكار فسرّه أن يصل إلى ساحة إدمون روستان: كان يروق له دائمًا أن يجتازها بسبب الأوتوبيسات التي كانت تقفز إليك بثقل، كأنّها، أدياك روميّة كبيرة، والتي كان ينبغي تفاديها بالتوّ، ولم يكن ذلك بأكثر من دفع الصدر إلى الوراء. «المهمّ ألّا يكونوا قد جاءتهم الفكرة بإدخال الكتاب اليوم بالذات». وعند زاوية شارع «مسيو لوبرنس» وجادّة سان ميشال، توقّف لحظة، كان يريد أن يكبت نفاد صبره،

فلم يكن من الحكمة أن يصل محمرّ الوجنتين من فرط الأمل، وعيناه عينا ذئب. كان من خطّته أن يعمل ببرودة. وفرض على نفسه أن يظلّ جامدًا أمام حانوت بائع للمظلّات والسكاكين، وأن ينظر بانتظام إلى البضائع المعروضة، واحدة بعد الأخرى، إلى مظلّات النساء القصيرة الخضراء والحمراء، والمزيّنة، وإلى المظلّات ذات الأيدي العاجيّة التي كانت تمثّل رؤوس كلاب... كلّ ذلك كان خزين المنظر حتى ليبعث على البكاء، وبالإضافة إلى هذا، أوقف بوريس فكره على الأشخاص المسنِّين الذين كانوا يأتون لشراء هذه الحاجيّات. وكان يوشك أن يبلغ حالة تصميم باردة وبلا جذل، حين رأى فجأة شيئًا عاد فأغرقه في التهلّل، وتمتم «سكّين» وكانت يداه ترتجفان. وكان سكّينًا حقيقيًّا ذا شفرة سميكة وطويلة، ومحزٍّ شديدٍ، ويدٍ من قرنٍ أسود، وكان أنيقًا يشبه الهلال، وعلى الشفرة لطختا صدأ، كأنّهما دم. وأنّ بوريس قائلاً: «أوه!» وهو يتلوّى من الرغبة. كان السكّين مفتوحًا، موضوعًا على قطعة خشب مبرنقة: بين مظلّتين. نظر بوريس إليه طويلاً، ففقد العالم من حوله ألوانه، وكلّ ما لم يكن بريق هذه الشفرة البارد، فَقَدَ في عينيه قيمته، وكان يريد أن يتخلّى عن كلّ شيء، فيدخل الحانوت ويشتري السكّين، ويفرّ إلى أيّ مكان، كأنّه سارق، وهو يحمل غنيمته. وقال في نفسه: «سيعلّمني «بيكار» على قذفه». ولكن حسّ واجباته الدقيق ما لبث أن تغلّب: «سأشتريه بعد حين، بعد حين لأكافئ نفسي إذا نجحت في ضربتي!».

كانت مكتبة «غاربور» تقوم عند ملتقى شارع فوجيرار وجادّة سان ميشال، وكان لها مدخل من كلّ شارع، وهذا ما كان يخدم مقاصد بوريس. وُضعت أمام الحانوت ستّ طاولات طويلة محمّلة بالكتب التي كان معظمها كتبًا مستعملة. ولاحظ بوريس من طرف عينه رجلاً ذا شارب أحمر كان غالبًا ما يجول في تلك النواحي، وكان يرتاب في أن يكون «ممحونًا»، ثم اقترب من الطاولة الثالثة، وكان الكتاب هناك، ضخمًا، بل من الضخامة بحيث فقد

بوريس شجاعته، سبعمئة صفحة من الحجم الكبير، أوراق مطبوعة بحرف نافر، سميكة كالأصبع الصغير. وقال في نفسه بشيء من الإرهاق: «يجب أن أُدخل هذا في حقيبتي» ولكن كان حسبه أن ينظر إلى العنوان المذهّب الذي كان يلتمع بعذوبة على الغلاف ليحسّ بأنّ شجاعته تولد من جديد: «قاموس تاريخي واشتقاقي للغة السوقة واللغات العامّيّة منذ القرن الرابع عشر حتى القرن المعاصر». وردّد بوريس في نشوة: «تاريخيّ»!» ولمس بطرف إصبعه الغلاف في حركة أليفة ورقيقة ليستعيد اتّصاله به، وفكّر في إعجاب: «ليس هذا كتابًا ولكنّه قطعة أثاث. ولا ريب في أنّ الرجل ذا الشارب كان قد التفت إليه يترصّده من ظهره. وكان ينبغي أن يبدأ التمثيليّة فيقلّب الأوراق ويتّخذ مظهره الشارد المتردِّد الذي يستسلم آخر الأمر. وفتح بوريس القاموس كيفما اتّفق وقرأ أحد التعريفات. ولم تكن الصفحات التالية مقطوعة. فترك بوريس القراءة وأخذ يضحك وحده وهو يردِّد عبارة قرأها، ثم استعاد جدّه فجأة وأخذ يعدّ: «واحد! اثنان! ثلاثة! أربعة!» بينما كانت فرحة قاسية ونقيّة تزيد خفق صدره.

وأحسّ بيد تحطّ على كتفه، ففكّر: «لقد أُخذت، ولكنّهم تصرّفوا بأسرع ممّا ينبغي. إنّهم لا يستطيعون أن يثبتوا شيئًا ضدِّي». والتفت ببطء ورباطة. كان الرجل دانيال سورينو، أحد أصدقاء ماتيو. وكان بوريس قد رآه مرّتين أو ثلاثًا، وكان يجده رائعًا، فقد كان مثلاً يبدو قاسيًا. وقال سورينو:

ـ مرحبًا، ما الذي تقرأه؟ يبدو عليك أنّك مسحور.

لم يكن يبدو قاسيًا على الإطلاق، ولكن يجب الاحتراس: بل هو في الحقيقة يبدو لطيفًا أكثر ممّا ينبغي، فلا بدّ أنّه كان يعدّ ضربة قذرة. ثم إنّه كان قد فاجأ بوريس وهو يتصفّح هذا القاموس السوقي. فكأنّه تقصّد ذلك، ولا بدّ من أن يصل هذا الخبر إلى مسمع ماتيو الذي سيسخر منه بصخب. وأجاب بلهجة متضايقة:

ـ لقد توقّفت، بينما أنا مارّ من هنا.

وابتسم سورينو، وتناول المجلّد بكلتا يديه ورفعه حتى عينيه، ولا بدّ أنّه كان حسير النظر بعض الشيء. وأعجب بوريس بما كان في حركته من يسر: فإنّ الذين كانوا يتصفّحون الكتب عادة يحرصون على إبقائها فوق الطاولة، خوفًا من رجال التحرّي الخصوصيّين. ولكن كان بديهيًّا أنّ سورينو كان يعتقد كلّ شيء مسموحًا به. وتمتم بوريس بصوت مخنوق وهو يصطنع اللامبالاة:

ـ إنّه كتاب يثير الفضول...

فلم يُجب سورينو، وكان يبدو مستغرقًا في القراءة، فاغتاظ بوريس وأخضعه لامتحان قاسٍ. ولكن كان لا بدّ له من أن يعترف، بدافع من شرف التفكير، بأنّ سورينو كان أنيقًا إلى حدّ الكمال. والحقّ أنّه كان في هذه البذلة من التويد الوردي تقريبًا، وفي هذا القميص من الكتّان، وفي هذه الربطة الصفراء، جرأةٌ محسوبة تصدم بوريس قليلاً. كان بوريس يحبّ الأناقة الساذجة والمهملة بعض الشيء. ومهما يكن من أمر، فإنّ المجموع كان غير قابل للانتقاد، وبالرّغم من أنّه طريٌّ كالزبدة الطازجة. وانفجر سورينو ضاحكًا، وكانت له ضحكة حارّة رائقة، ثم إنّ بوريس وجده قريبًا إلى القلب لأنّه كان يفتح فمه على سعته وهو يضحك. وقال سورينو:

ـ «أن يكون من الرجل!» أن يكون من الرجل! هذه لقطة، سأفيد منها في المناسبات!

ووضع المجلّد على الطاولة وسأل:

ـ هل أنت من الرجل: يا سرغين؟

فقال بوريس، منقطع النفس: ـ إنّني...

قال سورينو: ـ لا يحمرّ وجهك (وأحسّ بوريس أنّه أصبح قرمزي اللون) وثق بأنّ هذه الفكرة لم تخطر على بالي قطّ. إنّني أعرف من عساهم

يكونون «الرجل». . . (لا شكّ في أنّ العبارة كانت تروق له كثيرًا) ـ فإنّ لحركاتهم استدارة رخيّة لا تخطئها العين، أمّا أنت، فإنّي ألاحظك منذ فترة فتسحرني حركاتك: إنّها حيّة وجميلة، ولكنّها ذات زوايا، فلا بدّ أنّك حاذق جدًّا.

وكان بوريس يصغي إلى سورينو بتنبّه: فمن المهمّ دائمًا أن تستمع إلى من يشرح لك بأيّ عين يراك. ثم إنّه كان لسورينو صوت يلذ سماعه. فإنّ عينيه مثلاً كانتا مزعجتين: للوهلة الأولى، يُظنّ أنّهما مليئتان بالحنان، ولكن إذا أمعنّا فيهما النظر، اكتشفنا فيهما شيئًا قاسيًا يكاد يكون هوسًا. وفكّر بوريس: «إنّه يحاول أن يمزح معي» فتدرّع بالحذر. وقد كان بودّه لو يسأل سورينو عمّا كان يعنيه بـ «الحركات ذات الزوايا»، ولكنّه لم يجرؤ، وفكّر بأنّ من الأفضل التكلّم بأدنى حدّ ممكن، ثم إنّه كان يحسّ تحت هذا النظر الملحّ عذوبة غريبة حائرة تولد فيه، فكانت تأخذه الرغبة في أن ينتفض ويضرب الأرض بقدميه ليزيل هذا الدوار من العذوبة. ولفت رأسه، فكانت لحظة صمت شاقّة. وفكّر بوريس باستسلام: «سوف يعتبرني حيوانًا». قال سورينو:

ـ أظنّ أنّك تدرس الفلسفة؟

قال بوريس على عجل: ـ أجل، أدرس الفلسفة.

وكان سعيدًا أن يجد حجّة لقطع الصمت. ولكن ساعة السوربون في تلك اللحظة دقّت دقّة فتوقّف بوريس، وقد جلّده الذعر. وفكّر في قلق «الثامنة والربع. إذا لم يذهب فورًا، فاتت الفرصة». فقد كانت مكتبة «غاربور» تغلق في الثامنة والنصف. ولم يكن يبدو على سورينو أيّة رغبة في الذهاب. وقال:

ـ أعترف لك بأنّني لا أفهم شيئًا في الفلسفة. أمّا أنت، فلا بدّ أنّك تفهم طبعًا. . .

فقال بوريس وهو يتمزّق: ـ لا أدري، أفهم قليلاً.

وكان يفكِّر: لا شكّ في أنِّي أبدو قليل التهذيب. ولكن لماذا تراه لا يذهب؟ والحقّ أنّ ماتيو كان قد أخبره بأنّ سورينو كان يظهر دائمًا في وقت غير مناسب، فتلك كانت قطعة من طبيعته الشيطانيّة. وقال سورينو:

ـ أتصوّر أنّك تحبّ الفلسفة.

فقال بوريس وقد أحسّ بأنّه يحمرّ للمرّة الثانية: ـ نعم.

وكان يحتقر أن يتحدّث عمّا كان يحبّ: فذلك كان أمرًا وقحًا، وكان لديه شعورٌ بأنّ سورينو يدرك ذلك ويتقصّد أن يظهر قليل التحفّظ. ونظر إليه سورينو نظرة تنبّه نافذة:

ـ ولماذا؟

فقال بوريس: ـ لا أدري.

وكان هذا صحيحًا: إنّه لم يكن يدري. ومع ذلك فقد كان يحبّ الفلسفة حبًّا شديدًا، حتى «كانط»، وابتسم سورينو قائلاً:

ـ على الأقلّ، يرى الإنسان أنّ هذا ليس حبًّا من الذاكرة.

فانتفض بوريس، وأضاف سورينو بحماسة:

ـ إنّني أمزح. والواقع أنِّي أجد أنّك محظوظ. لقد درست أنا الفلسفة كالجميع، ولكنّهم لم يعرفوا أن يحبّبوني بها... وأتصوّر أنّ دولارو هو الذي نفّرني منها: فهو أذكى من أن أستطيع فهمه. وقد كنت أطلب منه أحيانًا بعض الشروح، ولكن ما كان يبدأ في تقديمها حتى أكفّ عن فهم أيّ شيء، بل كان يخيّل إليّ أنِّي لم أكن أفهم بعد سؤالي!

وجُرح بوريس بهذه اللهجة الهازئة، وارتاب في أن يكون سورينو راغبًا في حمله بصورة غير مباشرة على أن يقول سوءًا عن ماتيو لمجرّد الرغبة في أن ينقل إليه ذلك. وأعجبه سورينو أن يكون قاسيًا بهذه الصورة المجّانيّة، ولكنّه ثار وقال بجفاء:

ـ إنّ ماتيو يشرح الأمور شرحًا جيّدًا جدًّا.

فانفجر سورينو ضاحكًا، وعضَّ بوريس على شفتيه:

ـ ولكنّي لا أشكّ في ذلك لحظة. غير أنّنا صديقان قديمان جدًّا، وأتصوّر بأنّه يحتفظ بمزاياه التربويّة للشبّان. فهو يختار عادة تلاميذه من بين طلّابه.

قال بوريس: ـ إنّني لست تلميذه.

فقال دانيال: ـ لم أكن أفكّر فيك. فأنت لا تبدو عليك هيئة التلميذ. وإنّما كنت أفكّر في «هورتيغير»، ذلك الأشقر الطويل الذي سافر في العام الماضي إلى الهند الصينيّة. ولا بدّ أنّك سمعت من يتكلّم عنه: فمنذ عامين، كان شغوفًا به، وكان الناس يرونهما دائمًا معًا.

وكان لا بدّ لبوريس من الاعتراف بأنّ الضربة قد نجحت، فازداد إعجابه بسورينو، ولكنّه ودّ مع ذلك لو يوجّه قبضته إلى سحنته. وقال:

ـ لقد حدّثني ماتيو عن ذلك.

وكان يحتقر هورتيغير هذا الذي عرفه ماتيو قبله. وكان ماتيو يتّخذ أحيانًا مظهر الغموض حين كان بوريس يأتي للقائه في «الدوم» وكان يقول «يجب أن أكتب لهورتيغير». وبعد ذلك، يظلّ لحظة طويلة حالمًا مجتهدًا كجندي يكتب إلى بلدته، وكان يرسم دوائر في الهواء فوق ورقة بيضاء، بواسطة ريشة قلمه. كان بوريس ينصرف إلى العمل إلى جانبه، ولكنّه كان يحتقره. ولم يكن طبعًا يغار من هورتيغير، فقد كان يكنّ له على العكس شفقة ممزوجة بشيء من النفور (والواقع أنّه لم يكن يعرف عنه شيئًا، باستثناء صورة كانت تمثّله كفتى سيّئ الحظّ يرتدي بنطلونًا من الغولف، وموضوع فلسفي سخيف إلى أبعد حدّ كان ملقًى على طاولة ماتيو). غير أنه لم يكن يريد بأيّ ثمن أن يعامله ماتيو فيما بعد كما كان يعامل هورتيغير. وقد كان يؤثر أن ينقطع عن رؤية ماتيو إذا تصوّره يقول ذات يوم بلهجة اهتمام وضجر أمام فيلسوف شابّ: «آه! عليّ الآن أن أكتب لسرغين!». وكان حسبه بأن يقبل بألّا يكون ماتيو إلّا مرحلة في حياته، وكان هذا شاقًّا

بحدّ ذاته ـ ولكنّه لم يكن يطيق أن يكون مرحلة في حياة ماتيو.

كان يبدو على سورينو أنّه عازم على الإقامة هناك، وكان يستند إلى الطاولة بكلتا يديه، في وضع لامبالٍ ومستريح، وأضاف:

ـ آسف كثيرًا بأن أكون جاهلاً في هذا الميدان. فإنّ الذين درسوا الفلسفة قد أفادوا منها، على ما يبدو، مباهج كثيرة.

فلم يُجب بوريس، وقال سورينو:

ـ كنت بحاجة إلى مدرِّب. إلى شخص مثلك: شخص ليس بارعًا أكثر ممّا ينبغي، ولكنّه في الوقت نفسه جادّ.

وضحك كأنّما مرّت برأسه فكرة ممتعة:

ـ قل لي... سيكون مسلّيًا أن آخذ دروسًا معك...

فنظر إليه بوريس بحذر. لا بدّ أنّ هذا شَرَك. إنّه لم يكن يتصوّر نفسه إطلاقًا وهو يعطي دروسًا لسورينو الذي كان ولا بدّ أذكى منه، والذي لا شكّ في أنّه سيطرح عليه طائفة من الأسئلة المربكة، وعند ذلك سيختنق من الخجل. وفكّر في استسلام بارد بأنّ الساعة لا بدّ أن تكون قد بلغت الثامنة والخامسة والعشرين. وكان سورينو ما يزال يبتسم، ويبدو عليه أنّه مسحورٌ بفكرته، ولكن كانت عيناه غريبتين. وكان بوريس يجد مشقّة في النظر إليه مواجهة. قال سورينو:

ـ إنّني كسول جدًّا، لو تعلم. فيجب أن تعاملني بشيء من السلطة...

ولم يستطع بوريس أن يمتنع عن الضحك وصارحه بصدق:

ـ أحسب أنّني لن أحسن ذلك على الإطلاق..

قال سورينو: ـ بلى، إنّني مقتنع بأنّك ستستطيع.

فقال بوريس: ـ إنّك سوف تخيفني.

هزّ سورينو كتفيه، وقال:

ـ اسمع! هل عندك دقيقة؟ إنّ بوسعنا أن نأخذ قدحًا في الحانة المواجهة «داركور» فنتحدّث عن مشروعنا.

«مشروعنا». . . وكان بوريس يتابع بعينه في قلق أحد عمّال المكتبة الذي بدأ يراكم الكتب. وكان يودّ لو يتبع سورينو إلى «داركور» فقد كان شخصًا غريبًا، فضلاً عن أنّه كان جميلاً جدًّا، ثم إنّه كان مسلّيًا أن يتحدّث معه، لأنّ على المرء أن يكون دقيقًا وحذرًا، إذ يشعر طوال الوقت بأنّه في خطر. وتخبّط لحظة، ولكنّ حسّ الواجب تغلّب عليه، فقال بصوت كان الأسف يقطّعه:

ـ الواقع أنّي مستعجلٌ بعض الشيء.

فتغيّر وجه سورينو وقال:

ـ حسنًا، لا أريد أن أزعجك. اعذرني بأن أكون قد أمسكتك هذا الوقت كلّه. هيّا، إلى اللقاء، وبلّغ ماتيو سلامي.

وانفتل فجأة ومضى. . وفكّر بوريس في ضيق: «أتراني قد جرحته؟» وتبع بنظر قلق كتفي سورينو العريضتين، وهو يصعد جادّة سان ميشال، ثم فكّر فجأة بأنّه لم يكن أمامه بعد دقيقة واحدة يضيّعها.

«واحد. اثنان. ثلاثة. أربعة. خمسة».

وعند الخمسة، سحب المجلّد خفية بيده اليمنى وتوجّه نحو المكتبة من غير أن يحاول إخفاء نفسه.

خليط من الكلمات تفرّ في كلّ مكان، كانت الكلمات تفرّ؛ وكان دانيال يفرّ جسمًا طويلاً هزيلاً، مقوّسًا بعض الشيء، ذا عينين جوزيّتين، ووجه قاسٍ وفاتن، إنّه راهب صغير، راهب روسي، اليوشا. خطوات، وكلمات، كانت الخطوات ترنّ حتى في داخل رأسه، أن لا يكون إلّا هذه الخطوات، إلّا هذه الكلمات، فذلك كلّه خير من الصمت: الغبيّ الصغير، لقد أصبت في الحكم عليه. لقد منعني أهلي من أن أتحدّث إلى الأشخاص

الذين لا أعرفهم، أتريدين حبّة ملبّس يا آنستي الصغيرة، إنّ أهلي منعوني. . . ها! ليس هو إلّا مخًّا صغيرًا، لا أدري، لا أدري، هل تحبّ الفلسفة، لا أدري. . عجبًا! وكيف تُراه يدري، ذلك الحمل المسكين! إنّ ماتيو ينصب نفسه سلطانًا في صفِّه، وقد رمى له بالمنديل، وقاده إلى المقهى فالتهم الصغير كلّ شيء، القهوة بالكريم والنظريّات، كأنّما يلتهم خبز القربان، هيّا، هيّا، اذهب فتنزّه، لقد كان هناك، متكلِّف الوقار متحذلقًا كحمار محمّل بالذخائر. أوه! لقد فهمت، إنّني لم أكن أريد أن أمدّ يدي إليك، فأنا لست جديرًا بذلك، وهذه النظرة التي رماني بها حين قلت له إنّني لا أفهم الفلسفة! إنّه لم يجهد نفسه حتى لأن يكون مؤدَّبًا، في النهاية. أوه! أنا على يقين.

ـ وقد شعرت بذلك منذ عهد «هورتيغير» ـ بأنّه يحذِّرهم منِّي. وقال دانيال وهو يضحك راضيًا: «هذا حسن جدًّا، إنّ هذا درس ممتاز، وبتكاليف قليلة، إنّني مسرور لأنّه صرفني عنه، فلو جُننت واهتممت قليلاً به وحدّثته في ثقة، إذن لذهب يُطلع ماتيو على ذلك كلّه، ولتحدّثنا في هذا بصخب». وتوقّف توقّفًا فجائيًا، حتى إنّ سيّدة كانت تسير خلفه صدمته في ظهره وأرسلت صيحة صغيرة. «لقد حدّثه عنّي!» وكانت هذه فكرة ـ لا ـ تُحتمل، إذ هي تخلِّف عندك موجة من تعريق الغضب؛ وكان ينبغي تصوّرهما معًا، سعيدين بأن يكونا معًا، الصغير فاغر الفم طبعًا، يباعد ما بين عينيه ويرهف أذنيه، حتى لا يفقد شيئًا من المنّ الإلٰهي، في مقهى ما من مقاهي مونتمارتر، إحدى تلك المحاشش القذرة التي تتصاعد منها رائحة الثياب الوسخة. . . «لا بدّ أنّ ماتيو كان ينظر إليه من تحت، نظرة عميقة، ثم يشرح له شخصيّتي، ممّا يُميت من الضحك»، وردّد دانيال: «ممّا يميت من الضحك» ثم غرز أظافره في باطن يده. لقد حكما عليه من خلف ظهره، فحلّلاه وشرّحاه، وكان بلا سلاح، وكان لا يشعر بشيء وكان ممكنًا أن يوجد ذلك اليوم كسائر الأيّام، كما لو أنّه لم يكن شيئًا آخر غير

شفافية لا ذاكرة لها ولا عاقبة، كما لو أنّه لم يكن بالنسبة للآخرين جسمًا سمينًا بعض الشيء ذا خدّين يتهدّلان، وجمال شرقي يذبل، وبسمة قاسية، ومن يدري؟ ولكن لا، لا أحد. إذا كان بوبي يعرف، ورالف يعرف، فإنّ ماتيو لم يكن يعرف. إنّ بوبي إربيان، وليس هو ضميرًا واعيًا، إنّه يسكن رقم ٦ شارع الأورس، مع رالف. ها! ليتنا نستطيع أن نعيش بين العميان! إنّه، هو، ليس أعمى، وهو يفخر بأنّه يرى جيِّدًا، وهو عالم نفسي دقيق. وله الحقّ بأن يتحدّث عنّي بالنظر إلى أنّه يعرفني منذ خمسة عشر عامًا، وأنّني خير صديق له ولا يحرم نفسه من التحدّث عنّي، فما إن يلتقي أحدًا، حتى يكونا شخصين أنا موجود بالنسبة إليهما، ثم يكونوا ثلاثة، ثم تسعة، ثم مئة. سورينو، سورينو، سورينو السمسار، سورينو المضارب، سورينو الـ . . . ها! ليته يفطس، ولكن لا، إنّه يتنزّه بمطلق الحرِّيّة وفي رأسه رأيه فيّ، وهو يُعدي به جميع من يقتربون منه، ويجب أن أعدو في كلّ مكان وأحكّ وأحكّ وأمحو وأغسل بالماء الكثير، لقد حككت مارسيل حتى العظم. ولقد مدّت لي يدها، في اليوم الأوّل، وهي تنظر إليّ طويلاً، وقالت: «لقد حدّثني ماتيو عنك كثيرًا» فنظرت إليها بدوري، وكنت مبهورًا، كنت هنا في داخلها، كنت موجودًا في هذا الجسم، خلف هذا الجبين العنيد، وداخل هاتين العينين. . يا للقذارة! أمّا الآن، فهي لا تصدِّق كلمة واحدة ممّا يقوله لها عنّي.

وابتسم برضى، وكان شديد الاعتزاز بهذا النصر، حتى إنّه نسي، لِلحظة، أن يراقب نفسه: وحدث تمزّق في نسيج الكلمات كبر رويدًا رويدًا وامتدّ حتى أصبح صمتًا. الصمت الثقيل الفارغ. ما كان ينبغي له، ما كان ينبغي له أن يكفّ عن الكلمات. وكانت الريح قد سقطت، وكان الغضب متردِّدًا. وفي أعماق الصمت، كان هناك وجه سرغين، كأنّه جرح. وجه عذب وغامض، كم كانت إضاءته بحاجة إلى صبر وحميًا. وفكّر: «كان بوسعي. . » هذا العام أيضًا، هذا اليوم أيضًا، كان بوسعه. أمّا بعد. . .

وفكّر: «فرصتي الأخيرة». كانت هذه فرصته الأخيرة، فأطفأها له ماتيو، بكلّ إهمال. كانوا يتركون له نماذج من رالف وبوبي. «أمّا هو، الصبي المسكين، فسوف يجعل منه قردًا عالمًا». وكان يمشي في صمت، وخطاه تصدي وحدها في جوف رأسه كما تصدي في شارع خالٍ عند الصباح الباكر، وكانت وحدتها كلّيّة، تحت هذه السماء الجميلة العذبة كالضمير الطيِّب، وسط هذا الحشد المنهمك، بحيث إنّه كان يدهشه وجوده، لا بدّ أنّه كان كابوس واحد من الناس.. واحد سينتهي به الأمر إلى التيقُّظ. ومن حسن الحظّ أنّ الغضب قد نشر قلوعه، وغطّى كلّ شيء، فأحسّ بأنّ سَوْرة جذلة تنعشه، وبدأ الفرار، وعاد صفّ الكلمات، كان يكره ماتيو. إنّه واحد لا بدّ أنّه يرى من الطبيعي جدًّا، أن يوجد، فهو لا يطرح على نفسه سؤالاً: إنّ هذا النور اليوناني الصحيح، وهذه السماء الفاضلة مجعولان له، وهو في بيته، ولم يكن قطّ وحيدًا، وفكّر دانيال: «أقسم بأنّه يظنّ نفسه غوته». وكان قد رفع رأسه، وكان ينظر إلى المارّة في عيونهم، ويدغدغ حقده: «ولكن حذار! اتّخذ لك تلاميذ إذا كان هذا يسلّيك، ولكن لا تفعل ذلك ضدّي، لأنّي سينتهي بي الأمر إلى أن ألعب معك دورًا قذرًا». واستخفّت به دفقة غضب جديدة، فبات لا يمسّ الأرض، وكان يطير، وقد أخذه الفرح بأن يشعر أنّه مريع، وفجأة جاءته الفكرة حادّة، حمراء لامعة: «ولكن، ولكن، ولكن... قد يكون ممكنًا مساعدته على أن يفكّر، وأن يدخل في ذاته، وأن يتدبّر أمره بحيث لا تكون الأشياء يسيرة عليه أكثر ممّا ينبغي، وستكون هذه خدمة عظيمة تؤدّى له». وكان يتذكّر اللهجة المفاجئة الخشنة التي قذفته بها يومًا مارسيل: «حين تكون المرأة هالكة، فليس أمامها إلّا أن تحبل وتلد طفلاً»، وقد كان يكون هذا أمرًا طريفًا لو لم يكونا متّفقين تمامًا على هذه القضيّة، لو كان يعدو بحماسة بين حوانيت العقاقيريّين، بينما تكون هي في جوف غرفتها الورديّة تذوب رغبةً في أن يكون لها ولد. إنّها ما كانت لتجرؤ على أن تقول له شيئًا، ولكن... لو كان ثمّة أحد، صديق مشترك، ليمنحها بعض الشجاعة... وفكّر: «إنّني

شرِّير» وكان مغمورًا بالفرح. لقد كان الشرّ هو هذا الشعور الطاغي بالسرعة، حيث ينفصل المرء فجأة عن نفسه ويجري إلى الأمام كالسهم، وتأخذه السرعة من رقبته وهي تزداد دقيقة فدقيقة، وكان ذلك شيئًا لذيذًا لا يُحتمل، لأنّ المرء يتدحرج بلا ضابط، والقبر أمامه فاغر الفم، ويقتحم حواجز تنتصب ذات اليمين وذات اليسار، على غير انتظار ـ ماتيو المسكين، إنّني أقسى ممّا ينبغي، فأنا سأفسد له حياته ـ وتنكسر كالغصون الميِّتة، وقد كانت مسكرةً، هذه الفرحة التي يخترقها الخوف، والتي هي جافّة كانتفاضة كهربائيّة، هذه الفرحة التي لم تكن تستطيع التوقّف. «إنّني أتساءل عمّا إذا كان سيكون له بعد تلامذة؟ ربّ أسرة: إنّ هذا لا يكون غالبًا». هيئة سرغين، حين يأتي ماتيو ليبلغه زواجه، والازدراء الذي سيشعر به هذا الفتى، وذعره الساحق: «إنّك تتزوَّج؟» وسيتلعثم ماتيو: «إنّ هناك واجبات أحيانًا». ولكنّ الصغار لا يفهمون مثل هذه الواجبات. لقد كان هناك شيء ما يحاول أن يولد من جديد في حياء. ذلك هو وجه ماتيو، وجهه الطيِّب الواثق، ولكنّ السباق لم يلبث أن يُستأنف: إنّ الشرّ لا يتوازن إلّا بالسرعة القصوى، شأنه في ذلك شأن الدرّاجة. وطفرت فكرته أمامه، خفيفة فرحة: «إنّه رجل خير، ماتيو. وليس هو شرِّيرًا. أوه! كلّا! إنّه من جنس هابيل، فهو له ضميره الخاصّ، وإذن، فعليه أن يتزوّج مارسيل. وبعد ذلك، لا يبقى له إلّا أن ينام على غاره، فهو ما زال شابًّا، وستكون أمامه حياةٌ برمّتها ليسعد بعمله الطيِّب».

وكانت هذه الراحة المسترخية لضمير نقيّ، ضمير نقيّ لا يُنفذ إليه، تحت سماء رحيمة مألوفة، كانت هذه الراحة من شدّة تدويخها بحيث لم يعد يعرف إن كان يتمنّاها لماتيو أو لنفسه بالذات. شخصٌ منتهٍ، خاضع، هادئ، أجل هادئ... «وإذا كانت لا تريد... أوه! لو كان ثمّة حظّ واحد، حظّ واحد لأن تريد هذا الطفل، فإنِّي أقسم أنّها سوف تطلب منه أن يتزوّجها مساء الغد». السيّد والسيّدة دولارو... السيّد والسيّدة دولارو يتشرّفان بإعلامكم... وفكّر دانيال: «إنّني بالإجمال ملاكهما الحارس،

ملاك الأسرة». كان ملاكًا أكبر، ملاك حقد وكراهية، ملاك قضاء يسلك طريق فيرسانجيتوري. وتمثّل مرّة أخرى، للحظة، جسمًا طويلاً مرتبكًا جميلاً، ووجهًا هزيلاً منحنيًا فوق كتاب، ولكنّ الصورة ما لبثت أن تهاوت، وكان بوبي هو الذي ظهر من جديد. «رقم ٦ شارع الأورس». كان يحسّ بأنّه حرّ كالهواء، وكان يمنح نفسه جميع الإجازات. وكان حانوت البقالة في شارع فيرسانجيتوري ما يزال مفتوحًا، فدخله. وحين خرج، كان يمسك بيده اليمنى سيف القدِّيس ميشال الناري، وفي اليد اليسرى علبة حلوى للسيّدة دوفيه.

١٠

دقّت العاشرة في الساعة الصغيرة. ولم يبدُ على السيّدة دوفيه أنّها سمعت. كانت تحدّد في دانيال نظرًا منتبهًا، ولكنّ عينيها كانتا قد تورّدتا. وفكّر: «إنّها لن تتأخّر في الذهاب». وكانت تبتسم له باحتيال، ولكنّ رياحًا خفيفة متسرِّبة من ثقب الباب كانت تذوب عبر شفتيها المفترّتين: كانت تتثاءب تحت بسمتها. وفجأة، رمت رأسها إلى خلف وبدت تصمّم على أمر، فقالت في اندفاع متلاعب:

ـ اسمعا يا ولديّ إنّني سآوي إلى سريري! لا تجعلها تسهر إلى ساعة متأخّرة أكثر ممّا ينبغي يا دانيال، فأنا معتمدة عليك في ذلك، وإلّا فإنّها ستنام حتى الظهر.

ونهضت وأقبلت تربِّت كتف مارسيل بيدها الصغيرة الخفيفة، وكانت مارسيل جالسة على السرير. واستطردت تقول وهي تجد تسلية في أن تتحدّث بين أسنانها المنقبضة:

ـ أتسمعين يا روديلارد، إنّك تنامين في ساعة متأخِّرة جدًّا يا ابنتي، تنامين حتى الظهر، فتسمنين.

قال دانيال: ـ أقسم بأنّي سأذهب قبل منتصف الليل.

فابتسمت مارسيل: ـ إذا أردتُ ذلك.

والتفت نحو السيّدة دوفيه وهو يصطنع الإرهاق:

ـ ما حيلتي؟

قالت السيّدة دوفيه: ـ المهمّ أن تكونا عاقلين. وشكرًا لحلوياتك اللذيذة.

ورفعت العلبة المشرّطة إلى مستوى عينيها بحركة تهديديّة بعض الشيء:

ـ إنّك ألطف ممّا ينبغي، وأنت تدلّلني كثيرًا، ولا بدّ من أن أوبّخك في النهاية!

فقال دانيال بصوت عميق: ـ إنّكِ لا تزيدين سروري إلّا بأن تحبّيها.

وانحنى على يد السيّدة دوفيه وقبّلها. ورأى عن كثب أنّ بشرتها كانت متجمّدة ببقع خبّازيّة. قالت السيّدة دوفيه وقد استخفّتها الحركة:

ـ يا للملاك! هيّا، إنّني ذاهبة!

وقبّلت جبين مارسيل، فأحاطت مارسيل قامتها بذراعها وشدّتها إليها لحظة، فأشعثت السيّدة دوفيه لها شعرها وتخلّصت بخفّة.. قالت مارسيل:

ـ سآتي إليك عمّا قليل.

ـ لا، لا، أيّتها الفتاة الرديئة. إنّني أتركك لملاكك.

وتسلّلت بحيويّة طفلة صغيرة، فتبع دانيال بنظرة باردة ظهرها الدقيق: لقد حسب أنّها لن تذهب أبدًا وانغلق الباب، ولكنّه لم يحسّ بالعزاء: فقد كان يخاف بعض الخوف أن يبقى وحده مع مارسيل. والتفت إليها، فرأى أنّها كانت تنظر إليه مبتسمة.

سألها: ما الذي يجعلك تبتسمين؟

فقالت مارسيل: ـ يسلّيني دائمًا أن أراك مع أمّي. كم أنت متملّق يا ملاكي المسكين، إنّ هذا لعار، فأنت لا تستطيع الامتناع عن إغراء الناس.

كانت تنظر إليه في حنان ملَّاك، وبدا أنّها مسرورة بأن يكون لها وحدها. فكّر دانيال في ضغينة: «إنّ لها قناع الحَبَل»، وكان يؤذيه أن تبدو على هذا الحدّ من السرور. وكان يستشعر دائمًا بعض الضيق إذ يجد نفسه على حافّة هذا الحديث الهامس وأنّه سيستغرق فيه. تنحنح وفكّر: «سوف أصاب بالربو» وكانت مارسيل رائحةً كثيفةً حزينةً، موضوعةً على السرير، في كتلة، وسوف تتفسّخ لدى أدنى حركة.

ونهضت: ـ عندي ما أريك إيَّاه.

ثم ذهبت لتأتي بصورة كانت على المدخنة، ومدّتها له وهي تقول:

ـ أنت الذي تريد دائمًا أن تعرف كيف كنت، عندما كنت صغيرة.

وأخذها دانيال: كانت مارسيل وهي في الثامنة عشرة، تشبه الساقطات بفمها المرتخي وعينيها القاسيتين. وكان لها هذا اللحم اللدن الذي يعوم كأنّه ثوب فضفاض. ولكنّها كانت هزيلة. رفع دانيال عينيه، ففاجأ نظرتها القلقة. وقال بحكمة:

ـ لقد كنتِ جميلة، ولكنّكِ لم تتغيّري قطّ.

فأخذت مارسيل تضحك:

ـ بلى! أنتَ تدري جيِّدًا أنّي قد تغيّرت، أيّها المخادع الكبير، ولكن اطمئن، فلست مع أمّي.

وأضافت:

ـ ولكن ألا ترى أنِّي كنت فتاة جميلة؟

قال دانيال: ـ إنّني أفضِّلكِ كما أنتِ الآن. كان في فمك شيء من الرخاء. أنت الآن تبدين أكثر إثارة للاهتمام.

فقالت بلهجة عابسة: ـ إنّ المرء لا يعرف متى تكون جادًّا.

ومع ذلك فقد كان يسيرًا أن يلاحظ الإنسان أنّها كانت مفتونة.

استقامت قليلاً وألقت إلى المرآة بنظرة سريعة. انزعج دانيال لهذه

الحركة الخرقاء الخالية من الحشمة: لقد كان في غندرتها إيمان طفولي طيّب ضعيف يتناقض مع وجهها، وجه المرأة المعانية. وابتسم لها.

قالت له: ـ وأنا أيضًا أسألك لماذا تبتسم؟

ـ لأنّكِ قمتِ بحركة طفلة صغيرة لتنظري في المرآة. إنّه مؤثّر جدًّا أن تهتمّي بنفسك بطريقة تلقائيّة.

فتورّدت مارسيل وضربت بقدمها الأرض.

ـ إنّه لا يستطيع أن يمتنع عن التملُّق؟

وضحك الاثنان، وفكّر دانيال في غير ما شجاعة كبيرة: «هيّا بنا». كانت الفرصة مؤاتية، ولكنّه كان يحسّ نفسه فارغًا ورخوًا. فكّر بماتيو ليكتسب بعض الشجاعة، فسرّه أن يجد أنّ حقده ما زال على حاله لم يُمسّ. لقد كان ماتيو واضحًا جافًّا كالعَظْمة. وكان كرهه ممكنًا. أمّا مارسيل فلم يكن بالإمكان كرهها.

ـ مارسيل! انظري إليّ.

وكان قد تقدّم وراح ينظر إليها نظرة اهتمام. قالت مارسيل:

ـ هأنذا.

وردّت له نظرته، ولكنّ رأسها كان يتحرّك باهتزازات صلبة: كان يصعب عليها أن تقاوم نظرة الرجل.

ـ يبدو عليك التعب.

فطرفت مارسيل بعينيها وقالت:

ـ إنّني ضعيفة المزاج. والسبب الآن هو هذا الحرّ الشديد.

انحنى دانيال قليلاً، وردّد بلهجة عتاب آسف:

ـ متعبة جدًّا! كنت أنظر إليك الساعة، بينما كانت أمّك تروي لنا رحلتها إلى روما: كان يبدو عليكِ أنّك مشغولة جدًّا، ثائرة الأعصاب جدًّا.

فقاطعته مارسيل بضحكة مغتاظة:

ـ اسمع يا دانيال. إنّها تروي لك هذه الرحلة للمرّة الثالثة. وأنت في كلّ مرّة تستمع إليها بهيئة اهتمام مهووس، وأصارحك أنّ هذا يزعجني قليلاً، فأنا لا أدري ماذا يكمن في رأسك في هذه اللحظات.

قال دانيال: ـ إنّ أمّك تسلّيني. أنا أعرف هذه القصص، ولكنّي أحبّ أن أسمعها وهي ترويها بحركاتها الصغيرة التي تسحرني.

وحرّك عنقه حركة صغيرة، فانفجرت مارسيل ضاحكة: كان دانيال يحسن تقليد الناس إذا أراد. ولكنّه ما لبث أن استعاد جدّه، فكفّت مارسيل عن الضحك. ونظر إليها معاتبًا. فاضطربت قليلاً تحت هذا النظر، وقالت له:

ـ إنّما تبدو الغرابة عليك أنت هذا المساء. فما بك؟

فلم يعجّل في الجواب. وكان صمت ثقيل يخيّم عليهما، وكانت الغرفة أتونًا حقيقيًّا. ضحكت مارسيل ضحكة صغيرة ما لبثت أن ماتت على شفتيها. وكان دانيال مسرورًا جدًّا، فقال:

ـ مارسيل، ما كان ينبغي أن أقولها لك...

فارتدّت إلى خلف: ـ ماذا؟.. ماذا هناك؟..

ـ إنّك غير حاقدة على ماتيو؟

فامتقع لونها:

ـ أوه! هل... لقد أقسم لي ألّا يقول لك شيئًا.

ـ إنّ الأمر يا مارسيل هامّ إلى هذا الحدّ، وتريدين أن تخفيه عنّي؟.. ألست إذًا صديقك؟

فارتعشت مارسيل وقالت: ـ إنّه أمر قذر؟

هكذا! حسنًا: إنّها عارية، لم تكن القضيّة بعد قضيّة ملاك أو صور شباب، لقد فقدت قناع جدارتها الضاحك. ولم يكن هناك بعد إلّا امرأة

كبيرة حامل، تنبعث منها رائحة اللحم، وكان دانيال يحسّ بالحرّ، فأمرّ يده على جبينه العَرِق. وقال بهدوء:

ـ كلّا، كلّا، ليست قذرة.

فندّت عن مرفقها وذراعها حركة مفاجئة خطّطت هواء الغرفة اللّاهب وقالت:

ـ إنّك تشمئزّ منّي.

فأخذته ضحكة فتيّة.

ـ أشمئزّ؟ أنا؟ إنّ بوسعك يا مارسيل أن تبحثي طويلاً قبل أن تجدي شيئًا يجعلني أشمئزّ منك.

فلم تجب مارسيل. وكانت قد خفضت رأسها في حزن. وقالت أخيرًا:

ـ لكم وددت أن أدعك بعيدًا عن هذا كلّه.

وصمتا. إنّ بينهما الآن صلة جديدة كالسلك السُرِّيّ. وسألها دانيال:

ـ هل رأيت ماتيو، منذ أن فارقني؟

فقالت مارسيل بلهجة فجائيّة:

ـ لقد خابرني حوالى الساعة الواحدة.

وكانت قد تداركت نفسها وتصلّبت، ووقفت موقف الدفاع، منتصبة مقروصة المنخرين. كانت تتألّم.

ـ هل قال لك إنّي رفضت أن أديِّنه مالاً؟

ـ قال لي إنّه لم يكن معك مال.

ـ بل كان معي.

فردّدت دهشة: ـ كان معك؟

ـ أجل كان معي، ولكنّي لم أكن أريد أن أديِّنه... قبل أن أكون قد رأيتك على الأقلّ.

وبعد فترة أضاف:

ـ أينبغي لي أن أديِّنه مالاً؟

فقالت في ارتباك: ـ ولكن.. لا أدري إن عليك أن ترى إذا كان ذلك في إمكانك.

ـ هذا ممكن جدًّا. إنّ معي خمسة عشر ألف فرنك أستطيع أن أتصرّف بها من غير أن أنزعج إطلاقًا.

قالت مارسيل: إذًا نعم. نعم يا عزيزي دانيال. يجب أن تعيرنا مالاً.

وساد صمت. وكانت مارسيل تدعك غطاء السرير بين أصابعها، وكانت رقبتها الثقيلة تخفق. وقال دانيال:

ـ إنّكِ لا تفهميني. أنا أقصد: هل ترغبين من صميم قلبك أن أديِّنه؟

فرفعت مارسيل رأسها ونظرت إليه في دهشة:

ـ إنّك غريب يا دانيال، لا بدّ أنّ في رأسك شيئًا.

ـ الحقيقة... كنت أتساءل بكلّ بساطة عمّا إذا كان ماتيو قد استشارك.

فقالت ببسمة خفيفة: ـ ولكن طبعًا. مهما يكن فنحن لا نتشاور، وأنت تعرف كيف نتصرّف: يقول أحدنا: نفعل هذا أو ذاك، فيعترض الآخر إذا لم يكن موافقًا.

قال دانيال: ـ نعم، نعم.. غير أنّ هذا يكون في صالح من له رأي ناجز. أمّا الآخر، فيرتبك ولا يجد الوقت لتكوين رأي له.

قالت مارسيل: ـ ربّما.

ـ أنا أعرف كم يحترم ماتيو آراءك، ولكن من اليسير عليّ أن أتمثّل الحادث: فلقد تسلّط عليّ طوال بعد الظهر، ولا بدّ أنّه كوّر ظهره كما يفعل في مثل تلك الحالات، ثم قال وهو يجرض بريقه: «حسنًا! سنلجأ إلى

الوسائل الكبرى». ولم يأخذه أيّ تردّد، والحقّ أنّه لم يكن يستطيع التردّد: فهو رجل. ولكن ألم يتمّ ذلك في شيء من العجلة؟ لا بدّ أنّكِ أنتِ نفسك لم تعرفي ما كنت تريدينه؟

وانحنى من جديد نحو مارسيل:

ـ ألم تجر الأمور على هذا الشكل؟

ولم تكن مارسيل تنظر إليه. كانت قد لفتت رأسها من جهة المغسلة وكان دانيال يراها جانبيًّا. وكان يبدو عليها الأسى، وقالت:

ـ هكذا تقريبًا.

ثم احمرّ وجهها احمرارًا عنيفًا.

ـ أوه! لنكفّ عن التحدّث في هذا يا دانيال، أرجوك! فليس... ليس ذلك أمرًا مستحبًّا.

ولم يكن ينزع عنها نظره. وفكّر: «إنّها تخفق». ولكنّه لم يكن يدري بعد إن كان يلذّه أن يذلّها أو يذلّ نفسه معها. وقال في نفسه: «سيكون الأمر أيسر ممّا كنت أظنّ». وقال:

ـ لا تنغلقي يا مارسيل، أبتهل إليكِ: أنا أعرف كم يشقّ عليكِ أن نتكلّم عن هذا كلّه.

قالت مارسيل: ـ ولا سيّما معك. فكم أنت يا دانيال شخص آخر!

عجبًا، إنّني طُهْرها! وارتعشت من جديد وشبكت ذراعيها على صدرها وقالت:

ـ إنّني لا أجرؤ على النظر إليك. فحتى لو لم تكن تشمئزّ منّي، يخيَّل إليّ أنّي قد فقدتك.

قال دانيال بمرارة: ـ أعرف ذلك. إنّ الملاك يجفل بسهولة. اسمعي يا مارسيل! كفّي عن إسناد هذا الدور المضحك إليّ. فليس لديّ شيء من

ملاك، كلّ ما هناك أنّني صديقك، خير صديق لك. (وأضاف بحزم) وأنّ لي كلمة أقولها: ما دام بوسعي أن أساعدك. هل أنت يا مارسيل متأكِّدة حقًّا من أنك لا تريدين طفلاً؟

وتاه قليلاً عبر جسم مارسيل، فكأنّه كان يريد أن ينفصل عن نفسه. ثم أوقف هذا البدء في التجزّؤ، وتراكم الجسم على حافّة السرير جامدًا ثقيلاً. ولفتت رأسها نحو دانيال وكانت قرمزيّة، ولكنّها كانت تنظر إليه من غير ضغينة، في ذهول أَعزل. وفكّر دانيال: «إنّها يائسة».

ـ ليس لكِ إلّا أن تقولي كلمة: إذا كنتِ واثقة من نفسك، فإنّ ماتيو سيتلقّى المال صباح الغد.

وكان يتمنّى تقريبًا أن تقول له: «إنّني واثقة من نفسي» وسيرسل المال وينتهي كلّ شيء. ولكنّها لم تكن لتقول شيئًا، وقد التفتت إليه، كأنّما كانت تنتظر، وكان لا بدّ من المضيّ حتى النهاية. وفكّر دانيال في اشمئزاز: «هكذا إذن! أقسم أنّ هيئة العرفان تبدو عليها»، كما كان الشأن مع ملقينا يوم ضربها.

وقالت: أنت! لقد تساءلت عن هذا! أمّا هو... الحقّ يا دانيال أن ليس في الدنيا من يهتّم بي سواك.

ونهض، وأقبل يجلس بالقرب منها وأخذ يدها. يد رخوة محمومة كأنّها مُسارة: واحتفظ بها في يده من غير أن يتكلّم. وكان يبدو على مارسيل أنّها تقاوم دموعها. وكانت تنظر إلى ركبتيها.

ـ الأمر لديكِ سواء إذا أُجهض الطفل؟

فقامت بحركة متعبة وقالت:

ـ وماذا تريد أن نفعل غير ذلك؟

وفكّر دانيال: «لقد ربحتُ!» ولكنّه لم يستشعر من ذلك أيّ سرور. كان يختنق. كانت مارسيل، وهي قريبة هذا القرب، تنبعث منها رائحة لا

تكاد تُحسّ، بل لعلّها إذا صحّ التعبير ليست رائحة، ولكن كأنّها تُخصب الهواء حولها. ثم كانت هناك تلك اليد التي ترشح في يده. وقسر نفسه على أن يشدّ ضغطها، فيعصرها ليخرج كلَّ عصيرها. وقال بصوت جافّ:

ـ لا أعرف ما يمكن أن نفعله: سنرى ذلك فيما بعد. إنّني في هذه اللحظة لا أفكّر إلّا فيكِ، فإذا رزقت هذا الطفل فربّما كان ذلك كارثة، ولكن ربّما كان كذلك حظًّا. ينبغي يا مارسيل أن لا تستطيعي أن تتّهمي نفسك فيما بعد بأنّك لم تفكّري كفاية.

فقالت مارسيل: ـ نعم، نعم...

وكانت تنظر إلى الفراغ نظرة ثقة تردّ إليها شبابها. وفكّر دانيال بالطالبة الشابّة التي سبق له أن رأى صورتها. «صحيح! لقد كانت شابّة...». ولكن إشعاعات الشباب نفسها لم تكن مؤثِّرة على هذا الوجه العاقّ. ترك يدها وابتعد قليلاً عنها، وردّد بصوت عجول:

ـ فكِّري. هل أنت حقًّا متأكِّدة؟

فقالت مارسيل: ـ لا أدري.

ونهضت: اعذرني، يجب أن أطلّ على أمّي.

فانحنى دانيال بصمت: وكان ذلك شيئًا مألوفًا. وفكّر حين أُغلق الباب: «لقد ربحتُ!» ومسح يديه بمنديله ثم نهض بحيويّة وفتح دِرج طاولة الليل: كان يوجد فيها أحيانًا رسائل طريفة وقصاصات قصيرة من ماتيو ذات لهجة زواجيّة أو شكاوى لا تنتهي من أندريه التي لم تكن سعيدة. كان الدرج فارغًا، وجلس دانيال ثانية على الأريكة وفكّر: «لقد ربحت، فهي تموت رغبة في أن تبيض». وكان سعيدًا أنّه وحيد: وأنّ باستطاعته أن يستعيد الحقد. قال في نفسه: «أقسم بأنّه سيتزوّجها. والحقّ أنّه كان لئيمًا، حتى إنّه لم يستشرها. وأضاف إنّه لا يستحقّ أن أكرهه لدوافع طيِّبة: فإنّ لديّ من العمل مع الآخرين ما فيه الكفاية».

ورجعت مارسيل بوجه متحلّل، وقالت بصوت جافّ:

ـ وإذا كانت لي رغبة في الطفل؟ ماذا يجديني ذلك؟ إنّني لا أستطيع أن أكون في ترف الفتاة الأمّ، وليس واردًا أن يتزوّجني، أليس كذلك؟

فرفع دانيال حاجبيه مدهوشًا وسألها:

ـ ولماذا لا يستطيع أن يتزوّجك؟

نظرت إليه مارسيل بذعر ثم آثرت أن تضحك قائلة:

ـ لكنّك تعرف جيّدًا يا دانيال ما نحن عليه!

فقال دانيال: ـ إنّني لا أعرف شيئًا على الإطلاق. لا أعرف إلّا شيئًا واحدًا: ليس عليه، إذا أراد، إلّا أن يقوم بالخطوات الضروريّة، كجميع الناس بحيث تصبحين بعد شهر زوجته. أتكونين أنت يا مارسيل التي قرّرت ألّا تتزوّجي أبدًا؟

ـ سوف أشمئزّ من أن يتزوّجني على مضض.

ـ ليس هذا جوابًا.

وزال بعض توتّر مارسيل، فأخذت تضحك، وأدرك دانيال أنّه ضلّ الطريق.. وقالت:

ـ الحقيقة أنّه سيّان عندي أن لا أُدعى السيّدة دولارو.

قال دانيال بحيويّة: ـ إنّني متأكّد من ذلك. وإنّما عنيت: إذا كان ذلك هو الوسيلة الوحيدة للاحتفاظ بالطفل؟...

فبدت مارسيل مضطربة:

ـ ولكنّني لم أواجه الأمور قطّ على هذا النحو.

ولا بدّ أنّ ذلك كان صحيحًا. لقد كان شاقًّا جدًّا حملها على أن تنظر إلى الأشياء مواجهة: كان ينبغي أن يوضع أنفها فوق الأشياء، وإلّا تناثرت في كلّ اتّجاه. وأضافت:

ـ إنّ هذا . . . أمر قد اتّفقنا عليه: إنّ الزواج عبوديّة: وليس فينا من يريده.

ـ ولكنّك تريدين الطفل؟

فلم تجب. وكانت اللحظة الحاسمة، وردّد دانيال بصوت قاس:

ـ أليس كذلك؟ إنّك تريدين الطفل؟

كانت مارسيل تتّكئ بإحدى يديها على الوسادة بينما وضعت الأخرى على فخذها، ثم رفعتها قليلاً ووضعتها على بطنها، كما لو أنّ أحشاءها كانت تؤلمها، وكانت هذه حركة خرقاء وساخرة. وقالت بصوت متوحّد:

ـ نعم. أريد الطفل.

ربحنا. وصمت دانيال. ولم يكن يستطيع رفع نظره عن هذا البطن. اللحم العدوّ، اللحم المشحم والمغذّي، خزانة الطعام. وفكّر في أنّ ماتيو كان قد اشتهاها، فأخذته شعلة سريعة من الرضى: لكأنّما انتقم بعض الانتقام. وكانت اليد السمراء ذات الخاتم تتشنّج على الحرير وتضغط على ذلك البطن. ما الذي كانت تشعر به، في داخلها، هذه الأنثى الثقيلة المتمزِّقة؟ لقد كان يودّ أن يكونها. وقالت مارسيل بخفوت:

ـ لقد حرّرتني يا دانيال. فإنّني لم أكن أستطيع أن أقول ذلك لأحد، لأحد في العالم، أبدًا وكنت قد انتهيت إلى الإيمان بأنّ ذلك كان إثمًا.

ونظرتْ إليه بضيق:

ـ أليس ذلك إثمًا؟

فلم يتمالك نفسه من الضحك:

ـ إثم؟ إنّما ذلك فساد يا مارسيل. أتجدين رغباتك آثمة حين تكون طبيعيّة؟

ـ كلّا، إنّما أعني: تجاه ماتيو. إنّ ذلك نقض العهد.

ـ كلّ ما في الأمر هو أنّه يجب أن تتفاهمي معه بصراحة.

فلم تجب مارسيل، وكان يبدو عليها أنّها تجترّ. وقالت فجأة بحماسة:

ـ أوه! لو كان لي ولد، أقسم لك ما سمحت له بأن يفسد حياته مثلي.

ـ إنّك لم تفسدي حياتك.

ـ بلى!

ـ ولكن لا يا مارسيل، لم تفسديها بعد.

ـ بلى! إنّني لم أفعل شيئًا، وليس هناك من يحتاج إليّ.

فلم يجب: كان ذلك صحيحًا.

ـ ليس ماتيو بحاجة إليّ. وإذا متّ لم يؤثّر ذلك عليه قطّ. وأنت كذلك يا دانيال. صحيح أنّك تكنّ لي حبًّا كبيرًا، ولعلّ ذلك هو أثمن شيء عندي في الدنيا. ولكنّك لست بحاجة إليّ، بل الأصحّ أنّني أنا بحاجة إليك.

أيجيب؟ أم يحتجّ؟ كان ينبغي له الحذر: كانت مارسيل تبدو في إحدى تلك الحالات المستبصرة الوقحة. وتناول يدها بلا كلمة وشدّها شدًّا ذا مغزى. وتابعت مارسيل.

ـ أمّا الطفل، أجل، إنّ الطفل سيكون بحاجة إليّ.

فلامس يدها بحنان.

ـ يجب أن تقولي هذا كلّه لماتيو.

ـ لا أستطيع.

ـ ولكن لماذا؟

ـ إنّني عاجزة. وأنتظر أن يأتي ذلك منه.

ـ ولكنّك تعلمين جيّدًا أنّ ذلك لن يأتي منه أبدًا: فهو لا يفكّر فيه.

ـ ولماذا لا يفكّر في ذلك؟ لقد فكّرت أنت فيه مليًّا.

ـ لا أدري.

ـ وإذن... سيبقى الأمر كما قرّرنا: سوف تعيرنا المال، وسأذهب إلى ذلك الطبيب.

فصاح دانيال فجأة: ـ إنّك لا تستطيعين، لا تستطيعين!

وتوقّف ينظر إليها في حذر: كان الانفعال هو الذي جعله يطلق هذه الصرخة البليدة. وأثلجته هذه الفكرة، لقد كان الترك يذعره.

وقرص شفتيه، وأمرّ السخرية في عينيه، وهو يرفع حاجبيه. وكان دفاعًا لا جدوى منه، كان الأفضل ألّا يراها: فقد أحنت كتفيها، وكان ذراعاها يتدلّيان على جنبيها، وتنتظر جامدة معطّلة، وهي سوف تنتظر على هذا النحو طوال أعوام حتى النهاية. وفكّر: «حظّها الأخير» كما سبق له أن فكّر لنفسه منذ حين، فبين الثلاثين والأربعين عامًا يلعب الناس حظّهم الأخير. وهي سوف تلعب وتخسر، فبعد بضعة أيّام لن تكون بعد إلّا بائسة كبيرة. وكان ينبغي الحيلولة دون ذلك.

ـ وما ترين في أن أحدّث أنا نفسي ماتيو في ذلك؟

كانت شفقة هائلة موحلة قد غمرته. ولم يكن يميل قطّ إلى مارسيل. كان يشعر باشمئزاز عميق، ولكنّ الشفقة كانت موجودة هنا، لا تقاوم. وكان على استعداد ليفعل أيّ شيء من أجل أن يتخلّص منها. رفعت مارسيل رأسها وكان يبدو عليها أنّها تظنّه مجنونًا.

ـ تتحدّث إليه؟ أنت؟ ولكن بِمَ تفكّر يا دانيال؟...

ـ يمكن أن يُقال له... إنّني التقيت بك...

ـ أين؟ فأنا لا أخرج قطّ. وحتى لو فرضنا ذلك، فهل يكون الأمر قد بلغ بي أن أروي لك هذا؟

ـ لا، لا، طبعًا.

ووضعت مارسيل يدها على ركبته.

ـ أرجوك يا دانيال، لا تتدخّل في هذا الأمر. إنّني غاضبة من ماتيو، وقد كان عليه ألّا يروي لك...

ولكن دانيال كان متمسِّكًا بفكرته.

ـ اسمعي يا مارسيل. ألا تعرفين ما سوف نفعله؟ سنقول له الحقيقة بكلّ بساطة. سأقول: يجب أن تغفر لنا سرًّا صغيرًا، فقد كنّا أنا ومارسيل نلتقي أحيانًا، ولم نخبرك بذلك.

فابتهلت مارسيل تقول:

ـ دانيال، يجب أن لا نقول ذلك. إنّني لا أريد أن تتكلّم عنّي. لا أريد بأيّ ثمن أن أظهر بمظهر المطالِب. فقد كان عليه هو أن يفهم.

وأضافت بلهجة زواجيّة:

ـ ثم إنّه، لو تعلم، لن يغفر لي أبدًا أنّني لم أخبره أنا نفسي بذلك. إنّنا نتصارح دائمًا بكلّ شيء.

وفكّر دانيال: ـ «هذه نكتة!» ولكن لم تكن به رغبة للضحك. وقال:

ـ ولكنّي لن أتكلّم باسمك. سأقول له إنّني رأيتك، وإنّه كان يبدو عليك أنّك متألِّمة. وأنّ الأمور ليست بالبساطة التي قد يتصوّرها. سأقول ذلك كلّه كما لو أنّه صادر عنّي.

قالت مارسيل بلهجة انزعاج:

ـ لا أريد. لا أريد.

وكان دانيال ينظر إلى كتفيها وعنقها في نهم. يغيظه هذا العناد الأبله، وكان يريد أن يحطِّمه. كانت رغبة هائلة مشوّهة تتملّكه: أن ينتهك هذا الضمير وأن يغرق معه في المذلّة. غير أنّ ذلك لم يكن من الساديّة: فقد كان أشدّ تلمّسًا وأوفر رطوبة وأكثر بشريّة. كان بالأحرى طيبة.

بل يجب يا مارسيل. انظري إليّ يا مارسيل.

وأخذها من كتفيها، فغرقت أصابعه في زبدة دافئة.

ـ إن لم أحدِّثه بذلك، فلن تقولي شيئًا أبدًا... وسينتهي الأمر، وستعيشين بالقرب منه صامتة، وستنتهين إلى كرهه.

فلم تجب مارسيل، ولكنّه أدرك من هيئتها الحاقدة المسترخية أنّها كانت بسبيل الاستسلام. وأضافت مرّة أخرى:

ـ لا أريد.

فتركها وقال في غضب:

ـ إن لم تدعيني أفعل، فسألومك وقتًا طويلاً. سيكون أنّك أفسدت حياتك بيديك.

كانت مارسيل تُمرّ طرف رجلها على منحدر السرير، وقالت:

ـ ينبغي... ينبغي أن تُقال له أشياء مبهمة تمامًا، أن يوقظ انتباهه فحسب...

فقال دانيال: ـ طبعًا.

وكان يفكِّر: «اعتمدي عليّ في ذلك».

وبدت من مارسيل حركة إشفاق:

ـ هذا غير ممكن.

ـ وبعد؟ كنتِ على وشك أن تكوني عاقلة... لماذا يكون ذلك غير ممكن؟

ـ ستكون مضطرًّا إلى أن تقول له إنّنا كنّا نتلاقى.

فقال دانيال في انزعاج:

ـ نعم. قلتُ لك ذلك. ولكنّني أعرفه: فهو لن يغضب من هذا. قد يغتاظ قليلاً، في الظاهر، ولكنّه إذ يشعر بأنّه مذنب، فسيكون مسرورًا أكثر

ممّا ينبغي بأن يجد شيئًا يؤاخذك عليه. ثم إنّي سأقول له إنّنا نتلاقى منذ أشهر فقط، وفي فترات نادرة. ومهما يكن، فلا بدّ أن نقول له ذلك يومًا.

ـ هذا صحيح.

ولم يكن يبدو عليها أنّها مقتنعة، فقالت بأسف عميق:

ـ لقد كان ذلك سرّنا. اسمع يا دانيال، تلك كانت حياتي الخاصّة، وليست لي حياة غيرها.

وأضافت بكراهية:

ـ إنّني لا أستطيع أن أحتفظ لنفسي إلّا بما أخفيه عنه.

ـ يجب أن تحاولي. من أجل الطفل.

إنّها تكاد تستسلم: وليس ثمّة بعد إلّا الانتظار، كانت توشك أن تنزلق نحو الخضوع والاستسلام، يقودها في ذلك ثِقَلُها نفسه، ستكون بعد لحظة منفتحة كلّها، مسحوقة، ومن غير سلاح. وستقول له في دعة: «إِفعل ما يبدو لك، إنّني بين يديك». كانت تسحره، ولم يكن يعرف بعد إن كانت هذه النار التي تلتهمه هي «الشرّ» أو الطيبة. الخير والشرّ، خيرهما وشرّه، كان ذلك سواء. لقد كان ثمّة هذه المرأة، وهذا التواصل المنفّر الباعث على الدوار.

أمرّت مارسيل يدها في شعرها، وقالت في تحدّ:

ـ حسنًا! لنحاول. إنّها ستكون على كلّ حال تجربة.

فسألها دانيال:

ـ تجربة؟ أهو ماتيو الذي تريدين أن تدخليه في التجربة؟

ـ نعم.

ـ وهل تظنّين بأنّه سيظلّ لامباليًا؟ وأنّه لن يتعجّل ساعة اللقاء بك ليتفاهم معك؟

ـ لا أدري.

وقالت بجفاف:

ـ إنّني بحاجة إلى احترامه.

فأخذ قلب دانيال يخفق بعنف:

ـ ألا تحترمينه إذن بعد؟

ـ بلى.. ولكنِّي لست بعد في ثقة معه منذ مساء الأمس. لقد كان... أنت على حقّ: لقد كان مهملاً أكثر ممّا ينبغي. إنّه لم يهتمّ بشأني. ثم إنّ مخابرته التلفونيّة اليوم... تثير الشفقة. لقد...

واحمرّت:

ـ لقد ظنّ أنّ عليه أن يقول إنّه كان يحبّني، حين أنهى المخابرة وكان ذلك يرشح بتأنيب الضمير. ولا أستطيع أن أصف لك الأثر الذي خلّفه ذلك فيّ. وإذا اتّفق لي أن كففت عن احترامه... ولكنّي لا أريد أن أفكّر بذلك. إنّه يشقّ عليّ جدًّا أن أعتب عليه، حين يتّفق لي بذلك. آه! ليته يحاول غدًا أن يدفعني قليلاً إلى الكلام. ليته يسألني مرّة واحدة، مرّة واحدة فقط. «ماذا يجول في رأسك؟».

وصمتت، وهزّت رأسها في حزن. وقال دانيال:

ـ سوف أحدِّثه. حين أغادرك، سأترك له كلمة، وأحدِّد له موعد لقاء للغد.

وصمتا. وأخذ دانيال يفكِّر في لقاء الغد: لقد كان يَعد أن يكون لقاءً عنيفًا وقاسيًا، وسوف يطهِّره ذلك من هذه الشفقة اللزجة. قالت مارسيل:

ـ دانيال، عزيزي دانيال.

ورفع رأسه فرأى نظرتها. وكانت نظرة ثقيلة ساحرة تفيض بالعرفان الجنسي، نظرة ما بعد المضاجعة. وأغمض عينيه: لقد كان بينهما ما هو أقوى من الحبّ. لقد سبق أن انفتحت، فدخل فيها، فليسا هما بعد إلّا شخصًا واحدًا.

وردّدت مارسيل: ـ دانيال.

ففتح دانيال عينيه، وسعل بمشقّة، وكان مصابًا بالربو. أخذ يدها وقبّلها قبلة طويلة وهو يمسك أنفاسه. وكانت مارسيل تقول، من فوق رأسه:

ـ يا ملاكي.

سيقضي حياته كلّها منحنيًا فوق هذه اليد العاطرة، وراحت تلامس شعره بحنان.

١١

كانت زهرة كبيرة بنفسجيّة تصعد نحو السماء، وكانت هي الليل. وماتيو يتنزّه في هذا الليل، ويفكِّر: «إنّني شخص هالك». كانت تلك فكرة جديدة كلّ الجدّة، ولا بدّ من تقليبها على وجوهها، ومن شمِّها في احتراس. كان ماتيو يفقدها بين الفينة والفينة، فلا تبقى بعدُ غير الكلمات. ولم تكن الكلمات خاليةً من سحرٍ غامض: «شخص هالك». كان المرء يتخيّل كوارث جميلة: الانتحار، الثورة، ومخارج أخرى متطرِّفة. ولكنّ الفكرة كانت سريعًا ما تعود: لم يكن الأمر كذلك، لم يكن كذلك قطّ، إنّما كانت القضيّة بؤسًا صغيرًا هادئًا ومتواضعًا، ولم تكن قضيّة يأس، بل على العكس، كان ذلك يبعث على الرضى والراحة: لقد كان ماتيو يشعر بأنّه قد سُمح له بكلّ شيء، كما هو الشأن بالنسبة لمريض لا يُرجى شفاؤه. وفكّر: «ليس عليّ بعدُ إلّا أن أدع نفسي أعيش». وقرأ اسم «سومطرا» بأحرف ناريّة، وهُرع إليه الزنجيّ، وهو يلامس قبّعته. وتردّد ماتيو على عتبة الباب: كان يسمع ضجيجًا، وموسيقى تانغو، وكان قلبه ما يزال ممتلئًا بالكسل والليل. ثم حدث ذلك فجأة، كما يحدث في الصباح، حين يلفي المرء نفسه واقفًا من غير أن يدرك كيف نهض: كان قد أزاح الستار الأخضر، وهبط درجات السلّم السبع عشرة، فإذا هو في كهف قرمزيٍّ ضاجّ، ذي لطخات بيضاء قذرة، هي أغطية الموائد؛ وكانت رائحة البشر

منتشرة هناك. . كانت القاعة تغصّ بالبشر، كما هو الحال في قدّاس. وفي جوف الكهف، كان ثمّة رعاةٌ يرتدون القمصان الحريريّة يعزفون الموسيقى فوق منصّة. وكان أمامه أشخاص واقفون في جمود واحترام كأنّهم ينتظرون: كانوا يرقصون، وكانوا كئيبين، تبدو عليهم الشراسة كما لو أنّهم فريسة قدر لا ينتهي. استعرض ماتيو القاعة بنظره المتعب بحثًا عن بوريس وإيفيش.

ـ هل تريد طاولة، يا سيّدي؟

وكان شابّ جميل ينحني أمامه في هيئة سمسار.

قال ماتيو: ـ إنّني أبحث عن شخص.

فعرفه الشابّ، وقال بودّ:

ـ آه! ها أنت يا سيّدي؟ إنّ الآنسة لولا ترتدي ثيابها. أصدقاؤك في الداخل، إلى اليسار، وإنّي مرافقك إليهم.

ـ لا، شكرًا. سأجدهم بنفسي. إنّ روّادكم اليوم كثيرون.

ـ نعم، لا بأس بعددهم. هولانديّون. إنّهم يضجّون كثيرًا. ولكنّهم يستهلكون جيّدًا.

واختفى الشابّ. وكان ينبغي ألّا يفكّر المرء بأن يشقّ لنفسه طريقًا بين الأزواج الذين كانوا يرقصون. انتظر ماتيو: كان يصغي إلى التانغو وإلى جرّ الأقدام، وينظر إلى التقلّبات البطيئة لهذا الاجتماع الصامت. أكتاف عارية، رأس زنجيٍّ، بياض ياقة، نساء رائعات ناضجات، كثير من الرجال المسنّين يرقصون وعليهم مظهر الاعتذار. وكانت ألحان التانغو الحادّة تمرّ فوق رؤوسهم: لم يكن يبدو على الموسيقيّين أنّهم يعزفزن لهم. تساءل ماتيو: «ماذا جئت أفعل هنا؟ وكانت سترته تلمع عند المرفقيْن، ولم يكن لبنطلونه بعدُ أيّة ثنية، ولم يكن يرقص جيّدًا، وكان غير قادر على أن يتسلّى وهو في تلك البطالة الرصينة. أحسّ بالضيق: إنّ المرء لم يكن يستطيع أبدًا

في مونتمارتر بالرّغم من لطافة الخدم أن يشعر بالرضى والراحة، فإنّ قسوة حائرة كانت ترفرف في الهواء.

أُضئيت اللمبات البيضاء من جديد. فتقَدَّم ماتيو إلى الحلبة وسط الظهور الهاربة. وكانت في إحدى الزوايا طاولتان، وإزاء واحدة منها كان رجل وامرأة يتكلّمان بلهجة حادّة، من غير أن ينظر أحدهما إلى الآخر. وإزاء الأخرى رأى بوريس وإيفيش، وكان أحدهما ينحني نحو الآخر باهتمام في قسوة مليئة بالروعة. «لكأنّهما راهبان صغيران». وكانت إيفيش هي التي تتكلّم، وكانت تتحرّك حركات حيّة. ولم يسبق لها قطّ، حتى في لحظات الثقة، أن بدت لماتيو في مثل ذلك الوجه. وفكّر ماتيو: «كم هما شابّان!» وكانت به رغبة في أن يستدير على عقبيه ويذهب. لكنّه اقترب، لأنّه لم يكن يستطيع بعد أن يتحمّل الوحدة، وكان يحسّ أنّه كان ينظر إليهما من ثقب الباب. إنّهما سيلاحظانه عمّا قليل، وسيديران إليه ذينك الوجهين المركّبين اللذين كانا يواجهان بهما أبويهما والشخصيّات الكبيرة، وسيكون ثمّة، حتى في أعماق قلبيهما، شيءٌ ما قد تغيّر. كان شديد القرب من إيفيش في تلك اللحظة، ولكنّها لم تكن تراه. وكانت قد انحنت على أذن بوريس هامسة. وكانت تشبه قليلاً ـ قليلاً جدًّا ـ أختًا كبيرة، تتحدّث إلى بوريس في تنازل مدهوش. وأحسّ ماتيو ببعض العزاء: إنّ إيفيش لم تكن تستسلم كلّيًّا حتى مع أخيها، بل هي تلعب دور الأخت الكبيرة، ولم تكن تنسى نفسها قطّ. وضحك بوريس ضحكة مقتضبة، وقال ببساطة:

ـ مسامير!

وضع ماتيو يده على طاولتهما. «مسامير». وكان حوارهما ينتهي بهذه الكلمة إلى الأبد: فكأنّها كانت آخر عبارة في قصّة أو في مسرحيّة. وكان ماتيو ينظر إلى إيفيش وبوريس: ويجدهما بطليْ رواية. وقال:

ـ مرحبًا.

قال بوريس وهو ينهض: ـ مرحبًا.

وألقى ماتيو نظرة سريعة نحو إيفيش: كانت قد استلقت إلى الوراء، ورأى عينين كئيبتين ممتقعتين. كانت إيفيش الحقيقيّة قد اختفت. وفكّر في غيظ: «ولماذا الحقيقيّة؟».

قالت إيفيش: ـ مرحبًا يا ماتيو.

ولم تبتسم، ولكن لم يكن يبدو عليها كذلك مظهر الدهشة أو الحقد، ولعلّها تجد حضور ماتيو طبيعيًّا جدًّا. أشار بوريس إلى الجمع بحركة سريعة، وقال في رضى:

ـ الحضور كثيرون.

فقال ماتيو: ـ نعم.

ـ هل تريد مكاني؟

ـ لا، لا تكلِّف نفسك، فسوف تعطيه الساعة إلى لولا.

وجلس. وكانت الحلبة خالية. ولم يبق ثمّة أحدٌ على منصّة الموسيقيِّين: فإنّ الرعاة كانوا قد أنجزوا سلسلتهم من رقصات التانغو، وكانت جوقة الجاز الزنجيّة «فرقة هيجينو» توشك أن تحلّ محلّهم. وسأل ماتيو:

ـ ماذا تشربان؟

وكان الناس يطنّون حوله. لم تكن إيفيش قد أساءت استقباله، وكانت تغمره حرارة رطبة. كان يستمتع بالكثافة السعيدة التي يخلِّفها الشعور بأن يكون رجلاً بين الآخرين.

قالت إيفيش: ـ قدح فودكا.

ـ عجبًا! أصبحتِ تحبِّين ذلك؟

فقالت باقتضاب: ـ إنّه قويّ.

فأشار ماتيو إلى زبدٍ أبيض في قدح بوريس، وسأل بدافع من الإنصاف: «وهذا؟» وكان بوريس ينظر إليه في إعجاب جذلٍ مشدوه،

فأحسّ ماتيو لذلك بالضيق. قال بوريس:

ـ إنّه مسلٍّ. هو كوكتيل صاحب الحانة.

ـ لقد طلبته إذن بدافع التأدُّب؟

ـ إنّه يلحّ عليّ منذ ثلاثة أسابيع لأذوقه. وهو، لو تعلم، لا يحسن صنع الكوكتيل. لقد أصبح صاحب حانة لأنّه كان مشعوذًا، وهو يقول إنّها المهنة نفسها، ولكنّه على ضلال.

قال ماتيو: ـ أظنّ أنّ ذلك بسبب الطاسة... ثم إنّ على من يكسر البيض أن يحذق تحريك اليد.

ـ كان خيرًا له إذن أن يبقى مشعوذًا. ومهما يكن من أمر، فإنّي ما كنت آخذ من خليطه القذر لولا أنّه أعارني مئة فرنك هذا المساء.

فقالت إيفيش: ـ ولكن كان معي مئة فرنك.

قال بوريس: ـ وأنا أيضًا، ولكن لأنّه صاحب حانة.

ثم قال موضحًا في دقّة قاسية:

ـ يجب أن يقترض المرء مالاً من أصحاب الحانات.

فنظر ماتيو إلى صاحب الحانة، وكان واقفًا وراء مشربه، مرتديًا اللباس الأبيض مشبك الساعدين، يدخّن سيكارته. وكان ذا مظهر هادئ. قال ماتيو:

ـ وددت لو كنت صاحب حانة... لا بدّ أن يكون ذلك طريفًا...

فقال بوريس: ـ كان ذلك سيكلّفك غاليًا، لأنّك كنت ستحطّم كلّ شيء.

وساد صمت. كان بوريس ينظر إلى ماتيو، وكانت إيفيش تنظر إلى بوريس.

قال ماتيو في نفسه باكتئاب: «إنّ وجودي هنا لا ضرورة له».

ومدّ له الخادم لائحة المشروبات: كان عليه أن يكون حذرًا، فهو لا يملك بعد أكثر من خمسمئة فرنك. قال ماتيو:

ـ ويسكي.

وأخذه فجأةً نفورٌ من التوفير ومن هذه الحزمة القابعة في محفظته، فنادى الخادم:

ـ انتظر. إنّني أفضّل قدح شمبانيا.

وأخذ اللائحة من جديد. وكان سعر «الموم» ٨٠٠ فرنك. قال لإيفيش:

ـ وأنتِ تأخذين منه؟

ـ كلّا (وبعد لحظة تفكير) نعم. هذا أفضل.

ـ أعطنا زجاجة «موم» ذات شريطة حمراء.

قال بوريس: ـ يسرّني أن أشرب الشمبانيا لأنّي لا أحبّه. ويجب أن أعتاد.

فقال ماتيو: ـ إنّكما، كليكما، منفوخان. تشربان دائمًا مشروبات لا تحبّانها.

وانشرح بوريس: كان يلذّه أن يحدّثه ماتيو بهذه اللهجة. وعضّت إيفيش على شفتيها. وفكّر ماتيو في شيء من الارتياح: «لا يستطيع المرء أن يقول لهما شيئًا. فإنّ أحدهما لا بدّ أن يغتاظ». وكانا هناك، تجاهه، متنبّهيْن، قاسييْن. كان كلّ منهما قد صنع لنفسه صورة خاصّة عن ماتيو، وكانا يطلبان منه أن يشبهها. غير أنّ هاتين الصورتين لم تكونا قابلتين للتوفيق.

وصمتوا.

أرخى ماتيو ساقيه وابتسم راضيًا. كانت ألحان بوقٍ تبلغه في دفعات، مُزّةً ومجيدة، ولم يكن يفكّر في أن يلتمس فيها نغمًا: كان حسْبُه أنّها

هناك، وأنّها تحدث ضجيجًا، وكان هذا يخلِّف لديه متعةً ضخمة تكاد تكون جسديّة. طبعًا، كان يدرك جيِّدًا أنّه كان إنسانًا هالكًا، ولكن ذلك، في آخر المطاف، في هذا المرقص، وإزاء هذه الطاولة، ووسط جميع هؤلاء الآخرين الهالكين مثله، إنّ ذلك لم يكن ذا أهمّيّة كبيرة، ولم يكن شاقًّا على الإطلاق. وأدار رأسه: كان صاحب الحانة ما زال يحلم، وكان إلى اليمين رجلٌ ذو نظّارة واحدة، وكان وحده، ذا وجه مدمَّر. وأبعد قليلاً، كان ثمّة رجل آخر وأمامه ثلاث كؤوس ومحفظة سيّدة، لا بدّ أنّ زوجته وصديقه يرقصان، وكان يبدو عليه أنّه أقرب إلى الارتياح والعزاء. وقد تثاءب طويلاً خلف يده، وطرفت عيناه الصغيرتان في نشوة. وكانت في كلّ مكان وجوه باسمة ونظيفة، وعيون مجوّفة. أحسّ ماتيو فجأة أنّه متضامن مع جميع هؤلاء الأشخاص الذين كان خيرًا لهم لو عادوا إلى منازلهم، ولكنّهم لم يكونوا حتى ليقووا على ذلك، فكانوا يلبثون هناك يدخِّنون لفائف دقيقة، ويشربون مزيجًا ذا مذاق من فولاذ، ويبتسمون وآذانهم تقطر موسيقى، ويتأمّلون بعيونهم الفارغة شظايا قَدَرهم، وأحسّ نداءً خفيًّا لسعادة متواضعة جبانة: «لو كنت مثلهم...» وأخذه الخوف فانتفض، والتفت إلى إيفيش. لقد كانت ملاذه الوحيد، بالرّغم ممّا كانت تبدو عليه من حقد وابتعاد. وكانت إيفيش تنظر إلى السائل الشفّاف الذي كان باقيًا في كأسها، وتحوِّل عينيها في قلق. قال بوريس:

ـ يجب أن تُشرب دفعة واحدة.

فقال ماتيو: ـ لا تفعل ذلك، فإنّك سوف تحرق حنجرتك.

قال بوريس في قسوة: ـ إنّ الفودكا تُشرب دفعة واحدة.

وتناولت إيفيش كأسها:

ـ إنِّي أفضّل أن أجرعها دفعة واحدة، فهي بذلك تنتهي سريعًا.

ـ لا، لا تشربي. انتظري الشامبانيا.

فقالت في غيظ: ـ يجب أن ألتهم ذلك.. أريد أن أتسلّى.

وانقلبت إلى خلف وهي تُدني الكأس من شفتيها، وأفرغت كلّ محتواها في فمها، وكانت تبدو وكأنّها تملأ إبريقًا. وظلّت كذلك لحظة لا تجرؤ على الجرع، وفي جوف حلقها تلك البحيرة الناريّة الصغيرة. وكان ماتيو يتألّم من أجلها.

وقال لها بوريس:

ـ إجرعي! تخيّلي أنّه ماء: فليس هناك إلّا هذا.

وانتفخ عنق إيفيش، ووضعت الكأس وعلى وجهها كزازة فظيعة؛ كانت عيناها مملوءَتين بالدمع. وكان من شأن السيّدة السمراء، جارتهم، أن تركت لحظة حلمها الكئيب، وأسقطت عليها نظرة مليئة بالتوبيخ.

وقالت إيفيش: ـ أوه! إنّه يحرق... هذا نار!

قال بوريس: ـ سأشتري لك زجاجة من أجل أن تتدرّبي.

وفكّرت إيفيش لحظة:

ـ خيرٌ لي أن أتدرّب بعصير الفاكهة، فهو أقوى.

وأضافت في شيء من ضيق: ـ أحسب أنّي سأستطيع الآن أن أتسلّى.

فلم يجبها أحد. والتفتت بحيويّة إلى ماتيو: وكانت هذه هي المرّة الأولى التي تنظر إليه:

ـ أنت، هل تقاوم الخمرة جيِّدًا؟

قال بوريس: ـ هو! إنّه فظيع! لقد شرب سبعة أقداح من الويسكي حين كان ذات يوم يحدِّثني عن «كانط». وانتهى الأمر بي إلى أنّي بتّ لا أسمع، فقد ثملت بدلاً منه.

وكان ذلك صحيحًا: إنّ ماتيو لم يكن يستطيع أن يضيِّع نفسه، حتى في مثل هذه الحالة. ففي الوقت كلّه الذي كان يشرب، كان يتعلّق بأيّ

شيء. واستعاد فجأة غوغان، بسحنته الضخمة الممتقعة ذات العينين الفارغتين، وفكّر: «بكرامتي الإنسانيّة». وكان يخشى، إذ هو استسلم لحظة، أن يجد في رأسه فجأة فكرة ذبابة أو صرصور، تائهة عائمة كغيمة من الحرّ. وقال موضحًا في ذلّ:

ـ إنّني أستفظع أن أثمل. إنّني أشرب، ولكنّي أرفض السُّكْر بكلّ قواي.

فقال بوريس بإعجاب: ـ الحقيقة أنّك في هذا عنيد، بل أعند من بغل!

ـ لست عنيدًا، ولكنّني متوتّر: فأنا لا أحسن التراخي والاستسلام. يجب عليّ دائمًا أن أفكّر بما يحدث لي، وهذا سلاح للدفاع.

وأضاف في سخرية، كأنّما يحدّث نفسه:

ـ إنّني قصبة مفكّرة.

كأنّما يُحدِّث نفسه. ولكن ذلك لم يكن صحيحًا، إنّه لم يكن صادقًا: لقد كان يودّ في الحقيقة أن يروق لإيفيش. وفكّر: «أتراني إذن بلغتُ هذا؟» لقد بلغ أن يغتنم فرصة انهيارها، ولم يكن يحتقر أن يستغلّ من ذلك فوائد دقيقة، وكان يستخدمها ليتقدّم من الفتيات الصغيرات بحركات متأدّبة. «دنيء!» ولكنّه توقّف مذعورًا: فحتى حين كان يصف نفسه بالدناءة، لم يكن كذلك صادقًا، إنّه لم يكن مغتاظًا حقًّا. لقد كانت هذه طريقة ليستدرك نفسه، كان يظنّ أنّه ينقذ نفسه من الاحتقار بـ «الصفاء»، ولكن هذا الصفاء لم يكن يكلّفه شيئًا، بل كان بالأحرى يسلّيه. وهذا الحكم نفسه الذي كان يحمله عن صفائه، هذه الطريقة في أن يتسلّق على كتفيه هو بالذات...

«يجب أن أتغيّر حتى العظام». ولكن لم يكن ثمّة من يستطيع أن يعينه على ذلك: فقد كانت أفكاره جميعًا ملوّثة منذ مولدها. وفجأة، انفغر ماتيو كالجرح، رأى نفسه كلّه منتفخًا: أفكار، أفكار على أفكار، أفكار على

أفكار على أفكار، كان شفّافًا حتى اللّانهاية، وفاسدًا حتى اللّانهاية. ثم انطفأ ذلك، فألفى نفسه جالسًا تجاه إيفيش التي كانت تنظر إليه نظرة غريبة. وسألها:

ـ هل درست إذن في المدّة الأخيرة؟

فهزّت إيفيش كتفيها في غضب:

ـ لا أريد أن يحدِّثني أحدٌ في هذا! لقد مللت ذلك، وأنا هنا لأتسلّى.

ـ لقد قضت نهارها متجمّعة على الديوان، وعيناها تشبهان صحنين!

وأضاف بوريس باعتزاز، من غير أن يهتمّ بالنظرة السوداء التي كانت أخته ترميه بها:

ـ إنّها طريفة! يمكن لها أن تموت بردًا في إبان الصيف.

وكانت إيفيش قد ارتعشت ساعات طويلة، ولعلّها بكت. أمّا الآن، فلم يكن شيء ليبدو عليها: كانت قد وضعت مسحوقًا أزرق على جفنيها، وحمرةً فريزيّة على شفتيها، وكان الخمر يلهب وجنتيها، وكلّها نابضة متفجّرة. وقالت:

ـ أودّ لو أقضي أمسيةً عظيمة، لأنّ هذه آخر أمسية لي.

ـ إنّكِ مضحكة.

فقالت بعناد: ـ بلى، سوف أسقط، أعرف ذلك، وسأرحل على الفور، فلن أستطيع أن أبقى يومًا واحدًا في باريس، وإلّا . . .

ـ وإلّا . . .

ـ لا شيء. أرجوك، لا تتحدّث بعد بهذا، فإنّه يذلّني. آه! (وأضافت بمرح) هي ذي الشمبانيا.

ورأى ماتيو الزجاجة ففكّر: «٣٥٠ فرنكًا». إنّ الرجل الذي لحقه بالأمس، في شارع فرسانجيتوري، كان هو أيضًا هالكًا، ولكن بكلّ

تواضع، من غير شمبانيا ولا حماقات جميلة، ثم إنّه فوق ذلك كان جائعًا. واشمأزّ ماتيو من الزجاجة، كانت ثقيلة وسوداء، ولها حول عنقها منديل أبيض. وكان الخادم منحنيًا فوق دلو الثلج بتكلُّف ووقار واحترام، يديره بطرف أصابعه في براعة. وكان ماتيو ما يزال ينظر إلى الزجاجة، وما يزال يفكِّر برجل الأمس، فيحسّ قلبه منقبضًا بضيق حقيقي، ومن قبيل الصدف أنّه كان ثمّة تلك اللحظة، على المنصّة، شابّ رصين يغنّي في بوق. ثم كانت هناك تلك الزجاجة التي كانت تدور بأناقة تحت الأصابع الصفر، وجميع أولئك الأشخاص الذين كانوا يتألّمون في عصيرهم من غير أن يفعلوا مثل هذه المشاكل. وفكّر ماتيو: «إنّ رائحة الخمر الأحمر تنبعث منها، والواقع أنّها تشبهها. ثم إنّني لا أحبّ الشمبانيا» وبدا له المرقص كلّه جحيمًا صغيرًا خفيفًا كفقّاعة صابون، وابتسم.

سأله بوريس، وهو يضحك مقدّمًا: ـ لماذا تتلوّى من الضحك؟

ـ تذكّرت أنّني أنا أيضًا لا أحبّ الشمبانيا.

وأخذ ثلاثتهم يضحكون. كانت ضحكة إيفيش ثاقبة، وقد أدارت جارتها رأسها وحدَّجتها. وقال بوريس: «إنّنا مغتبطون»، ثم أضاف:

ـ بوسعنا أن نفرغها في دلو الثلج حين يذهب الخادم.

فقال ماتيو: ـ كما تشاء.

قالت إيفيش: ـ كلّا. أريد أن أشرب، أنا. وسأشرب الزجاجة كلّها إذا كنتما لا تريدان أن تشربا منها.

وسكب الخادم الخمرة، وحمل ماتيو كأسه إلى شفتيه في ارتباك. كانت إيفيش تنظر إلى كأسها في تبرُّم. وقال بوريس:

ـ لن يكون شيئًا رديئًا إذا كان قد قُدِّم لنا وهو يغلي.

وانطفأت اللمبات البيض، وأضيئت اللمبات الحمر مرّة أخرى، وانبعثت ضربات طبل. قفز إلى المنصّة رجلٌ قصير أصلع مكتنز يرتدي

السموكنغ وأخذ يبتسم في بوق:

ـ سيّداتي وساداتي، يسرّ إدارة «سومطرا» أن تقدّم لكم الآنسة ألينور (وكرّر) الآنسة ألـ ـ لـ ـ ينور ـ ر. ها!

ودخلت إلى القاعة، لدى أوّل نغمات رقصة شعبيّة، فتاة طويلة شقراء. كانت عارية. ويبدو جسمها، في الهواء الأحمر، قطعة قطن كبيرة. التفت ماتيو إلى إيفيش: كانت تنظر إلى الفتاة العارية بعينيها الكبيرتين الصفراوين على سعتهما، وقد اتّخذت مظهرها القاسي الأهوس. همس بوريس:

ـ إنّني أعرفها.

كانت الفتاة ترقص، وقد استخفّتها رغبة مجنونة بأن تروق للجمهور وكانت تبدو غير حاذقة، تقذف بقوّة ساقيها إلى أمام، واحدة بعد الأخرى، فتبرز القدمان في نهاية ساقيها كالأصابع. قال بوريس:

ـ سوف تهدم نفسها، وستندم!

والواقع أنّه كان في أطرافها الطويلة رخاصةٌ مقلقة، وكانت حين تضع رجليها على الأرض، تأخذ ساقيها رعشات تهزّهما من الأخمص إلى العجز. اقتربت من المنصّة والتفتت، ففكّر ماتيو: «والآن ستنشغل بردفيها» وكانت ضجّة الأحاديث تغطّي الموسيقى في موجات. قالت جارة إيفيش وهي تزوي شفتيها:

ـ إنّها لا تحسن الرقص. وحين يكون ثمن المشروب خمسة وثلاثين فرنكًا، فيجب الاعتناء بالبرنامج.

قال الرجل السمين: ـ إنّ عندهم «لولا مونتيرو».

ـ هذا لا يغيّر الحقيقة. إنّه لأمر معيب، فقد لمّوا هذه من الشارع.

شربت جرعة من كأسها الممزوج وأخذت تلعب بخواتمها. وأجال ماتيو نظره في القاعة فلم يلتق إلّا بسحنات قاسية رصينة. وكان الناس

يتلذّذون بغيظهم: إذ بدت الفتاة لهم عارية مرّتين، لأنّها كانت عديمة الحذق. وكأنّها استشعرت عداوتهم، فكانت تأمل في أن تعطّفهم عليها. دُهش ماتيو لإرادتها المصمِّمة المتفانية: فقد كانت تمدّ لهم ساقيها المنفرجتين في موجة من حماسةٍ تمزِّق القلب. قال بوريس:

ما أشدّ ما تنفق نفسها!

فقال ماتيو: ـ إنّها لن تنجح، فالناس يريدون أن يُحترموا.

ـ بل يريدون خاصّة أن يروا إستات.

ـ صحيح، ولكن يجب إحاطة ذلك بإطارٍ من الفنّ.

وفي لحظة انثنت ساقا الراقصة تحت وهن ردفيها الجذلين، فنهضت وهي تبتسم ورفعت ذراعيها في الهواء وهي تهزّهما، فسقطت منهما رعشات انزلقت إلى الراسلين، وجاءت تتلاشى في ثنية الأصلاب.

قال بوريس:

ـ ما أصلب وركيها. إنّ هذا لعجيب!

فلم يجب ماتيو، وكان يفكِّر في إيفيش. ولم يكن يجرؤ على النظر إليها، ولكنّه كان يتذكّر مظهرها القاسي، إنّ هذه الصبيّة الملعونة كانت، في آخر المطاف، كجميع الناس: كانت تلتهم بعينيها، في إحساسٍ من الفظاظة، هذا اللحم المسكين العاري، وهي محميّة بجمالها، بثيابها الرصينة. وصعدت إلى شفتيْ ماتيو موجة من الحقد سمّمت فمه: «لم يكن الأمر يستحقّ ما أخذت نفسي به من تكلّف وحذر، في هذا الصباح». ولوى رأسه قليلاً، فرأى قبضة إيفيش متشنِّجة فوق الطاولة. وكان ظفر الإبهام القرمزيّ الرهيف يتّجه إلى الحلبة كأنّه سهم للإشارة. وفكّر «إنّها متوحِّدة، تخفي وراء شعرها وجهها المضطرب، وتضمّ ساقيها، إنّها تلتذّ!» وكانت هذه فكرة لا يحتملها، وقد أوشك أن ينهض ويمضي، ولكنّه لم يكن يقوى على ذلك، فاكتفى بأن فكّر: «إنّما أحبّها لطهارتها». كانت

الراقصة ويداها على خاصرتيها، تنتقل على عقبيها، فلامست طاولتهم بوركها. وودّ ماتيو لو يشتهي هذه الوسادة الضخمة الجذلة عند أسفل صلب مذعور، ليتلهّى عن أفكاره، وليمثّل مع إيفيش فصلاً جميلاً. كانت الفتاة قد قرفصت، مباعدةً ما بين ساقيها. وراحت تؤرجح ردفيها على مهل من أمام إلى وراء، كأحد هذه المصابيح الصفراء التي تنوس ليلاً في المحطّات الصغيرة وهي معلّقة بذراعٍ غير مرئيّة. قالت إيفيش:

ـ تفهْ! إنّني لا أريد بعدُ أن أراها.

فالتفت إليها ماتيو في دهشة، ورأى وجهًا مثلّثًا متحلّلاً بالغضب والاشمئزاز. وفكّر في عرفان «إنّها لم تتأثّر». كانت إيفيش ترتعش.. وودّ أن يبتسم لها، ولكنّ رأسه امتلأ بالجلاجل، وتسلّل بوريس وإيفيش والجسد الداعر والغيمة الحمراء خارج متناول يده، فإذا هو وحيد، وإذا في البعيد نارٌ من بنغال، وفي الدخان مسخٌ بأربع سيقان يستعرض براعته، وكانت موسيقى حفلة تبلغه في قفزات عبر ضجيج أوراق رطبة. وتساءل: «ماذا دهاني!» كان ذلك كالصباح: فإنّه لم يكن حوله بعد إلّا مشهد، وكان ماتيو في مكان آخر.

كفّت الموسيقى، فجمدت الفتاة مولية وجهها شطر القاعة. وكان لها فوق بسمتها عينان جميلتان يائستان. لم يصفّق أحد، وندّت بعض ضحكات جارحة. قال بوريس:

ـ متوحّشون!

وصفّق بيديه في قوّة، فالتفتت إليه وجوه دهشة. قالت إيفيش غاضبة:

ـ أتريد أن تكفّ؟ إنّك لن تصفّق لها.

فقال بوريس وهو يصفّق:

ـ إنّها تفعل ما تستطيع.

ـ وهذا أولى!

فهزّ بوريس كتفيه وقال: ـ إنّني أعرفها. لقد تعشّيت معها ومع لولا، وهي فتاة طيّبة ولكنّها قاصرة الخيال.

واختفت الفتاة وهي تبتسم وترسل القبلات. غمر القاعة نورٌ أبيض فكانت اليقظة: كان الناس مسرورين أن يتلاقوا فيما بينهم بعد أن أخذت العدالة مجراها، وأشعلت جارة إيفيش سيكارة وبسطت وجهها لنفسها وحدها. ولم يكن ماتيو ليستيقظ، فقد كان غارقًا في كابوسه الأبيض، وكانت الوجوه تتفتّح حوله في اكتفاء ضاحك رخو، ولم يكن يبدو على معظمها أنّها مسكونة. أمّا وجهي فلا بدَّ أنّه كذلك، ولا بدَّ أنّه يملك ملاءمة العينين وزوايا الفم، ومع ذلك، فلا بدَّ أن يُرى أنّه كان أجوف... كان وجه كابوس، ذلك الرجل الذي كان ينطنط على المنصّة ويقوم بحركات يطلب فيها السكوت، وعليه مظهر من يتلذَّذ سلفًا بالدهشة التي سوف يُحدثها، بأن يتصنّع أنّه يُسقط إسقاطًا في البوق، من غير تعليق، وبكلّ بساطة، الاسم الشهير:

ـ لولا مونتيرو!

واهتزّت القاعة مشاركة وحماسة، وانفجر التصفيق وبدا بوريس مفتونًا.

ـ إنّهم منشرحون تمامًا، وسوف يمشي الحال.

كانت لولا قد التصقت بالباب، ووجهها المسطّح الخرب يشبه من بعيد فم أسد، وكان كتفاها في بياضهما الراعش ذي الإشعاعات الخضراء تشبهان ظلال شجرة في مساء عاصف تحت أضواء سيّارة. تمتمت إيفيش:

ـ ما أجملها!

واقتربت بخطى واسعة هادئة، في يأس مليء بالارتياح، وكانت لها يدا سلطانة صغيرتان ومحاسنها المثقلة، ولكنّها كانت تضفي على مشيتها سخاء رجل.

قال بوريس في إعجاب:

ـ إنّها تنثر حولها الرضى، فهم لن يحاولوا أن يجعلوها تتعثّر.

وكان هذا صحيحًا: فإنّ جلوس الصفّ الأوّل كانوا قد تقهقروا على كراسيهم مستشعرين الرهبة، يكادون لا يجرؤون على النظر عن كثب إلى هذا الوجه المجيد. وجه خطيب كبير شعبي، عليه ظلّ من الأهمّيّة السياسيّة: كان الفم يدرك عمله، وقد ألف التثاؤب العريض، وكانت الشفتان بارزتين لتقيئا الفظاعة والاشمئزاز ولتنقلا الصوت إلى بعيد. تجمّدت لولا فجأة، فتنهّدت جارة إيفيش عجبًا وإعجابًا، وفكّر ماتيو «لقد استولت عليهم».

واستشعر الضيق: لقد كانت لولا في صميم ذاتها شامخة ومهووسة، غير أنّ وجهها كان يكذب فيمثّل الشموخ والهوس. وكانت تتألّم، لأنّ بوريس كان يوئسها، غير أنّها كانت تغتنم دورها في الغناء، خمس دقائق في اليوم، لتتألّم في فنّ! «حسنًا! وأنا؟ ألست أتألّم في فنّ وأمثّل دور الشخص الهالك بمرافقة الموسيقى؟ (وفكّر) ومع ذلك، فأنا حقًّا شخص هالك». وكان الوضع حوله شبيهًا: ثمّة أشخاص غير موجودين على الإطلاق. أبخرة! ثم هناك أشخاص موجودون أكثر ممّا ينبغي. كصاحب الحانة مثلاً. لقد كان الساعةَ يدخّن سيكارة يبدو غاضبًا، شاعريًا كأنّه شجرة لبلاب، أمّا الآن فقد استيقظ، فإذا هو صاحب حانة أكثر ممّا ينبغي، كان يهزُّ الدلو ويفتح الزجاجة ويدلق منها زبدًا أصفر في كؤوس بحركات ذات دقّة مبالغ فيها: كان يمثّل دور صاحب الحانة. وفكّر ماتيو في برونيه. «لعلّ المرء لا يستطيع أن يفعل غير ذلك، ولعلّ عليه أن يختار: إمّا أن لا يكون شيئًا أو أن يمثّل ما هو. (وقال في نفسه) سيكون هذا مريعًا، لأنّ المرء سيكون مزوّرًا بطبيعته».

وأجالت لولا نظرها في القاعة، على غير ما عجل. وكان قناعها المتألّم قد قسا وتجمّد، فكان يبدو منسيًّا على وجهها. ولكنّ ماتيو حسب

أنّه يفاجئ في جوف عينيها، ووحدهما كانتا حيّيتين، شعلةً من فضول مرّ ومهدِّد لم يكن فيه تمثيل. ورأت أخيرًا بوريس وإيفيش، فبدت مطمئنَّة. ابتسمت لهما بسمة كبيرة مليئة بالطيبة، ثم أعلنت بلهجة ضائعة:

ـ أغنية بحار: جوني بالمر.

وقالت إيفيش: ـ أحبُّ صوتها، لكأنّه قطعة مخمل كبيرة مضلّعة.

ـ نعم.

وفكّر ماتيو: «جوني بالمر أيضًا!»

وبدأت الموسيقى، ورفعت لولا ذراعيها الثقيلتين. هكذا إذن، إنّها تصلّب، ورأى فمًا داميًا ينفتح:

من هو قاسٍ، حسود، مرير؟

ومن يغشّ في اللعب، حين يخسر؟

ولم يعد ماتيو يصغي، كان خَجِلاً أمام هذه الصورة للألم، كان يدرك جيِّدًا أنّها لم تكن إلّا صورة، ولكن مع ذلك...

«لست أعرف أن أتألّم، إنّني لا أتألّم أبدًا بما فيه الكفاية». كان أشقّ ما في العذاب، أنّه كان شبحًا، وأنّ المرء يقضي وقته في الجري خلفه، ويحسب دائمًا أنّه سيدركه ويرتمي في داخله ويتعذّب حقًّا وهو يكزُّ على أسنانه، ولكنّه ما إن يسقط فيه حتى يفرَّ، فلا يجد المرء بعد إلّا نثارًا من كلام وألوفًا من المحاكمات العقليّة المجنونة تضجّ بدقّة «إنّ ذلك يثرثر في رأسي، ولا يني يثرثر، وإنِّي أعطي أيّ ثمن لأستطيع أن أصمت». ونظر إلى بوريس في غيرة، لا بدَّ أنّ وراء هذا الجبين المصدوم ألوانًا عظيمة من الصمت.

من هو قاسٍ، حسود، مرير؟

إنّه جوني بالمر!

«إنّني أكذب!» كان انهياره وانتحابه أكاذيب وفراغًا، كان قد قذف

نفسه في الفراغ، على سطح نفسه، ليفلت من ضغط عالمه الحقيقي، هذا الضغط الذي لا يُحتمل. عالم أسود شديد الحرارة يُنتن الأثير. في ذلك العالم، لم يكن ماتيو شخصًا هالكًا ـ على الإطلاق، بل كان أسوأ من ذلك: كان جذلاً ـ جذلاً ومجرمًا، وكانت مارسيل هي التي ستكون هالكة إذا لم يجد خمسة آلاف فرنك قبل اليوم التالي. ستكون هالكة حقًّا. من غير غنائيّة، لأنّ ذلك يعني أنّها ستبيض الطفل أو أنّها ستموت بين يديْ امرأة عقاقيريّة. في ذلك العالم، لم يكن العذاب حالة نفسيّة، ولم تكن ثمّة حاجة إلى الكلمات للتعبير عنه: وإنّما كان مظهرًا للأشياء. «تزوّجها أيّها البوهيمي المزيّف، تزوّجها يا عزيزي، لماذا لا تتزوّجها؟». وفكّر ماتيو في اشمئزاز: «أراهن أنّها ستموت من ذلك». وصفّق الجميع وتنازلت لولا، فابتسمت، وانحنت وقالت:

ـ أغنية من أوبرا «الفلوس الأربعة»: خطيبة القرصان.

«لا أحبّها حين تغنّي هذا. لقد كانت مارغوليون أبرع منها. أشدّ غموضًا. أمّا لولا فهي عقلانيّة، وهي بلا غموض. ثم إنّها طيّبة أكثر ممّا ينبغي. إنّها تكرهني، ولكن كراهية كبيرة صريحة، وهذا أمر سليم، كراهية إنسان شريف». وكان يستمع بشرود إلى هذه الأفكار الخفيفة التي كانت تركض كالفئران في مستودع حبوب. وكان تحت نعاس ثقيل حزين، عالم ينتظر في صمت: لا بدّ أن يسقط فيه ماتيو عاجلاً أم آجلاً. وتمثّل مارسيل، تمثّل فمها القاسي وعينيها الشاردتين: «تزوّجها أيّها البوهيمي المزيّف، تزوّجها، لقد بلغت سنّ الرشد، يجب أن تتزوّجها».

سفينة حربية

ذات ثلاثين مدفعًا في الكوى

ستدخل المرفأ

«كفى، كفى! سأجد المال، لا بدَّ أن أجده وإلّا تزوّجتها، هذا مفهوم، فلست دنيئًا جبانًا، ولكن هذا المساء، هذا المساء فقط، دعوني

من هذا كلّه، أريد أن أنسى، إنّ مارسيل لا تنسى، إنّها في الغرفة، متمدّدة فوق السرير، إنّها تتذكّر كلّ شيء، وهي «تراني» وتصغي إلى ضجّات جسمها، وبعد ذلك؟ سيكون لها اسمي، وحياتي كلّها عند اللزوم، ولكن هذه الليلة لي». التفت إلى إيفيش، وارتمى نحوها، فابتسمت له، ولكنّه صدم أنفه بجدار زجاجي بينما كان الناس يصفّقون ويطلبون «أغنية أخرى، أغنية أخرى». فلم تبال لولا بهذه الابتهالات: فقد كان لها دور غنائي آخر، عند الساعة الثانية صباحًا، وكانت ترفق بنفسها. حيّت الجمهور مرّتين، واقتربت من إيفيش، فالتفتت رؤوس إلى طاولة ماتيو، ونهض ماتيو وبوريس:

ـ مرحبًا يا صغيرتي إيفيش، كيف الحال؟

وقالت إيفيش بلهجة رخوة: ـ مرحبًا لولا.

ولامست لولا ذقن بوريس بيد خفيفة:

ـ مرحبًا أيّها اللئيم.

كان صوتها الهادئ الرصين يضفي على كلمة «لئيم» لونًا من الجدارة، وكان يبدو أنّ لولا تقصّدت اختيارها من الكلمات الرديئة المؤثّرة التي تطفح بها أغانيها. وقال ماتيو:

ـ تحيّة يا سيّدتي.

فقالت: ـ آه! أنت هنا أيضًا؟

وجلسوا. التفتت لولا إلى بوريس، وكان يبدو أنّها مرتاحة كلّ الارتياح.

ـ يظهر أنّهم طاردوا إلينور؟

ـ إنّهم يتحدّثون عنها.

ـ لقد جاءت تبكي في غرفتي. وكان سارونيان غاضبًا، فهذه هي المرّة الثالثة منذ ثمانية أيّام.

وسأل بوريس في قلق ـ إنّه لن يسرِّحها؟

ـ كان راغبًا في ذلك: فليس بينهما تعاقد. فقلت له: إذا ذهبتْ، ذهبتُ معها.

ـ وماذا قال:

ـ إنّ بوسعها أن تبقى أسبوعًا آخر.

وأجالت نظرها في القاعة وقالت بصوت مرتفع:

ـ إنّ الجمهور قذر، هذا المساء.

قال بوريس: ـ عجبًا: ليس هذا رأيي!

وكانت جارة إيفيش التي كانت تلتهم لولا بعينيها في وقاحة قد ارتعشت. وأخذت ماتيو رغبة في الضحك، وكان يجد لولا قريبة جدًّا إلى القلب. قالت لولا:

ـ ذلك أنّك غير معتاد. حين دخلت رأيت فورًا أنّهم ارتكبوا عملاً رديئًا، فقد كان مظهرهم سيِّئًا. (وأضافت): هل تعلم؟ إذا فقدت الفتاة مكانها، لم يبق لها إلّا أن تكون فتاة رصيف.

ورفعت إيفيش رأسها فجأة، وكان الشرود باديًا عليها، فقالت في عنف:

ـ لا يهمّني أن تكون فتاة رصيف، إنّ ذلك يناسبها أكثر من الرقص.

وكانت تجهد في أن يظلّ رأسها مستقيمًا وعيناها الورديّتان الحائلتان مفتوحتين. لقد فقدت شيئًا من اطمئنانها، فأضافت في لهجة مصالحة عاجلة:

ـ طبعًا، إنّني أدرك أنّ عليها أن تكسب قوتها.

فلم يجب أحد: فتألّم ماتيو من أجلها: لقد كان شاقًّا عليها أن تُبقي رأسها مستقيمًا. وكانت لولا تنظر إليها في سكينة، كما لو أنّها كانت تفكِّر: «طفلة ثريّ». وضحكت إيفيش ضحكة صغيرة، وقالت بلهجة خبيثة:

ـ لست بحاجة إلى الرقص.

وانكسرت ضحكتها وهوى رأسها. قال بوريس في هدوء.

ـ ما أشدّ ما تقاوم!

وكانت لولا تتأمّل في رأس إيفيش في فضول. وبعد لحظة، مدّت يدها الصغيرة السمينة، فتناولت شعر إيفيش في قبضتها ورفعت لها رأسها، وكان يبدو عليها مظهر الممرِّضة:

ـ ماذا دهاكِ يا صغيرتي؟ هل أفرطت في الشرب؟

وكانت تزيح خصلات إيفيش الشقراء، كأنّها تزيح ستارًا، كاشفة عن خدّين ممتقعين بارزين. وفتحت إيفيش عينين محتضرتين، وتركت رأسها يهوي إلى خلف. وفكّر ماتيو من غير انفعال: «سوف تقيء». وكانت لولا تشدّ شعر إيفيش شدّات صغيرة.

ـ افتحي عينيك، افتحي عينيك! هل تريدين أن تنظري إليَّ؟ فانفتحت عينا إيفيش على سعتهما، وكانتا تلتمعان بالكراهية، وقالت بصوت واضح مثلّج:

ـ حسنًا! هأنذا أنظر إليك!

قالت لولا: ـ عجبًا! لست ثملة إلى الحدّ الذي ظننت!

وتركت شعر إيفيش. فرفعت إيفيش يديها بحيويّة وردّت خصلاتها على خدّيها، وكانت تبدو وكأنّها تسوِّي قناعًا، والواقع أنّ وجهها المثلّث عاد فظهر تحت أصابعها، ولكن بقي حول فمها وفي عينيها شيء ما لزج ومنهوك. ظلّت لحظة بلا حراك، تشبه السائر في النوم، بينما كانت الجوقة تعزف رقصة «سالز». وسألت لولا:

ـ هل تدعوني للرقص؟

فنهض بوريس وأخذا يرقصان. وتابعهما ماتيو بنظره، غير راغب في الكلام. قالت إيفيش بلهجة غامضة:

ـ إنّ هذه المرأة توبّخني.

ـ لولا؟

ـ كلّا. جارتي. إنّها توبّخني.

فلم يجب ماتيو. وتابعت إيفيش:

ـ كنت أودّ كثيرًا أن أتسلّى هذا المساء... وهكذا! إنّني أكره الشمبانيا.

«لا بدَّ أنّها تكرهني أيضًا، لأنّي أنا الذي حملتها على شربها». وأدهشه أن يراها تتناول الزجاجة من الدلو وتملأ قدحها، فسألها:

ـ ماذا تفعلين؟

ـ أعتقد أنّني لم أشرب قدرًا كافيًا منها. هناك درجة يجب بلوغها وبعدها يكون المرء في حالة جيِّدة.

ففكّر ماتيو بأنّه كان عليه أن يمنعها من الشراب، ولكنّه لم يفعل شيئًا. حملت إيفيش القدح إلى شفتيها، فارتسمت على وجهها كزازة اشمئزاز وقالت وهي تضع القدح:

ـ كم هو رديء!

ومرّ بوريس ولولا قرب طاولتهما، وكانا يضحكان. صاحت لولا:

ـ كيف الحال، أيّتها الفتاة الصغيرة؟

فقالت إيفيش ببسمة ودِّيّة: على خير ما يرام الآن.

وأخذت قدح الشمبانيا وأفرغته دفعة واحدة من غير أن تغادر لولا بعينيها. فبادلتها لولا بسمتها، وابتعد الراقصان. وكان يبدو على إيفيش أنّها مفتونة، فقالت بصوت لا يكاد يُسمع:

ـ إنّها تشدّه إليها، وهذا... هذا مضحك. فهي تشبه الغولة.

وقال ماتيو في نفسه: «إنّها تغار، ولكن من أيّهما؟».

كانت نصف سكرى، وكانت تبتسم بسمة مهووسة وهي منشغلة ببوريس وبلولا. كانت تهتمّ به كما تهتمّ بشجرة كرز، وكان فقط وسيلة تمكِّنها من أن تتكلّم بصوت مرتفع: فابتسامتها ومظاهرها وجميع الكلمات التي تقولها، إنّما كانت توجِّهها لنفسها عبره هو. وفكّر ماتيو: «لا بدّ أنّ ذلك أمرٌ لا أحتمله، وهو يدعني باردًا تمامًا».

وقالت إيفيش فجأة:

ـ لنرقص.

فانتفض ماتيو:

ـ ولكنّك لا تحبِّين أن ترقصي معي.

قالت إيفيش: ـ لا بأس، إنّني سكرى.

ونهضت وهي تترنّح، وكادت تسقط ولكنّها أمسكت بطرف الطاولة. أخذها ماتيو بين ذراعيه وحملها، فدخلا في حمّام بخاري، فانطبق الجمع عليهما، مظلمًا معطّرًا. وذات لحظة ابتُلع ماتيو، ولكنّه سرعان ما وجد نفسه، وكان يسير خلف زنجيّ، وكان وحيدًا، إذ كانت إيفيش قد طارت منذ الخطوات الأولى فهو لا يحسّ بها بعد.

ـ كم أنتِ خفيفة!

وأخفض عينيه، فرأى أقدامًا وفكّر: «هناك كثيرون لا يرقصون خيرًا منِّي» وكان يمسك بإيفيش بعيدة عنه، في طرف ذراعه تقريبًا، ولم يكن ينظر إليها. قالت:

ـ أنت ترقص بدقّة. ولكنّ الظاهر أنّ ذلك لا يروق لك.

قال ماتيو: ـ إنّه يخيفني.

وابتسم: ـ أنتِ مدهشة. كنتِ منذ لحظة لا تزالين تستطيعين السير. وها أنتِ ترقصين الآن كأنّك محترفة.

فقالت إيفيش: ـ أستطيع أن أرقص وأنا سكرى ميِّتة، وأستطيع أن

أرقص طول الليل، فهذا لا يُتعبني.

ـ حبّذا لو كنت كذلك.

ـ إنّك لن تستطيع.

ـ أعرف ذلك.

وكانت إيفيش تنظر حولها في عصبيّة، وقالت:

ـ إنّني لا أرى بعدُ الغولة.

ـ لولا؟ هي إلى اليسار خلفك.

قالت: ـ لنذهب نحوهما.

وصدما زوجًا من الراقصين هزيلاً، فاعتذر منهما الرجل وقذفتهما المرأة بنظرة سوداء، وكانت إيفيش، ورأسها مستدير إلى الخلف، تسحب ماتيو القهقرى. ولم يرهما بوريس ولا لولا قادمين؛ كانت لولا تغمض عينيها، وكان جفناها يشكّلان لطختين زرقاوين في وجهها القاسي، وكان بوريس يبتسم وهو ضائع في عزلة ملائكيّة.

سألها ماتيو: ـ والآن؟

ـ لنبقَ هنا، فالمكان أرحب.

وكانت إيفيش قد أصبحت ثقيلة تقريبًا، وكانت لا تكاد ترقص وعيناها مسمّرتان على أخيها وعلى لولا. ولم يكن ماتيو يرى بعد إلّا طرف أذن بين خصلتين. اقترب بوريس ولولا وهما يستديران على نفسيهما، وحين أصبحا قريبين جدًّا، قرصت إيفيش أخاها فوق مرفقه:

ـ مرحبًا يا «بوسيه» الصغير.

فحملق بوريس بعينيه في دهشة، وقال:

ـ إيه! لا تهربي يا إيفيش! لماذا تسمّينني هكذا؟

فلم تجب إيفيش، بل حملت ماتيو على الانفتال وأولت بوريس

ظهرها. كانت لولا قد فتحت عينيها، فسألها بوريس:

ـ أتفهمين لماذا تسمّينني «بوسيه» الصغير؟

قالت لولا: ـ أظنّ أنِّي أفهم السبب.

وقال بوريس بضع كلمات أخرى، ولكن ضجّة التصفيق غطّت صوته، وكان الجاز قد صمت، والزنوج يستعجلون الذهاب ليفسحوا المجال للجوقة الأرجنتينيّة.

وعادت إيفيش وماتيو إلى طاولتهما. قالت إيفيش:

ـ إنّني أتسلّى بصورة جنونيّة.

وكانت لولا قد جلست، فقالت لإيفيش:

ـ إنّك ترقصين ببراعة كبيرة.

فلم تجب إيفيش، وكانت تحدِّد في لولا نظرًا ثقيلاً. وقال بوريس لماتيو:

ـ لقد كنتَ ظريفًا، وكنت أحسب أنّك لم تكن ترقص أبدًا.

ـ إنّ أختك هي التي أرادت.

فقال بوريس:

ـ إنّ من كان قويًّا مثلك ينبغي أن يقوم بالرقص البهلواني.

وساد صمت ثقيل. كانت إيفيش صامتة، متوحِّدة متطلِّبة، ولم تكن لأحد رغبة في الكلام. وكانت سماء محلِّيَّة صغيرة قد تكوّنت فوق رؤوسهم، مستديرة جافّة، خانقة. أُضيئت اللمبات من جديد. وعند أنغام التانغو الأولى، انحنت إيفيش نحو لولا وقالت بصوت أبحّ:

ـ تعالي.

فقالت لولا: ـ لا أعرف أن أقود.

قالت إيفيش: ـ أنا التي أقود.

وأضافت بلهجة رديئة وهي تكشف عن أسنانها:

ـ لا تخافي، فإنّي أقود كالرجل.

ونهضتا، فضمّت إيفيش إليها لولا في وحشيّة ودفعتها نحو الحلبة. قال بوريس وهو يحشو غليونه:

ـ إنّهما ظريفتان.

ـ نعم.

وكانت لولا، بشكل خاصّ ظريفة: فقد كانت تبدو عليها هيئة فتاة صبيّة. قال بوريس:

ـ أنظر.

وأخرج من جيبه سكّينًا ضخمًا ذا مقبض عاجيّ ووضعه على الطاولة. وقال موضحًا:

ـ إنّه سكّين باسكيّ.

وأخذ ماتيو السكّين في أدب وحاول أن يفتحه، فقال له بوريس:

ـ لا يُفتح بهذه الطريقة أيّها الشقي! إنّك توشك أن تذبح نفسك! واستردَّ السكّين ففتحه ووضعه بالقرب من قدحه، وقال:

ـ إنّه سكّين قائد. هل ترى هذه اللطخات السمراء؟ لقد أقسم لي الشخص الذي باعني إيّاه أنّ هذا دم.

وصمتا. وكان ماتيو ينظر من بعيد إلى رأس لولا المأساوي الذي كان ينزلق فوق بحر مظلم. «لم أكن أدري أنّها كانت طويلة إلى هذا الحدّ». وصرف عينيه، فقرأ على وجه بوريس سرورًا ساذجًا انفطر له قلبه. وفكّر في ندم: «إنّه مسرور لأنّه معي، وأنا لا أجد قطّ شيئًا أقوله له». وقال بوريس:

ـ أنظر إلى هذه المرأة التي وصلت، إلى اليمين، عند الطاولة الثالثة.

ـ الشقراء ذات المجوهرات؟

ـ نعم، إنّها مجوهرات مزيّفة. هيّا. إنّها تنظر إلينا.

فأراق ماتيو نظرة خفيّة نحو فتاة طويلة وجميلة ذات مظهر بارد.

ـ كيف تجدها؟

ـ بين بين.

ـ كان لي معها اتّصال يوم الثلاثاء الماضي، وكانت محشوّة، وكانت تريد طوال الوقت أن تدعوني للرقص. وبالإضافة إلى ذلك، أهدت إليّ علبة سكائرها الفضّيّة. وقد جُنَّ جنون لولا. فأعادتها لها مع الخادم.

وأضاف باقتضاب:

ـ كانت من فضّة، ومطعّمة بأحجار كريمة.

قال ماتيو: ـ إنّها تأكلك بعينيها.

ـ أفهم ذلك.

ـ وماذا ستفعل بها؟

فقال باحتقار: ـ لا شيء. إنّها خليلة أحدهم.

فسأله ماتيو عجبًا: ـ يعني؟ ها أنت ذا فجأة متطهّر!

فقال بوريس ضاحكًا: ـ ليس الأمر كذلك. ولكنّ البغايا والراقصات والمغنّيات متشابهات في آخر المطاف. فإذا ملكت إحداهنّ ملكتهنّ جميعًا. (ووضع غليونه وقال بجدّ) ثم إنّني إنسان طاهر، ولست مثلك.

قال ماتيو: ـ هكذا إذن!

فقال بوريس: ـ سترى، سترى.. فسوف أدهشك. سأعيش كالرهبان حين تنتهي علاقتي بلولا.

وكان يفرك بيديه بهيئة اغتباط. قال ماتيو:

ـ لن تنتهي بمثل هذه السرعة.

ـ في أوّل تمّوز. بِمَ تراهن؟

ـ بلا شيء. إنّك تراهن كلّ شهر بأنّك ستقطع علاقتك في الشهر القادم، ثم تخسر في كلّ مرّة. أنت مدين لي قبل الآن بمئة فرنك، وبزوج من نظّارات السباق، وبخمس علب سكاير وبالسفينة التي رأيناها في شارع السين وهي داخل زجاجة. إنّك لم تفكّر قطّ في القطيعة، لأنّك أحرص على لولا ممّا ينبغي.

قال بوريس: ـ أنت تؤذيني في صميم قلبي.

فأضاف ماتيو من غير أن يضطرب: ـ غير أنّ ذلك أقوى منك. إنّك لا تستطيع أن تشعر أنّك مُلتزم. إنّ هذا يثير جنونك.

قال بوريس بلهجة غضب مرح: ـ آن لك أن تصمت. وبوسعك أن تتأكّد من أنّك لن تحصل على سكايرك وعلى سفينتك!

ـ أعلم ذلك، فأنت لا تسدِّد قطّ ديونك الشرفيّة: إنّك شقيٌّ صغير.

فأجاب بوريس: ـ وأنت... أنت إنسان دون المتوسِّط.

وأشرق وجهه: ـ ألا ترى أنّها إهانة فظيعة أن تقذف إنسانًا بقولك: يا سيِّدي، أنت شخص دون المتوسِّط.

قال ماتيو: ـ لا بأس.

ـ أو أن تقول له، وهذا أفضل: ـ أنت يا سيِّدي إمّعة!

فقال ماتيو: ـ كلّا، ليس هذا، فإنّك تُضعف به مركزك.

فأقرّه بوريس على فكرته وقال: ـ أنت على حقّ. إنّك كريه، لأنّك دائمًا على حقّ.

وأشعل غليونه مرّة أخرى بعناية، وقال بلهجة مختلطة ملتبسة:

ـ سأصارحك برأيي: أودّ أن تكون لي امرأة من النساء المشهورات.

قال ماتيو: ـ عجبًا، ولماذا؟

ـ لست أدري. أعتقد أنّ ذلك لا بدّ أن يكون طريفًا، وأنّهنّ لا بدّ أن تكون لهنّ تصرّفات كثيرة. ثم إنّ ذلك مثير للغرور، فمنهنّ من تُذكر أسماؤهنّ في مجلّة «فوغ» وأنت تدرك معنى ذلك. تشتري «فوغ» وتنظر إلى الصور فترى الكونتيس مدام دورو كامادور مع كلابها الستّة ثم تفكّر: لقد ضاجعت هذه المرأة مساء أمس. لا شكّ أنّ ذلك يروعك.

قال ماتيو: ـ أتلاحظ أنّها تبتسم لك الآن؟

ـ نعم. إنّها ثملة. وإنّها لو تدري خبيثة، فهي تريد أن توقع بيني وبين لولا لأنّها لا تطيقها. (وقال مصمّمًا): أريد أن أوليها ظهري.

ـ ومن هو الشخص الذي يجالسها؟

ـ زميل. إنّه يرقص في «الألكازار». هو جميل، أليس كذلك؟ أنظر إلى سحنته. إنّه في حدود الخامسة والثلاثين، وهو يشبه شخصيّة «شاروبين»[1].

قال ماتيو: ـ وماذا في ذلك؟ ستصبح أنت هكذا حين تبلغ الخامسة والثلاثين.

فقال بوريس باقتضاب: ـ سأكون قد متّ منذ وقت طويل حين أبلغ الخامسة والثلاثين.

ـ يروقك أن تقول ذلك.

قال بوريس: ـ إنّني مسلول.

ـ أعرف ذلك (كان بوريس ذات يوم قد جرح لثّتيه وهو ينظّف أسنانه فبصق دمًّا) أعرف ذلك. وبعد؟

قال بوريس: ـ سيّان لديّ أن أكون مسلولاً. كلّ ما في الأمر أنّي

---

(١) بطل من أبطال «زواج الفيغارو» لبومارشيه، نموذج المراهق الذي يتفتّح للحبّ. (المترجم).

أشمئزّ من العناية بنفسي. وأرى أنّ على الإنسان ألّا يتجاوز الثلاثين، لأنّه يصبح بعد ذلك طِرحًا عجوزًا.

ونظر إلى ماتيو وأضاف:

ـ أنا لا أعنيك في هذا القول.

قال ماتيو: ـ لا. ولكنّك على حقّ، إنّ المرء بعد الثلاثين طِرح عجوز.

ـ أودّ لو أُعطى عامين إضافيين، ثم أبقى طوال حياتي في تلك السنّ. سيكون ذلك ممتعًا.

فنظر إليه ماتيو في ودّ مدهوش. لقد كان الشباب بالنسبة لبوريس مزيَّةً قابلة للاستهلاك ومجّانيّة. وينبغي أن يُفاد منها بوقاحة، وكان في الوقت نفسه فضيلة أخلاقيّة ينبغي للمرء أن يبدو جديرًا بها. بل كان أكثر من ذلك، كان الشباب في نظره تبريرًا. وفكّر ماتيو «لا بأس، إنّه يعرف أن يكون شابًّا». ربّما كان وحده، بين جميع هؤلاء الناس، موجودًا هنا حقًّا، في هذا المرقص، على كرسيّه. «ليس الأمر سخيفًا إلى هذا الحدّ: أن يعيش المرء شبابه بعمق ثم ينفجر في الثلاثين. مهما يكن من أمر، فإنّ المرء بعد الثلاثين ميِّت».

قال بوريس: ـ يبدو عليك أنّك متضايق جدًّا.

فانتفض ماتيو.

لقد كان بوريس محمرًّا من فرط الاضطراب، ولكن كان ينظر إلى ماتيو في رغبة بالمساعدة قلقة. وسأله ماتيو:

ـ هل يُرى ذلك عليّ؟

ـ وكيف! إنّه يُرى جدًّا.

ـ إنّني في ضيق مادِّي.

فقال بوريس بقسوة: إنّك تسيء الدفاع عن نفسك. لو كنت أتقاضى

مثل راتبك لما احتجت إلى الاستدانة. هل تريد المئة الفرنك التي استدنتها من صاحب الحانة؟

ـ شكرًا. إنِّي بحاجة إلى خمسة آلاف فرنك.

فصفّر بوريس صفرة مسموعة، وقال:

ـ أوه، معذرة! هل سيقدِّمها لك صديقك دانيال؟

ـ إنّه لا يستطيع.

ـ وأخوك.

ـ لا يريد.

فقال بوريس حزينًا: ـ أوه! طزّ... (وأضاف بارتباك) إذا كنت تريد...

ـ إذا كنت أريد ماذا؟

ـ لا شيء. كنت أفكِّر: شيء مزعج. إنّ لولا تملك محفظة محشوّة، وهي لا تفعل بها شيئًا.

ـ لا أريد أن أستدين من لولا.

ـ ولكنّني ما دمت أقسم لك بأَنّها لا تفعل بها شيئًا. لو كان الأمر متعلِّقًا بحسابها في المصرف، لما قلت ذلك: إنّها تشتري أسهمًا، وتضارب في البورصة، فلنقل إنّها بحاجة إلى مالها. ولكنّها تحتفظ في بيتها بسبعة آلاف فرنك منذ أربعة أشهر، وهي لم تمسّ منها فلسًا، بل هي لم تجد الوقت لإيداعها في البنك. أكرِّر لك أنّها قابعة في جوف محفظة.

فقال ماتيو منزعجًا:

ـ إنّك لا تفهم. لا أريد أن أستدين من لولا لأنّها لا تطيقني.

فأخذ بوريس يضحك، وقال:

ـ هذا صحيح. إنّها لا تطيقك.

ـ أترى إذن.

قال بوريس: ـ غير أنّ ذلك مزعج. إنّك متضايق جدًّا كقملة بسبب خمسة آلاف فرنك، حتى إذا كانت في متناول يدك عدلت عن أخذها. وإذا طلبتها لحسابي أنا؟

قال ماتيو بحيويّة: ـ كلّا، كلّا، لا تفعل شيئًا، فلا بدّ أن تعرف الحقيقة يومًا. (وأضاف بإلحاح) أتعدني حقًّا؟ سوف يزعجني أن تطلب منها.

فلم يجب بوريس. وكان قد تناول سكّينه بين أصبعيه ورفعه على مهل إلى مستوى جبينه، موجّهًا رأسه إلى أسفل. واستشعر ماتيو الضيق وفكّر: «إنّني دنيء. إنّه لا يحقّ لي أن أتلبّس صورة الرجل الشريف على حساب مارسيل». والتفت إلى بوريس، وكان يريد أن يقول له: «هيّا، اطلب المال من لولا». ولكنّه لم يستطع أن ينتزع كلمة واحدة ونفر الدمّ إلى خدّيه. وباعد بوريس أصابعه فسقط السكّين، وانغرزت الشفرة في الأرض الخشبيّة وأخذ مقبضها يهتزّ.

وعادت إيفيش ولولا إلى مكانهما. ولمّ بوريس السكّين ووضعها على الطاولة ثانية.

سألت لولا: ـ ما هذا الشيء الفظيع؟

قال بوريس: ـ إنّه سكّين قائد. وقد جلبته لأجعلك تمشين في استقامة.

ـ إنّك مسخٌ صغير.

وكانت الجوقة قد بدأت تانغو آخر. نظر بوريس إلى لولا نظرة غامضة، وقال بين أسنانه:

ـ تعالي نرقص.

قالت لولا: ـ ستميتونني جميعًا.

وكان وجهها قد أشرق، وأضافت ببسمة سعيدة:

ـ إنّك لطيف.

ونهض بوريس، وفكّر ماتيو: «سيطلب منها المال مع ذلك» وكان مسحوقًا بالخجل، ولكنّه كان يشعر بارتياح جبان. جلست إيفيش قربه، وقالت بصوت أبحّ:

ـ إنّها عظيمة.

ـ نعم. إنّها جميلة.

ـ أوه... ثم هذا الجسم! كم هو مؤثِّر ذلك الوجه الخرب على هذا الجسد المتفتِّح. لقد كنت أشعر بالزمن يمضي، وأُحسّ بأنّها سوف تذبل بين ذراعيّ.

وكان ماتيو يتابع بعينيه بوريس ولولا. إنّ بوريس لم يبدأ الموضوع بعد. كان يبدو وكأنّه يمازح لولا، وكانت هي تبتسم له.

قال ماتيو بشرود:

ـ إنّها قريبة إلى القلب.

فقالت بلهجة جافّة: ـ قريبة إلى القلب؟ أوه، كلّا، إنّها أُنثى قذرة.

وأضافت في فخر: ـ لقد كنت أخيفها.

قال ماتيو: ـ لقد رأيت.

وكان يشبك ساقيه ثم يفكّهما بعصبيَّة. وسألها:

ـ هل تريدين أن ترقصي؟

قالت إيفيش: ـ لا. أريد أن أشرب (وملأت قدحها إلى منتصفه) وأضافت موضحة: من الخير أن يشرب المرء حين يرقص، لأنّ الرقص يمنع السكر، والخمر يجعلك صامدًا.

وأضافت بلهجة متوتِّرة:

ـ عجيب كم أنا مسرورة! سأنتهي بشكل رائع!

وفكّر ماتيو: «هذا هو. إنّه يحدِّثها» وكان بوريس قد اتّخذ لهجة الجدّ، وكان يتكلّم من غير أن ينظر إلى لولا. ولم تكن لولا تقول شيئًا. وأحسّ ماتيو بأنّه يحمرّ، كان مغتاظًا من بوريس وذات لحظة حجب كتفا زنجيّ عملاق رأس لولا عنه، ثم ظهرت ثانية في هيئة غامضة، ثم كفّت الموسيقى، وانفرج الجمع فخرج منه بوريس متغطرسًا مستاء. وكانت لولا تتبعه عن كثب. ولم يكن يبدو عليها أنّها مسرورة. انحنى بوريس على إيفيش وقال بسرعة:

ـ أدِّي لي خدمة: ادعيها للرقص.

فنهضت إيفيش من غير أن تظهر دهشة، وهرعت للقاء لولا. قالت لولا:

ـ أوه، كلّا، يا صغيرتي إيفيش، كلّا إنّني متعبة جدًّا.

وتشاورتا لحظة، ثم اقتادتها إيفيش.

وسأل ماتيو: ـ ألا تريد؟

ـ كلّا. وستدفع ثمن ذلك غاليًا.

كان ممتقعًا، وكانت هيئته الحاقدة المسترخية تكسبه شبهًا بأخته، شبهًا يثير القلق والاستياء. قال ماتيو خائفًا:

ـ لا ترتكب أيّة حماقة.

وسأله بوريس: ـ إنّك عاتب عليّ، أليس كذلك؟ لقد منعتني من أن أحدِّثها...

ـ سوف أكون قذرًا إذا كنت عاتبًا عليك: فأنت تعلم أنِّي تركتك تحدِّثها... ولماذا رفضتْ؟

قال بوريس وهو يهزّ كتفيه:

ـ لا أدري، فقد بدت بهيئة قذرة. وقالت إنّها كانت بحاجة إلى

مالها. هكذا إذن! (قال بلهجة اندهاش) للمرّة الأولى أطلب منها شيئًا...
لقد أضاعت رشدها! يجب أن تدفع الثمن، امرأة في مثل سنِّها، حين تريد أن تحصل على شخص مثلي!

ـ وكيف صوّرت لها الأمر؟

ـ قلت لها إنّ المال من أجل صديق يريد أن يشتري مرآبًا. وقلت لها اسمه: بيكار. وهي تعرفه. صحيح أنّه يريد أن يشتري مرآبًا.

ـ لا بدّ أنّها لم تصدِّقك.

قال بوريس: ـ لا أدري، ولكنّ الذي أدريه أنّها ستدفع ثمن ذلك على التوّ.

فصاح به ماتيو: ـ احتفظ بهدوئك.

قال بوريس بلهجة عدائيّة: ـ أوه... حسنًا! هذا من شأني.

ومضى ينحني أمام الشقراء الطويلة التي تورّدت قليلاً ثم نهضت. وحين أخذا يرقصان مرّت لولا وإيفيش بالقرب من ماتيو. وكانت الشقراء تتصنّع المرح على وجهها، ولكن بسمتها كانت تخفي الحذر. وكانت لولا تحتفظ بهدوئها، وتتقدّم بعظمة، فيبتعد الناس لمرورها تعبيرًا منهم عن الاحترام. أمّا إيفيش فكانت تسير القهقرى وعيناها في السماء، بلا شعور. تناول ماتيو سكِّين بوريس من شفرتها وضرب مقبضها بالطاولة ضربات صغيرة جافّة. وفكّر: «سيسيل الدم». وكان غير مكترث بذلك على الإطلاق. كان يفكِّر بمارسيل. وفكّر: «مارسيل، امرأتي» وانغلق شيء ما عليه، هادرًا. امرأتي، وستعيش في منزلي. هكذا. وكان هذا طبيعيًّا، طبيعيًّا جدًّا، كما لو أنّ المرء يتنفّس، ويبتلع ريقه. وكان ذلك يلامسه من كلّ مكان، إمضِ، لا تتشنّج، كن مرنًا، كن طبيعيًّا. في بيتي. سأراها كلّ يوم من أيَّام حياتي. وفكّر «كلّ شيء واضح. إنّ لي حياة».

حياة. كان ينظر إلى جميع تلك الوجوه المحمرّة، وهذه الأقمار

الحمراء التي كانت تنزلق على وسائد من غيوم: «إنّ لهم حيوات. جميعًا. لكلٍّ حياته. وهي تتمطّى عبر جدران المرقص، عبر شوارع باريس، عبر فرنسا، وتلتقي متشابكة، وتتقاطع وتبقى كلّ منها مع ذلك شخصيّة خاصّة كفرشاة أسنان، كموسى حلاقة، وكأشياء الزينة التي لا تُعار. كنت أعرف ذلك. كنت أعرف أنّه كان لكلٍّ منهم حياته. ولم أكن أعرف أنّه كانت لي أنا أيضًا حياة. كنت أفكِّر: إنّني لا أفعل شيئًا. وسوف أفلت منها. والحقيقة أنِّي كنت ألجها». ووضع السكِّين على الطاولة، وأخذ الزجاجة فحناها فوق قدحه: كانت فارغة. وكان باقيًا بعض الشمبانيا في قدح إيفيش، فتناول القدح وشرب.

«لقد تثاءبتُ، وقرأتُ وضاجعت. وكان هذا يترك طابعه وأثره. كانت كلّ حركة من حركاتي تثير، خارجًا عنها، في المستقبل، انتظارًا صغيرًا عنيدًا كان ينضج. وهذه الانتظارات هي أنا، وأنا الذي أنتظر نفسي في المنعطفات وفي ملتقيات الطرق، وفي قاعة مختاريّة الدائرة الرابعة عشرة الكبرى، أنا الذي أنتظر نفسي هناك، على أريكة حمراء، أنتظر أن آتي إلى هناك، مرتديًا ثوبًا أسود، مع ياقة مستعارة قاسية، أن آتي إلى هناك لأموت من فرط الحرّ وأقول: نعم، نعم، أوافق على أن أتّخذها زوجة». وهزّ رأسه بعنف، ولكنّ حياته كانت تصمد جيِّدًا حوله. «بهدوء وبالتأكيد، ووفقًا لأهوائي ولكسلي، فرزت محارتي. وقد انتهى الآن كلّ شيء. إنّني مسوّر من كلّ مكان! في الوسط يقوم منزلي وأنا في داخله، وسط أرائكي الجلديّة الخضراء، وفي الخارج يقوم شارع «الغيتيه» ذو الاتّجاه الواحد لأنّني أهبطه دائمًا، وجادّة «مين» و«باريس» كلّها مستديرة حولي، الشمال من أمام، والجنوب من خلف، والبانتيون إلى اليمين، وبرج إيفل إلى اليسار، وباب غلينيانكور تجاهي، وفي الوسط شارع فيرسينجتوري، ثقب صغير مصقول باللون الوردي، غرفة مارسيل، امرأتي، ومارسيل في داخلها، عارية، تنتظرني. ثم حول باريس كلّها، تقوم فرنسا تخترقها

الشوارع ذات الاتّجاه الواحد، ثم بحورٌ مرقّشة بالأزرق أو الأسود، البحر المتوسّط بالأزرق، وبحر الشمال بالأسود، والمانش بلون قهوة مع الحليب، ثم بلاد، ألمانيا، إيطاليا ـ إسبانيا بالأبيض لأنّني لم أذهب لأقاتل فيها ـ ثم مدن مستديرة، على مسافات محدّدة من غرفتي، تومبوكتو، تورنتو، كازان، نيجني ـ نوفغورد، جامدة كأنّها أنصاب. وأذهب، وأمضي، وأتنزّه، وأتيه، ومهما تهت: فهذه عطلة جامعيّ، فأينما ذهبت حملت معي محارتي، وأبقى في غرفتي بالمنزل، وسط كتبي، ولا أقترب سنتمترًا واحدًا من مراكش أو من تومبوكتو. حتى ولو كنت أستقلّ القطار، أو الباخرة، أو الأوتوكار، لو ذهبت أقضي عطلتي في المغرب، ولو وصلت فجأة إلى مراكش، فإنّي سأكون باقيًا أبدًا في غرفتي، بمنزلي. وإذا مضيت أتنزّه في الساحات والأسواق، وإذا شددت على كتف عربيّ، لألمس فيه مراكش... فإنّ هذا العربي هو الذي سيكون في مراكش، لا أنا. أمّا أنا، فسأظلّ دائمًا جالسًا في غرفتي، هادئًا متأمّلاً كما اخترت أن أكون، على بعد ثلاثة آلاف كيلومتر من المراكشي ومن برنسه. وفي غرفتي، إلى الأبد، إلى الأبد عشيق مارسيل القديم، والآن زوجها الأستاذ، إلى الأبد ذلك الذي لا يتعلّم الإنكليزيّة، ولم يدخل الحزب الشيوعي، والذي لم يكن في إسبانيا، إلى الأبد».

«حياتي». كانت تحيط به. كانت شيئًا غريبًا لا بدء له ولا نهاية، وليس هو مع ذلك لامحدودًا. كان يتابعها بنظرة من مختاريّة إلى أخرى، من مختاريّة الدائرة الثامنة عشرة حيث قضى في أكتوبر ١٩٢٣ مدّة المحكمة الإداريّة، إلى مختاريّة الدائرة الرابعة عشرة حيث سيتزوّج مارسيل في شهر آب أو أيلول ٣٨، كان لها معنى مبهم وحائر كالأشياء الطبيعيّة وتَفْهٌ لزج، ورائحة غبار وبنفسج.

وفكّر: «لقد قضيت حياة درداء، حياة درداء. لم أعضّ قطّ. كنت أنتظر، كنت أحفظ نفسي لما بعد ـ وها أنّي ألاحظ أنّه لم تبق لي أسنان.

فما العمل؟ أأحطّم المحارة. هذا يسيرٌ في القول. ومن جهة أخرى، ما الذي سوف يبقى؟ قطعة صغيرة من الصمغ اللزج سوف يزحف في الغبار مخلِّفًا وراءه أثرًا برّاقًا».

ورفع عينيه فرأى لولا، وكان على شفتيها بسمة خبيثة. ورأى إيفيش: كانت ترقص، ورأسها مرتدّ إلى الخلف، ضائعة، لا عمر لها ولا مستقبل: «ليست لها محارة» كانت ترقص، وكانت ثملة، ولم تكن تفكِّر في ماتيو. على الإطلاق. ليس أكثر ممّا لو كان غير موجود. وكانت الجوقة قد أخذت تعزف تانغو أرجنتينيًا. وكان ماتيو يعرفه جيِّدًا، هذا التانغو، إنّه «ميو كابالو موريو» ولكنّه كان ينظر إلى إيفيش. وكان يخيّل إليه أنّه كان يسمع هذه النغمة الحزينة القاسية للمرّة الأولى. «إنّها لن تكون لي أبدًا، لن تدخل أبدًا، لن تدخل أبدًا في محارتي». وابتسم، وكان يُحسّ ألمًا صغيرًا منعشًا، وتأمّل بحنان هذا الجسم الصغير الغضوب الدقيق الذي رست فيه حرِّيّته: «عزيزتي إيفيش، عزيزتي الحرِّيَّة». وفجأة أخذ يحلِّق فوق جسمه الوسخ، فوق حياته، وعيٌ نقيّ، وعيٌ بلا أنا، بعض هواء جارٌ فحسب؛ كان يحلِّق، وكان نظرًا، وعيٌّ ينظر إلى البوهيمي المزيّف، البورجوازي الصغير المتشبِّث بأهوائه، المثقّف الفاشل «الذي ليس هو ثوريًا ولا ثائرًا»، الحالم التجريدي الذي تحيط به حياته الدبقة، وكان يحكم: «إنّ هذا الشخص هالك، إنّه لم يسرقها». أمّا هو، الوعي، فلم يكن متضامنًا مع أحد، كان يدور في الحبب الدائر، مسحوقًا، ضائعًا، متألِّمًا هناك على وجه إيفيش المرنّة بالموسيقى، الحزينة، الزائلة. وعي أحمر، شكوى صغيرة غامضة، ميو كوبالو موريو، وكان قادرًا على كلّ شيء، على أن ييأس حقًّا من أجل الإسبانيِّين، وعلى أن يقرِّر أيّ شيء. ليت ذلك يدوم هكذا.. ولكن ذلك لا يمكن أن يدوم: كان الوعي ينتفخ وينتفخ، وكفّت الجوقة، فانفجر. وألفى ماتيو نفسه وحيدًا مع نفسه، في قعر حياته، جافًّا وقاسيًا، وكفّ عن أن يدين نفسه، وعن أن يقبل نفسه، وكلّ ما هناك أنّه

كان ماتيو: «نشوة أخرى. وبعد ذلك؟» وعاد بوريس إلى مكانه، ولم يكن يبدو عليه كثير من الاعتزاز. وقال لماتيو:

ـ أوه لا، لا!

فسأله ماتيو: ـ ماذا هناك؟

ـ الشقراء. إنّها امرأة قذرة.

ـ ماذا فعلت؟

فقطّب بوريس حاجبيه وارتعش من غير أن يجيب. وعادت إيفيش تجلس بالقرب من ماتيو. وكانت وحيدة. أجال ماتيو نظره في القاعة، فاكتشف لولا بالقرب من الموسيقيِّين، وكانت تتحدّث مع سارونيان. كان يبدو على سارونيان أنّه دَهِش، ثم رمى نظرة خفيّة باتّجاه الشقراء الطويلة التي كانت تهزّ المروحة بإهمال. وابتسمت له لولا وعبرت القاعة. وحين جلست، كان يبدو عليها مظهر غريب. ونظر بوريس إلى حذائه الأيمن في تصنّع، وساد صمت ثقيل. صاحت الشقراء:

ـ إنّ هذا مبالغ فيه، فليس لك الحقّ.. وأنا لن أذهب.

وانتفض ماتيو، والتفت الجميع. كان سارونيان قد انحنى بمجاملة مفرطة فوق الشقراء كخادم في مطعم يتلقّى طلب الزبون. وكان يحدِّثها بصوت منخفض وبلهجة هادئة قاسية. نهضت الشقراء فجأة وقالت لرفيقها:

ـ تعال.

وفتّشت في حقيبتها. كانت زاويتا فمها ترتعشان.

فقال سارونيان:

ـ لا، لا. أنا الذي أدفع.

فدعكت الشقراء ورقة من فئة المئة فرنك ورمتها على الطاولة. وكان رفيقها قد نهض، وكان ينظر إلى الورقة الماليّة في توبيخ. ثم أخذت الشقراء ذراعه ومضى الاثنان مرتفعي الرأس، وهما يهزّان كشحيهما هزّة واحدة.

اقترب سارونيان من لولا وهو يصفِّر، فقال في بسمة راضية:
ـ سيُحرّ الجوّ حين تعود.
قالت لولا:
ـ شكرًا. لم أكن أتوقّع أن يكون الأمر بهذه السهولة.
وكانت الجوقة الأرجنتينيّة قد غادرت القاعة، فعاد الزنوج يدخلون بآلاتهم واحدًا إثر الآخر. وحدّد بوريس بلولا نظر غضب وإعجاب، ثم التفت فجأة نحو إيفيش وقال:
ـ تعالي لنرقص.
نظرت إليهما لولا نظرة ساكنة بينما كانا ينهضان. ولكنّ وجهها تحلّل فجأة حين ابتعدا. وابتسم لها ماتيو قائلاً:
ـ إنّك تفعلين ما تشائين في المرقص.
فقالت بلامبالاة: ـ إنّني أجذبهم. إنّ الأشخاص يأتون إلى هنا من أجلي.
وظلّت عيناها قلقتين وأخذت تربّت على الطاولة في عصبيّة. ولم يعد ماتيو يعرف ما يقول لها. ومن حسن الحظّ أنّها نهضت بعد لحظة وهي تقول: «المعذرة».
رآها ماتيو تجتاز القاعة وتختفي. وفكّر: «إنّها ساعة المخدِّر» وكان وحيدًا. كانت إيفيش وبوريس يرقصان في صفاء يشبه صفاء لحن موسيقي ويكادان لا يقلّان عنه قسوة. أدار رأسه ونظر إلى قدميه. ومرّ زمن. ولم يكن يفكّر بشيء. وانتفض لنوع من الشكوى المبحوحة. كانت لولا قد عادت، وكانت عيناها منغلقتين، وتبتسم، وفكّر: «لقد أخذت حسابها». فتحت عينيها وجلست، من دون أن تكفّ عن الابتسام.
ـ أكنت تعلم أنّ بوريس كان بحاجة إلى خمسة آلاف فرنك؟
قال: ـ كلّا. لم أكن أعرف. كلّا. هل هو بحاجة إلى خمسة آلاف فرنك؟

كانت لولا ما تزال تنظر إليه، وتهتزّ من خلف إلى أمام. وكان ماتيو يرى حدقتين كبيرتين خضراوين مع بؤبؤين دقيقين. قالت لولا:

ـ لقد رفضت أن أعيره إيّاها، فهو يقول إنّها لبيكار، وكنت أظنّ أنه في هذه الحالة سيتوجّه إليك.

فأخذ ماتيو يضحك:

ـ هو يعرف أنّي لا أملك درهمًا قطّ.

وسألت لولا بلهجة من لا يصدِّق:

ـ إذن لم يكن لديك علم بهذا؟

ـ طبعًا، لا.

قالت: ـ عجبًا! إنّ هذا غريب.

وكان يخيّل لمن يراها أنّها ستسقط، بما هي هيكل في الهواء، كأنّه حطام قديم، أو أنّ فمها سيتمزّق ويطلق صرخة رهيبة. وسألته:

ـ هل أتى إلى بيتك منذ حين؟

ـ نعم، حوالى الساعة الثالثة.

ـ ولم يحدِّثك عن شيء؟

ـ ما الذي يُدهش في ذلك؟ ربّما التقى بيكار بعد ظهر اليوم.

ـ هذا ما قاله لي.

ـ وإذن؟

فهزّت لولا كتفيها:

ـ إنّ بيكار يعمل طوال النهار في «أرجانتوي».

فقال ماتيو بلامبالاة:

ـ كان بيكار في حاجة إلى مال، ولا بدّ أنّه مرّ على بوريس في الفندق. فلم يجده، ثم التقى به وهو يهبط جادّة سان ميشال.

فنظرت إليه لولا باستهزاء:

ـ هل تتصوّر أن يأتي بيكار ليطلب خمسة آلاف فرنك من بوريس الذي لا يملك إلّا ثلاثمئة فرنك شهريًا كنفقات جيب؟

فقال ماتيو مغتاظًا: ـ إذن لا أدري.

وكانت به رغبة لأن يقول لها: «إنّ المال لي». فبهذا سينتهي الأمر على الفور. ولكنّ ذلك لم يكن ممكنًا بسبب بوريس. «إنّها ناقمة عليه نقمة رهيبة، فهو يبدو وكأنّه متواطئ معي». وكانت لولا تربت على الطاولة بطرف أظافرها القرمزيّة، وكانت زاويتا فمها ترتفعان فجأة فترتجفان قليلاً ثم تسترخيان. كانت ترصد ماتيو في إلحاح قلق، ولكنّ ماتيو كان يُحسّ أنّ تحت هذا الغضب المتربِّص فراغًا كبيرًا معتكرًا. وكانت به رغبة للضحك. أدارت لولا عينيها وسألته:

ـ أليس في الأمر، على الأرجح، امتحان؟

فردّد ماتيو بدهشة: ـ امتحان؟

ـ أتساءل.

ـ امتحان؟ أيّة فكرة غريبة.

ـ إنّ إيفيش تقول له دائمًا إنّني بخيلة.

ـ ومن أخبرك ذلك؟

فقالت لولا في لهجة انتصار: أيدهشك أن أعرفه؟ الحقيقة أنّه طفل وفيّ. ينبغي ألّا تتصوّر أنّ بالإمكان أن يحدِّثه أحد عنّي بالسوء من غير أن يبلّغني. إنّني أدرك هذا في كلّ مناسبة، مكتفية بالطريقة التي ينظر إليّ بها. أو أنّه يطرح عليّ أسئلة في لهجة تتقصّد عدم المسّ بالموضوع. يكفي أن أراه آتيًا من بعيد. إنّ هذا أقوى منه، فهو يريد أن يكون قلبه صافيًا.

ـ وإذن؟

ـ لقد أراد أن يرى إن كنت حقًّا بخيلة، فاختلق قضيّة بيكار هذه. إلّا

أن يكون هناك من أوحى له ذلك.

ـ من تريدين أن يكون قد أوحى له؟

ـ لست أدري. إنّ هناك كثيرين يفكّرون بأنّني عجوز وأنّه طفل. يكفي أن ترى وجوه سمكات هذا المرقص حين ترانا معًا.

ـ أتتصوّرين أنّه يهتمّ بما يقلنه له؟

ـ لا، ولكن هناك من يحسبون أنّهم يعملون لصالحه حين يملأون رأسه غرورًا.

فقال ماتيو: ـ اسمعي، لا حاجة بك إلى لبس القفّاز: إن كنت تقصدينني بهذا الكلام، فإنّك مخطئة.

قالت لولا ببرودة: ـ آه! هذا ممكن (وساد صمت ثم سألت فجأة) كيف يتّفق أن تحدث هنا مشاكل حين تأتي معه؟

ـ لا أدري، ولا أفعل شيئًا لهذه الغاية. ولم أكن أريد اليوم أن آتي... وأنا أتصوّر أنّه يحبّ كلًّا منّا بشكل مختلف، وأنّ أعصابه تثور حين يرانا نحن الاثنين في وقت واحد.

وكانت لولا تنظر أمامها باستقامة نظرة غامضة متوتّرة. وقالت أخيرًا:

ـ اسمع هذا جيّدًا: إنّني لا أريد أن يؤخذ منّي. أنا متأكّدة أنّني لا أسيء إليه. وحين يملّني يستطيع أن يتركني، وسوف يأتي ذلك عمّا قريب. ولكنّي لا أريد أن يأخذه الآخرون منّي.

وفكّر ماتيو: «إنّها تكشف بضاعتها». وكان ذلك طبعًا بتأثير المخدّر. لكنّ هناك شيئًا آخر: كانت لولا تكره ماتيو، ومع ذلك فإنّ ما تقوله له هذه اللحظة لم تكن تجرؤ على أن تقوله لسواه. لقد كان بينها وبينه، بالرّغم من الكراهية، نوع من التضامن.

وقال: ـ لا أريد أن آخذه منك.

فقالت لولا بلهجة مغلقة: ـ لقد كنت أظنّ.

ـ يجب إذن ألّا تظنّي ذلك. إنّ علاقتك ببوريس لا تعنيني. ولو كانت تعنيني لوجدت أنّ وضعكما هكذا جيِّدٌ جدًّا.

ـ كنت أقول لنفسي: يظنّ أنّه مسؤول لأنّه أستاذه.

وصمتت، ففهم ماتيو أنّه لم يقنعها. كانت تبدو وكأنّها تبحث عن كلماتها. وأضافت بمشقّة:

ـ أعرف... أعرف أنّني امرأة مسنَّة... وأنا لم أنتظرك لألاحظ ذلك. ولكن من أجل هذا بالذات أستطيع أن أساعده (وأضافت في تحدٍّ) هناك أشياء أستطيع أن أعلِّمه إيَّاها. ثم ما الذي ينبئك بأنِّي كبيرة عليه أكثر ممّا ينبغي؟ إنّه يحبّني كما أنا، وهو سعيد معي إذا لم توضع في رأسه جميع هذه الأفكار.

وكان ماتيو صامتًا. وصاحت لولا بعنف غير موثوق:

ـ ولكن لا بدّ أنّك تعرف أنَّه يحبّني، لا بدّ أنّه أبلغك ذلك، ما دام يقول لك كلّ شيء.

قال ماتيو: ـ أعتقد أنّه يحبّك.

فأدارت لولا نحوه عينيها الثقيلتين:

ـ لقد رأيت ألوانًا كثيرة من الرجال، ولا أنكر ذلك، ولكنِّي أقول لك: إنّ هذا الطفل هو حظِّي الأخير: وبعد هذا، افعلوا ما شئتم.

ولم يجب ماتيو على الفور. كان ينظر إلى بوريس وإيفيش اللذين كانا يرقصان، وكانت به رغبة لأن يقول للولا: «نتنازع، فأنت ترين جيِّدًا أنّنا متشابهان». ولكنّ هذا الشبه كان يثير اشمئزازه قليلاً، فقد كان في حبّ لولا، بالرّغم من عنفه، وبالرّغم من صفائه، شيءٌ ما رخوٌ وَشرِه. ومع ذلك، فقد قال من طرف شفتيه:

ـ تقولين هذا لي... إنّني أعرفه مثل معرفتك له.

ـ ولماذا مثل معرفتي له؟

ـ إنّنا متشابهان.

ـ وماذا يعني هذا؟

فقال: ـ انظري إلينا، وانظري إليهما.

فاتّخذت لولا مظهر الازدراء وقالت:

ـ لسنا متشابهين.

وهزّ ماتيو كتفيه، ثم صمتا وهما على خلاف. وكان كلاهما ينظر إلى بوريس وإيفيش. كان بوريس وإيفيش يرقصان، وكانا قاسيين من غير أن يعرفا ذلك. أو ربّما كانا يعرفانه قليلاً. وكان ماتيو جالسًا بالقرب من لولا، ولم يكونا يرقصان لأنّ الرقص لم يكن يناسب سنّهما كثيرًا. وفكّر: «لا بدّ أنّ الناس ينظرون إلينا كعاشقين. وسمع لولا تتمتم لنفسها وحدها: «ليتني أتأكّد من أنّ ذلك هو حقًّا لبيكار».

كان بوريس وإيفيش عائدين نحوهما. ونهضت لولا في جهد. وحسب ماتيو أنّها ستسقط ولكنّها تشبّثت بالطاولة وأخذت نَفَسًا طويلاً، وقالت لبوريس:

ـ تعال، أريد أن أحدِّثك.

فبدا الضيق على بوريس:

ـ ألا تستطيعين أن تحدِّثيني هنا؟

ـ لا.

ـ حسنًا. انتظري حتى تستأنف الموسيقى ونرقص.

قالت لولا: ـ لا. إنّني متعبة. وسوف تأتي إلى غرفتي. المعذرة يا صغيرتي إيفيش.

قالت إيفيش بتودّد: ـ إنّني سكرى.

وقالت لولا: ـ سنعود عمّا قليل. ثم إنّ دوري في الغناء وشيك.

وابتعدت لولا، فتبعها بوريس على مضض. وتراخت إيفيش على مقعدها، وهي تقول:

ـ صحيح أنِّي سكرى. ولقد شعرت بذلك وأنا أرقص.

فلم يجب ماتيو، وسألت إيفيش:

ـ لماذا ذهبا؟

ـ سوف يتحادثان. ثم إنّ لولا قد أخذت مخدِّرًا، وأنتِ تعلمين أنّ من يأخذ الجرعة الأولى لا يفكِّر بعد إلّا بأخذ الثانية.

قالت إيفيش حالمة:

ـ أظنّ أنِّي أحبّ أن آخذ مخدِّرًا.

ـ طبعًا.

فقالت مغتاظة:

ـ ولِمَ لا؟ إذا كان عليّ أن أبقى طوال حياتي في «لاون»، فيجب أن أشغل نفسي.

وصمت ماتيو، فقالت:

ـ آه فهمت! إنّك غاضب عليّ لأنِّي سكرى.

ـ كلّا.

ـ بلى، أنت توبِّخني.

ـ كيف ذلك؟ ثم إنّك لستِ سكرى إلى هذا الحدّ.

فقالت إيفيش في سرور:

ـ إنّني سكرى إلى ـ أبعد ـ حدّ.

وبدأ الناس يذهبون. وكانت الساعة حوالى الثانية صباحًا. كانت لولا في غرفتها، وهي حجرة صغيرة قذرة مفروشة بالمخمل الأحمر، وبمرآة قديمة ذات إطار مذهَّب، تتنهّد وتبتهل: بوريس! بوريس! بوريس! إنّك

تجنّنني، فيخفض بوريس رأسه خائفًا وعنيدًا. وكان ثوب طويل أسود يتطاير بين الجدران الحمراء، فينعكس بريقه الأسود في المرآة مع انبثاق الذراعين الجميلتين البيضاوين اللتين كانتا تتلوّيان في تأثير بالغ. ثم إنّ لولا ستختفي فجأة خلف حاجز، وهناك ستنشق في استسلام، ورأسها مرتدٌّ كما لو أنّها تريد وقف نزيف دموي من أنفها، نشقتين من مسحوق أبيض. كان جبين ماتيو يسيل عرقًا، ولكنّه لم يجرؤ على مسحه، وكان خجلاً من أن يعرق أمام إيفيش؛ لقد رقصت من غير توقّف، وظلّت ممتقعة الوجه، ولكنّها لم تكن ترشح عرقًا. وكانت قد قالت في صباح اليوم نفسه: «إنّني أشمئزّ من جميع هذه الأيدي اللزجة»، وهو لا يعرف بعد ما يفعل بيديه. كان يستشعر الضعف والتعب، ولم تكن به أيّة رغبة، ولم يفكّر بشيء بعد. وبين لحظة وأخرى، كان يقول إنّ الشمس لن تلبث طويلاً حتى تشرق، وأنّ عليه أن يستأنف مساعيه ويخابر مارسيل، وسارة، ويعيش نهارًا آخر بطوله. وكان هذا يبدو له أمرًا لا يُصدَّق. إنّه يودّ لو يبقى إلى الأبد أمام هذه الطاولة، تحت هذه الأنوار الاصطناعيّة، بالقرب من إيفيش. قالت إيفيش بصوت ثمل:

ـ إنّني مسرورة جدًّا.

ونظر إليها ماتيو: كانت في تلك الحالة من النشوة الفرحة التي كان مجرّد شيء تافه كليًّا كافيًا لإحالتها إلى غضب. قالت إيفيش:

ـ طزّ في الامتحانات، وإذا سقطت فسأكون مسرورة. إنّني هذا المساء أدفن حياتي كطفلة.

وابتسمت وقالت في حماسة:

ـ إنّها تلتمع كلؤلؤة صغيرة!

ـ ما الذي يلتمع كلؤلؤة صغيرة؟

ـ هذه اللحظة. إنّها مستديرة، معلّقة في الفضاء كلؤلؤة صغيرة. إنّني خالدة.

تناولت سكّين بوريس من مقبضها، وأسندت صفحة الشفرة على جانب الطاولة وأخذت تتسلّى بمحاولة طيّها، ثم سألت فجأة:

ـ ما بالها، تلك؟

ـ من؟

ـ المرأة ذات الثوب الأسود، إلى جانبي. إنّها لم تكفّ منذ مجيئها توبّخني.

وأدار ماتيو رأسه: كانت ذات الثوب الأسود تنظر إلى إيفيش من طرف عينها.

سألت إيفيش: ـ ألا ترى؟ أليس صحيحًا.

ـ أظنّ أن نعم.

ورأى وجه إيفيش الصغير الكزّ وعينيها الغامضتين الحاقدتين، وفكّر: «كان خيرًا لي أن أصمت». وكانت ذات الثوب الأسود قد فهمت جيّدًا أنّهما كانا يتحدّثان عنها: ذلك أنّها اتّخذت مظهرًا متغطرسًا، وكان زوجها قد استيقظ فراح ينظر إلى إيفيش بعينيه الكبيرتين. وفكّر ماتيو: «كم يبدو هذا مضجرًا!» كان يستشعر الكسل والجبن، وكان مستعدًّا لإعطاء كلّ شيء ليحول دون حدوث شيء.

تمتمت إيفيش وهي تخاطب السكّين: ـ هذه المرأة تحتقرني لأنّها محتشمة. أمّا أنا فلست محتشمة. إنّني أتسلّى وأثمل، وسوف أسقط في شهادتي. إنّني (وأضافت فجأة بصوت قوي) أكره الحشمة!

ـ اسكتي يا إيفيش، أرجوك.

فنظرت إليه إيفيش نظرة مثلجة، وقالت:

ـ أظنّ أنّك تكلّمني؟ صحيح. أنت أيضًا محتشم. لا تخف: فحين سأقضي عشر سنوات في لاون بين أمّي وأبي، فسأكون أكثر احتشامًا منك.

كانت مسترخية على مقعدها، تسند بعناد شفرة السكّين على الطاولة

وتثنيها بحركة مجنونة. وساد صمت ثقيل، ثم التفتت ذات الثوب الأسود إلى زوجها وقالت:

ـ إنّني لا أفهم كيف تجلس هذه الصغيرة في هذا الوضع.

فنظر الزوج إلى كتفيْ ماتيو وهمهم: «نعم».

وأضافت المرأة: ـ ليس الخطأ كلّه خطأها، وإنّما المذنبون هم الذين ساقوها إلى هنا.

وفكّر ماتيو: «هكذا! هذه هي الفضيحة!» ولا شكّ في أنّ إيفيش قد سمعت، ولكنّها لم تقل شيئًا، وكانت عاقلة. عاقلة أكثر ممّا ينبغي: كانت تبدو وكأنّها ترصد شيئًا، وكانت قد رفعت رأسها واتّخذت مظهرًا غريبًا مهووسًا وجذلاً.

سألها ماتيو في قلق: ـ ماذا هناك؟

وكانت إيفيش قد امتقعت تمامًا.

ـ لا شيء. وإنّما أرتكب عملاً آخر غير محتشم، لكي أسلّي السيِّدة. أريد أن أرى كيف تحتمل منظر الدم.

وأطلقت جارة إيفيش صرخة خفيفة وخفقت جفنيها. نظر ماتيو بسرعة إلى يديْ إيفيش: كانت تمسك السكّين بيدها اليمنى وتشقّ باطن يدها اليسرى بعناية. كانت بشرتها قد انفلقت ما بين ربلة الإبهام حتى جذر الأصبع الصغير. وكان الدم يقطر على مهل. صاح ماتيو:

ـ إيفيش. . . يداك المسكينتان.

وكانت إيفيش تقهقه في غموض، وسألته:

ـ هل تظنّ أنّها سوف تدير عينيها؟

مدّ ماتيو يده فوق الطاولة، فتركته إيفيش يأخذ السكّين بلا مقاومة. وكان ماتيو ضائعًا، وينظر إلى أصابع إيفيش الهزيلة التي كان الدم قد لوّثها، ويفكّر بأنّ يدها كانت تؤلمها! وقال:

ـ أنت مجنونة! تعالي معي، فإنّ سيّدة المغسلة سوف تضمّد جرحك.

وندّت عن إيفيش ضحكة خبيثة:

ـ تضمّد جرحي؟ هل أنت مدرك لما تقول؟

فنهض ماتيو: ـ تعالي يا إيفيش، أرجوك، تعالي بسرعة.

فقالت إيفيش من غير أن تنهض:

ـ إنّه شعور لذيذ جدًّا. لقد كنت أظنّ أنّ يدي كانت قطعة من الزبدة.

وكانت قد رفعت يدها اليسرى حتى أنفها ونظرت إليها بعين فاحصة، والدم يسيل في كلّ ناحية، فكأنّه ذهاب نمل وإيابه. وقالت:

ـ إنّه دمي. أحبّ كثيرًا أن أرى دمي.

قال ماتيو: ـ كفى، كفى!

وأمسك إيفيش من كتفها، ولكنّها تخلّصت منه بعنف، فسقطت نقطة دمّ كبيرة على الخوان. وكانت تنظر إليه بعينين تلتمعان كراهية. وسألته:

ـ ما زلت تسمح لنفسك بأن تلمسني؟ (وأضافت في ضحكة شامتة): كان عليّ أن أوقن بأنّك ستجد ذلك مبالغًا فيه. إنّه يثيرك ويغضبك أن يتسلّى المرء بدمه.

وكان ماتيو يشعر بأنّه يمتقع من فرط الغضب. فعاد يجلس، وبسط يده اليسرى على الطاولة، وقال بتلذّذ:

ـ مبالغ فيه؟ يا إيفيش، بل إنّي أجده جذّابًا. أظنُّ أنّ ذلك لعب تمارسه فتيات الطبقة النبيلة؟

وزرع السكّين دفعةً واحدة في باطن يده ولم يشعر بشيء تقريبًا: وحين ترك السكّين، ظلّت مركوزة في لحمه، مستقيمة، ومقبضها في الهواء. قالت إيفيش مشمئزّة:

ـ آه! آه! إنزعها! إنزعها!

فقال ماتيو وهو يكزُّ على أسنانه:

ـ أترين؟ إنّ هذا في متناول جميع الناس.

واستشعر العذوبة والكثافة، وخشي قليلاً أن يُغمى عليه. ولكن كان في داخله نوعٌ من الرضى المصدوم وإرادة سرطان رديئة وخبيثة. إنّه لم يفعل ضربة السكّين هذه في باطن كفّه ازدراء لإيفيش فحسب، بل كان ذلك أيضًا تحدّيًا لجاك، وبرونيه، ودانيال، وحياته. وفكّر: «إنّني حمار، وإنّ برونيه على حقّ إذ يقول بأنّي طفل عجوز». ولكنّه لم يكن يستطيع أن يمنع نفسه من أن يكون مسرورًا. وكانت إيفيش تنظر إلى يد ماتيو التي بدت مسمَّرة على الطاولة، وإلى الدم الذي كان يتدفّق من حول الشفرة. ثم نظرت إلى ماتيو، وكانت هيئتها قد تغيّرت تمامًا. وقالت على مهل:

ـ لماذا فعلت ذلك؟

فسألها ماتيو في صلابة: ـ وأنتِ؟

وإلى يسارهما، كانت ثمّة ضجّة مهدِّدة: كان ذلك الرأي العامّ. وكان ماتيو يسخر منه، وكان ينظر إلى إيفيش. قالت إيفيش:

ـ آه إنّني. . . إنّني آسفة جدًّا.

وتضخّمت الضجّة، وأخذت ذات الثوب الأسود تنقنق:

ـ إنّهما ثملان، وسيذبح أحدهما الآخر. . . يجب أن يُمنعا من ذلك. إنّني لا أستطيع أن أرى هذا.

والتفتت بعض الرؤوس، وهُرع الخادم:

ـ هل تريد السيِّدة شيئًا؟

وكانت ذات الثوب الأسود تضغط منديلاً على فمها، وأشارت إلى إيفيش وماتيو من غير كلمة. نزع ماتيو بسرعة السكّين من الجرح، فأحدث له ذلك ألمًا شديدًا.

ـ لقد جرحنا أيدينا بهذا السكّين.

وكان الخادم قد رأى غيرهما يفعل ذلك، فقال من غير أن ينفعل.

ـ إذا شاء السيِّد والآنسة أن يتوجّها إلى المغسلة، فإنّ السيِّدة هناك تملك كلّ ما يلزم.

ونهضت إيفيش هذه المرّة بوداعة، فاجتازا الحلبة وراء الخادم، وكلّ منهما يرفع إحدى يديه في الهواء، وكان هذا مشهدًا هزليًا لم يستطع ماتيو معه أن يمتنع عن الانفجار بالضحك. نظرت إيفيش إليه نظرة قلقة ثم أخذت تضحك هي أيضًا. وكانت من شدّة الضحك بحيث إنّ يدها قد ارتجفت، فسقطت نقطتا دمٍ على البلاط.

وقالت إيفيش: ـ إنّني أتسلّى كثيرًا.

وصاحت سيّدة المغسلة:

ـ يا إلهي! يا آنستي المسكينة، ماذا فعلتِ بنفسكِ؟ والسيّد المسكين؟ فقالت إيفيش: ـ لقد لعبنا بسكّين.

فقالت سيّدة المغسلة حانقة: ـ هكذا! إنّ الحادث يقع بسرعة. وهل كان سكّين منزل؟

ـ كلّا.

ـ آه! كنت أحدِّث نفسي.. (وأضافت وهي تفحص جرح إيفيش) ما أعمقه! ولكن لا تقلقي. سوف أسوّي كلّ شيء.

وفتحت خزانة، فاختفى فيها نصف جسمها. وتبادل ماتيو وإيفيش بسمة. كانت إيفيش تبدو وكأنّها صحت من سكرها، وقالت لماتيو:

ـ ما كنت أصدِّق أنّ بوسعك أن تفعل هذا.

قال ماتيو: ـ ترين إذن أنّ كلّ شيء لم يضع.

فقالت إيفيش: ـ لقد بدأ هذا يؤلمني الآن.

قال ماتيو: ـ وأنا كذلك.

كان سعيدًا. وقرأ كلمة «للسيِّدات» ثم «للسادة» بأحرف من ذهب على بابين ملمّعين بالرمادي المصفرّ، ونظر إلى الأرض ذات المربّعات البيضاء، واستنشق رائحة معطَّرة بالأنيسون المطهِّر، فتمدّد قلبه، وقال باندفاع:

ـ ليس من الرديء جدًّا أن يكون المرء سيِّدة مغسلة!

فقالت إيفيش مبتهجة: ـ طبعًا لا!

وكانت تنظر إليه في هيئة وحشيّة رقيقة، وتردّدت لحظة، ثم أطبقت فجأة باطن كفِّها اليسرى على كفِّ ماتيو المجروحة، فندَّ عن ذلك اصطفاق مبلّل. وقالت موضِّحة:

ـ إنّ هذا اختلاط الدمّين.

فشدَّ ماتيو على يدها من غير أن يقول كلمة، وأحسَّ بألمٍ حيّ، وكان لديه إحساسٌ بأنَّ فمًا كان ينفتح في يده. وقالت إيفيش:

ـ إنّك تؤلمني كثيرًا.

ـ أعرف ذلك.

وكانت سيّدة المغسلة قد خرجت من الخِزانة وهي تشعر ببعض عسر هضم. فتحت علبة حديديّة، وقالت:

ـ هذا هو العلاج.

ورأى ماتيو زجاجة من صبغة اليود، وإبرًا ومقصَّات ولفّافات. فقال:

ـ أنتِ مجهّزة تجهيزًا جيِّدًا.

فهزَّت رأسها في جدّ، وقالت:

ـ آه! هناك أيَّام لا مجال فيها للمزاح. أمس الأوَّل، ألقت امرأة قدحها على رأس واحدٍ من خيرة زبائننا. وكان هذا السيّد يسيل دمه ويسيل، فخشيت على عينيه، وانتزعت من حاجبيه شظيّة كبيرة من الزجاج.

ـ قال ماتيو: يا للشيطان!

وكانت سيّدة المغسلة تشغل نفسها حول إيفيش:

ـ بعض الصبر يا جميلتي، إنّ ذلك سيحرقك قليلاً، إنّها صبغة اليود، حسنًا، انتهى.

وسألت إيفيش بصوت منخفض:

ـ هل تصارحني. . . إذا بدوت قليلة الرصانة؟

ـ نعم.

ـ أودّ أن أعلم بِمَ كنت تفكِّر حين كنت أرقص مع لولا؟

ـ منذ لحظة؟

ـ نعم، حين دعا بوريس الشقراء. كنت وحيدًا في ركنك.

قال ماتيو: ـ أظنّ أنِّي كنت أفكِّر بنفسي.

ـ كنت أنظر إليك. . لقد كنت. . . جميلاً تقريبًا. ليتك تستطيع دائمًا أن تحتفظ بتلك الهيئة.

ـ ليس بوسع المرء دائمًا أن يفكِّر بنفسه.

وضحكت إيفيش:

ـ أمّا أنا، فأعتقد أنِّي أفكِّر دائمًا بنفسي.

وقالت سيّدة المغسلة: ـ أعطني يدك يا سيِّدي. انتبه، فسوف يحرقك قليلاً. حسنًا، لن يكون هذا شيئًا ذا بال.

وأحسّ ماتيو بحرقٍ شديد. ولكنّه لم يكترث له، وكان ينظر إلى إيفيش التي كانت تسرِّح شعرها بلا حذق أمام المرآة، وهي تمسك خصلاتها بيدها المضمَّدة. وردَّت شعرها إلى خلف فبدا وجهها العريض عاريًا. وأحسّ ماتيو بأنّه يمتلئ برغبة قاسية ويائسة، وقال:

ـ إنّكِ جميلة.

فقالت إيفيش وهي تضحك:

ـ كلّا، إنّني على العكس بشعة إلى حدٍّ فظيع. وهذه هي هيئتي الخفيّة.

قال ماتيو: ـ أعتقد أنّني أحبّها أكثر من تلك.

قالت: ـ سأسرِّح شعري غدًا على هذا النحو.

فلم يجد ماتيو ما يجيب به، فأحنى رأسه وصمت. وقالت سيِّدة المغسلة:

ـ انتهى الأمر.

ولاحظ ماتيو أنّه كان لها شارب رمادي.

ـ شكرًا كثيرًا يا سيّدتي، إنّكِ بارعة كممرِّضة.

فاحمرَّ وجه سيِّدة المغسلة من السرور، وقالت:

ـ أوه! هذا طبيعي. إنَّ في مهنتنا كثيرًا من الأعمال التي تتطلّب الدقّة.

ووضع ماتيو عشرة فرنكات في صحن، وخرجا. وكانا ينظران في رضى إلى يديهما الصقعتين المضمّدتين. وقالت إيفيش:

ـ كأنّ لي يدًا من خشب.

كان المرقص قد خلا تقريبًا. وكانت لولا توشك أن تغنّي، وهي واقفة في وسط الحلبة. كان بوريس جالسًا إلى طاولتهما، وكان ينتظرهما. أمّا ذات الثوب الأسود وزوجها فقد اختفيا. كان باقيًا على طاولتهما قدحان نصف ممتلئين ودزّينة من السكاير في علبة مفتوحة.

قال ماتيو: ـ إنّه ضلال.

قالت إيفيش: ـ أجل، لقد ضللت.

ونظر إليها بوريس نظرة جذل:

ـ ماذا؟ هل ذبح كلّ منكما نفسه؟

قالت إيفيش في كزازة: ـ إنّه سكّينك القذر.

فقال بوريس وهو ينظر إلى يديهما نظرة فنّان:

ـ يبدو أنّه يقصّ جيّدًا.

وسأله ماتيو:

ـ ولولا؟ فاغتمّ بوريس:

ـ إنَّ الأمر قد ساء كثيرًا. لقد نطقتُ بحماقة.

ـ ماذا؟

ـ قلت إنّ بيكار قد جاءني وقد استقبلته في غرفتي. يبدو أنّني قلت شيئًا آخر في المرّة الأولى، الشيطان يدري ماذا!

ـ لقد قلت إنّه التقى بك في جادّة سان ميشيل.

قال بوريس: ـ هكذا إذن!

ـ وقد غضبت وصاحت؟

ـ أوه! كالخنزير. حسبك أن تنظر إليها.

ونظر ماتيو إلى لولا، وكانت لها سحنة جهمة وقاتمة. وقال:

ـ اعذرني.

ـ ليس لك أن تعتذر: إنّها غلطتي. ثم إنّ الأمر يُسوَّى. لقد ألفت ذلك. إنّه يسوَّى دائمًا في آخر الأمر.

وصمتا. كانت إيفيش تنظر إلى يدها المضمَّدة نظرة عطف. وكان النعاس والرطوبة والفجر الرمادي قد تسرَّبت إلى القاعة، على غير إحساس، وكان المرقص يبعث برائحة الصباح. فكّر ماتيو: «لؤلؤة، لقد

قالت لؤلؤة صغيرة». وكان سعيدًا، ولم يكن يفكّر بعد بأيّ شيء عن نفسه. كان يُحسّ أنّه جالسٌ في الخارج على مقعد: في الخارج، خارج المرقص، خارج حياته. وابتسم: «لقد قالت ذلك أيضًا: إنّني خالدة».

وأخذت لولا تغنّي.

١٢

«في الدوم، الساعة العاشرة»، واستيقظ ماتيو. هذه الأكمة الصغيرة من الشفّ الأبيض، على السرير، كانت يده اليسرى. كانت تؤلمه، ولكنّ جسمه كلّه كان منتعشًا. «في الدوم الساعة العاشرة». وكانت قد قالت: «سأكون هناك قبلك، فلن أستطيع أن أغمض عينيّ طوال الليل». وكانت الساعة التاسعة، فقفز من السرير، وفكّر «ستغيّر تسريحتها».

دفع المصراعين: كان الشارع خاليًا، والسماء واطئة رماديّة، والطقس أقلّ حرارة من الأمس، كان صباحًا حقيقيًّا. فتح صنبور المغسلة وغطّس رأسه بالماء: إنّني أنا أيضًا من الصباح. وكانت حياته قد سقطت إلى قدميه، في ثنيات ثقيلة، وكانت ما تزال تحيط به، وتُربك كعبيه، لكنّه سيتجاوزها، وسيخلّفها وراءه كجلدٍ ميِّت. السرير، المكتب، المصباح، الأريكة الخضراء: إنّها ليست بعد شريكاته، وإنّما كانت أشياء مغفلة من حديد وخشب، أدوات. كان قد قضى الليلة في غرفة فندق. ارتدى ثيابه وهبط السلّم وهو يصفّر. قالت البوّابة:

ـ هناك رسالة مستعجلة لك.

مارسيل! وأحسَّ ماتيو بمذاق مرٍّ في فمه: كان قد نسي مارسيل. ومدّت له البوّابة مغلّفًا أصفر: كان من دانيال. وفيه:

«عزيزي ماتيو. لقد بحثت حولي، لا أستطيع حتمًا أن أجمع المبلغ الذي تطلبه. صدّقني إنِّي آسف. هل لك أن تمرَّ عليَّ ظهرًا؟ إنّ عندي ما أحدِّثك به عن قضيّتك. ولك ودِّي».

وفكّر ماتيو «حسنًا، سأذهب لرؤيته إنّه لا يريد أن يترك المال، ولكنّه ربّما وجد حلًّا».

كانت الحياة تبدو له هيِّنة، وكان ينبغي أن تكون هيِّنة: مهما يكن من أمر، فإنّ سارة ستتكلَّف أمر إقناع الطبيب بالانتظار بضعة أيَّام، وعند الإلحاح يُرسل له المال إلى أميركا.

وكانت إيفيش هناك، في زاوية مظلمة. وقد رأى أوّلاً يدها المضمَّدة. قال في عذوبة:

ـ إيفيش.

فرفعت عينيها إليه، وبدا وجهها الكاذب المثلَّث، وطهارتها الصغيرة الرديئة. كانت خصلاتها تخفي نصف وجهها: لم تكن قد رفعت عينيها كما وعدت. سألها بحزن:

ـ هل نمتِ قليلاً؟

ـ أبدًا.

وجلس. ورأت أنّه كان ينظر إلى يديهما المضمّدتين، فسحبت يدها بهدوء وأخفتها تحت الطاولة. اقترب الخادم، وكان يعرف ماتيو جيِّدًا، فسأله:

ـ كيف الحال يا سيِّدي؟

قال ماتيو: ـ لا بأس. اعطني فنجان شاي وتفّاحتين.

وساد صمت انتهزه ماتيو ليكفِّن ذكريات الليل. وحين أحسّ بأنَّ قلبه

كان خاليًا ،رفع رأسه:

ـ إنّكِ لا تبدين مرتاحة. أيكون السبب ذلك الامتحان؟

فلم تجب إيفيش إلّا بانقباض ازدراء، وصمت ماتيو، وكان ينظر إلى المقاعد الفارغة. كانت امرأة راكعة تغسل البلاط بماء كثير. «الدوم» يستيقظ رويدًا رويدًا، وكان الصباح. لا بدّ من مرور خمس عشرة ساعة قبل أن تستطيع النوم. أخذت إيفيش تتحدّث بصوت منخفض، وبلهجة برمة، قالت:

ـ الساعة الثانية. والآن هي الساعة التاسعة. إنّني أحسّ الساعات تنهار تحتي.

عادت تشدّ على خصلاتها شدًّا مهووسًا. وكان هذا غير محتمل. وقالت:

ـ أتعتقد أنّ هناك من يقبلني أن أكون بائعة، في مخزن كبير؟

ـ لا تفكّري بهذا يا إيفيش، فإنّه قاتل.

ـ وعارضة أزياء؟

ـ إنّك قصيرة بعض الشيء، ولكن بوسعك أن تجرّبي. . .

ـ سأفعل كلّ شيء حتى لا أبقى في لاون. سأكون غاسلة أوانٍ (وأضافت بلهجة مهمومة مسنَّة) في مثل هذه الحالات، ألا يضع الناس إعلانات في الصحف؟

ـ اسمعي يا إيفيش، إنّ أمامنا الوقت للتفكير في الموضوع، وأنتِ لم تسقطي بعد، على أيّة حال.

وهزّت إيفيش كتفيها، فاستطرد ماتيو بحيويّة:

ـ ولكن حتى لو سقطتِ، فلن تصبحي ضائعة. فأنت تستطعين مثلاً أن تعودي إلى بيتك لمدّة شهرين، وفي هذه الأثناء سأبحث حتى أجد لك شيئًا.

كان يتكلّم بلهجة إقناع طيّبة، ولكن لم يكن له أيّ أمل: فحتى لو حصل لها على عمل، فإنّها لن تلبث أسبوعًا حتى تُطرد منه. وقالت إيفيش في غضب:

ـ شهران في لاون.. من الواضح أنّك تتكلّم بلا معرفة. إنّ هذا.. إنّ هذا لا يُحتمل!

ـ مهما يكن من أمر، فإنّك ستقضين هناك العطلة.

ـ صحيح.. ولكن كيف يستقبلونني الآن؟

وصمتت. ونظر إليها من غير أن يقول كلمة: كان لها وجهها الصباحي الممتقع. وكان يبدو أنّ الليل قد انزلق عليها. وفكّر «ليس هناك ما يطبعها» ولم يستطع أن يمتنع عن أن يقول لها:

ـ إنّكِ لم ترفعي شعرك؟

فقالت إيفيش بجفاء: ـ أنت ترى أن لا.

وقال في شيء من الغيظ: ـ ولكنّك وعدتني بذلك مساء أمس.

قالت: ـ كنت ثملة (وردّدت بقوّة كما لو كانت تريد أن تخيفه) كنت ثملة تمامًا.

ـ لم يكن يبدو عليك أنّكِ كنت ثملة إلى هذا الحدّ حين وعدتني بذلك.

فقالت في نفاد صبر: ـ طيّب! وماذا في ذلك؟ إنّ الناس مدهشون بوعودهم.

فلم يجب ماتيو. وكان لديه إحساسٌ بأنّ أسئلة عاجلة كانت تُطرح عليه بلا هوادة: كيف السبيل إلى إيجاد خمسة آلاف فرنك قبل المساء؟ كيف السبيل إلى إعادة إيفيش إلى باريس في السنة القادمة؟ أيّ موقف يجب أن يتّخذه الآن تجاه مارسيل؟ ولم يكن لديه الوقت للتفكير، ولأن يعود إلى الأسئلة التي كانت أساس أفكاره منذ عشيّة الأمس: من أنا؟ ماذا فعلت

بحياتي؟ وإذ كان يلفت رأسه لينفض هذا الهمّ الجديد، رأى في البعيد طيف بوريس الطويل المتردِّد الذي كان يبدو عليه أنّه كان يبحث عنهما على السطيحة. وقال منزعجًا:

ـ هو ذا بوريس (ثم سألها وقد أخذه شكّ مزعج) أَأَنت التي قلت له أن يأتي؟

فقالت إيفيش مندهشة: ـ كلّا. كان عليّ أن ألقاه ظهرًا لأنّه.. لأنّه كان يقضي الليل مع لولا. فانظر إلى هيئته!

وكان بوريس قد رآهما، فأقبل عليهما. وعيناه مفتوحتان على سعتهما وثابتتان، وكان شاحب اللون، ويبتسم.

ـ صاح ماتيو: «مرحبًا»، فرفع بوريس إصبعين نحو صدغيه ليحيِّي تحيّته المألوفة، ولكنّه لم يستطع أن ينجز حركته. وألقى بيديه الاثنتين على الطاولة وأخذ يتأرجح على عقبيه من غير أن يقول كلمة. وكان ما يزال يبتسم. وسألته إيفيش:

ـ ما بالك؟! إنّك تشبه فرنكشتين!

قال بوريس: ـ ماتت لولا.

وكان ينظر أمامه باستقامة نظرة بلهاء. وبقي ماتيو بضع لحظات من غير أن يفهم، ثم غمره ذهول مصدوم:

ـ ماذا؟

وكان ينظر إلى بوريس: ولم يكن ينبغي التفكير بسؤاله على الفور، فأمسك بذراعه وقسره على الجلوس بالقرب من إيفيش. وكرّر بآليّة:

ـ ماتت لولا.

وأدارت إيفيش إلى أخيها عينين منفرجتين. وكانت قد تراجعت قليلاً وهي على المقعد، كما لو أنّها كانت تخاف أن تلمسه، وسألته:

ـ هل انتحرت؟

لم يجب بوريس، وأخذت يداه ترتجفان. فردّدت إيفيش بعصبيّة:

ـ تكلّم! هل قتلت نفسها؟ هل قتلت نفسها؟

فاتّسعت بسمة بوريس اتّساعًا مقلقًا، وكانت شفتاه ترقصان. وكانت إيفيش تحدِّق فيه وهي لا تني تشدّ على خصلات شعرها. فكّر ماتيو في غيظٍ: «إنّها لا تفهم». وقال:

ـ حسنًا. ستخبرنا فيما بعد. لا تتكلّم.

فبدأ بوريس يضحك، وقال:

ـ لو كنتما.. لو كنتما...

فصفعه ماتيو صفعة جافّة وصامتة، من طرف أصابعه. فكفّ بوريس عن الضحك ونظر إليه وهو يرتجف ثم تجمّع قليلاً والتزم الهدوء، فاغر الفم، بليد الهيئة. وكان الثلاثة صامتين، والموت بينهم، مغفل مقدَّس. ولم يكن ذلك حدَثًا، بل كان وَسطًا، مادّة معجّنة كان ماتيو يرى عبرها فنجان الشاي وطاولة المرمر ووجه إيفيش النبيل واللئيم. وسأل الخادم:

ـ وماذا يطلب السيِّد؟

وكان قد اقترب وهو ينظر إلى بوريس في سخرية. فقال ماتيو:

ـ أعطه كأس كونياك بسرعة (وأضاف بلهجة طبيعيّة) إنّ السيِّد مستعجل.

ابتعد الخادم وما لبث أن عاد يحمل زجاجة وقدحًا: فأحسّ ماتيو أنّه رخوٌ ومفرغ، وشعر آنذاك فقط بمتاعب الليل. وقال لبوريس:

ـ اشرب.

فشرب بوريس بوداعة. ووضع القدح وقال، كأنّما يحدِّث نفسه:

ـ ليس الأمر طريفًا!

قالت إيفيش وهي تقترب منه: ـ يا عزيزي، يا صغيري العزيز.

وابتسمت له بحنان، ثم أمسكت بشعره وهزّت رأسه.

قالت: ـ أنت هنا.. إنّ يديك حارّتان. فتنفّس بوريس في تأسٍّ.

قالت إيفيش: ـ والآن، إحك لنا. هل أنت واثق من أنّها ماتت؟

فقال بوريس في مشقّة: ـ لقد تناولتِ المخدِّر هذه الليلة، ولم تكن الأمور حسنة بيننا.

فقالت إيفيش بحيويّة: ـ فكان أن سمّمت نفسها.

قال بوريس: ـ لا أدري.

وكان ماتيو ينظر إلى إيفيش في ذعر: كانت تلاطف يد أخيها في حنان، ولكن شفتها العليا كانت تنكفئ بصورة غريبة فوق أسنانها الصغيرة. عاد بوريس يتكلّم بصوت أصمّ، ولم يكن يبدو أنّه يوجِّه إليهما الحديث:

ـ لقد صعدنا إلى غرفتها. فتناولت المخدِّر. وكانت قد تناولته في المرّة الأولى في مقصورتها، حين تنازعنا.

قال ماتيو: الواقع أنّ هذه لا بدّ أن تكون المرّة الثانية. وأظنّ أنّها قد تناولته بينما كنت ترقص مع إيفيش.

قال بوريس في تعب: ـ حسنًا. إذن ثلاث مرّات. ولم يسبق لها أن تناولت هذا القدر من قبل. وقد نمنا من غير أن نتبادل الكلام. وكانت تقفز في السرير، فلم أكن أستطيع النوم. ثم هدأت فجأة، فنمت.

وأفرغ كأسه واستطرد:

ـ واستيقظتُ هذا الصباح لأنّي كنت أختنق. وكانت ذراعها ممتدّة فوقي، فقلت لها: «انزعي ذراعك، إنّك تخنقينني». فلم تنزعها، فظننت أنّها تفعل ذلك رغبةً في المصالحة. فتناولت ذراعها، فإذا هي باردة، وقلت لها: «ما بالك؟» فلم تقل شيئًا. وعند ذاك، دفعت ذراعها بكلّ قوّتي فأوشكتْ أن تسقط على الأرض. وخرجت من السرير، فتناولت معصمها وضغطت عليها لأعيدها إلى استقامتها. كانت عيناها مفتوحتين. (وأضاف

في شيء من الغضب) لقد رأيت عينيها ولا أستطيع أن أنساهما.

قالت إيفيش: ـ يا عزيزي الصغير.

وكان ماتيو يجهد ليشفق على بوريس، ولكنّه لم يوفّق إلى ذلك. كان بوريس يبرمه أكثر من إيفيش، فكأنّه كان عاتبًا على لولا أن تموت.

وأضاف بوريس بلهجة رتيبة:

ـ وأخذت ثيابي فارتديتها، ولم أرد أن يجدوني في غرفتها. ولم يروني أخرج. ولم يكن ثمّة أحد على الصندوق. واستقللت تاكسي وأتيت.

سألته إيفيش في عذوبة: ـ هل أنت مهموم؟

وكانت قد انحنت عليه، من غير تعاطف مبالغ فيه. بدت وكأنّها تسأله توضيحًا:

ـ انظر إليّ، هل أنت مهموم؟

قال بوريس: ـ إنّني... (ونظر إليها وقال فجأة) إنّني أستفظع ذلك.

ومرّ الخادم فناداه: ـ أريد قدحًا آخر من الكونياك.

فسأله الخادم وهو يبتسم: ـ هل هو مستعجل كالقدح الأوّل؟

فقال ماتيو بجفاء: ـ هيّا، لبّ الطلب بسرعة.

وكان بوريس يثير اشمئزازه قليلاً، فهو لم يكن قد بقي له شيء من جماله الجافّ الصلب. كان وجهه الجديد يشبه وجه إيفيش أكثر ممّا ينبغي. وأخذ ماتيو يفكّر في جسد لولا متمدّدًا على سرير في غرفة فندق، وبعض رجال يلبسون القبّعات يوشكون أن يدخلوا الغرفة وأن ينظروا إلى هذا الجسم الباذخ في مزيج من الشهوة والهمّ المهني، وسيردّون عليه الغطاء ويرفعون قميص النوم بحثًا عن الجروح، وهم يفكّرون بأنّ مهنة المفتّش لا تخلو أحيانًا من مزايا. وارتعش وقال:

ـ أهي وحدها هناك؟

قال بوريس باهتمام: ـ نعم، وأعتقد أنّهم سيجدونها حوالى الظهر، إذ إنّ الخادمة دائمًا توقظها في مثل هذه الساعة.

قالت إيفيش: ـ أي بعد ساعتين.

وكانت قد استعادت هيئة الأخت الكبيرة، وهي تلاطف شعر أخيها بشفقة وزهو. وتركها بوريس تدلِّله، ثم صاح فجأة:

ـ يا إلٰهي!

وشتم. (كان بوريس يتكلّم العامِّيَّة ولكنّه لم يكن يشتم أبدًا).

فانتفضت إيفيش وسألته قلقة:

ـ ماذا فعلت؟

قال بوريس: ـ رسائلي!

ـ ماذا؟

ـ رسائلي. كنت غبيًّا فتركتها عندها.

ولم يكن ماتيو يفهم:

ـ رسائل كتبتها لها؟

ـ نعم.

ـ وإذن؟

ـ سيأتي الطبيب.. وسيعرفون أنّها ماتت مسمومة بالمخدِّرات.

ـ وهل كنت تتكلّم في رسائلك عن المخدِّرات؟

فقال بوريس في كآبة: ـ نعم.

وكان لدى ماتيو شعور بأنّ بوريس كان يمثِّل، فسأله:

ـ وهل تناولت مخدِّرًا أنت؟ (وكان منزعجًا أنّ بوريس لم يصارحه بذلك من قبل).

ـ إنّني.. لقد حدث لي ذلك. مرّة أو مرّتين، بداعي الفضول، ثم

إنّي أتحدّث عن شخص يبيع المخدِّرات، شخص من «البول ـ بلانش» كنت قد اشتريت منه كمّيّة للولا. ولا أريد أن يتضرّر بسببي.

قالت إيفيش: ـ أنت مجنون يا بوريس... كيف استطعت أن تكتب مثل هذه الأشياء؟

فرفع بوريس رأسه!:

ـ هل تتصوّرين هذا المغطس؟

قال ماتيو: ـ ولكن ربّما لا يجدونها؟

ـ إنّها أوّل شيء يجدونه. فإذا فرضنا أحسن الفروض، فسوف أُستدعى كشاهد.

قالت إيفيش: ـ أوه! كم سيغضب الوالد!

ـ قد يستدعيني إلى لاون ويُلصقني في مصرف.

فقالت إيفيش بصوت حزين: ستكون رفيقًا لي إذن.

ونظر ماتيو إليهما في إشفاق: «هما كذلك إذن!» وكانت إيفيش قد فقدت هيئتها المنتصرة: وكانا، وهما قابعان أحدهما إزاء الآخر، ممتقعين واهنين، يشبهان عجوزتين قصيرتين. وساد صمت، ثم لاحظ ماتيو أنّ بوريس كان ينظر إليه من طرف عينيه، وكان حول فمه ظلٌّ من الخبث، خبث فقير ضعيف، وفكّر ماتيو منزعجًا: «إنّ هناك مؤامرة».

وسأله: ـ تقول إنّ الخادمة تأتي ظهرًا لإيقاظها؟

ـ نعم، إنّها تدقّ الباب حتى تفتح لها لولا.

ـ حسنًا، إنّها الساعة العاشرة والنصف، وأمامك الوقت لتعود إلى هناك وتلمّ رسائلك. خذ تاكسي، إِن أَردت، بل بوسعك أن تستقلّ الأوتوبيس.

وأدار بوريس عينيه وقال: لا أستطيع.

ـ لا أستطيع أن أعود إلى هناك.

ففكّر ماتيو: «ها نحن قد وصلنا إلى المقصود». وسأله:

ـ هل هذا مستحيل عليك حقًّا؟

ـ لا أستطيع.

ورأى ماتيو أنّ إيفيش كانت تنظر إليه، فسأله:

ـ أين هي رسائلك؟

ـ في صندوق صغير أسود أمام النافذة. وفوق الصندوق محفظة ليس عليك إلّا أن تدفعها، وسترى هناك ركامًا من الرسائل، ورسائلي مربوطة بشريط أصفر.

وانتظر لحظة ثم أضاف بلهجة لامبالاة:

ـ وهناك أيضًا رزم ماليّة.

رزم ماليّة. وصفّر ماتيو بهدوء، وكان يفكّر: «الصبيُّ ليس مجنونًا، فقد فكّر في كلّ شيء، حتى فيَ أن يدفع لي».

ـ وهل الصندوق مقفل بالمفتاح؟

ـ نعم، والمفتاح في محفظة لولا، والمحفظة على الطاولة. ستجد رزمة فيها مفتاح صغير مسطّح. وهذا هو.

ـ وما رقم الغرفة؟

ـ ٢١، الطابق الثالث، الغرفة الثانية إلى اليسار.

قال ماتيو: ـ طيّب. إنّني ذاهب إليها.

ونهض. كانت إيفيش ما تزال تنظر إليه، وكان يبدو الارتياح على بوريس. وقد ردّ شعره إلى خلف في رشاقة، وقال وهو يبتسم: إذا أُوقفت، فليس لك إلّا أن تقول إنّك ذاهب إلى «بوليفار» وهو زنجيّ مرقص «كامتشاتكا» وأنا أعرفه. إنّه يسكن أيضًا في الطابق الثالث.

قال ماتيو: ـ انتظراني هنا.

وكان قد اتّخذ بالرّغم منه لهجة آمرة، وأضاف بهدوء:

ـ سأعود بعد ساعة.

قال بوريس: ـ سننتظرك.

ثم أضاف بلهجة إعجاب وعرفان مضطرب: ـ إنّك شخص من ذهب.

وخطا ماتيو بضع خطى في جادّة مونبارناس، مسرورًا بأن يكون وحيدًا. وخلفه، كان بوريس وإيفيش على أهبّة أن يتهامسا، وأن يشكّلا من جديد عالمهما الثمين الذي لا يمكن تنشّقه. غير أنّه لم يكن يكترث لذلك. فقد كانت حوله شظايا هموم الأمس: حبّه لإيفيش، حَبَل مارسيل، المال، ووسط ذلك لطخةٌ عمياء: الموت. وأرسل بضع مرّات تنهّدة «أف» وهو يمرّ يديه على جبينه ويفرك خدّيه. وفكّر: «مسكينة لولا، كنت أحبّها كثيرًا»، ولكن لم يكن له هو أن يأسف عليها: لقد كان هذا الموت ملعونًا لأنّه لم يتلقّ أيّة عقوبة ولم يكن له هو أن يعاقبه. لقد سقط ثقيلاً في نفس مستهامة وكان يُحدث فيها دوائر. وعلى هذه النفس الصغيرة وحدها كانت تقع تبعة التفكير بهذا الموت وافتدائه. ليت بوريس أحسّ بوميض من الحزن!... إنّه في الحقيقة لم يستشعر إلّا الفظاعة. وسوف يبقى موت لولا أبدًا على هامش العالم، مُبعدًا أبدًا من مكانه الطبيعي، كأنّه عتاب: «لقد ماتت كالكلب» وكانت هذه فكرةً لا تُطاق. وصاح ماتيو:

ـ تاكسي.

وحين استقرّ به المقام في السيّارة، أحسّ أنّه أصبح أهدأ من ذي قبل. بل هو قد شعر بإحساسٍ من الرفعة المطمئنة كما لو أنّه غفر لنفسه فجأة أن لا يكون بعد في سنّ إيفيش، أو كما لو أنّ الشباب فقد فجأة قيمته. وقال في اعتزاز مرّ: «إنّهما يتوقّفان عليّ». وكان أفضل ألّا يقف التاكسي بالقرب من الفندق.

ـ إلى ملتقى شارعيْ نافارين وهارتير.

وكان ماتيو ينظر إلى صفّ البنايات الكبيرة الحزينة في جادّة راسباي. وردّد: «إنّهما يتوقّفان عليّ». كان يُحسّ أنّه صلب بل وكثيف بعض الشيء. ثم أظلم زجاج النوافذ ودلفت السيّارة إلى مدخل شارع «باك» الضيّق. وفجأة أدرك ماتيو أنّ لولا قد ماتت، وأنّه داخلٌ إلى غرفتها ليرى عينيها مفتوحتين على سعتهما وجسمها الأبيض. وعزم قائلاً: «لن أنظر إليها». كانت ميّتة. كان وجدانها قد تلاشى، لا حياتها. كلّ ما هنالك أنّ هذه الحياة الخالية قد توقّفت بعد أن غادرها الوحش الطريّ الرقيق الذي سكنها طويلاً جدًّا، كانت ترفرف وهي ملأى بصرخات لا أصداء لها، وبآمال غير مجدية، وببروق مظلمة، وبأشكال وروائح باطلة.. كانت ترفرف على هامش العالم، ولا تُنسى، وليست دون المعدن قابليّةً للهدم، ولم يكن ثمّة ما يمنع من أن تكون قد وُجدت، وأنّها قد بلغت درجة تغيّرها القصوى: إنّ مستقبلها قد تخثّر. وفكّر ماتيو: «إنّ حياة إنسان ما تُصنع بالمستقبل، كما تُصنع الأجسام بالفراغ». خفض رأسه: وكان يفكّر بحياته نفسها. كان المستقبل قد اخترقها حتى الصميم. وكان كلّ شيء فيه معلّقًا، مؤجّلاً. إنّ أبعد أيّام طفولته، اليوم الذي قال فيه: سأكون حرًّا، واليوم الذي قال فيه: سأكون كبيرًا، كانت تبدو له حتى اليوم، بمستقبلها الخاصّ، كسماء شخصيّة صغيرة صريحة فوقها، وهذا المستقبل إنّما كان هو: هو كما هو الآن، متعبًا آخذًا في النضج. كان لتلك الأيّام حقوق عليه، عَبْر هذا الزمن الطويل المنصرم، وكانت تتمسّك بمتطلّباتها، كان يأخذه غالبًا ندم ساحق، لأنّ حاضره اللامبالي المشمئزّ من كلّ شيء، إنّما كان المستقبل القديم لهذه الأيّام المنصرمة. لقد كان هو الذي انتظرته عشرين عامًا، ومنه، من هذا الإنسان المتعب، طلب طفلٌ قاس أن يحقّق له آماله، وكان يتوقّف عليه أن تظلّ هذه العهود الطفوليّة طفوليّة إلى الأبد أو أن تصبح الإرهاصات الأولى لقدرٍ ما. إنّ ماضيه لم يكن يكفّ عن أن يتعرّض لتعديلات

الحاضر، وكان كلّ يوم يزيد أحلام العظمة هذه القديمة خيبة، ولكلّ يوم مستقبل جديد، ومن انتظار إلى انتظار، ومن مستقبل إلى مستقبل، كانت حياة ماتيو تتسرّب على مهل.. نحو ماذا؟

نحو لا شيء. وفكّر في لولا: لقد ماتت ولم تكن حياتها إلّا انتظارًا، كحياة ماتيو. وقد وُجدت هناك بكلّ تأكيد، في صيف قديم ما، طفلةٌ صغيرة ذات خصلات حمراء، أقسمت بأن تكون مغنّية كبيرة، وحوالى ١٩٢٣ أيضًا، مغنِّية شابّة نفد صبرها في انتظار أن تصبح نجمة مشهورة. وحبّها لبوريس، هذا الحبّ العظيم الذي تكنّه عجوز، والذي عانت منه كثيرًا، كان معلّقًا منذ اليوم الأوّل، لقد كان، حتى الأمس، ينتظر وهو غامض مترنِّح وجهة مستقبله، حتى الأمس كانت تفكِّر أنّها ستعيش، وبأنّ بوريس سيحبّها يومًا، ولم تكن اللحظات الأكثر امتلاء، والأوفر ثقلاً، ولم تكن ليالي الحبّ التي بدت لها أشدّ خلودًا ـ كلّ ذلك لم يكن إلّا انتظارات.

ولم يكن ثمّة ما يُنتظر: كان الموت قد ارتدّ إلى خلف، نحو جميع هذه الانتظارات فأوقفها، فإذا هي جامدة خرساء، لامعقولة، ولا هدف لها. لم يكن ثمّة ما يُنتظر: إنّ أحدًا لن يعرف أبدًا إذا كانت لولا ستنجح آخر الأمر في حمل بوريس على حبّها، ولم يكن للقضيّة معنى. لقد ماتت لولا، فلم يبق ثمّة أيّة حركة تُعمل، ولا أيّة ملاطفة، ولا أيّ ابتهال، لم يبق ثمّة إلّا انتظاراتُ الانتظارات، إلّا حياة منفَّسَة ذات ألوان مختلطة، حياة تسترخي على نفسها. وفكّر ماتيو فجأة: «إذا متّ اليوم، فلن يعرف أحدٌ أبدًا إذا كنت هالكًا أو إذا كنت ما أزال أحتفظ بفرصٍ لإنقاذ نفسي».

وتوقّف التاكسي، فهبط ماتيو وقال للسائق: «انتظرني» وعبر الرصيف مواربًا ودفع باب الفندق، دلف إلى ممرّ مظلم مفعم بالعطر. وفوق باب زجاجي، إلى اليسار، كان ثمّة مستطيل منقّش بالمينا: «الاتّجاه»، ألقى ماتيو نظرة عبر الزجاج: كانت القاعة تبدو خالية، ولم يكن يسمع إلّا تكتكة

ساعة، كان زبائن الفندق من مغنّيات وراقصين وزنوج جاز يعودون في ساعة متأخِّرة، ويستيقظون في ساعة متأخِّرة: كان كلّ شيء ما يزال ينام. وفكّر ماتيو: «ينبغي ألّا أصعد بأسرع ممّا يجب» وكان يشعر بأنّ قلبه يخفق، وكانت ساقاه رخوتين: توقّف عند الطابق الثالث ونظر فيما حوله. كان المفتاح في الباب «وإذا كان ثمّة أحد؟» وأرهف أذنه لحظة ثم طرق، فلم يجب أحد. وفي الطابق الرابع، شدّ أحدهم على مُفرغ الماء، فسمع ماتيو هديرًا متتابعًا أعقبته ضجّة صغيرة مائعة وصافرة. دفع الباب ودخل.

كانت الغرفة مظلمة، وكانت ما تزال تحتفظ برائحة النوم الدبقة. حدَّق ماتيو في الظلام، وكان مُتَشوِّقًا لأن يقرأ الموت على ملامح لولا، كما لو أنّ ذلك كان عاطفة إنسانيّة. كان السرير إلى اليمين، في داخل الغرفة. ورأى ماتيو لولا، بيضاء كلّها، تنظر إليه، فهمس: «لولا؟» فلم تجب لولا. وكان لها وجه معبِّر تعبيرًا مدهشًا، ولكنّه كان ممتنعًا على الفهم، وكان نهداها عاريين، وإحدى ذراعيها الجميلتين ممتدّة في تصلّب فوق السرير، والأخرى غارقة تحت اللّحاف. ردّد ماتيو وهو يقترب من السرير: «لولا!» ولم يكن يستطيع أن ينزع بصره عن ذلك الصدر المعتزّ، وكانت به رغبةٌ لأن يلمسه. بقي لحظات عند حافّة السرير متردِّدًا قلقًا، تُسمِّم جسمه رغبةٌ حرِّيفة، ثم انفتل وتناول بسرعة محفظة لولا عن الطاولة. وكان المفتاح المسطّح في المحفظة: فأخذه ماتيو واتّجه إلى النافذة. كان نهارٌ رماديٌّ يتسلّل عبر الأستار، وكانت الغرفة ملأى بحضور جامد: ركع ماتيو أمام الصندوق، وكان الحضور الذي لا يُرَدُّ هناك، في ظهره، كأنّه نظرة. أدخل المفتاح في القفل، ورفع الغطاء فأغرق كلتا يديه في الصندوق، فاندعكت أوراق تحت أصابعه. وكانت أوراقًا ماليّة. وكان ثمّة عدد وافر منها، أوراق من ذات الألف فرنك. تحت ركام من الإيصالات والحسابات، كانت لولا قد أخفت رزمة من الرسائل معقودة بشريط أصفر. رفع ماتيو الرزمة إلى النور وتفحّص الخطّ وقال هامسًا: «هذه هي» ثم

وضعها في جيبه. ولكنّه لم يكن يستطيع أن يذهب، وظلّ على ركبتيه، ونظره محدّد في الأوراق الماليّة. وبعد لحظة، فتّش بعصبيّة في هذه الأوراق واختار بعضها من غير أن ينظر إليها. وفكّر: «هذه أجرتي». وكانت خلفه هذه المرأة الطويلة البيضاء ذات الوجه المندهش، ويبدو على الذراعين أنّ بوسعهما أن تمتدّا أبعد، وعلى الأظافر الحمراء أن تخمش بعد. ونهض يمسح ركبتيه بظاهر يده اليمنى. وكانت يده اليسرى تقبض على رزمة من الأوراق الماليّة. وفكّر: «لقد حُلّت مشكلتنا» وكان يتأمّل الأوراق في تبرّم «لقد حُلّت مشكلتنا . . . » وكان يرهف أذنه بالرّغم منه، ويصغي إلى جسم لولا الصامت. كان يشعر أنّه مسمّر في مكانه، وتمتم في استسلام: «حسنًا!» وانفرجت أصابعه، فسقطت الأوراق الماليّة مستديرةً في الصندوق. وعاد ماتيو يغلق الغطاء وأقفل القفل ثم وضع المفتاح في جيبه وخرج من الغرفة في خطى ذئب.

بهره النور، وقال في ذعر «لم آخذ المال». وظلّ جامدًا ويده على حاجز السلّم، وكان يفكّر: «إنّني ضعيف!» كان يفعل ما بوسعه ليرتجف غضبًا، ولكنّ المرء لا يستطيع أبدًا أن يغضب حقًّا على نفسه. وفكّر فجأة في مارسيل، وفي العجوز الكريهة ذات اليدين الخانقتين فأخذه خوف حقيقي: «لم يكن ثمّة إلّا حركة وحيدة تُعمل للحيلولة دون أن تتألّم، ولتجنيبها مشكلة قذرة لا بدَّ أن تطبعها. ولم أستطع: إنّني أرقّ ممّا ينبغي. هيّا أيّها الصبيّ الشاطر! (وفكّر وهو ينظر إلى يده المعصوبة) ولكنّني أستطيع بعد هذا أن أطعن يدي بالسكّين لأتظاهر بأنّي المشؤوم الكبير أمام الأوانس: إنّني لن أبلغ أبدًا أن آخذ نفسي بالجدّ». سوف تقصد العجوز، ليس ثمّة مخرج آخر، وسيكون عليها هي أن تبدو رابطة الجأش، وأن تصارع الضيق والفظاعة، وفي هذه الأثناء، سيتمالك نفسه وهو يشرب أقداح الروم في حانة. وفكّر مذعورًا: «كلّا، لن تذهب. سوف أتزوّجها، ما دمت لا أصلح إلّا لهذا». وفكّر: «سأتزوّجها». وهو يضغط بشدّة يده

المجروحة على الحاجز. وخيّل إليه أنّه كان يغرق. وتمتم: «كلّا! كلّا!» وهو يرتدّ برأسه إلى خلف، ثم تنفّس بقوّة، واستدار حول نفسه، فعبر الممرّ وعاد إلى الغرفة. واستند إلى الباب كما فعل في المرّة الأولى وحاول أن يعوِّد عينيه على الظلام.

لم يكن واثقًا حتى من أنّه يستطيع أن يسرق. وخطا بضع خطوات متردِّدة وتميّز أخيرًا وجهَ لولا الرمادي وعينيها المفتوحتين اللتين كانتا تنظران إليه.

وسألت لولا: ـ من هناك؟

وكان صوتًا ضعيفًا ولكنّه شرس. ارتعش ماتيو من الرأس حتى القدمين، وفكّر: «ذلك الأبله!»

ـ أنا ماتيو:

وساد صمت طويل ثم سألت لولا:

ـ كم هي الساعة؟

ـ الحادية عشرة إلّا ربعًا.

قالت: إنّ بي صداعًا.

ورفعت غطاءها حتى ذقنها وظلّت جامدة، وعيناها تحدِّقان في ماتيو. كان لا يزال يبدو عليها أنّها ميّتة. وسألته:

ـ أين بوريس؟ وماذا تفعل هنا؟

فقال ماتيو موضحًا بسرعة: ـ لقد كنتِ مريضة.

ـ وماذا حدث لي؟

ـ كنتِ متصلِّبة مفتوحة العينين. وكان بوريس يحدِّثك فلا تجيبين. وقد خاف.

ولم يكن يبدو على لولا أنّها تسمع. ثم ندّت عنها فجأة ضحكة كريهة

سرعان ما خنقتها. وقالت في جهد:

ـ لقد حسب أنِّي متّ؟

فلم يجب ماتيو.

ـ أليس كذلك؟ لقد حسب أنّي متّ؟

فقال ماتيو متهرِّبًا: ـ لقد خاف.

فنفحت لولا قائلة: ـ أوف.

وعاد الصمت من جديد. وكانت قد أغمضت عينيها. كان فكّاها يرتجفان، وكان يبدو أنّها تبذل جهدًا عنيفًا لتستردّ حواسّها. قالت وما تزال عيناها مغمضتين:

ـ ناولني محفظتي، إنّها على طاولة الليل.

فمدّ لها ماتيو المحفظة، فأخرجت منها علبة بودرة ونظرت إلى مرآتها في نفور، وقالت: ـ صحيح أنِّي أبدو بهيئة الميتة.

ووضعت المحفظة على السرير وهي ترسل تنهّدة إرهاق، وأضافت:

ـ الواقع أنِّي لا أساوي خيرًا من ذلك.

ـ هل تشكين شيئًا؟

ـ أشكو. غير أنِّي أعرف ما هو، وسوف يزول في النهار.

ـ هل أنت بحاجة لشيء؟ أتريدينني أن أستقدم الطبيب؟

ـ لا، احتفظ بهدوئك. إنّ بوريس هو الذي أرسلك إذن؟

ـ نعم. لقد كان يُجنّ.

وسألت لولا وهي تستوي قليلاً: ـ هل هو تحت؟

ـ لا... كنت... كنت في «الدوم».. أعني.. إنّه جاء يبحث عنِّي هناك، فقفزت إلى تاكسي، وهأنذا.

وسقط رأس لولا من جديد على الوسادة.

ـ شكرًا على كلّ حال.

وأخذت تضحك. ضحكة لاهثة شاقّة.

ـ على العموم حصل الملاك الصغير على القسيمات، وقد افرنقع من غير أن يسأل عن الباقي. ثم إنّه أوفدك إلى هنا لتتأكّد من أنّي قد متّ حقًّا.

ـ قال ماتيو: ـ لولا!

فقالت لولا: ـ حسنًا. لا حاجة إلى الشعوذات!

وعادت تغمض عينيها، فحسب ماتيو أنّها سيغمى عليها. ولكنّها استطردت بجفاف بعد لحظة:

ـ أتريد أن تدعوه إلى أن يطمئن. فأنا لست في خطر، وإنّما هي توعّكات تأخذني أحيانًا... على كلّ حال سيعرف هو لماذا. إنّه القلب الذي يرتخي قليلاً. قل له أن يأتي إلى هنا فورًا. إنّني أنتظره. وسأبقى هنا حتى المساء.

فقال ماتيو: ـ حسنًا. ألست حقًّا بحاجة إلى أيّ شيء؟

ـ كلّا، سأشفى حتى المساء، وسأذهب لأغنّي هناك.

وأضافت: ـ إنّه لم ينتهِ معي بعد.

ـ إذن، إلى اللقاء.

وتوجّه إلى الباب ولكنّ لولا نادته. وقالت بصوت مبتهل:

ـ هل تَعِدني بأن تحمله على المجيء؟ لقد... لقد تخاصمنا قليلاً مساء أمس، فقل له إنّي لست عاتبةً عليه بعد، وإنّه لن يكون ثمّة أيّة قضيّة. ولكن ليأتِ! أرجوك، ليأتِ إنّني لا أستطيع أن أتحمّل فكرة أن يظنّني قد متّ.

كان ماتيو متأثّرًا وقال:

ـ حسنًا، سأرسله لك.

وخرج. كانت رزمة الرسائل التي كان قد وضعها في جيب سترته

الداخلي تثقل صدره. وفكّر ماتيو: «كيف سيستقبل النبأ! وينبغي أن يُعيد له المفتاح، وسوف يتدبّر أمره ليضعه من جديد في المحفظة». وحاول أن يردِّد بجذل: «لقد كنت متبصِّرًا إذ لم آخذ المال!» ولكنّه لم يكن جذلاً، فسيّان أن يكون جبنه قد أعقب نتائج مرضية: المهمّ أنّه لن يستطع أن يأخذ المال. وفكّر. «مهما يكن، فإنِّي مسرور أنّها لم تمت».

وصاح السائق:

ـ هيه! من هنا يا سيّدي!

فالتفت ماتيو شاردًا:

ـ ماذا؟ آه، ها أنت؟ (وتذكّر السائق) حسنًا! خُذني إلى «الدوم».

وجلس، فأقلع التاكسي.. وكان يودّ أن يطرد فكرة هزيمته المُذلّة. فأخذ رزمة الرسائل وفكّ عقدتها وأخذ يقرأ. وكانت كلمات صغيرة جافّة كتبها بوريس من «لاون» في أثناء عطلة الفصح، وكان الحديث يجري فيها أحيانًا عن الكوكايين، ولكن بعبارات بلغ من تسترّها أنّ ماتيو قال في نفسه مندهشًا: «لم أكن أعلم أنّه كان حذرًا». وكانت جميع الرسائل تبدأ بعبارة «حبيبتي لولا» ثم كانت مختصرات مقتضبة عن أيّام بوريس. «إنّني أسبح. لقد تخاصمت مع أبي. تعرّفت إلى مصارع قديم سيعلِّمني المصارعة الحرّة. دخّنت سيكارة «هنري كلاي» حتى آخرها من غير أن أسقط رمادها». وكان بوريس ينهي رسائله كلّها بهذه الكلمات: «أحبّكِ حبًّا قويًّا وأقبّلك ـ بوريس». وتخيّل ماتيو بغير مشقّة الظروف التي كانت تقرأ فيها هذه الرسائل، وخيبتها المتوقّعة دائمًا، والجديدة مع ذلك دائمًا، والجهد الذي كان عليها أن تبذله كلّ مرّة لتقول في اندفاع: «إنّه في صميمه يحبّني، وكلّ ما هنالك أنّه لا يعرف أن يقول ذلك». وفكّر: «ومع ذلك فقد احتفظت بهذه الرسائل». وعاد يعقد الرسائل ويضع الرزمة في جيبه: «ينبغي أن يتدبّر بوريس الأمر بإعادتها إلى الصندوق من غير أن تراه». وحين توقّف التاكسي، كان يخيّل لماتيو أنّه كان حليف لولا الطبيعي. ولكنّه لم يكن

يستطيع أن يفكّر فيها إلّا على النحو الذي يفكّر فيه بالماضي. وحين دلف إلى «الدوم» كان لديه إحساس بأنّه قادم ليدافع عن ذكرى امرأة ميّتة.

كان يخيّل للمرء أنّ بوريس لم يأت حركة واحدة منذ ذهاب ماتيو. فقد كان جالسًا في ركن، مقوّس الكتفين، فاغر الفم، مقروص المنخرين. وكانت إيفيش تهمس في أذنيه بحيويّة.. ولكنّها صمتت حين رأت ماتيو داخلاً. واقترب ماتيو ورمى رزمة الرسائل على الطاولة، وقال:

ـ هذه هي.

فتناول بوريس الرسائل وأخفاها بسرعة في جيبه. وكان ماتيو ينظر إليه بلا ودّ وسأله بوريس:

ـ هل كان الأمر أصعب ممّا ينبغي؟

ـ لم يكن صعبًا على الإطلاق ولكن اسمع: إنّ لولا لم تمت.

فرفع بوريس عينيه نحوه، وكان يبدو عليه أنّه لم يفهم، فردّد ببلادة:

ـ لم تمت لولا.

وزاد استرخاؤه، وكان يبدو مسحوقًا. وفكّر ماتيو: «عجبًا! لقد ابتدأ يألف فكرة موتها».

وكانت إيفيش تنظر إلى ماتيو بعينين ينبعث منهما الشرر، وقالت:

ـ لقد راهنت على ذلك! ممَّ كانت تشكو؟

فأجاب ماتيو بتصلّب: ـ مجرّد إغماء.

وصمتوا. كان بوريس وإيفيش يأخذان وقتهما ليهضما النبأ. وفكّر ماتيو: «إنّها مهزلة». رفع بوريس رأسه أخيرًا، وكانت له عينان زجاجيّتان، فسأله:

ـ وهي... هي التي أعطتك الرسائل؟

ـ كلّا، كانت ما تزال غائبة عن الوعي حين أخذتها.

فشرب بوريس جرعة كونياك ثم وضع القدح على الطاولة، وقال كأنّما يحدِّث نفسه:

ـ هكذا إذن!

ـ هي تقول إنّ هذا يحدث لها أحيانًا حين تتناول المخدِّر. وقالت لي إنّك لا بدّ تعرف ذلك.

فلم يجب بوريس، وكان يبدو على إيفيش أنّها تمالكت وعيها فسألته في فضول:

ـ ماذا قالت؟ لا بدّ أنّها اضطربت حين رأتك أمام سريرها؟

ـ لم تضطرب أكثر ممّا ينبغي. قلت إنّ بوريس خاف وأنّه قد أتى يطلب معونتي. وبالطبع، قلت إنِّي قد جئت لأرى ماذا هناك. (وقال لبوريس) سوف تذكر ذلك طويلاً. حاول ألّا تتناقض في أقوالك. ثم إنّك ستتدبّر الأمر لإعادة الرسائل حيث كانت من غير أن تلاحظ هي ذلك.

وأمرَّ بوريس يده على جبينه، وقال:

ـ إنّ ذلك أقوى منِّي. فأنا أتمثّلها ميِّتة.

ونفد صبر ماتيو:

ـ إنّها تريدك أن تذهب لرؤيتها في الحال.

فردّد بوريس كأنّما يعتذر:

ـ كنت... كنت أظنّ أنّها ماتت.

فقال ماتيو مغتاظًا:

ـ كلّا! إنّها لم تمت. خذ تاكسي واذهب للقائها.

فلم يتحرّك بوريس، فسأله ماتيو:

ـ أتسمع؟ إنّها شقيّة كالصخور، تلك المرأة الطيِّبة.

ومدّ يده ليمسك بذراع بوريس، ولكنّ بوريس تخلّص بهزّة عنيفة،

وصاح بصوت شديد لفت إليه نظر امرأة كانت على السطيحة: «كلّا!» ثم أضاف بصوت منخفض في عناد رخوٍ لا يُقهر: «لن أذهب».

قال ماتيو مندهشًا:

ـ ولكن.. لقد انتهت مشاكل الأمس: لقد وعدت ألّا تُثار مرّة أخرى.

قال بوريس وهو يهزّ كتفيه: ـ أوه! مشاكل الأمس...

ـ وإذن، ماذا؟

فنظر إليه بوريس نظرة استياء:

ـ إنّني أشمئزّ منها!

لأنّك ظننت بأنّها قد ماتت؟ اسمع يا بوريس: تمالك نفسك. إنّ هذه حكاية تهريج. لقد أخطأت، والآن، انتهى الأمر.

قالت إيفيش في حماسة:

ـ إنّني أرى أنّ بوريس على حقّ.

وأضافت بلهجة كانت تحمل قصدًا لم يدركه ماتيو:

ـ إنّني... لو كنت مكانه لفعلت مثله.

ـ ولكنّي أراك لا تفهمين! إنّه سيجعلها تقتل نفسها حقًّا!

فهزّت إيفيش رأسها، وكانت تبدو بوجهها الصغير الكئيب الحانق. رماها ماتيو بنظرة كره وفكّر: «إنّها تجعله يركب رأسه».

قالت إيفيش:

ـ إذا رجع إليها، فإنّما يكون ذلك بدافع الشفقة. وأنت لا تستطيع أن تطلب ذلك منه: فليس ثمّة ما هو أدعى للاشمئزاز، حتى بالنسبة إليها.

ـ ليحاول على الأقلّ أن يراها. وسوف يرى.

فبدت على وجه إيفيش تكشيرة نفاد الصبر، وقالت:

ـ هناك أشياء لا تحسّ بها.

ظلّ ماتيو مشدوهًا، وانتهز بوريس الفرصة وقال بصوت مصدوم:

ـ لا أريد أن أراها ثانية. لقد ماتت، في نظري.

فصاح ماتيو: ـ ولكن هذا موقف سخيف!

فنظر إليه بوريس نظرة كئيبة:

ـ لم أكن أريد أن أقولها لك، ولكن إذا رأيتها وجب عليّ أن ألمسها (وأضاف بنفور) وهذا... ما لا أطيقه.

وأحسّ ماتيو بعجزه. وكان ينظر في تعب إلى هذين الوجهين المعاديين، وقال:

ـ حسنًا! إذن انتظر قليلاً... ريثما تمّحي هذه الذكرى.. قل لي إنّك ستراها غدًا أو بعد غد.

فبدا الانفراج على بوريس وقال بلهجة مزيّفة: ـ هو كذلك. غدًا.

وأوشك ماتيو أن يقول له: «على الأقلّ تلفن لها بأنّك لا تستطيع أن تذهب إليها. ولكنّه أمسك، وفكّر: «لن يفعل ذلك. سأتلفن أنا نفسي». ونهض وهو يقول لإيفيش:

ـ يجب أن أذهب لأرى دانيال. متى ستعلن النتائج؟ الساعة الثانية؟

ـ نعم.

ـ أتريدين أن أذهب لأراها؟

ـ لا، شكرًا. سيذهب بوريس.

ـ ومتى أراكِ؟

ـ لا أدري.

ـ أرسلي كلمة عاجلة على التوّ إذا نجحتِ.

ـ نعم.

وابتعد ماتيو وهو يقول:

ـ لا تنسي! إلى اللقاء!

فأجابا معًا:

ـ إلى اللقاء!

هبط ماتيو إلى الطابق الأرضي من «الدوم» وفتح دليل التلفون. مسكينة لولا! إنّ بوريس سيعود غدًا بلا شكّ إلى «سومطرا». «ولكن هذا اليوم الذي ستقضيه في انتظاره... إنّني لا أتمنّى أن أكون مكانها!».

وسأل عاملة التلفون السمينة:

ـ هل تريدين أن تعطيني «ترودين ـ ٣٥..؟»

فأجابت: ـ الغرفتان محجوزتان. يجب أن تنتظر.

وانتظر ماتيو، وكان يرى من بابين مفتوحين بلاط المغاسل الأبيض. مساء أمس، أمام «مغاسل» أخرى... ذكرى غرام طريفة؟

وأحسّ بأنّه يفيض حقدًا على إيفيش. وقال في نفسه: «إنّهما يخافان الموت. إنّهما لا يكفيهما أن يكونا نضرين نظيفين، فإنّ نفسيهما كئيبتان، لأنّهما خائفان. خائفان من الموت، من المرض، من الشيخوخة. إنّهما يتشبّثان بشبابهما كما يتشبّث محتضر بالحياة. كم مرّة رأيت إيفيش تربت على وجهها أمام مرآة: إنّها ترتجف منذ الآن خشية التجاعيد. إنّهما ينفقان وقتهما في اجترار شبابهما، ولا يرسمان مشاريع إلّا لمدى قصير، كما لو أنَّ ليس أمامهما إلّا خمسة أعوام أو ستّة. وبعد ذلك.. بعد ذلك، تتحدّث إيفيش عن عزمها على الانتحار، ولكنّي مطمئنّ، فهي لن تجرؤ أبدًا: إنّما هما سيحرِّكان رمادًا. لقد تجعّد وجهي، في آخر المطاف، ولي جلد تمساح، وعضلات تتعقّد، ولكن لا تزال أمامي أنا سنوات أعيشها... لقد بدأت أعتقد أنّنا نحن الذين كنّا شبّانًا. كنّا نريد أن نصبح رجالاً، وكنّا مضحكين، ولكنّي أتساءل عمّا إذا كانت الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الشباب هي

أن لا ينساه المرء». ولكنّه ظلّ على قلق. وكان يحسّهما فوق، رأسًا إلى رأس، متهامسين ضالعين، وقد كانا مع ذلك ساحرين. وسأل:

ـ هل جاء دوري؟

فأجابت المرأة السمينة باستياء:

ـ لحظة يا سيِّدي. عندي زبون قد طلب «أمستردام».

وانفتل ماتيو وخطا خطوات: «لم أستطع أن آخذ المال!»

وكانت امرأة تهبط السلّم، منتعشة خفيفة، من هاتيك اللواتي يقلن بوجوه فتيات صغيرات: «أريد أن أبوّل!» ورأت ماتيو، فترددت ثم استعادت مشيتها بخطى واسعة زلِقة، ينبعث منها العطر والجذل. ودخلت إلى المغاسل. «لم أستطع أن آخذ المال: إنَّ حرِّيّتي أسطورة. أسطورة ـ كان برونيه على حقّ ـ وحياتي تنبني تحتها في دقّة آليّة. عدم، الحلم الفخور الكئيب بألّا أكون شيئًا، بأن أكون دائمًا شيئًا آخر غير ما أنا. إنّما أنا أتصنّع الطفولة مع هذين الصغيرين منذ عام، حتى لا أكون في سنِّي الحقيقيّة. عبث: فإنّني رجل، شخص كبير، إنّه شخص كبير، سيّد؛ ذلك الذي قبّل إيفيش الصغيرة في تاكسي. وإنّما أنا أكتب في صحفٍ يساريّة حتى لا أكون في طبقتي. عبث: فإنّني بورجوازي، لم أستطع أن آخذ مال لولا، لقد أخافتني مقدّساتهم. وحتى أفلت من حياتي، أهمس ذات اليمين وذات اليسار، بعد استئذان مارسيل، بأنّي أرفض في عناد أن أقصد المختاريّة؛ عبث: فأنا متزوِّج، وأعيش حياة زواج». وكان قد تناول الدليل، وكان يقلِّب صفحاته في شرود وقرأ: «هوليبيك: مؤلِّف مسرحي، الشمال ٧٧ ـ ٨٠»، وكان يحسّ بألم في قلبه، وقال: هكذا. إنّ إرادتي بأن أكون ما أنا، هي الحرِّيّة الوحيدة الباقية لي. حرِّيّتي الوحيدة: إرادة الزواج بمارسيل». وكان متعبًا جدًّا بأن يحسّ نفسه متأرجحًا بين تيّارات متضادّة حتى إنّه استشعر من ذلك بعض العزاء. وضغط على قبضتيه،

وهمهم برصانة شخص كبير، بورجوازي، سيِّد، ربّ أسرة: «أريد أن أتزوّج مارسيل».

تْفِهْ! كانت كلمات، وكان اختيارًا طفوليًّا عابثًا. وفكّر: «هذا أيضًا، هذا أيضًا، كذب: لست بحاجة إلى إرادة لكي أتزوّجها؛ فليس لي إلّا أن أدعني أمضي». وأغلق الدليل، وكان ينظر مرهقًا إلى بقايا كرامته الإنسانيّة. وفجأة خُيّل إليه أنّه كان يرى حرِّيّته. كانت خارج المتناوَل، قاسية، فتيّة، جامحة كالجمال: وكانت تأمره بصراحة أن يتخلّى عن مارسيل. ولم تدم إلّا لحظة، هذه الحرِّيّة التي لا تُشرح، والتي كانت تأخذ مظاهر الجريمة؛ لقد لمحها لمحًا: وكانت تخيفه، ثم إنّها كانت بعيدة. وظلّ مستندًا إلى إرادته الإنسانيّة أكثر ممّا ينبغي، إلى هذه الكلمات الإنسانيّة أكثر ممّا ينبغي: «سوف أتزوّجها».

قالت عاملة التلفون:

ـ هذا دورك يا سيِّدي، خذ الغرفة الثانية.

قال ماتيو: ـ شكرًا.

ودخل الغرفة.

ـ ارفع السمّاعة يا سيِّدي.

فرفع ماتيو السمّاعة بوداعة:

ـ آلو؟ ترودين ـ ٣٥..؟ إنّها مخابرة للسيِّدة مونتيرو. كلّا، لا تزعجوها. وإنّما يصعد من يقول لها بعد حين إنّ المخابرة من السيِّد بوريس: إنّه لا يستطيع أن يأتي.

قال الصوت: السيِّد موريس؟

ـ كلّا، ليس موريس، وإنّما بوريس ب كبرنار. لا يستطيع أن يأتي. نعم. هكذا! شكرًا. إلى اللقاء يا سيِّدتي.

وخرج، وفكّر وهو يحكّ رأسه: «لا بدّ أنّ مارسيل تروح الآن وتجيء

حائرة، وعليّ أن أتلفن لها ما دمت هنا» ونظر إلى عاملة التلفون نظرة مترِدِّدة فسألته:

ـ هل تريد رقمًا آخر؟

ـ نعم. «سيغير ٢٥ ـ ٦٤».

وكان رقم سارة. وقال:

ـ آلو سارة، أنا ماتيو.

فقال صوت سارة الخشن:

ـ آلو صباح الخير. ما الأخبار؟ هل دبّرت الأمر؟

قال ماتيو: ـ على الإطلاق. إنّ الناس لا يعطون المال إلّا بشقّ النفس. والحقّ، إنِّي أريد أن أسألكِ: ألا تستطيعين أن تقصدي ذلك الرجل وترجيه أن يمهلني في الدفع حتى آخر الشهر؟

ـ ولكنّه يكون قد سافر، في آخر الشهر.

ـ سأرسل له المال إلى أميركا.

وكانت لحظة صمت قصيرة، وأضافت سارة في غير حماسة:

ـ أستطيع أن أحاول على أيّ حال، ولكنّ ذلك لن يتمّ بسهولة. إنّه عجوز شحيح جدًّا، ثم إنّه يجتاز الآن مرحلة حساسيّة صهيونيّة شديدة، فهو يكره كلّ ما ليس يهوديًّا منذ طردوه من ڤيينا.

ـ حاولي على أيّ حال، إذا كان هذا لا يزعجك.

ـ هذا لا يزعجني على الإطلاق. سأقصده فورًا بعد الفطور.

قال ماتيو: ـ شكرًا يا سارة. أنتِ شخص من ذهب!

١٣

قال بوريس: ـ إنّه غير منصف على الإطلاق.

قالت إيفيش: ـ أجل، إذا كان يتصوّر أنّه أدّى خدمة للولا!

وضحكت ضحكة قصيرة جافّة، وصمت بوريس راضيًا: لم يكن ثمّة من يفهمه خيرًا من إيفيش. ولفت رأسه إلى سلّم المغاسل وفكّر في قسوة: «الحقّ أنّه قد تجاوز حدوده. إنّ على المرء ألّا يحدِّث إنسانًا على النحو الذي حدَّثني به. أنا لست هورتيغير» وكان ينظر إلى السلّم، ويأمل أن يبسم لها ماتيو وهو صاعد. ظهر ماتيو مرّة أخرى، وخرج من غير أن يوجّه لهما بسمة، فشقّ ذلك على بوريس.

وقال: ـ إنّه يبدو فخورًا جدًّا.

ـ من؟

ـ ماتيو. لقد خرج اللحظة.

فلم تجب إيفيش بشيء. كان يبدو عليها مظهر الحياد، وكانت تنظر إلى يدها المعصوبة.

قال بوريس: ـ إنّه عاتب عليّ. وهو يجد أنّني لست أخلاقيًّا.

قالت إيفيش: ـ نعم، ولكن هذا سيزول عنه سريعًا. (وهزّت كتفيها) إنّني لا أحبّه حين يكون أخلاقيًّا.

فقال بوريس: ـ أمّا أنا فأحبّه. (وأضاف بعد تفكير) ولكنّي أكثر أخلاقيّة منه.

قالت إيفيش: ـ بف! (وتأرجحت قليلاً على المقعد الصغير، وكانت تبدو ساذجة سمينة الخدّين، وقالت بلهجة ماجنة) «إنّني أنا لا أكترث بالأخلاق. لا أكترث بها».

أحسّ بوريس بأنّه وحيد جدًّا، وقد كان يودّ لو يقترب من إيفيش، ولكن ماتيو كان لا يزال بينهما. وقال:

ـ إنّه غير منصف. فهو لم يدع لي الوقت لأشرح موقفي.

فقالت إيفيش بلهجة عادلة:

ـ هناك أشياء لا يمكن أن تُشرح له.

فلم يحتج بوريس. وكان ذلك بدافع العادة، ولكنّه كان يعتقد بأنّ من الممكن شرح كلّ شيء لماتيو حين يكون هادئ المزاج. كان يخيّل إليه دائمًا أنّهما لم يكونا يتحدّثان عن الـ «ماتيو» نفسه: فإنّ «ماتيو» إيفيش كان أتفه.

وضحكت إيفيش ضحكة خفيفة، وقالت:

ـ كم أنت عنيد، أيّها البغل الصغير؟

فلم يجب بوريس. وكان يمضغ ما كان لا بدَّ أن يقوله لماتيو: بأنّه لم يكن وحشًا صغيرًا أنانيًّا، وأنّه أُصيب بهزّة عنيفة حين اعتقد بأنّ لولا قد ماتت. بل هو قد استشعر ذات لحظة بأنّه سيتألّم وأن ذلك قد أدهشه. كان يجد الألم لاأخلاقيًّا، ثم إنّه لم يكن يطيق حقًّا أن يتحمّله. وإذ ذاك بذل جهدًا لنفسه، بدافع الأخلاق. فسُدَّ شيء ما، وحدث انقطاع، وكان لا بدّ من الانتظار لعودة الأمر إلى نصابه.

قال بوريس: ـ إنّه لأمر لطيف حين أفكِّر بلولا، الآن إنّها تبدو لي امرأة مسنّة طيّبة.

ضحكت إيفيش ضحكة صغيرة جرحت بوريس. فأضاف بدافع من عدالة:

ـ لا بدَّ أنّها في هذه اللحظة تتألّم.

ـ هذا صحيح.

قال: ـ أنا لا أريد أن تتألَّم.

فقالت إيفيش بصوت مغنٍّ: ـ ليس عليك إذن إلّا أن تذهب فتراها.

ففهم أنّها كانت تنصب له شَرَكًا وأجاب بحيويّة:

ـ لن أذهب. إنّها أوّلاً . . . إنّني ما زلت أراها ميِّتة. ثم إنِّي لا أريد أن يتصوّر ماتيو أنّه يستطيع أن يعتبرني جاهلاً بليدًا.

هو لن يستسلم، بصدد هذا، ثم إنّه لم يكن هورتيغير. وقالت إيفيش في عذوبة:

ـ صحيح. . بعض الشيء، إنّه يعتبرك جاهلاً بليدًا.

وكان هذا لؤمًا، أدركه بوريس من غير غضب: كان قصد إيفيش وجيهًا. فهي تريد أن يقطع علاقته بلولا، وكان هذا لصالحه. كان الجميع ينظرون إلى صالح بوريس، ولكنَّ هذا الصالح كان يتغيّر وفق الأشخاص. وأجاب في هدوء:

ـ إنّني أتظاهر بهذا أمامه. وهذه هي خطّتي معه.

ولكنّه كان قد أُصيب في صميمه، وكان غاضبًا على ماتيو. وتململ قليلاً على المقعد، فنظرت إليه إيفيش نظرة قلقة، وقالت:

ـ إنّك تفكِّر أكثر ممّا ينبغي يا عزيزي. ليس عليك أن تتصوّر إلّا أنّها ماتت حقًّا.

فقال بوريس: ـ سيكون هذا موافقًا لي، ولكنِّي لا أستطيع. فراقَ ذلك لإيفيش، وقالت:

ـ غريب. . أمّا أنا فأستطيع، حين أكفّ عن رؤية الناس، فإنّهم لا يوجدون بعد.

فتأمّل بوريس أخته بإعجاب وصمت: إنّه لم يكن يستشعر مثل هذه القوّة الروحيّة. وقال بعد لحظة:

ـ إنّني أتساءل عمّا إذا كان قد أخذ المال. سيزيد الطين بلّة لو فعل!

ـ أيّ مال؟

ـ مال لولا. كان بحاجة إلى خمسة آلاف فرنك.

ـ عجبًا!

وبدا على إيفيش الاستياء والدهشة. وتساءل بوريس عمّا إذا لم يكن من الأفضل أن يمسك لسانه. صحيح، أنّ العهد كان أن يتصارحا بكلّ شيء، ولكن كان بالإمكان، بين الفينة والفينة، أن يُجرى استثناء على القاعدة. وقال:

ـ يبدو أنّك ناقمة على ماتيو.

فزمّت إيفيش شفتيها وقالت:

ـ إنّه يثير أعصابي. كان هذا الصباح يعتبرني رجلاً.

قال بوريس: ـ نعم. . .

وكان يتساءل عمّا كانت إيفيش تعني، ولكنّه لم يظهر شيئًا من ذلك: كان عليهما أن يتفاهما بالكلام القليل، وإلّا بطل السحر. وحلّ بينهما صمت، ثم أضافت إيفيش فجأة:

ـ لنرحل. إنّني لا أستطيع أن أطيق «الدوم».

قال بوريس: ـ وأنا كذلك.

ثم نهضا وخرجا. وأخذت إيفيش ذراع بوريس. كان لدى بوريس رغبة خفيفة وعنيدة بأن يقيء. وسألها:

ـ أتظنِّين أنّه سيظلّ غاضبًا وقتًا طويلاً؟

قالت إيفيش نافدة الصبر: ـ كلّا، كلّا.

فقال بوريس في خبث:

ـ إنّه غاضب عليكِ أيضًا.

أخذت إيفيش تضحك:

ـ هذا ممكن جدًّا، ولكنّي سآسف لذلك فيما بعد. إنّ في رأسي همومًا أخرى.

قال بوريس باضطراب: ـ صحيح، إنّكِ منزعجة.

ـ جدًّا.

ـ بسبب امتحانك؟

فهزّت إيفيش كتفيها ولم تجب. وسارا بضع خطوات صامتين. كان يتساءل عمّا إذا كان ذلك حقًّا بسبب امتحانها، وكان يتمنّى لو كان ذلك كذلك: فإنّ هذا أوفر أخلاقيّة.

ورفع عينيه، فرأى أنّ جادّة مونبارناس كانت عظيمة تحت هذا النور الرماديّ. إنّ المرء ليحسب نفسه في تشرين الأوّل. وكان بوريس يحبّ كثيرًا شهر تشرين الأوّل. وفكّر: «في تشرين الماضي، لم أكن أعرف لولا». وفي اللحظة نفسها أحسّ بأنّه متحرِّر: «إنّها حيَّة» وللمرّة الأولى، منذ ترك جثّتها في الغرفة المظلمة، كان يحسّ بأنّها حيّة، وكان ذلك بمثابة البعث. وفكّر: «ليس من الممكن أن يظلّ ماتيو ناقمًا عليّ مدّة طويلة ما دامت لم تمت». وحتى هذه الدقيقة، كان يعلم أنّها كانت تتألّم، وأنّها كانت تنتظره في ضيق، ولكنّ ذلك الألم وهذا الضيق كانا يبدوان له غير قابلين للمعالجة وثابتين كألم الذين ماتوا يائسين. ولكن كان هناك خطأ: كانت لولا على قيد الحياة، وكانت ترتاح في سريرها مفتوحة العينين، مسكونةً بغضبٍ صغير حيّ، كذلك الذي كان يحدث حين كان يصل متأخّرًا

إلى الموعد المضروب. غضب لم يكن دون غضب الآخرين احترامًا أو أكثر منه. ربّما كان أقوى. ولم يكن له إزاءها تلك الواجبات الغامضة المخيفة التي يفرضها الأموات، بل واجبات رصينة، واجبات عائليّة على العموم. وهكذا استطاع بوريس أن يبتعث وجه لولا من غير اشمئزاز أو استفظاع. ولم يكن وجه ميِّتة، ذلك الذي استجاب للنداء، وإنّما كان ذلك الوجه النضر الغاضب الذي أدارته نحوه ليلة الأمس حين كانت تصرخ به: «لقد كذبت عليّ، فأنت لم تَرَ بيكار». وفي الوقت نفسه، استشعر حقدًا صلبًا ضدّ هذه الميتة المزيّفة التي خلقت كلّ هذه الكوارث. وقال:

ـ لن أعود إلى فندقي. فهي جديرة بأن تقصده.

ـ إذهب فنم لدى كلود.

ـ نعم.

وخطرت لإيفيش فكرة:

ـ عليك أن تكتب لها. سيكون ذلك أنسب.

ـ أكتب للولا؟ أوه! كلّا.

ـ بلى.

ـ لن أعرف ماذا أقول لها.

ـ سأكتب لك هذه الرسالة، أيّها الأبله الصغير.

ـ ولكن ماذا تقولين فيها؟

فنظرت إليه إيفيش بدهشة:

ـ ألا تريد أن تقطع علاقتك بها؟

ـ لا أدري.

فبدا الانزعاج على إيفيش، ولكنّها لم تلحّ. كانت لا تلحّ قطّ، وكان هذا يناسبها. ولكن مهما كان الأمر، فإنّ على بوريس أن يكون دقيقًا حذرًا

بين ماتيو وإيفيش: أمّا الآن فإنّ رغبته في فقد لولا لَم تكن أشدّ منها في رؤيتها من جديد. وقال:

ـ سنرى. لن يجدي التفكير بذلك الآن.

وكان يُحسّ بالرضى في هذه الجادّة، وكان للناس وجوه طيّبة، كان يعرفهم كلّهم تقريبًا بالنظر، ثم إنّه كان ثمّة شعاع شمس مرح يلامس زجاج «حانوت الليلك» وقالت إيفيش:

ـ إنّني جائعة. وسوف أتناول الفطور.

ودلفت إلى مقهى «ديماريا»، فانتظرها بوريس في الخارج. وأحسّ أنّه ضعيف واهن العاطفة كأنّه ناقِه. كان يتساءل عمّا يمكنه أن يفكِّر به ليحصل على لذّة صغيرة. ووقع اختياره فجأة على «القاموس التاريخي والاشتقاقي للُّغة العامّيّة»، فابتهج. كان القاموس الآن على طاولته الليليّة، ولم يكن يُرى سواه. وفكّر باغتباط: «إنّه قطعة أثاث. لقد كانت ضربة معلِّم». ولمّا كانت السعادة لا تأتي وحدها، فقد فكّر أيضًا بالسكّين، فأخرجه من جيبه وفتحه: «إنّني محظوظ!» كان قد اشتراه ليلة أمس، وقد أصبح لهذا السكِّين تاريخ، فهو قد شقّ بشرة كائنين هما أعزّ الكائنات لديه. وفكّر: «إنّه يقطع جيِّدًا».

ومرّت امرأة، فنظرت إليه في إلحاح. وكانت مرتدية ثيابًا غاية في الأناقة. التفت ليراها من ظهرها. وكانت قد التفتت هي أيضًا، فتبادلا نظرة ودّ.

قالت إيفيش: ـ هأنذا.

وكانت تحمل تفّاحتين كبيرتين من تفّاح كندا. فركت إحداهما على مؤخِّرتها، حتى إذا أصبحت ملتمعة جدًّا، عضّتها بينما مدّت الأخرى لبوريس. فقال بوريس:

ـ لا، شكرًا. لست جائعًا. (وأضاف) إنَّكِ تثيرين نفوري.

ـ لماذا؟

ـ إنّك تفركين تفاحتك على قفاك.

فقالت إيفيش: ـ ذلك لألمِّعها.

قال بوريس: ـ انظري إلى المرأة الذاهبة. لقد أحسست نحوها بانجذاب.

وكانت إيفيش تأكل بطريقة ساذجة، فقالت وفمها ممتلئ:

ـ وهذه أيضًا؟

قال بوريس: ـ ليس من هذه الجهة، وإنّما خلفك.

فالتفتت إيفيش ورفعت حاجبيها وقالت ببساطة:

ـ إنّها جميلة.

ـ هل رأيتِ ثيابها؟ إنّ حياتي لن تنقضي قبل أن يكون لي امرأة كهذه. امرأة من الوسط الراقي. ولا بدّ أنّ ذلك ممتع.

وكانت إيفيش ما تزال تنظر إلى المرأة التي كانت تبتعد. وتحمل في كلّ يدّ تفّاحة، كان يبدو كأنّها تبسطهما لها. وقال بوريس في كرم:

ـ وحين أتعب منها، أعطيكِ إيّاها.

وعضّت إيفيش تفّاحتها مرّة جديدة، وقالت:

ـ هكذا إذن.

وتناولت ذراعه وجذبته فجأة. وكان على الجانب الآخر من جادّة مونبارناس مخزن ياباني. فعبرا الرصيف ووقفا أمام المعروضات. قالت إيفيش:

ـ انظر إلى الأقداح الصغيرة.

قال بوريس: ـ إنّه «للساكي».

ـ وما هذا!

عصير الأرز الياباني.

سآتي لأشتري بعضها، وأجعلها فناجين شاي.

ـ إنّها أصغر ممّا ينبغي.

سأملأها عدّة مرّات وبالتالي. . .

ـ أو أَنّك تستطعين أن تملأي ستّةً دفعة واحدة.

فقالت إيفيش مفتونة.

ـ نعم. سيكون أمامي ستّة أقداح مترعة، فأشرب تارة من قدح، وتارة من آخر.

وتراجعت قليلاً، وقالت بلهجة هوس، وهي تكزّ بأسنانها:

ـ أوه! أودّ لو أشتري الحانوت كلّه.

وكان بوريس ينتقد ذوق أخته في اختيار هذه التحف. ومع ذلك فقد أراد أن يدخل الحانوت ولكنّ إيفيش أمسكته.

ـ ليس اليوم. تعال.

وعادا يصعدان شارع دانفير ـ روشرو، وقالت إيفيش:

ـ لكي أحصل على مثل هذه الأشياء الصغيرة ـ ما يملأ غرفة كاملة ـ ربّما بعت نفسي لشيخ عجوز!

فقال بوريس بقسوة: ـ لن تستطيعي ذلك. فهذه مهنة، وهي تحتاج إلى تعلّم.

وكانا يسيران بهدوء. تلك كانت لحظة سعادة؛ كانت إيفيش قد نسيت، بالتأكيد، امتحانها، إذ بدت جذلة. في هذه اللحظات، كان بوريس يحسّ بأنّهما لا يشكِّلان بعد إلّا شخصًا واحدًا. وكان في السماء قطع كبيرة زرقاء وسحائب بيضاء تغلي: كانت أوراق الشجر مثقلة بالمطر، وكان ذلك يبعث رائحة نار الحطب. كما في شارع قرية كبير. قالت إيفيش وهي تشرع

في التهام تفّاحتها الثانية:

ـ أحبّ هذا الطقس. صحيح أنّ هناك بعض الرطوبة، ولكنّه لا يدبِّق. ثم إنّه لا يؤذي العيون. إنّني أحسّني قادرة على السير عشرين كيلومترًا.

وتذكّر بوريس في خفاء أنّه كان ثمّة مقاهٍ مجاورة. وحين تتحدّث إيفيش عن قدرتها على السير عشرين كيلومترًا، فمّما لا ريب فيه أنّها ستطلب الجلوس بعد ذلك توًّا.

نظرت إلى أسد «بلفور» وقالت في نشوة:

ـ هذا الأسد يعجبني. إنّه ساحر.

قال بوريس: ـ يعني...

وكان يحترم ذوق أخته حتى ولو لم يكن يقاسمها إيّاه. والحقّ أنّ ماتيو قد كفل ذلك، فقد قال له يومًا: «إنّ لأختك ذوقًا رديئًا، ولكنّه أفضل من أوثق ذوق: إنّه ذوق رديء عميق». ولم يكن ثمّة مجال للمناقشة في هذه الظروف. ولكنّ بوريس كان شخصيًّا ميّالاً إلى الجمال الكلاسيكي. وسألها:

ـ هل نسلك جادَّة «أرغو»؟

ـ وأيّها هي؟

ـ هذه.

فقالت إيفيش: ـ أحبِّذ ذلك. فإنّها شديدة البريق.

ومشيا بصمت. ولاحظ بوريس أنّ أخته كانت تتجهّم وتصبح عصبيّة، وكانت تتقصَّد أن تمشي وهي تلوي قدميها، ففكّر في ذعر متطامن: «سيبدأ الاحتضار!» وكانت إيفيش تدخل في الاحتضار كلّما كانت تنتظر نتائج أحد الامتحانات. رفع عينيه ورأى أربعة عمّال شبّان قادمين في اتّجاههما وهم

ينظرون إليهما ضاحكين. كان بوريس معتادًا على هذه الضحكات، ويراها خفيفة الروح، وكانت إيفيش خافضة الرأس، فلم ترهم على ما يبدو. وحين وصل الشبّان الأربعة إليهما، افترقوا: فمرّ اثنان منهما إلى يسار بوريس، والآخران إلى يسار إيفيش.

وقال أحدهم مقترحًا: ـ هل نعمل «سندويش؟»

فقال بوريس بلطف: ـ قبّحك الله يا وجه الضراط!

وفي تلك اللحظة، قفزت إيفيش في الهواء وأرسلت صرخة ثاقبة سرعان ما خنقتها وهي تضع يدها أمام فمها. وقالت وقد احمرَّت خجلاً:

ـ إنِّي أقف كفتاة مطبخ. لقد كان العمّال الشبّان بعيدين.

فسألها بوريس دهشًا: ـ ماذا هناك؟

قالت إيفيش في اشمئزاز: ـ لقد لمسني. يا للقذر!

وأضافت في قسوة: ـ لا بأس. كان ينبغي ألّا أصرخ.

فسألها بوريس مُهانًا: ـ أيُّهم؟

فأمسكته إيفيش:

ـ أرجوك، احتفظ برباطتك. إنّهم أربعة. ثم إنّه يكفيني ما أصابني من سخرية.

وقال بوريس موضحًا: ـ ليس ذلك لأنّه لمسك، ولكنّي لا أستطيع أن أتحمّل أن يفعلوا لك ذلك حين أكون معك. حين تكونين مع ماتيو، لا يمسّك أحد. فكيف تراني أبدو؟

قالت إيفيش بحزن: ـ هكذا يا عزيزي الصغير. وأنا كذلك لا أحميك. إنّنا لا نوحي بالاحترام.

وكان هذا صحيحًا. كان بوريس يعجب لذلك غالبًا: حين كان ينظر إلى نفسه في المرآة، يجد أنّ هيئته مرعبة. وردّد:

ـ نعم، إنّنا لا نوحي بالاحترام.

وضمَّ أحدهما الآخر، وأحسّا بأنّهما يتيمان.

وبعد لحظة سألته إيفيش: ـ ما هذا؟

وكانت تشير إلى جدار طويل أسود عبر خضرة شجر الكستناء.

فقال بوريس:

ـ إنّه «السانتيه». سجن.

قالت إيفيش: ـ عظيم. إنّني لم أرَ في حياتي أشدّ كآبة منه. هل يفرّ منه السجناء؟

فقال بوريس: ـ هذا نادر. لقد قرأت أنّ سجينًا قفز مرَّة من فوق الجدار فتعلّق في غصن ضخم لشجرة كستناء ثم هرب.

وفكّرت إيفيش ثم أومأت بإصبعها إلى شجرة كستناء، وقالت:

ـ لعلّها هذه. ما رأيك بأن نجلس على المقعد هناك؟ إنّني متعبة. فربّما رأينا سجينًا آخر يقفز.

فقال بوريس على غير اقتناع:

ـ ربّما. ولكنّهم يفعلون ذلك ليلاً على ما أعتقد.

واجتازا الرصيف ليجلسا. وكان المقعد مبتلًا. قالت إيفيش في رضى:

ـ إنّه رطب.

ولكنّها ما لبثت أن بدأت تتململ وتشدّ على شعرها. وكان على بوريس أن يربّت على يدها حتى لا تنتزع خصلاته. وقالت:

ـ إلمس يدي، ـ إنّها مثلّجة.

وكان هذا صحيحًا. كانت إيفيش شاحبة اللون، ويبدو أنّها تتألّم.

كان جسمها كلّه يهتزّ بالانتفاضات الصغيرة. ورآها بوريس حزينة جدًّا حتى إنّه حاول أن يفكِّر بلولا، بدافع الودّ.

رفعت إيفيش رأسها فجأة: وكانت تبدو عليها هيئة العزم المظلم. وسألته:

ـ هل معك زهرك؟

ـ نعم.

وكان ماتيو قد أعطى إيفيش ورق لعب في محفظة جلديّة صغيرة، فأهدته إيفيش إلى بوريس، وكانا يلعبان به غالبًا. وقالت:

ـ لنلعب.

فأخرج بوريس الزهر من المحفظة. وأضافت إيفيش:

ـ «مانشان» و«جميلة» إبدأ.

وابتعد أحدهما عن الآخر. اقتعد بوريس الحجر ودحرج الزهر على المقعد. وكان قد سحب بوكر ملوك، وقال:

ـ ضربة موفّقة.

قالت إيفيش: ـ إنّني أكرهك.

وقطبّت حاجبيها وقبل أن تحرِّك الزهر، نفخت على أصابعها وهي تدندن. وكان ذلك تضرّعًا. وفكّر بوريس: «إنّ الأمر جدّ، فهي تراهن على نجاحها في الامتحان» ورمت إيفيش الزهر، فخسرت: إذ حصلت على ثلاث سيِّدات. ونظرت إلى بوريس بعينين يتطاير منهما الشرر، وقالت:

ـ إلى الضربة الثانية.

وسحبت هذه المرّة ثلاثة آسات وصرخت: «ضربة موفّقة». وقذف بوريس الزهر وكان على وشك أن يحصل على بوكر آس. ولكن قبل أن يبلغا غاية سباقهما، مدّ يده بحجّة أنّه يلمّ الورق، ثم دفع ورقتين دفعة خفيّة

بطرف سبابته وإصبعه الوسطى، فجاء ملكان مكان الآس والبوكر، فإذا هو يعلن بلهجة غيظ:

ـ زوجان.

فقالت إيفيش منتصرة: ـ لقد جاءني أنا «مانش» أخيرًا.

وكان بوريس يتساءل عمّا إذا كانت قد رأته يغشّ. ولكنّ ذلك كان في نهاية المطاف بدون أهمّيّة كبيرة: إنّ إيفيش لم تكن تهتمّ إلّا بالنتيجة. وقد ربحت بزوجين مقابل زوج، من غير أن يتدخّل. وقالت ببساطة:

ـ طيِّب!

ـ هل تريدين أن تلعبي بعد؟

فقالت: ـ لا، لا، هذا حسن. أنت تعلم أنِّي كنت ألعب لأعرف إن كنت سأنجح.

قال بوريس: ـ لم أكن أعرف، حسنًا: لقد نجحت.

فهزّت إيفيش كتفيها وقالت:

ـ لا أؤمن بذلك.

وصمتا. ظلّا جالسين متقاربين، خافضي الرأس. لم يكن بوريس ينظر إلى إيفيش ولكنّه كان يشعر بأنّها ترتجف. وقالت إيفيش:

ـ إنّ الحرّ يضايقني، أيّة فظاعة: إنّ يديّ دبقتان، وأنا دبقة من فرط الضيق.

والواقع أنّ يدها اليمنى التي كانت منذ لحظة باردة جدًّا، أصبحت ملتهبة. أمّا اليسرى فقد كانت تستريح جامدة معصوبة على ركبتيها. وقالت:

ـ إنّ هذا الضماد يثير اشمئزازي. إنّني أُشبه أَحد مشوّهي الحرب، وأنا شديدة الرغبة في انتزاعه.

فلم يُجب بوريس. ودقّت ساعة في البعيد دقّة، فانتفضت إيفيش وسألت بصوت شرود:

ـ إنّها الثانية عشرة والنصف؟

فقال بوريس وهو يراجع ساعته:

ـ إنّها الواحدة والنصف.

وتبادلا النظر، فقال بوريس:

ـ لقد آن الوقت لأن أذهب إلى الجامعة.

فالتصقت به إيفيش وأحاطت كتفيه بذراعيها:

ـ لا تذهب يا عزيزي بوريس. إنّي لا أريد أن أعرف شيئًا. سأسافر إلى لاون هذا المساء و... لا أريد أن أعرف شيئًا.

فقال لها بوريس في لطف:

ـ إنّك تستسلمين. يجب أن تعلمي الحقيقة قبل أن تواجهي الأهل. فتركت إيفيش ذراعيها تسترخيان وقالت:

ـ إذن اذهب. ولكن عُد بأسرع وقت ممكن. إنّي أنتظرك هنا. فقال بوريس مشدوهًا:

ـ هنا؟ ألا تفضّلين أن نقطع الطريق معًا؟ ستنتظرينني في مقهى من مقاهي الحيّ اللّاتيني.

قالت إيفيش:

ـ لا، لا، بل سأنتظرك هنا.

ـ كما تريدين. وإذا هطل المطر؟

ـ بوريس، أرجوك، لا تعذّبني. أسرع. سأبقى هنا، حتى ولو هطل المطر، حتى ولو زُلزلت الأرض. إنّني لا أستطيع أن أنهض على ساقيّ، وليست لديّ القوّة بعد لأرفع إصبعًا واحدة.

ونهض بوريس وراح يسير على عجل. وحين عبر الطريق التفت مرّة أخرى. وكان يرى إيفيش من ظهرها: كانت مسترخية على مقعدها، وقد غرق رأسها في كتفيها، وكانت تشبه شحّاذة مسنّة. قال في نفسه: «لعلّها ستكون ناجحة، بالرّغم من كلّ شيء». وخطا بضع خطوات، وتمثّل فجأة وجه لولا. وجهها الحقيقي وفكّر: «إنّها شقيّة!» وأخذ قلبه يخفق خفقًا عنيفًا.

١٤

بعد لحظة. بعد لحظة يواصل بحثه الذي لا طائل تحته. بعد لحظة، تلاحقه عينا مارسيل الحاقدتان المتعبتان، ووجه إيفيش الهارب، وقناع لولا الجنائزي، سيجد مرَّة أخرى مذاق حمّى في جوف فمه، وسيأتي الضيق ليسحق معدته. بعد لحظة. واستغرق في أريكته وأشعل غليونه. وكان خاليًا وهادئًا، ومستسلمًا لرطوبة الحانة المظلمة. كان هناك ذلك البرميل المبرنق الذي كان بمثابة طاولة، وصور أولئك الممثّلات وقبّعات البحّارة تلك المعلّقة بالجدران، وذلك الجهاز اللّاسلكي الذي لا يُرى والذي كان يوشوش كنافورة ماء، وأولئك السادة الضخام الأثرياء الجميلون الذين يدخّنون السيجار في جوف القاعة وهم يشربون البورتو ـ الزبائن الآخرون، رجال أعمال، إذ كان الآخرون قد ذهبوا ليفطروا منذ وقت طويل. كانت الساعة حوالى الواحدة والنصف، ولكن كان من اليسير أن يتصوّر المرء أنّه كان الصباح وأنّ النهار كان هناك، هادئًا، كبحر وديع. كان ماتيو يذوّب نفسه في هذا البحر الذي لا حماسة له ولا موج، ولم يكن بعد إلّا نغمةً زنجيَّة لا تكاد تُسمع، ضجّةً من أصوات متميّزة، نورًا ذا لون صدئ وهدهدةً لجميع هذه الأيدي الجميلة الجراحيّة التي كانت تتأرجح وهي تحمل السيجار، كقوافل تحمل التوابل. وكان يعلم جيّدًا أنّهم إنّما يعيرونه هذه القطعة الضئيلة من الحياة المطمئنَّة، وأنّ عليه أن يردّها بعد حين،

ولكنّه كان يفيد منها بلا جشع: إنّ العالم ما يزال يحتفظ للأشخاص الهالكين بكثير من المباهج الصغيرة المتواضعة، بل هو يحتفظ لهم بمعظم نِعمه العابرة، شريطة أن يستمتعوا بها في تواضع. كان دانيال جالسًا إلى يساره بأبّهة وصمت. وكان ماتيو يستطيع على هواه أن يتأمّل وجهه الجميل، وجه شيخ عربي، وكانت تلك أيضًا بهجةً صغيرة للعيون.

ومدّ ماتيو ساقيه وابتسم لنفسه. قال دانيال:

ـ إنّني أوصيك خيرًا بخمر «كزيريس» الذي يشربونه.

ـ حسنًا، ولكنّك ستقدِّم لي منه قدحًا: فأنا لا أملك فلسًا.

فقال دانيال: ـ أقدِّمه لك. ولكن قل لي: أتريد أن أعيرك مئتي فرنك؟ إنّني خجلٌ من أن أعرض عليك هذا المبلغ الضئيل...

وقال ماتيو: ـ لا، لا حاجة إلى ذلك.

كان دانيال قد أدار نحوه عينيه الكبيرتين الملاطفتين، وألحَّ:

ـ أرجوك. إنّ معي أربعمئة فرنك حتى آخر الأسبوع: وسوف نتقاسمها.

وكان ينبغي أن يتجنّبِ قبولها، فإنّ ذلك لم يكن من قواعد اللعبة. فقال ماتيو:

ـ لا، لا. أؤكّد لك. إنّك لطيف جدًّا.

وكان دانيال يُثقل عليه نظرة مساعدة كثيفة:

ـ ألست حقًّا محتاجًا إلى شيء؟

قال ماتيو: ـ بلى، أنا محتاج إلى خمسة آلاف فرنك، ولكن ليس في هذه اللحظة. في هذه اللحظة أنا محتاج إلى قدح كزيريس وإلى محادثتك.

فقال دانيال: ـ أتمنّى أن تكون محادثتي في مستوى الكزيريس.

ولم يكن قد أشار أيّة إشارة إلى رسالته المستعجلة، ولا إلى الأسباب

التي حملته على استدعاء ماتيو. والحقّ أنّ ماتيو كان يحمد له ذلك: فلا بدّ أنّ هذا آتٍ عمّا قريب. وقال:

ـ إسمع! لقد رأيت برونيه، أمس.

فقال دانيال بتأديب: ـ صحيح؟

ـ أعتقد جيّدًا أنّ الأمر قد انتهى بيننا هذه المرّة.

ـ هل تنازعتما؟

ـ لم نتنازع فقط، بل فعلنا ما هو أسوأ.

وكان دانيال قد اتّخذ مظهر الأسف، فلم يستطع ماتيو أن يمتنع عن الابتسام، وسأله:

ـ أتراك لا تكترث ببرونيه، أنت؟

فقال دانيال: ـ إنّني لم أكن حميميّ الصداقة معه، كما هو شأنك. إنّني أحترمه كثيرًا، ولكن لو كنت الحاكم لحشوته قشًّا ووضعته في «متحف الإنسان» فرع القرن العشرين.

قال ماتيو: ـ إنّه لن يبدو فيه وجهًا رديئًا.

وكان دانيال يكذب: فقد سبق له أن أحبّ برونيه كثيرًا.

وتذوّق ماتيو الكزيريس.

وقال: ـ إنّه لذيذ.

فقال دانيال: ـ نعم، هذا أفضل ما عندهم. ولكنّ مؤونتهم تنفد، ولا يستطيعون أن يجدّدوها بسبب حرب إسبانيا.

ووضع قدحه الفارغ وأخذ زيتونة من صحن، وقال:

ـ أتعلم أنّي سأطلعك على سرّ؟

وانتهى الأمر: لقد تسلّلت تلك السعادة المتواضعة الخفيفة في الماضي. ونظر ماتيو إلى دانيال من زاوية عينه: كان دانيال يتّخذ مظهر

النبالة والغموض. وقال ماتيو:

ـ هيّا.

فقال دانيال بصوت متردِّد: ـ إنّني أتساءل عمّا سيخلِّف ذلك في نفسك. إنّني سآسف إذا كنت ستحقد عليّ.

فقال ماتيو باسمًا: ـ ليس لك إلّا أن تتكلّم فتعلم تأثير ذلك.

ـ حسنًا... إحزر مَنْ رأيت مساء أمس؟

فردَّد ماتيو خائبًا: ـ من رأيت مساء أمس؟ لست أدري، فربّما رأيت جماعة كبيرة من الناس.

ـ مارسيل دوفيه.

ـ مارسيل؟ عجبًا.

ولم يندهش ماتيو كثيرًا: صحيح أنّ دانيال ومارسيل لم يكونا قد اجتمعا كثيرًا، ولكن كان يبدو على مارسيل أنّها تكنّ الودّ لدانيال. وقال:

ـ إنّك محظوظ. هي لا تخرج أبدًا. أين التقيت بها؟

فقال دانيال مبتسمًا: ـ في بيتها. فأين تريد أن يكون ذلك، ما دامت لا تخرج أبدًا؟

وأضاف وهو يخفض جفنيه بتواضع:

ـ أصارحك بأنّنا نتلاقى بين وقت وآخر.

وساد صمت، وكان ماتيو ينظر إلى أهداب دانيال الطويلة السود التي كانت تخفق قليلاً. دقَّت ساعةٌ دقّتين، وكان صوتٌ زنجيٌّ يغنِّي على مهل: «هناك سرير في كارولين» إنّنا نتلاقى بين وقت وآخر. وأدار ماتيو رأسه وثبَّت نظره في الشرّابة الحمراء لقبّعة بحّار. وردَّد من غير أن يفهم:

ـ إنّكما تتلاقيان. ولكن... أين؟

فقال دانيال في شيء من الانزعاج:

ـ في بيتها. لقد قلت لك ذلك.
ـ في بيتها؟ أتعني أنّك تقصدها هناك؟
فلم يجب دانيال. وسأله ماتيو:
ـ أيّة فكرة هذه؟ وكيف حدث ذلك؟
ـ الأمر بكلّ بساطة هو أنّي كنت دائمًا أكنّ ودًّا كبيرًا لمارسيل دوفيه. وكنت شديد الإعجاب بشجاعتها وكرم نفسها.

وصمت لحظة. فردَّد ماتيو في اندهاش: ـ «شجاعة مارسيل وكرم نفسها». لم تكن هذه هي الصفات التي كان أكثر تقديرًا لها لدى مارسيل. وتابع دانيال:

ـ كنت ذات يوم ضجرًا، فأخذتني الرغبة بأن أذهب فأدقّ بابها، واستقبلتني بترحاب. هذا كلّ ما في الأمر: ومنذ ذلك الحين استمررنا في اللقاء. وكانت غلطتنا الوحيدة أنّنا أخفينا عنك ذلك.

وغرق ماتيو في العطور الكثيفة، وفي جوّ الغرفة الورديّة: كان دانيال جالسًا على الكرسي ذي الوسادة، ينظر إلى مارسيل بعينيه الكبيرتين الوعليّتين، فتبتسم مارسيل بارتباك كما لو أنّ هناك من يريد تصويرها. وهزّ ماتيو رأسه: إنّ ذلك لم يكن معقولاً، كان مستحيلاً وباعثًا على النفور، لأنّ هذين الشخصين لم يكن يربطهما شيء مشترك، فلا يعقل أن يتفاهما.
ـ كنت تقصدها، وقد أخفت عنّي ذلك؟
وأضاف بهدوء:
ـ هذا مزاح.
فرفع دانيال عينيه وتأمّل ماتيو في غموض، وقال بصوته الأكثر عمقًا:
ـ ماتيو! أنت تعرف أنّي لم أسمح لنفسي قطّ بأيّ مزاح حول علاقاتك مع مارسيل، فهي علاقات ثمينة جدًّا.
قال ماتيو: ـ أنا لا أنكر ذلك. لا أنكر ذلك. ولكن هذا لا يمنع أن يكون الأمر مزاحًا.

فترك دانيال ذراعيه تسقطان، ثابط الهمَّة، وقال في أسى:

ـ حسنًا. لنبق إذن عند هذه النقطة.

قال ماتيو: ـ لا، لا. تابع. فأنت طريف للغاية: كلّ ما هنالك أنّي لا أصدِّق.

فقال دانيال في عتاب:

ـ ولكنّك لا تيسِّر لي المهمّة. إنّه يشقّ عليَّ كثيرًا أن أتّهم نفسي تجاهك. وهذا حسبي (وتنهّد) وكنت أودّ لو تصدِّق كلامي. ولكن ما دمت بحاجة إلى أدلَّة...

وكان قد أخرج من جيبه محفظة محشوّة بالأوراق الماليّة. رأى ماتيو الأوراق وفكّر: «الدنيء!» ولكن بكسل، وشكليًّا. وقال دانيال:

ـ انظر.

ومدّ رسالة إلى ماتيو، فتناولها: كان خطّ مارسيل. وقرأ:

ـ «كنت على حقّ، شأنك دائمًا، يا ملاكي. كان هو الزهر الذي ذكرت. ولكنِّي لا أفهم كلمة واحدة ممّا كتبت لي. موافقة ليوم السبت، ما دمت مشغولاً غدًا. إنّ أمِّي تقول بأنّها ستوبِّخك بشدّة، من أجل السكاكر. تعال بسرعة يا ملاكي، سننتظر زيارتك بفارغ الصبر. مارسيل».

ونظر ماتيو إلى دانيال، وقال:

ـ إذن... هذا صحيح؟

فأومأ دانيال برأسه: وكان منتصبًا مقطِّبًا كشاهد مبارزة. وأعاد ماتيو قراءة الرسالة، وكان تاريخها العشرين من نيسان. «لقد كتبتْ هذا». وكان هذا الأسلوب المصطنع لا ينمُّ عنها. وفرك أنفه في تململ، ثم انفجر ضاحكًا:

ـ ملاك، إنّها تدعوك ملاكًا، وهذا ما لا يخطر على بالي. أتصوّره ملاكًا سقط من السماء، شخصًا من فئة «لوسيفير». ثم إنّك ترى العجوز: لقد اكتملت الصورة.

فبدا دانيال مضطربًا، وقال بجفاف:

ـ اقتنعتَ أخيرًا... لقد كنت أخشى أن تغضب...

فأدار ماتيو رأسه إليه ونظر في تردّد، وكان يرى جيِّدًا أنّ دانيال كان يتوقّع غضبه.

وقال: ـ هذا صحيح، كان عليَّ أن أغضب، وهذا طبيعي. ولكن اسمع: ربّما جاء ذلك فيما بعد. أمّا الآن فأنا مذهول.

وأفرغ قدحه، وقد أخذته الدهشة ـ بدوره ـ لأنّه لم يغضب.

ـ وهل تراها غالبًا؟

ـ بصورة غير منتظمة. مرَّتين تقريبًا في الشهر.

ـ ولكن ما عساكما تجدان للكلام؟

فانتفض دانيال والتمعت عيناه. وقال بصوت أعذب ممّا ينبغي:

ـ أتكون لديك موضوعات للتحدّث تقترحها علينا؟

فقال ماتيو بصوت مصالح:

ـ لا تغضب. إنّ هذا جديدٌ جدًّا، غير متوقّع قطّ بالنسبة إليَّ.. حتى إنّه يسلِّيني تقريبًا. ولكن ليست لي مقاصد سيّئة. إذن، هذا صحيح؟ إنّكما تحبّان أن تتحدّثا فيما بينكما؟ ولكن ـ لا تصرخ، أرجوك، فأنا أطلب الفهم، بأيّ شيء تتحدّثان؟

فقال دانيال في برودة:

ـ بكلّ شيء. إنَّ مارسيل لا تنتظر منِّي بالطبع أحاديث رفيعة جدًّا، ولكن ذلك يُريحها.

ـ إنّ هذا لا يُصدّق، فأنتما مختلفان جدًّا.

ولم يكن ينجح في التخلّص من تلك الصورة اللّامعقولة: دانيل في أبّهة، وهو في محاسنه الخفيّة النبيلة، ومظاهر «الكاغليسترو» لديه وبسمته

الأفريقيّة الطويلة، ومارسيل، تجاهه، متصلِّبة، مرتبكة أمينة. . أمينة؟ متصلِّبة؟ إنّها ليست متصلِّبة إلى هذا الحدّ: «تعال أيّها الملاك، فنحن ننتظر زيارتك». كانت مارسيل هي التي كتبت ذلك، وكانت هي التي تحاول أن تتعوَّد على هذه اللطافات الكثيفة. وللمرّة الأولى أحسَّ ماتيو بأنّ نوعًا من الغضب يلامسه، وفكّر: «لقد كذبت عليَّ. إنّها تكذب عليَّ منذ ستّة أشهر». واستطرد:

ـ يدهشني كثيرًا أن تكون مارسيل قد أخفت عنِّي شيئًا.

فلم يجب دانيال. وسأله ماتيو:

ـ أتكون أنت الذي طلبت إليها أن تصمت؟

ـ نعم أنا. لم أكن أريد أن ترعى علاقاتنا. أمّا الآن، فإنِّي أعرفها منذ وقت بعيد، ولم يبق للقضيّة كبير أهمّيّة.

وردَّد ماتيو وقد هدأ قليلاً:

ـ أأنت الذي طلبت إليها ذلك؟

وأضاف: ـ وهي لم تبد أيّة صعوبة؟

ـ لقد أدهشها ذلك كثيرًا.

ـ نعم، ولكنّها لم ترفض.

ـ كلّا. لا بدَّ أنّها لم تجد ذلك مذنبًا جدًّا. لقد ضحكت كما أذكر وقالت: «إنّها حالة ضميريّة» وهي تعتقد أنّي أحبّ أن أحيط نفسي بالأسرار (وأضاف بسخرية محجّبة استاء لها ماتيو كثيرًا) في البدء كانت تسمّيني «لوهنغران». وبعد ذلك، وقع اختيارها كما ترى على «ملاك».

قال ماتيو: ـ نعم.

وكان يفكِّر: «إنّه يسخر منها» واستشعر الذلَّ لمارسيل. وكان غليونه قد انطفأ، فمدَّ يده وتناول بآليّة حبّة زيتون. وكان الأمر خطيرًا: إنّه لم يكن يحسُّ نفسه خامدًا بما فيه الكفاية، وإنّما كان يأخذه خبل فكري. كمن

اكتشف أنّه إنّما كان مضلَّلاً على طول الخطّ. . ولكن لو كان الأمر قد حدث في السابق، لكان الشيء الحيّ الذي في داخله قد نزف. وقال في بساطة، بصوت كئيب:

ـ كنّا نتصارح بكلّ شيء. . .

قال دانيال: ـ كنت تتصوَّر ذلك. أيستطيع الإنسان أن يقول كلّ شيء؟

فرفع ماتيو كتفيه في غيظ، ولكنّه كان خاصَّةً غاضبًا على نفسه. وقال:

ـ وهذه الرسالة! إنّنا ننتظر زيارتك! يخيَّل إليَّ أنِّي أكتشف «مارسيل» أخرى.

فبدا دانيال مذعورًا:

ـ «مارسيل» أخرى. . إنّك تذهب بعيدًا! اسمع. . إنّك، مقابل عمل طفولي، لن. . .

ـ لقد كنت تأخذ عليَّ الساعة، أنت نفسك، أنّني لا آخذ الأمور مأخذًا جدِّيًّا بما فيه الكفاية. . .

فقال دانيال:

ـ ذلك أنّك تنتقل من النقيض إلى النقيض (وأضاف بلهجة تفهُّم ودِّيّة) الأمر هو أنّك تثق أكثر ممّا ينبغي بأحكامك على الناس. إنّ هذه الحكاية الصغيرة تثبت ببساطة أنّ مارسيل أكثر تعقيدًا ممّا كنت تظنُّ.

قال ماتيو: ـ ربّما. ولكن هناك شيئًا آخر.

لقد أخطأت مارسيل، وكان يخشى أن يحقد عليها: كان لا ينبغي أن يفقد ثقته بها اليوم ـ اليوم إذ لعلَّه سيكون مجبرًا على أن يضحِّي لها بحرِّيّته. كان بحاجة إلى أن يحترمها، وإلّا كان ذلك أقسى من أن يُحتمل. وقال دانيال:

ـ والواقع، أنّنا كنّا دائمًا على نيّة أن نخبرك بذلك، ولكن كان طريفًا جدًّا أن نقوم بالتآمر، حتى إنّنا كنّا نؤجّل ذلك من يوم إلى آخر.

حتى إنّنا! كان يقول: إنّنا. لقد كان بوسع امرئ أن يقول «نحن» وهو يتحدّث إلى ماتيو عن مارسيل. ونظر إلى دانيال بلا ودّ: كانت تلك لحظة الحقد عليه. ولكن دانيال كان لا يقاوم، كما هو شأنه. وقال له ماتيو فجأة:

ـ دانيال، لماذا فعلتْ ذلك؟

فأجاب دانيال: ـ لقد أجبتك: لأنّي رجوتها أن تفعل. ثم إنّه كان يسلّيها ـ ولا بدَّ ـ أن يكون لها سرّ.

فهزّ ماتيو رأسه.

ـ كلّا. هناك شيء آخر. لقد كانت تعرف جيّدًا ما كانت تفعله. فلماذا فعلته؟

قال دانيال: ـ ولكن... أتصوّر أنّه لا ينبغي أن يكون من المناسب دائمًا أن تعيش في دائرة إشعاعك. لقد بحثت لنفسها عن زاوية ظلّ.

ـ ها هي تجدني طاغيًا كاسحًا؟

ـ إنّها لم تقل لي ذلك بصراحة، ولكن هذا ما حسبت أنّي أفهمه، (وأضاف مبتسمًا) ماذا تريد، إنّك قوّة! تأكّد أنّها معجبة بك، إنّها معجبة بطريقتك في أن تعيش داخل بيت من الزجاج وأن تصيح من على السطوح بما ألف الناس أن يحتفظوا به لأنفسهم: غير أنّ ذلك يستنفدها. إنّها لم تحدّثك عن زيارتي، لأنّها خشيت أن تفسّر عواطفها نحوي، وأن تضغط عليها لتعطي هذه العواطف اسمًا، وأن تحلّلها لتحيلها قطعًا صغيرة. أتدري؟ إنّهم بحاجة إلى الظلام والغموض... إنّ ذلك شيء متردَّد وغير محدَّد إطلاقًا...

ـ هل صارحتك بذلك؟

ـ نعم، صارحتني. لقد قالت لي: إنّ ما يسلّيني معك هو أنّني لا أعرف قطّ أين أنا ذاهبة. أمّا مع ماتيو، فإنّي أعرف دائمًا ذلك.

مع ماتيو، أعرف دائمًا ذلك. وإيفيش: «إنّ المرء لا يخشى معك ما ليس متوقّعًا». وأحسّ ماتيو بشيء من الغثيان.

ـ لماذا تُراها لم تحدّثني عن كلّ هذا قطّ؟

ـ هي تزعم أنّك لا تسألها عن ذلك.

وكان هذا صحيحًا، وخفض ماتيو رأسه: لقد كان كلّما أراد أن يسبر عواطف مارسيل يأخذه كسلٌ لا يُقهر. وحين حسب مرّة أنّه يلاحظ طيفًا في عينيها، هزّ كتفيه: «لو كان ثمّة شيء لقالته لي. إنّها تقول كلّ شيء». وهذا ما كنت أسمّيه: ثقتي بها. لقد أفسدت كلّ شيء.

وانتفض وقال فجأة:

ـ لماذا تخبرني بذلك اليوم؟

ـ لا بدّ أن تُخبَر بذلك اليوم أو غدًا.

وكانت هذه اللهجة الفراريّة مقصودة لإثارة الفضول: ولكنّ ماتيو لم ينخدع بها، فأضاف يقول:

ـ لماذا اليوم، ولماذا أنت؟ لقد كان أكثر طبيعيّة... أن تحدِّثني هي بذلك أوّلاً.

فقال دانيال بارتباك مصطنع:

ـ يبدو إذن أنّني أخطأت... ولكنّي حسبت أنّ هذا كان في صالحكما أنتما الاثنين.

حسنًا. وتصلّب ماتيو: «حذار من الضربة القاسية. إنّ هذه هي البداءة فقط». وأضاف دانيال:

ـ سأقول لك الحقيقة: إنّ مارسيل تجهل أنّي تحدّثت إليك، وحتى الأمس لم تكن تبدو عازمة على إطلاعك على الحقيقة في هذا الوقت

المبكر. سأكون شاكرًا لك إذا أخفيت عنها محادثتنا بدراية.

فضحك ماتيو بالرّغم منه:

ـ هكذا إذن أيّها الشيطان! إنّك تبذر الأسرار في كلّ مكان. بالأمس فقط كنت تتآمر مع مارسيل عليّ، واليوم تطلب منّي أن أصبح ضالعًا معك ضدّها. فأي نوع طريف من الخونة أنت!

فابتسم دانيال وقال:

ـ ليس فيّ شيء من الشيطان. إنّ ما حملني على الكلام قلق حقيقي استولى عليّ مساء أمس. فقد خُيّل إليّ أنّه كان بينكما سوء تفاهم خطير. ومن الطبيعي أن تكون مارسيل من العزّة بحيث تمتنع عن أن تحدّثك هي نفسها بذلك.

فضغط ماتيو قدحه بقوّة في يده: لقد بدأ يفهم.

ـ الأمر هو بصدد. . . (وأنهى دانيال العبارة بحشمة) بصدد حادثتك.

قال ماتيو: ـ آه، هل قلت لها إنّك كنت عالمًا بذلك؟

ـ لا، لا، لم أقل شيئًا. هي التي تحدّثت أوّلاً.

ـ هكذا إذن!

«أمس كانت تبدو على التلفون خائفة من أن أحدّثها بالموضوع. وفي المساء، قالت له كلّ شيء. مهزلة أخرى». وأضاف:

ـ وبعد ذلك؟

ـ بعد ذلك. . إنّ هناك شيئًا غير لائق.

فسأله ماتيو منقبض الحنجرة:

ـ ما الذي يتيح لك أن تقول ذلك؟

ـ ليس هناك شيء واضح. . وإنّما هي الطريقة التي قدّمت لي بها الأشياء.

ـ ماذا هناك؟ هل هي حاقدة عليّ لأنّي جعلتها تحمل؟

ـ لا أظنّ. ليس هذا هو الأمر. وإنّما هو بشأن مسلكك أمس. لقد حدّثتني عنه بحقد.

ـ ما الذي فعلته؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك على الضبط. إسمع، هذا ما قالته لي ضمن أشياء أخرى: «إنّه هو الذي يقرِّر دائمًا، فإذا لم أكن متّفقة معه، فمن المفهوم أن أحتجّ. ولكن ذلك لصالحه هو، لأنّ له رأيه الناجز، وهو لا يترك لي الوقت أبدًا لتكوين رأي». إنّني لست متأكِّدًا من العبارات.

فقال ماتيو مشدوهًا:

ـ ولكن لم يكن أمامي قرارٌ أتّخذه. لقد كنّا دائمًا على اتّفاق حول ما ينبغي أن نفعله في مثل هذه الحالة.

ـ نعم، ولكن هل حرصت على معرفة رأيها أمس الأوّل؟

قال ماتيو: ـ كلّا. كنت متأكِّدًا من أنّها كانت تفكِّر مثلي.

ـ نعم، الواقع أنّك لم تسألها عن شيء. متى واجهتما للمرَّة الأخيرة... هذه الإمكانيّة؟

ـ لا أدري، منذ عامين أو ثلاثة.

عامان أو ثلاثة... أو لا تظنّ أنّها يمكن أن تكون قد غيّرت رأيها في هذه الأثناء؟

وفي جوف القاعة، كان السادة قد نهضوا، وكانوا يتبادلون التهاني وهم يضحكون، وأتاهم خادمٌ بقبّعاتهم، ثلاثة من اللبّد وأخرى مستديرة ومنتفخة فخرجوا وهم يحيّون صاحب الحانة بحركة وديّة، وأوقف الخادم الراديو. عادت الحانة تسقط في صمت جافّ، وكان في الجوّ مذاق كارثة. فكَّر ماتيو: «سينتهي الأمر نهاية سيِّئة». ولم يكن يعرف جيِّدًا ما الذي سينتهي نهاية سيِّئة: هذا النهار العاصف، أم قصّة ذلك الإجهاض، أم

علاقاته بمارسيل؟ كلّا، كان شيئًا أشدّ غموضًا وأعرض: حياته، أوروبا، هذا السلام التافه المشؤوم. وتمثّل شعر برونيه الأشقر: «ستقع الحرب في أيلول». وفي هذه اللحظة، كان من في الحانة الخالية المظلمة يكاد يصدِّق ذلك. لقد كان في حياته شيء ما قد فسد، في هذا الصيف. وسأله:

ـ هل هي خائفة من العمليّة؟

فقال دانيال بلهجة باردة: ـ لا أدري.

ـ هل ترغب في أن أتزوّجها؟

فأخذ دانيال يضحك:

ـ لست أدري. إنّك تسألني أكثر ممّا أطيق الجواب عليه. مهما يكن من أمر، فليست القضيّة من السهولة بهذا المكان. أتسمعني؟ يجب أن تحدِّثها هذا المساء. من غير أن تذكرني طبعًا: كما لو أنّ بعض الوساوس قد استولت عليك. وسوف يدهشني ألّا تقول لك كلّ شيء، بالنسبة للوضع الذي رأيتها فيه أمس: كان يبدو عليها أنّها شقيّة جدًّا.

ـ حسنًا. سأحاول أن أحملها على الكلام.

وساد صمت، ثم أضاف دانيال بلهجة انزعاج:

ـ هكذا: لقد أخبرتك.

قال ماتيو: ـ نعم، شكرًا على كلّ حال.

ـ هل أنت حاقد عليّ؟

ـ على الإطلاق. إنّ هذا هو نوع الخدمة الذي يمكنك أن تؤدِّيه، أن يسقط على رأسك كالقرميدة.

فانفجر دانيال ضاحكًا: وكان يفغر فمه على سعته، فتُرى أسنانه الباهرة وجوف حلقه.

ما كان لي أن أفعل ذلك، اليد موضوعة على السمّاعة، كانت تفكِّر، ما كان لي أن أفعل ذلك، لقد كنّا نتصارح بكلّ شيء، وفكّر: كانت

مارسيل تكاشفني بكلّ شيء، آه! وفكّر، أنّه يعرف، الآن يعرف، خبل مُرهَق في رأسها وهذا الصوت الصغير في رأسها، كانت مارسيل تقول لي دائمًا كلّ شيء، والأمر الآن في رأسها، هذا غير مُحتمل، أفضِّل مئة مرّة أن يكرهني، ولكنّه كان هناك، جالسًا على مقعد المقهى، متباعد الذراعين، كما لو أنّه ترك شيئًا ما يسقط، وعينه محدَّدة في الأرض كما لو أنّ شيئًا ما قد تحطّم عليها. لقد تمّ الأمر، وتمّت المحادثة. لم أر، ولم أسمع، ولم أكن هناك، ولم أعلم شيئًا، وقد كانت هي، وقد قبلت الكلمات وأنا لا أعرف شيئًا، وكان الصوت الرصين يرتفع كالدخان نحو سقف المقهى، سوف يأتي الصوت من هناك، الصوت الجميل الرصين الذي كان يُرعش دائمًا صفيحة السمّاعة، وسيخرج من هناك وسيقول انتهى الأمر، يا إلٰهي يا إلٰهي، ما الذي سيقوله؟ إنّني عارٍ، إنّني ممتلئ وهذا الصوت سيخرج مجلببًا من الصحيفة البيضاء، ما كان ينبغي لنا، ما كان ينبغي لنا، لقد كانت موشكة على أن تغضب من دانيال، إذا كان ممكنًا أن تغضب منه، لقد كان كريمًا جدًّا وطيّبًا، وكان الوحيد الذي اهتمّ بي، وأخذ قضيّتي بيده، ذاك الملاك، ومنح قضيّتي صوته الرائع. امرأة، امرأة ضعيفة، ضعيفة يدافع عنها في عالم الرجال والأحياء بصوت غامض حارّ، وسيخرج الصوت من هناك وسيقول: كانت مارسيل تقول لي كلّ شيء، مسكين ماتيو، يا ملاكي الحبيب! وفكّرت: الملاك.. وتبلّلت عيناها، دمعٌ عذبٌ، دمعُ غزارةٍ وخصوبة، دمعُ امرأة حقيقيّة بعد ثمانية أيَّام محرقة، دمعُ امرأة عذبة مُدَافَعٍ عنها. لقد أخذني بين ذراعيه فلاطفني ودافع عنّي، ماء العينين الراقص والملاطفة الملتوية على الخدّين، وارتجافة الشفتين، طوال ثمانية أيَّام نظرتْ في البعيد إلى نقطة ثابتة، وعيناها جافّتان خاليتان: إنّهم سيقتلونه لي، وطوال ثمانية أيَّام كانت مارسيل الدقيقة، مارسيل القاسية، مارسيل العاقلة، مارسيل الرجل، إنّه يقول بأنّي رجل، وهذا هو الماء، المرأة الضعيفة، المطر في العينين، فلماذا أقاوم، غدًا سأكون قاسية وعاقلة، مرّة، مرّة واحدة، الدموع، الندم، الإشفاق العذب للذات، والذلّ

الأعذب أيضًا، هاتان اليدان المخمليّتان على خاصرتيّ، على فخذيّ، كانت راغبة بأخذ ماتيو بين ذراعيها وطلب الصفح منه، الصفح وهي راكعة: ماتيو المسكين، يا عزيزي الكبير. مرّة، مرّة واحدة، ما أجمل أن يُدافع عنها، وأن يُصفح عنها.. أرهقتها فكرة مفاجئة. وكان خلٌّ يسيل في عروقها، هذا المساء، حين يدخل إلى بيتي، وحين أحيط عنقه بذراعيّ، وحين أقبّله، سيعرف كلّ شيء، وعليّ أنا أن أتظاهر بأنّي لا أعرف أنّه يعرف. آه! إنّنا نكذب عليه، هكذا فكّرت في يأس، ولا نزال نكذب عليه، إنّنا نقول له كلّ شيء، ولكن صراحتنا مسمومة. إنّه يعرف، وسيدخل هذا المساء وسأرى عينيه الطيّبتين، وسأفكّر، إنّه يعرف، وكيف تراني أستطيع أن أتحمّل ذلك، يا عزيزي، يا عزيزي الكبير، للمرّة الأولى في حياتي سبّبت لك حزنًا، آه! سأقبل كلّ شيء، سأذهب إلى العجوز، سأقتل الطفل، إنّني خجلة، سأفعل ما يشاء، كلّ ما تشاء.

ورنّ جرس التلفون تحت أصابعها، فتشنّجت يدها على السمّاعة، وقالت:

ـ آلو: آلو! أنت دانيال؟

قال الصوت الجميل الهادئ: نعم، من يكلّمني؟

ـ أنا مارسيل.

ـ صباح الخير يا عزيزتي مارسيل.

قالت مارسيل: ـ صباح الخير. (وكان قلبها يخفق بشدّة).

ـ هل نمت نومًا هنيئًا! (وكان الصوت الرصين يصدي في جوفها، وكان هذا لذيذًا وغير محتمل) لقد تركتك في ساعة متأخّرة جدًّا مساء أمس، ولا بدّ أن توبّخني السيّدة دوفيه على ذلك، ولكن آمل ألّا تكون قد عرفت شيئًا.

فقالت مارسيل لاهثة:

ـ كلّا، لم تعرف شيئًا. كانت غاطسة في نومها حين خرجت...

وألحَّ الصوت العذب يقول: ـ وأنت، هل نمت نومًا هانئًا؟

ـ أنا؟ لا بأس... إنّني ثائرة الأَعصاب قليلاً كما تعلم.

فأخذ دانيال يضحك، وكانت ضحكة مترفة جميلة، هادئة وقويّة، وانفرجت مارسيل قليلاً. وقال:

ـ ينبغي ألّا تثور أعصابك. لقد سارت الأمور جيِّدًا.

ـ سارت... صحيح؟

ـ صحيح. بل أحسن ممّا كنت آمل. الحقّ أنّنا يا عزيزتي مارسيل لم نعرف قدر ماتيو تمامًا.

وأحسّت مارسيل أنّ ندمًا مرًّا يعضّها، فقالت:

ـ أليس كذلك؟ إنّنا لم نعرف قدره.

قال دانيال: ـ لقد أوقفني منذ الكلمات الأولى. وقال لي إنّه أدرك جيِّدًا أنّ شيئًا ما غير طبيعي، وأنّ هذا قد آلمه طوال نهار أمس.

فسألت مارسيل بصوت مختنق:

ـ هل قلت.. هل قلت له إنّنا كنّا نتقابل؟

فقال دانيال في دهشة:

ـ طبعًا! ألم نتّفق على ذلك؟

ـ بلى... بلى... بلى... وكيف تلقّى هذا النبأ؟

فبدا على دانيال التردّد وقال:

ـ بصورة جيِّدة. جيِّدة جدًّا بالنتيجة. لم يرد أوّلاً أن يصدِّق...

ـ لا بدّ أنّه قال لك: «كانت مارسيل تخبرني كلّ شيء».

ـ قال ذلك في الواقع (وبدا أنّه مسرور).. قاله حرفيًّا.

قالت مارسيل: ـ اسمع يا دانيال: إنّني نادمة!

وسمعت من جديد الضحكة العميقة الجذلة:

ـ هذا هو وضعه أيضًا. لقد ذهب ممتلئًا بالندم. آه! فإذا كنتما معًا في هذا الوضع، فإنِّي أودّ لو أختبئ في مكان ما من غرفتك حين يأتي للقائك: فسيكون ذلك شيئًا لذيذًا!

وضحك من جديد، ففكّرت مارسيل في عرفان متواضع: «إنّه يسخر منِّي». ولكنّ الصوت كان قد أصبح رصينًا، وكانت السمّاعة تهتزّ كالأرغن:

ـ لا، الحقيقة يا مارسيل أنّ كلّ شيء يسير على ما يرام، وأنا مسرور من أجلك كما تعلمين. إنّه لم يتركني أتكلّم، وأوقفني منذ الكلمات الأولى، وقال لي: «يا لمارسيل المسكينة، إنّني مجرم كبير، وأنا أحتقر نفسي، ولكنِّي سأصلح خطإي، أتظنّ أنِّي أستطيع بعدُ أن أصلحه؟» وكانت عيناه متورِّدتين. فما أشدّ ما يحبّك!

وكانت مارسيل تقول:

ـ أوه يا دانيال! أوه يا دانيال!

وساد صمت، ثم أضاف دانيال:

ـ لقد قال لي إنّه يريد أن يحدِّثك هذا المساء بكلّ صراحة: «سنفقأ الدمل». فكلّ شيء هو الآن بين يديك يا مارسيل. سيفعل كلّ ما تشائين.

ـ أوه يا دانيال! أوه يا دانيال! (ثم تمالكت نفسها قليلاً وأضافت) لقد كنت طيِّبًا جدًا و... أودّ أن أراك في أقرب فرصة ممكنة، فعندي أشياء كثيرة أقولها لك، ولا أستطيع أن أكلِّمك من غير أن أرى وجهك. هل تستطيع غدًا؟

فبدا لها الصوت أكثر جفافًا كأنّما قد فقد أوتاره التوافقيّة:

ـ آه! غدًا، لا! إنّني طبعًا متشوِّق لرؤيتك... اسمعي يا مارسيل، سأخابرك.

قالت مارسيل: ـ حسنًا، خابرني بسرعة. آه يا دانيال، يا عزيزي دانيال. . .

قال دانيال: ـ إلى اللقاء يا مارسيل. كوني بارعة هذا المساء.

وصاحت: ـ دانيال. . .

ولكنّه كان قد أغلق التلفون. ووضعت مارسيل السمّاعة وأمرّت منديلها على عينيها الرطبتين: «الملاك! لقد أفلت بسرعة، خشية أن أشكره». واقتربت من النافذة ونظرت إلى المارّة: نساء وسوقة وبضعة عمّال، فوجدت أنّ هيئة السعادة كانت بادية عليهم. وكانت امرأة شابّة تعدو وسط الشارع، وكانت تحمل ابنها بين ذراعيها، وتحدّثه وهي تعدو لاهثة وتضحك في وجهه. وتابعتها مارسيل بعينيها ثم اقتربت من المرآة فنظرت فيها إلى نفسها باندهاش. وكان على خشبة المغسلة ثلاث وردات حمر في قدح للأسنان. تناولت مارسيل إحداها في تردّد وأدارتها بخجل بين أصابعها، ثم أغمضت عينيها وغرزت الوردة في شعرها الأسود. «وردة في شعري. . .» وفتحت أجفانها، ونظرت إلى نفسها في المرآة، ربتت على شعرها ثم ابتسمت لنفسها في تأثّر.

١٥

قال الرجل القصير:

ـ تفضّل وانتظر هنا يا سيِّدي.

جلس ماتيو على مقعد صغير، وكانت غرفة انتظار صغيرة تنبعث منها رائحة الملفوف، وإلى اليسار كان باب زجاجي يلمع لمعانًا ضعيفًا. دُقَّ الجرس فذهب الرجل القصير ليفتح؛ ودخلت امرأة شابّة تلبس ثيابًا ذات احتشام بائس.

ـ تفضلِّي، واجلسي يا سيِّدتي.

ورافقها وهو يمسّها مسًّا خفيفًا حتى المقعد الصغير، فجلست وهي تطوي ساقيها تحتها. وقالت المرأة الشابّة:

ـ لقد سبق لي أن جئت، والقضيّة هي قضيّة قرض.

ـ نعم، يا سيِّدتي، بكلّ تأكيد.

وكان الرجل القصير يحدِّثها في وجهها:

ـ هل أنت موظّفة؟

ـ أنا لا، وإنّما زوجي.

وأخذت تفتِّش في محفظتها، ولم تكن قبيحة، ولكن كانت لها هيئة

قاسية مذعورة، والرجل القصير ينظر إليها في نهم. أخرجت من محفظتها ورقتين أو ثلاثًا مطويّة بعناية، فأخذها واقترب من الباب الزجاجي ليتبيّن ما فيها بوضوح وتفحّصها طويلاً. وقال وهو يردّها لها:

ـ حسنًا، حسنًا جدًّا. ولدان؟ إنّك تبدين صبيّة بعد... إنّنا ننتظر الأولاد بفارغ الصبر، أليس كذلك؟ ولكن حين يصلون، تختلّ ميزانيّة البيت. هل أنتم منزعجون قليلاً في هذه الفترة؟

فاحمرّ وجه المرأة الشابّة وفرك الرجل القصير يديه، وقال في طيبة:

ـ حسنًا، لنتدبّر كلّ شي. سنتدبّر كلّ شيء، فإنّما نحن هنا من أجل ذلك.

ونظر إليها نظرة متأمّلة باسمة، ثم ابتعد. ألقت المرأة الشابّة نظرة عداء لماتيو وأخذت تداعب قفل محفظتها. أحسّ ماتيو بالانزعاج: لقد دخل عند الفقراء الحقيقيّين، وهو سيأخذ مالهم، مالاً رماديًّا كالحًا يبعث رائحة الملفوف. وخفض رأسه ونظر إلى الأرض الخشبيّة بين قدميه، فإذا هو يتذكّر الأوراق الماليّة الحريريّة المعطّرة في صندوق لولا، إنّ ذلك ليس هو هذا المال نفسه.

فُتح الباب الزجاجي وبدا رجل طويل ذو شاربين أبيضين. وكان له شعر فضّي مسرّح بعناية إلى خلف وتبعه ماتيو في المكتب. دلّه السيّد بلطف على مقعد من الجلد المهترئ فجلس كلاهما. أسند السيّد مرفقيه على الطاولة وضمّ يديه الجميلتين البيضاوين. وكان يضع ربطة عنق خضراء غامقة تُفرحها جوهرة. سأله بلهجة أبويّة:

ـ هل تريد أن تستفيد من خدماتنا؟

ـ نعم.

ونظر إلى ماتيو، وكانت عيناه الزرقاوان الفاتحتان تجحظان قليلاً.

ـ السيّد...؟

ـ دولارو.

ـ إنّك لا تجهل أنّ نُظم شركتنا إنّما تقدِّم خدماتها للموظّفين وحدهم.

كان الصوت جميلاً وأبيض بلا رنَّة، سمينًا بعض الشيء، كاليدين. فقال ماتيو:

ـ إنّني موظّف، أستاذ.

قال السيّد مهتمًّا: ـ آه، آه! إنّنا سعداء بصورة خاصّة بأن نساعد الجامعيِّين. هل أنت أستاذ في ليسيه؟

ـ نعم، في ليسيه بوفون.

فقال السيّد في ارتياح:

ـ ممتاز. والآن سننجز الشكليّات الصغيرة المعتادة... أودّ أوّلاً أن أسألك إن كنت تحمل تذكرة هويّة، أو أيّ ورقة مماثلة، جواز سفر، دفترًا عسكريًّا، بطاقة انتخابيّة...

فمدّ له ماتيو أوراقه، فتناولها السيّد وتأمّلها لحظة في شرود، وقال:

ـ حسنًا، حسنًا جدًّا. وما هي قيمة المبلغ الذي تريده؟

فقال ماتيو: ـ أريد ستّة آلاف فرنك.

وفكّر لحظة ثم أضاف:

ـ بل لنقل سبعة آلاف.

وكان قد سُرَّ بالمفاجأة، وفكّر: «لم أكن أظنّ أنّ الأمر سيجري بهذه السرعة».

ـ هل تعرف شروطنا؟ إنّنا نقرض لمدّة ستّة أشهر من غير تجديد ممكن. إنّنا مضطرّون لأن نطلب عشرين بالمئة فائدة، لأنّ عندنا نفقات باهظة ولأنّنا نتعرّض لمجازفات كبيرة.

فقال ماتيو بسرعة: ـ حسنًا، حسنًا!

فأخرج السيّد ورقتين مطبوعتين من دُرجه:

ـ هل لك أن تتفضّل فتملأ هذه الشكليّات؟ وتوقِّع في أسفل الصفحتين؟

وكان ذلك طلبًا للإقراض على نسختين، وكان على ماتيو أن يذكر الاسم والسنّ والحالة المدنيّة والعنوان. وأخذ يكتب. وقال السيّد وهو يجيل نظره في الورقتين:

ـ ممتاز. مولود في باريس.. عام ١٩٠٥.. من أب وأمّ فرنسيِّين.. حسنًا، هذا كلّ ما يجب الآن. وحين نسلِّمك السبعة الآلاف فرنك، سنطلب منك أن توقِّع على ورقة، ذات طابع، اعترافًا بالدين. والطابع على نفقتك.

ـ حين التسليم؟ ألا يمكن أن تعطوني إيَّاها على الفور؟

ـ فبدا السيّد مندهشًا جدًّا:

ـ على الفور؟ ولكنّنا بحاجة يا سيِّدي العزيز إلى خمسة عشر يومًا على الأقلّ لنجمع معلوماتنا...

ـ أيّة معلومات؟ لقد رأيت أوراقي...

فتأمّل الرجل ماتيو بلطف مرح وقال:

ـ آه! إنّ الجامعيِّين متشابهون جميعًا! كلّهم مثاليّون. لاحظ يا سيِّدي، إنّني في هذه الحالة الخاصّة لا أضع كلامك موضع الشكّ. ولكن بصورة عامّة، ما الذي يثبت أنّ الأوراق التي تُقدَّم لنا ليست مزيّفة؟ (وضحك ضحكة صغيرة حزينة): إنّ من يتصرّف بالمال يتعلّم الحذر. إنّ هذا شعور قبيح، أنا أوافقك على ذلك، ولكن لا يحقّ لنا أن نكون واثقين (وأنهى كلامه بقوله): هو ذا إذن: يجب أن نقوم بتحقيقنا الصغير، وسوف نتوجّه مباشرة إلى وزارتك. لا تخش شيئًا، بكلّ السرِّيّة المرغوب فيها. ولكنّك تعرف ما هي الشكليّات الإداريّة: فأنا أشكّ كثيرًا في أن تستطيع انتظار

مساعدتنا بطريقة معقولة قبل الخامس من تمّوز.

فقال ماتيو وهو منقبض الحنجرة:

ـ هذا يستحيل عليّ. (وأضاف): إنّني بحاجة إلى المال هذا المساء أو صباح الغد على الأبعد، فأنا بحاجة عاجلة له. ألا تستطيع أن... بفائدة أكبر؟

فبدت الدهشة والاستغراب على الرجل، ورفع يديه الجميلتين في الهواء:

ـ ولكنّنا لسنا مرابين يا سيِّدي العزيز! لقد تلقّت شركتنا تشجيع وزارة الأشغال العامّة. إنّها إذا صحّ لنا القول منظّمة رسميّة. إنّنا نتقاضى فوائد عاديّة وُضعت بالنظر لنفقاتنا ولمجازفاتنا، ولا نستطيع أن نستجيب لمثل هذه المساومات.

وأضاف في قسوة:

ـ إذا كنت مستعجلاً، فقد كان عليك أن تأتي قبل الآن. ألم تقرأ إرشاداتنا؟

قال ماتيو وهو ينهض:

ـ كلّا. لقد فاجأني الوقت.

فقال الرجل ببرودة:

ـ إنّني إذن آسف... هل يجب تمزيق الأوراق التي ملأتها؟

وفكّر ماتيو في سارة: «لا بدّ أنّها ستقنعه بتأجيل القبض». وقال:

ـ لا تمزِّقها. سأتدبّر أمري حتى ذلك الحين.

فقال الرجل بلهجة ودِّيّة:

ـ نعم، ستجد بلا شكّ صديقًا يقرضك لمدّة خمسة عشر يومًا ما أنت بحاجة إليه. (وقال وهو يومئ بإصبعه إلى الورقة) هذا إذن هو عنوانك: ١٢ شارع هويغنز؟

ـ نعم.

ـ حسنًا، في الأيَّام الأولى من تمّوز سنرسل لك دعوة صغيرة.

ونهض فرافق ماتيو حتى الباب. وقال ماتيو:

ـ إلى اللقاء يا سيِّدي. شكرًا.

فقال الرجل وهو ينحني:

ـ إنّني سعيد بأن أؤدِّي لك خدمة. فإلى اللقاء.

وعبر ماتيو غرفة الانتظار بخطى كبيرة. وكانت المرأة الشابّة ما تزال هناك، كانت تعضّ قفّازها بهيئة شاردة. وقال الرجل من خلف ماتيو:

ـ هل لكِ أن تدخلي يا سيّدتي؟

وفي الخارج، كانت أنوار نباتيّة ترتعش في الهواء الرمادي. ولكنّ ماتيو كان يشعر الآن بأنّه كان طوال الوقت مسجونًا داخل جدران. وفكّر: «هزيمة أخرى» ولم يكن لديه أمل بعد إلّا بسارة.

كان قد بلغ جادّة سيباستوبول، فدخل مقهى وطلب قسيمة من المحاسبة.

ـ التلفون في الداخل، إلى اليمين.

وفيما هو يركِّب الرقم تمتم: «المهمّ أن تكون قد نجحت. أوه! المهمّ أن تكون قد نجحت».

وكان ذلك نوعًا من الصلاة المبتهلة. وقال:

ـ آلو، آلو! سارة؟

فقال صوت: ـ آلو، نعم. أنا ويمولر.

قال ماتيو: ـ أنا ماتيو دولارو. هل أستطيع أن أتكلّم مع سارة؟

ـ لقد خرجت.

ـ آه! هذا مزعج. . . ألا تدري متى ستعود؟

ـ لا، لا أعرف. هل لديك شيء تريد أن تبلغها إيّاه؟

ـ لا، قل لها فقط إنّني اتّصلت بها.

وأعاد السمّاعة وخرج. إنّ حياته لم تكن بعدُ متوقِّفة عليه بل كانت بين يديْ سارة، ولم يكن باقيًا له إلّا أن ينتظر. أشار إلى أوتوبيس وصعد يجلس بالقرب من امرأة عجوز كانت تسعل في منديلها. وفكّر: «إنّ اليهود يتفاهمون فيما بينهم» سيقبل معها، سيقبل بلا شكّ.

ـ دانفير ـ روشيرو؟

فقال قاطع التذاكر: ثلاث قسائم.

وأخذ ماتيو القسائم الثلاث وراح ينظر من النافذة، وكان يفكِّر بمارسيل في حقد حزين. كان الزجاج يرتجف، والعجوز تسعل، والأزهار ترقص على قبّعتها القشِّيّة السوداء. القبّعة، الأزهار، العجوز، ماتيو، كلّ شيء كان محمولاً بالآلة الضخمة؛ لم تكن العجوز ترفع أنفها عن منديلها، ومع ذلك فقد كانت تسعل عند ملتقى شارع «الأورس» وجادّة سيباستوبول، وكانت تسعل في شارع ريمور، وتسعل في شارع مونتورغوي، وتسعل على جسر «البونيف» فوق ماء رماديٍّ هادئ. «وإذا لم يقبل اليهوديّ؟» ولكنّ هذه الفكرة لم تنجح في إخراجه من خدره، إنّه لم يكن بعد إلّا كيسًا من الفحم فوق أكياس أخرى، في قلب شاحنة. «فليكن. سينتهي الأمر، وسأقول لها هذا المساء إنِّي سأتزوّجها». وكان الأوتوبيس الضخم والطفولي يحمله، ويميل به ذات اليمين وذات اليسار، ويهزّه، ويصدمه، وكانت الأحداث تصدمه بمسند المقعد، بالزجاج. كانت سرعة حياته تهدهده، وكان يفكِّر: «إنّ حياتي ليست بعدُ لي، ليست بعدُ إلّا قَدرًا»، وكان ينظر فيرى بنايات شارع «سان بير» السوداء تنبثق، وينظر إلى حياته التي كانت تتوالى. أتزوّجها، لا أتزوّجها: «إنّ هذا لا يعنيني بعد. القضيّة هي وجه الفلس أو قفاه».

وتوقّف الأوتوبيس توقّفًا عنيفًا مفاجئًا، فانتصب ماتيو ونظر إلى ظهر

السائق في قلق: لقد أتت حرّيّته كلّها ترتدّ عليه. وفكّر: «لا، ليست القضيّة هي وجه الفلس أو قفاه. فمهما حدث، فإنّما ينبغي أن يحدث بإرادتي». حتى ولو ترك نفسه موزّعًا يائسًا، ولو ترك نفسه ككيس من الفحم، فإنّما يكون قد اختار ضياعه: لقد كان حرًّا، حرًّا في كلّ شيء، حرًّا في أن يكون أبله أو يكون آلة، حرًّا ليقبل، حرًّا ليرفض، حرًّا ليتعلّل أو يتردَّد: كان بوسعه أن يفعل ما يريد: أن يتزوّج أو يترك، أن يجرجر طوال سنوات هذه الفكرة المعلَّقة بقدمه، فليس لأحد الحقّ في أن ينصحه، ولن يكون له «خير» أو «شرّ» إلَّا أن يكون قد اخترعهما. كانت الأشياء حوله قد اصطفّت في دائرة، وكانت تنتظر من غير أن تعمل إشارة، ومن غير أن تأتي أيّة إيماءة. كان وحيدًا، وسط صمت شيطاني، حرًّا ووحيدًا، من غير عون ولا عذر، محكومًا عليه أن يقرِّر من غير مساعدة ممكنة، محكومًا عليه إلى الأبد أن يكون حرًّا.

وصاح قاطع التذاكر: ـ دانفير ـ روشيرو.

ونهض ماتيو وترجّل، ودلف إلى شارع «فروادفو». كان متعبًا ثائر الأعصاب، وكان لا يني يرى صندوقًا مفتوحًا وسط غرفة مظلمة، وفي جوف الصندوق أوراق معطّرة ناعمة.. وكان ذلك يشبه ندمًا. وفكّر: «آه! كان عليّ أن آخذها».

وقالت البوّابة:

ـ رسالة مستعجلة لك. لقد وصلت اللحظة.

تناول ماتيو الرسالة فمزّق الظرف، وللحال انهارت الجدران التي كانت تحاصره، وخيِّل إليه أنّ عالمه يتغيّر. كانت هناك ثلاث كلمات، وسط الصفحة، مكتوبة بخطّ كبير هابط:

«سقطت. فاقدة الشعور. إيفيش».

وسألت البوّابة: إنّه ليس خبرًا سيّئًا، على الأقلّ؟

ـ كلّا.

ـ آه! حسنًا. لأنّك كنت مشدوهًا؟

سقطت. فاقدة الشعور. إيفيش.

ـ إنّه تلميذ قديم من تلامذتي قد سقط في الامتحان.

ـ آه! إنّهم يشدِّدون الامتحانات، على ما قيل لي.

ـ يشدِّدون كثيرًا.

قالت البوّابة: تأمّل! جميع هؤلاء الشبّان الذين ينجحون. وبعد ذلك، ها هم أولاء يحملون الألقاب. فماذا تريد أن يفعلوا بهم؟

ـ هذا ما أتساءل عنه.

وقرأ للمرّة الرابعة رسالة إيفيش، وكان مصفوعًا بفخامة كلماتها المقلقة: سقطت، فاقدة الشعور... وفكّر: «إنّها الآن ترتكب حماقة ما. هذا واضح كالنهار. إنّها ترتكب حماقة ما».

ـ كم هي الساعة؟

ـ السادسة.

الساعة السادسة. لقد تلقَّت النتيجة في الساعة الثانية. وها هي أربع ساعات تمضي وهي مقذوفة في شوارع باريس. وضع الرسالة في جيبه، وقال للبوّابة:

ـ مدام غارنيه: أعيريني خمسين فرنكًا.

فقالت البوّابة مندهشة:

ـ ولكنّي لا أعرف إن كنت أملكها.

وفتّشت في درج طاولة عملها:

ـ خذ، ليس معي إلَّا مئة فرنك، وستعيدها إليّ هذا المساء.

قال ماتيو: ـ حسنًا. شكرًا.

وخرج، وكان يفكّر: «أين عساها تكون؟» وكان رأسه فارغًا، ويداه ترتجفان. وكانت سيّارة تاكسي بطيئة مارّة في شارع فروادفو، فأوقفها ماتيو:

ـ بيت الطالبات ١٧٣ شارع سان جاك. بسرعة.

قال السائق: ـ حسنًا.

«أين عساها تكون؟ في أحسن الحالات تكون قد ذهبت إلى لاون، وفي أسوإها... وأنا متأخّر أربع ساعات» وكان منحنيًا إلى أمام، وكان يضغط بشدّة قدمه اليمنى على السجّادة مستعجلاً السيّارة.

وتوقّف التاكسي، فترجّل ماتيو وقرع جرس بيت الطلبة:

ـ هل الآنسة إيفيش سرغين موجودة؟

فنظرت إليه السيّدة في تحدٍّ، وقالت:

ـ إنّي ذاهبة لأرى.

وما لبثت أن عادت:

ـ إنّ الآنسة سرغين لم تعد منذ هذا الصباح. فهل هناك ما تودّ إبلاغها إيّاه؟

ـ لا.

وعاد ماتيو فاستقلّ السيّارة:

ـ أوتيل بولونيا، شارع سوميرار.

وبعد لحظة، طرق على الزجاج وقال:

ـ هنا، هنا، الفندق هو إلى اليسار.

وقفز إلى الأرض ودفع الباب الزجاجي:

ـ هل السيّد سرغين موجود؟

وكان الخادم السمين الأحسب واقفًا عند الصندوق، فعرف ماتيو وابتسم له:

ـ إنّه لم يعد هذه الليلة.

ـ وأخته... فتاة شقراء هل مرَّت هنا اليوم؟

فقال الخادم: ـ أوه، إنّني أعرف الآنسة إيفيش جيِّدًا. لا. إنّها لم تأت، وليس هناك إلَّا السيّدة مونتيرو التي تلفنت مرّتين تسأل عن السيّد بوريس وتطلب أن يذهب توًّا لرؤيتها فور عودته؛ فإذا رأيته أبلغه ذلك.

قال ماتيو: ـ حسنًا.

وخرج. أين عساها تكون؟ في السينما؟ إنّ هذا غير محتمل قطّ. تجرجر أقدامها في الشوارع؟ إنّها على كلّ حال لم تترك باريس بعد، وإلَّا لمرّت ببيت الطالبات لتأخذ حقائبها. وسحب ماتيو الرسالة من جيبه وتفحّص الظرف: لقد أُرسل من مكتب بريد شارع كوجاس، ولكنّ ذلك لم يكن يثبت شيئًا. وسأله السائق:

ـ أين نذهب؟

فنظر إليه ماتيو نظرة متردِّدة وأشرقت في ذهنه فكرة: «لكي تكتب هذا لا بدّ أنّها قد ثملت». وقال:

ـ اسمع: عليك أن تجتاز على مهل جادّة سان ميشال مرّة أخرى ابتداءً من المحطّة. إنّني أبحث عن إنسان، ويجب أن أُلمّ بجميع المقاهي.

ولم تكن إيفيش في بياريتز، ولا في «لامبورس» ولا في «داركور» ولا في «البيار» ولا في «باليه دو كافيه». وفي مقهى كابولاد، لمح ماتيو طالبًا صينيًّا كان يعرفها. وتقدّم. كان الصبيّ يشرب البورتو وهو معتلٍ كرسيّ المشرب. قال ماتيو وهو يرفع إليه رأسه:

ـ أطلب المعذرة. أظنّ أنّك تعرف الآنسة سرغين، فهل رأيتها اليوم؟

فقال الصيني وكان يتكلّم بمشقّة:

ـ كلّا. حصلت لها مصيبة.

فصاح ماتيو: ـ ماذا حصلت لها مصيبة؟

قال الصينيّ: ـ كلّا، وإنّما أسأل إن كانت قد حصلت لها مصيبة.

فقال ماتيو وهو يوليه ظهره:

ـ لا أدري.

ولم يكن يفكّر بعد حتى بأنّه يحمي إيفيش من نفسها، لم تكن لديه إلّا حاجة مؤلمة عنيفة لرؤيتها. وفكّر في غضب. «وإذا حاولت أن تقتل نفسها؟ إنّها سخيفة إلى هذا الحدّ». وبعد كلّ شيء، ربّما كانت بكلّ بساطة في مونبارناس. وقال:

ـ إلى مفرق «فافين».

وصعد ثانية إلى السيّارة. وكانت يداه ترتجفان: فوضعهما في جيبه؛ واستدارت السيّارة حول نبع مديسيس، فلمح ماتيو ريناتا صديقة إيفيش الإيطاليّة. وكانت خارجة من اللكسمبورغ والمحفظة في يدها، فصاح ماتيو بالسائق:

ـ قف، قف.

وقفز من التاكسي وعاد إليها:

ـ هل رأيت إيفيش؟

فأخذت ريناتا مظهرًا رصينًا وقالت:

ـ صباح الخير يا سيِّدي.

قال ماتيو:

ـ صباح الخير، هل رأيت إيفيش؟

ـ إيفيش، نعم، رأيتها.

ـ متى؟

ـ منذ ساعة تقريبًا.

ـ أين؟

ـ في حديقة اللوكسمبورغ (وأضافت ريناتا بانزعاج قليل) كانت مع شخص غريب. هل عرفت أنّ المسكينة سقطت؟

ـ نعم. أين ذهبت؟

كانا يريدان الذهاب إلى مرقص «لاتارنتول» على ما أعتقد.

ـ وأين هو؟

ـ شارع «مسيولوبرنس». إنّه كما سترى بائع أسطوانات، والمرقص تحت الأرض.

ـ شكرًا.

وخطا ماتيو بضع خطوات ثم عاد يقول:

ـ اعذريني، نسيت أيضًا أن أقول لك إلى اللقاء.

قالت ريناتا: ـ إلى اللقاء يا سيِّدي.

وعاد ماتيو إلى سائقه:

ـ شارع «مسيولوبرنس» على بعد خطوتين. سِرْ على مهل، وسأوقفك.

«المهمّ أن تكون ما زالت هناك! إنّني سأجوب جميع مراقص الحيّ اللّاتيني».

ـ قف. هنا. ستنتظرني لحظة.

ودخل ماتيو إلى حانوت بائع أسطوانات وسأل.

ـ مرقص «لاتارنتول؟».

ـ في الطابق الأرضي. اهبط الدرج.

هبط ماتيو درجًا، واستنشق رائحة رطبة عفنة، ثم دفع مصراع باب من الجلد، وتلقّى ضربةً في معدته: كانت إيفيش هناك. وكانت ترقص. واستند إلى حاجز الباب وفكّر: «إنّها هنا».

كان كهفًا خاليًا مضادًّا للعفونة، بلا ظلّ. وكان ضوء مصفًّى يهبط من السقف ذي الورق المزيّت. رأى ماتيو زهاء خمس عشرة طاولة ضائعة وسط هذا البحر الضوئي الميِّت. وكانت قد أُلصقت على الجدران البنيّة قطع ملوّنة من الورق المقوّى كانت تمثِّل نباتات غريبة، ولكنّها كانت قد تقوّست والتوت بتأثير الرطوبة. كان الصبّار قد انتفخ تجعُّدات. وثمّة حاكٍ غير مرئي يذيع رقصة باسادوبل، وكانت هذه الموسيقى المعلّبة تزيد القاعة عريًا.

كانت إيفيش قد أراحت رأسها على كتف مراقصها، تلتصق به بشدّة. إنّه يجيد الرقص. وقد عرفه ماتيو: كان ذلك الشابّ الطويل الأسمر الذي اِصطحب إيفيش مساء أمس في جادّة سان ميشال. وكان يشمّ شعرها بين وقت وآخر ويقبِّله. فتقذف إذ ذاك رأسها إلى خلف وتضحك، ممتقعة، مغمضة العينين، فيما كان يهمس في أذنها؛ كانا وحدهما وسط الحلبة. في جوف القاعة، كان أربعة شبّان وفتاة طلت وجهها بالمساحيق يصفِّقون بأيديهم ويصرخون «أوليه». واقتاد الشابّ الطويل الأسمر إيفيش إلى طاولتهم وهو يمسكها من قامتها، فتجمّع الطلّاب حولها واحتفلوا بمقدمها، وكانوا على مظهر طبيعي ومتصنِّع في الوقت نفسه. يحيطونها بحركات دائرة ولطيفة، أمّا المرأة المزيّنة فكانت قائمة على حذر. كانت واقفة، ثقيلة ومرتخية، ونظرها محدّد. أشعلت سيجارة وقالت بتأمُّل:

ـ أوليه.

انهارت إيفيش على كرسي بين المرأة الشابّة وبين قصير أشقر ذي لحية قصيرة. وكانت تضحك بجنون. قالت وهي تلوِّح بيدها أمام وجهها.

ـ كلّا، كلّا! لا حاجة إلى دليل، لا حاجة إلى دليل!

ونهض ذو اللحية على عجل ليتنازل عن مقعده للرجل الأسمر: وفكّر ماتيو: «تمّت اللوحة، لقد اعترفوا له بحقّه في الجلوس إلى جانبها». وكان

يبدو على الأسمر الجميل أنّه يجد الأمر طبيعيًا جدًّا؛ والواقع أنّه الوحيد الذي كان يبدو راضيًا ومرتاحًا.

أومأت إيفيش بإصبعها إلى ذي اللحية، وقالت ضاحكة:

ـ لقد فرّ لأنِّي وعدتُه بأن أقبِّله.

فقال ذو اللحية بكلّ رصانة:

ـ اسمحي لي. إنّك تَعِديني بذلك، بل هدّدتني به.

قالت إيفيش: ـ حسنًا! لن أقبِّلك، بل سأقبِّل «إيرما».

فقالت المرأة الشابّة وقد ثارت دهشتها وغرورها:

ـ تريدين أن تقبّليني يا صغيرتي إيفيش!

ـ نعم، تعالي.

وجذبتها من ذراعها في تسلُّط. فابتعد الآخرون وقد أخذهم العجب.

قال أحدهم: «ما هذا يا إيفيش!» بصوت لا يخلو من تأنيب لطيف. وكان الجميل الأسمر ينظر إليها ببرودة وهو يبتسم بسمة خفيفة؛ كان يراقبها. واستشعر ماتيو الذلّ؛ إنّ إيفيش لم تكن، بالنسبة لهذا الشابّ الأنيق، إلَّا فريسة؛ لقد كان يعرِّيها بنظرة شهوانيّة وعارفة، وقد كانت عارية أمامه، وكان يحزر نهديها وفخذيها ورائحة لحمها... وانتفض ماتيو فجأة، وتقدّم من إيفيش، مرتخي الساقين: لقد لاحظ أنّه كان يشتهيها للمرّة الأولى بخجل، عبر شهوة شخص آخر.

وكانت إيفيش قد قامت بألف حركة متصنِّعة قبل أن تقبِّل جارتها. وأخيرًا، تناولت رأسها بين يديها، وقبّلتها في شفتيها ثم دفعتها عنها بعنف وهي تقول في تأنيب:

ـ إنّ رائحتك هي رائحة الكاشو الهنديّ.

وانزرع ماتيو بالقرب من طاولتهم، وقال:

ـ إيفيش!

فنظرت إليه فاغرة الفم، وتساءل عمّا إذا كانت قد عرفته. ورفعت على مهل يدها اليسرى وأرته إيَّاها، وقالت:

ـ هذا أنت؟ عجبًا، انظر!

كانت قد نزعت ضمّادها، فرأى ماتيو قشرة محمرَّة دبقة مع نتؤات صغيرة من القيح الأصفر.

وقالت إيفيش خائبة:

ـ لقد احتفظت بضمادك. صحيح، أنت متبصِّر.

قالت المرأة بلهجة اعتذار:

ـ لقد نزعته بالرّغم منّا. إنّها شيطان صغير.

ونهضت إيفيش فجأة، ونظرت إلى ماتيو نظرة مبهمة:

ـ خذني من هنا. إنّني أُذلّ نفسي.

فتبادل الشبّان النظرات، وقال ذو اللحية لماتيو:

ـ إنّنا لم نجعلها تشرب. بل نحن حاولنا منعها من ذلك.

فقالت إيفيش باشمئزاز:

ـ هذا صحيح. إنّهم لِئام.

قال الراقص الجميل:

ـ إلَّا أنا يا إيفيش، إلَّا أنا.

وكان ينظر إليها نظرة مشاركة: فالتفتت إليه إيفيش وقالت:

ـ إلَّا هذا الذي هو إنسان قذر!

قال ماتيو على مهل:

ـ تعالي.

وأخذها من كتفيها وساقها؛ وكان يسمع خلفه ضجّة واجمة. وفي وسط الدرج، تثاقلت إيفيش، فابتهل قائلاً: «إيفيش!» فنفضت خصلاتها مقهقهة وقالت:

ـ أريد أن أجلس.

ـ أرجوكِ.

فعادت إيفيش إلى الضحك ثم رفعت تنّورتها إلى ما فوق ركبتها وقالت:

ـ أريد أن أجلس هنا.

فتناولها ماتيو من قامتها وحملها. وحين بلغا الشارع، تركها: ولم تتخبّط، وطرفت بعينيها ونظرت فيما حولها نظرة ضجرة. وقال ماتيو مقترحًا:

ـ هل تريدين أن تعودي إلى بيت الطالبات؟

فقالت إيفيش في ضجّة: ـ كلّا.

ـ أتريدين أن آخذك إلى بوريس؟

ـ إنّه ليس في البيت.

ـ وأين هو؟

ـ الشيطان يدري.

ـ أين تريدين أن تذهبي؟

ـ ما يدريني أنا؟ عليك أنت أن تجد، فأنت الذي أخذتني. وفكّر ماتيو لحظة وقال:

ـ حسنًا.

وأمسكها حتى التاكسي وقال:

ـ ٢٢، شارع هويغنز.

وقال: ـ إنّني آخذك إلى بيتي. تستطعين أن تتمدّدي على ديواني وسأعدّ لك الشاي.

فلم تعترض إيفيش. وصعدت إلى السيّارة على مشقّة وارتمت فوق الوسائد.

ـ هل تشكين شيئًا؟

وكانت مزرقّة، فقالت:

ـ إنّني مريضة.

قال ماتيو: ـ سأقول له أن يقف أمام صيدليّة.

فقالت بعنف: ـ كلّا.

قال ماتيو: ـ إذن تمدّدي واغمضي عينيك. سنصل عمّا قليل. فأنّت إيفيش قليلاً. وفجأة اخضرّ لونها وأطلّت من الباب. وكان ماتيو يرى ظهرها الهزيل يهزّه التقيّؤ. ومدَّ يده فأمسك بلا ضجّة قفل الباب: كان يخشى أن ينفتح. وبعد لحظة، انقطع السعال، فارتمى ماتيو إلى خلف، وأخذ غليونه وحشاه وهو مستغرق. تركت إيفيش نفسها ترتمي على الوسائد، وأعاد ماتيو غليونه إلى جيبه. وقال لها:

ـ لقد وصلنا.

واستقامت إيفيش بمشقّة، وقالت:

ـ إنّني خجلة.

وترجّل ماتيو قبلها ومدَّ لها ذراعيه ليعينها، لكنّها دفعته وقفزت بحيويّة إلى الرصيف. وأسرع يدفع للسائق والتفت إليها، فإذا هي تنظر نظرة محايدة؛ كانت رائحة قيء حامضة خفيفة تنبعث من فمها النقيّ. استنشق ماتيو هذه الرائحة بهوس وسأل:

ـ هل تحسّنت حالتك؟

قالت إيفيش بلهجة قاتمة:

ـ لا، لم أعد بعد ثملة، ولكن رأسي يخفق.

دلّها ماتيو برفق على السلّم. وقالت له بلهجة عدائيّة:

ـ عند كلّ درجة، ضربة في رأسي.

وتوقّفت عند السطح الثاني لتستردّ أنفاسها.

ـ إنّني الآن أتذكّر كلّ شيء.

ـ إيفيش!

ـ كلّ شيء. لقد تدحرجت مع أولئك الأشخاص القذرين وجعلت نفسي عرضة للأنظار... ثم إنّني... سقطت في الشهادة.

قال ماتيو: ـ تعالي. لم يبق إلّا طابق واحد.

وصعدا في صمت. وقالت إيفيش فجأة:

ـ كيف عثرت عليّ؟

فانحنى ماتيو ليدخل المفتاح في القفل وقال:

ـ كنت أبحث عنك، ثم التقيت ريناتا.

ودمدمت إيفيش خلف ظهره:

ـ كنت أرجو طوال الوقت أن تأتي.

قال ماتيو وهو يمّحي أمامها: «ادخلي» فلامسته وهي تلمّ به، واستولت عليه الرغبة في أن يأخذها بين ذراعيه.

خطت إيفيش بضع خطى متردِّدة ودخلت الغرفة. ونظرت فيما حولها نظرة مقطِّبة:

ـ هذا هو بيتك!

قال ماتيو: ـ نعم.

وكانت هذه هي المرّة الأولى التي يستقبلها فيها عنده. ونظر إلى

المقاعد الجلديّة الخضراء وإلى طاولة عمله؛ ورآها بعينيْ إيفيش، فداخله منها الخجل، وقال:

ـ هو ذا الديوان. تمدَّدي عليه.

فارتمت إيفيش على الديوان دون أن تنبس بحرف.

ـ هل تريدين شايًا؟

قالت إيفيش: ـ إنّي أشعر بالبرد.

وراح ماتيو يأتيها بغطاء الرِجلين ويمدّه على ساقيها. أغمضت إيفيش عينيها ووضعت رأسها على وسادة. كانت تتألّم، وكان على جبينها ثلاثة تجعّدات عموديّة، عند منبت الأنف.

ـ هل تريدين شايًا؟

فلم تجب. وأخذ ماتيو المغلاة الكهربائيّة وراح يملأها من حنفيّة المطبخ. ووجد في قفص الطعام نصف ليمونة قديمة قد تزجّجت بقشرتها الجافّة، ولكن ربّما كان من الممكن استقطار دمعة أو دمعتين منها إذا عُصرت جيِّدًا. ووضعها على صحن مع فنجانين وعاد إلى الغرفة يقول:

ـ وضعت الماء للغلي.

فلم تجب إيفيش: كانت نائمة. وسحب ماتيو كرسيًّا بإزاء الديوان وجلس بلا ضجّة. كانت تجعّدات إيفيش الثلاثة قد اختفت، وبدا جبينها نقيًّا أملس؛ كانت تبتسم وعيناها مغمضتان. وفكّر: «ما أنضر شبابها!» لقد وضع أمله كلّه في طفلة. وما كان أشدّ ضعفها وخفّتها وهي على هذا الديوان: لم تكن تستطيع أن تساعد أحدًا، بل كان ينبغي، بالعكس، أن تُساعَد لكي تحيا. ولم يكن باستطاعته أن يساعدها. ستذهب إيفيش إلى «لاون» وستتوحّش هناك شتاءً أو شتاءين، ثم يأتي شخص ـ شخص شابّ ـ فيأخذها. «وأنا سأتزوّج مارسيل». نهض ماتيو وذهب يرى على مهل إن كان الماء يغلي، ثم عاد يجلس بالقرب من إيفيش، ونظر بحنان إلى هذا

الجسم الصغير الضعيف الملطّخ الذي يظلّ شريفًا إلى هذا الحدّ في النوم، وفكّر بأنّه كان يحبّ إيفيش، فدهش لذلك: إنّ الحبّ شيء لا يُحسُّ به، وهو لم يكن انفعالاً خاصًّا، ولا لونًا خاصًّا من عواطفه، وإنّما هو أشبه بأن يكون لعنةً ثابتة في الأفق، نذيرًا بمصيبة. وأخذ الماء يغنّي في المغلاة. وفتحت إيفيش عينيها، فقال ماتيو:

ـ إنّني أعدّ لك شايًا. هل تريدين؟

قالت إيفيش بلهجة ضيق: ـ شاي؟ ولكنّك لا تحسن إعداد الشاي.

وأعادت بكفّها خصلاتها على وجنتيها ونهضت وهي تفرك عينيها، وقالت:

ـ أعطني علبة الشاي، سأعدّه لك على الطريقة الروسيّة. ولكنّنا بحاجة إلى مغلاة روسيّة. ساموفار.

فقال ماتيو وهو يمدّ لها علبة الشاي:

ـ ليس عندي إلّا مغلاة عاديّة.

ـ أوه! ثم هذا شاي سيلاني. فليكن!

ووقفت أمام المغلاة:

ـ وإبريق الشاي؟

قال ماتيو: ـ «صحيح». وانطلق يأتي بإبريق الشاي من المطبخ.

ـ شكرًا.

وكانت هيئتها لا تزال قاتمة، ولكنّها منتعِشة. صبّت الماء في إبريق الشاي وعادت إلى الجلوس بعد لحظات وهي تقول:

ـ ينبغي أن نتركه لينقع.

وساد صمت، ثم استطردت:

ـ إنّني لا أحبّ بيتك.

قال ماتيو: ـ كنت أعتقد ذلك جيّدًا. وإذا تحسّنت حالتكِ قليلاً، كان بوسعنا أن نخرج.

فقالت إيفيش: ـ وأين نذهب؟ كلّا. إنّني مسرورة بأن أكون هنا. لقد كانت جميع تلك المقاهي تدور حولي؛ إنّ الناس كانوا كوابيس... صحيح أنّ البيت هنا قبيح، ولكنّه هادئ. ألا تستطيع أن تسدل الستائر؟ سنضيء بعد ذلك هذا المصباح الصغير.

فنهض ماتيو، وذهب يغلق المصاريع ويحلّ الأربطة، فتجمّعت الستائر الثقيلة الخضراء، وأضاء مصباح مكتبه. وقالت إيفيش مفتونة:

ـ هذا هو الليل.

واستندت إلى وسائد الديوان:

ـ ما أنعم هذا! لكأنّ النهار قد انتهى. أودّ أن يكون الظلام سائدًا حين أخرج من هنا. إنّني أخاف أن أجد من جديد النهار.

قال ماتيو: ـ إبقي هنا ما شئتِ. فلن يأتي أحد، وإذا جاء أحد تركناه يدقّ من غير أن نفتح. إنّني حرّ تمامًا.

ولم يكن هذا صحيحًا: كانت مارسيل تنتظره عند الساعة الحادية عشرة. وفكّر في ضغينة: سوف تنتظر. وسألها:

ـ متى تذهبين؟

ـ غدًا. هناك قطار عند الظهر.

وظلّ ماتيو لحظة دون أن يتكلّم. ثم قال وهو يراقب صوته:

ـ سأصطحبك إلى المحطّة.

قالت إيفيش: ـ كلّا. إنّني أكره هذا، فذلك يقتضي وداعات مائعة تتمطّط كالكاوتشوك. ثم إنّي سأكون ميّتة من التعب.

قال ماتيو: ـ كما تشائين. هل أبرقت لأهلك؟

ـ كلّا. كان بوريس يريد أن يفعل ذلك، ولكنّي منعته.

ـ إذن، ينبغي أن تبلغيهم ذلك بنفسك؟

فخفضت إيفيش رأسها وقالت:

ـ نعم.

وساد صمت، وكان ماتيو ينظر إلى رأس إيفيش المنحني وكتفيها الهزيلتين: كان يخيّل إليه أنّها كانت تتركه رويدًا رويدًا. وسألها:

ـ هذه إذن آخر أمسية لنا في هذا العام؟

فقالت في ضحكة ساخرة: ـ ها! في هذا العام!...

قال ماتيو: ـ إيفيش... لا ينبغي لك... سأذهب أوّلاً لرؤيتك في «لاون».

ـ لا أريد. إنّ كلّ ما يتعلّق بلاون ملطّخ.

ـ إذن ستعودين.

ـ كلّا.

ـ هناك دورة في تشرين الثاني، ولا يستطيع أهلك...

ـ أنت لا تعرفهم.

ـ صحيح. ولكن ليس من الممكن أن يفسدوا حياتك كلّها عقابًا لك على أنّك سقطت في الامتحان.

قالت إيفيش: ـ إنّهم لن يفكّروا في معاقبتي. ولكن سيكون الأمر أسوأ من ذلك؛ سوف يهملونني، وسأخرج من أفكارهم بكلّ بساطة. (واستخفّ بها الغضب) وأضافت: وهذا ما أستحقّه فعلاً! إنّني لست جديرة بتعلُّم أيّة مهنة، وأنا أفضّل أن أبقى في لاون طوال حياتي على أن أُعيد من جديد هذه الشهادة...

فقال ماتيو قلقًا: ـ لا تقولي هذا يا إيفيش. لا تستسلمي منذ الآن. إنّك تكرهين لاون.

فقالت وهي منقبضة الأسنان:

ـ أوه! نعم، إنّني أكرهها بفظاعة.

ونهض ماتيو ليأتي بإبريق الشاي والفناجين. وفجأة صعد الدم إلى وجهه، فالتفت إليها وتمتم من غير أن ينظر إليها:

ـ اسمعي يا إيفيش: ستذهبين غدًا، ولكنِّي أعدك بأنّك ستعودين في نهاية شهر تشرين الأوّل. وسوف أتدبّر الأمر حتى ذلك الحين.

فسألته إيفيش في دهشة متعبة:

ـ ستتدبّر الأمر؟ ولكن ليس هناك مجال لتدبُّر الأمر: قلت لك إنِّي غير جديرة بتعلُّم مهنة.

وجرؤ ماتيو على رفع نظره إليها، ولكنّه لم يستشعر الاطمئنان؛ فأنّى له أن يجد الكلمات التي لا تنغِّصها؟

ـ ليس هذا ما كنت أعنيه... فلو.. لو أنّك أردت أن تسمحي لي بأن أساعدك...

وكان يبدو على إيفيش أنّها لم تفهم بعد، فأضاف ماتيو:

ـ سيكون معي بعض المال.

فأخذت إيفيش غصّة وقالت:

ـ آه! أهذا ما تعنيه؟

ثم أضافت بجفاء:

ـ إنّ هذا مستحيل.

قال ماتيو في حرارة: ـ على الإطلاق، إنّ هذا ليس مستحيلاً على الإطلاق. اسمعي: في أثناء العطلة، سأقتصد بعض المال؛ إنّ أوديت وجاك يدعوانني كلّ عام لقضاء شهر آب في مقصورتهما في «جوان ليبان»، ولم أُلبّ دعوتهما حتى الآن، ولكن لا بدّ من أن ألبّيها ذات يوم.

وسأذهب هذا العام، فأصيب بعض التسلية وأوفِّر بعض المال. . . (وأضاف بحيويّة) لا ترفضي قبل أن تعرفي: سيكون هذا قرضًا.

وتوقّف. . كانت إيفيش قد تراخت، كانت تنظر إليه من تحت نظرة سيِّئة:

ـ ولكن، لا تنظري إليّ هكذا يا إيفيش!

فقالت إيفيش بصوت مقطّب:

ـ آه، لا أدري كيف أنظر إليك، ولكنِّي أعرف أنّ بي صداعًا. وأسبلت عينيها وأضافت:

ـ عليّ أن أعود إلى البيت لأنام.

ـ أرجوك يا إيفيش: إصغي إليّ. سوف أجد المال وستعيشين في باريس، ولا تقولي لا، أبتهل إليك، لا تقولي لا من غير أن تفكِّري. إنّ هذا لا يمكن أن يزعجك: ستردِّين لي المال حين تكسبين حياتك بالعمل.

فهزّت إيفيش كتفيها، وأضاف ماتيو بحماسة:

ـ أو أنّ بوريس هو الذي يردُّ المال.

فلم تجب إيفيش، وكانت قد دفنت رأسها في شعرها. . وماتيو ما يزال مزروعًا أمامها، منزعجًا وشقيًّا.

ـ إيفيش.

وظلّت معتصمة بصمتها. وكانت به رغبة بأن يأخذها من ذقنها ويرفع لها رأسها قسرًا.

ـ إيفيش! آن لك أن تجيبي عليّ. لماذا لا تجيبين؟

وظلّت إيفيش صامتة. وأخذ ماتيو يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. كان يفكِّر: «سوف تقبل. لن أتركها قبل أن تقبل. سوف. . سوف أعطي دروسًا خصوصيّة، أو سأصحِّح المسوّدات».

وقال: ـ ستقولين لي يا إيفيش لماذا لا تقبلين؟

كان ممكنًا التغلّب على إيفيش بالإرهاق. ينبغي إرهاقها بالأسئلة التي تتغيّر لهجتها بين فترة وأخرى. وعاد يقول:

ـ لماذا لا تقبلين؟ قولي لماذا لا تقبلين؟

وتمتمت إيفيش أخيرًا، من غير أن ترفع رأسها:

ـ لا أريد أن أقبل مالك.

ـ لماذا؟ إنّك تقبلين مال أهلك.

ـ ليس الأمران سواء.

ـ صحيح: ليس الأمران سواء. لقد قلتِ مئة مرّة إنّك كنت تحتقرينه.

ـ ليس عندي مبرِّر لقبول مالك.

ـ وربّما كان عندك مبرِّر لقبول مالهم؟

قالت إيفيش:

ـ لا أريد أن يكون الناس كرماء معي. أمّا إذا كان ذلك من أبي، فلست محتاجة معه إلى العرفان.

فصاح ماتيو:

ـ ما هذه الكبرياء يا إيفيش؟ إنّه لا يحقّ لك أن تفسدي حياتك من أجل قضيّة كرامة. فكِّري في الحياة التي ستعيشينها هناك. ستندمين يومًا فيومًا، وساعة فساعة، لكونك قد رفضت.

فتحلّلت إيفيش وقالت:

ـ دعني، دعني!

وأضافت بصوت منخفض أبحّ:

ـ أوه! أيّ عذابٍ ألا يكون المرء غنيًّا. إنّ هذا يضعه في مواقف كريهة.

قال ماتيو على مهل:

ـ ولكنِّي لا أفهمك. لقد قلت لي في الشهر الماضي إنّ المال كان شيئًا محتقرًا، ولا ينبغي أن نوليه أيّ اهتمام. كنت تقولين: لا يهمّني من أين يأتي، المهمّ أن أملكه.

فرفعت إيفيش كتفيها، ولم يعد ماتيو يرى منها إلَّا أعلى رأسها وطرفًا من رقبتها بين خصلاتها وياقة قميصها. وكانت الرقبة أشدّ سمرة من بشرة الوجه.

ـ ألم تقولي لي ذلك؟

ـ لا أريد أن تعطيني مالاً.

ففقد ماتيو صبره، وقال في ضحكة متقطِّعة:

ـ آه! ذلك إذًا لأنِّي رجل!

فسألته إيفيش: ـ ماذا تقول؟

وكانت تنظر إليه في حقد بارد:

ـ إنّ هذا صفيق. وأنا لم أفكِّر في ذلك قطّ، وإنِّي أسخر منه، ولم أكن أتصوّر...

ـ وإذن؟ فكِّري: للمرّة الأولى في حياتك ستكونين حرّةً تمامًا، ستعيشين حيث تريدين، وتفعلين كلّ ما يروق لك. لقد سبق أن قلتِ ليّ إنّك تودِّين أن تُعدِّي شهادة ليسانس في الفلسفة. تستطيعين أن تجرِّبي، وسنساعدك أنا وبوريس.

وسألته إيفيش: ـ لماذا تريد أن تعمل لي خيرًا؟ إنّني لم أعمل معك شيئًا من ذلك قطّ.. بل لقد كنتُ معك غير محتَملة، وها أنت الآن مشفقٌ عليّ.

ـ إنّني لست مشفقًا عليك.

ـ إذن لماذا تعرض عليّ مالاً؟

فتردّد ماتيو، ثم قال وهو يصرف عنها بصره:

ـ لا أستطيع أن أحتمل التفكير بألّا أراك بعد.

وساد صمت، ثم سألته إيفيش بلهجة غير واثقة:

ـ تريد... تعني أنّك.. إنّما تفعل ذلك بدافع الأنانيّة؟

فقال ماتيو بجفاف: بدافع أنانيّة محضة. كلّ ما في الأمر أنّي راغب في رؤيتك.

وجرؤ على أن يلتفت إليها. وكانت تنظر إليه مقطّبة الحاجب، فاغرة الفم. ثم بدا عليها فجأة أنها تنفرج. وقال في غير اكتراث:

ـ إذن ربّما. إنّ هذا يعنيكِ، في هذه الحالة. وسنرى. وأنتِ على حقّ، في آخر المطاف: أن يأتي المال من هنا أو من هناك.

وتنفّس ماتيو وفكّر: «حسنًا!» ولكنّه لم يكن قطّ مطمئنًّا.. لقد كانت إيفيش بهيئتها الشرسة. وسألها ليزيدها إلزامًا:

ـ وكيف تراك ستحملين أهلك على ابتلاع هذا؟

فقالت إيفيش بغموض:

ـ سأقول أيّ شيء. فإمّا أن يصدّقوني أو لا يصدّقوني. وما أهمّيّة ذلك ما داموا لا يدفعون بعد؟

وخفضت رأسها في هيئة قاتمة، وقالت:

ـ لا بدَّ من العودة إلى هناك.

فجهد ماتيو بأن يستر غيظه:

ـ ولكن ما دمت ستعودين؟

قالت: ـ إنّ هذا غير واقعي.. أقول لا، وأقول نعم، ولكنّي لا أنجح في أن أصدّق ذلك. إنّه بعيد. في حين أنّي سأكون في لاون مساء الغد.

ولمست حنجرتها، وقالت:

ـ إنّني أحسّها هنا. ثم إنّه يجب عليّ أن أهيّئ حقائبي، وهذا ما يستغرق ساعات الليل بطولها.

ونهضت: ـ لا بدّ أنّ الشاي قد جهز. تعال لنشرب.

وصبّت الشاي في الفناجين، وكان أسود كالقهوة. قال ماتيو:

ـ سأكتب لك.

قالت: وأنا أيضًا، ولكن لن يكون لديّ ما أقوله لك.

ـ ستصفين لي بيتكم، وغرفتك. إنّي أودّ أن أتخيّلك وأنت هناك.

قالت: ـ أوه، كلّا لا أحبّ أن أتحدّث في هذا كلّه. إنّه يكفيني أن أعيشه.

وفكّر ماتيو في الرسائل القصيرة الجافّة التي كان بوريس يبعثها إلى لولا. ولكن ذلك لم يدم أكثر من لحظة: كان ينظر إلى يديّ إيفيش، وإلى أظافرها الحمر المدبّبة، وإلى معصميها الهزيلين.. وفكّر: «سأراها مرّة أخرى». وقالت إيفيش وهي تضع فنجانها:

ـ أيّ شاي غريب!

وانتفض ماتيو إذ سمع جرس الباب يرنّ. ولم يقل شيئًا: كان يأمل أن لا تكون إيفيش قد سمعت. وسألت:

ـ عجبًا! ألم يرنّ الجرس؟

فوضع ماتيو إصبعًا على شفتيه وهمس:

ـ لقد اتّفقنا على ألّا نفتح الباب.

فقالت إيفيش بصوت واضح:

ـ بلى، ربّما كان ذلك هامًّا. اذهب سريعًا، فافتح الباب.

وتوجّه ماتيو إلى الباب. وكان يفكّر: «إنّها تكره أن تكون ضالعة معي». وفتح الباب فيما كانت سارة تهمّ بدقّة ثانية. وقالت سارة لاهثة:

ـ مرحبًا! إنّك تجعلني أركض كما ترى. لقد أخبرني الوزير الصغير أنّك تلفنت، فأتيت. ولم أهتمّ بأن أضع قبّعتي.

ونظر إليها ماتيو في ذعر: كانت مصبوبة في ثوبها البشع الأخضر، وهي تضحك عن أسنانٍ نخرة وشعرها مشعّث وهيئتها هيئةُ طيبةٍ مفتعلة. كانت تفرز الكارثة. وقال بحيويّة:

ـ مرحبًا! ترين أنّني... مع...

فدفعته سارة في ودّ ومدّت رأسها من فوق كتفه، وسألت في فضولٍ شَرِه:

ـ من عندك؟ آه! إنّها إيفيش سرغين. كيف حالكِ؟

ونهضت إيفيش وقامت بحركة احترام. وكانت الخيبة بادية عليها. وكذلك كان شأن سارة. كانت إيفيش هي الشخص الوحيد الذي لم تكن سارة تحتمله. وقالت سارة:

ـ كم أنتِ هزيلة! أنا متأكّدة من أنّك لا تأكلين بما فيه الكفاية. وأنتِ في ذلك غير عاقلة.

ووقف ماتيو في وجه سارة وهو يحدّق إليها.. وأخذت سارة تضحك، وقالت بجذل:

ـ ها هو ماتيو يرميني بنظرة غاضبة. إنّه لا يريد أن أحدِّثك عن صحّتك.

والتفتت إلى ماتيو وقالت:

ـ لقد عدت في ساعة متأخِّرة من الليل. ولم أجد «والدمان». لم يكن قد مضى على وجوده في باريس عشرون يومًا، حتى غرق في ركام من الأعمال المشبوهة. وكانت الساعة قد بلغت السادسة حين عثرت عليه.

قال ماتيو: ـ إنّك لطيفة يا سارة، فشكرًا.

ثم أضاف باندفاع: ـ سنتحدّث عن هذا فيما بعد. تعالي خذي فنجان شاي.

قالت: ـ لا. لا! بل لن أجلس، فعليّ أن أتّجه إلى المكتبة الإسبانيّة، فهم يريدون أن يروني بصورة عاجلة. هناك صديق لغوميز وصل إلى باريس.

فسألها ماتيو ليكسب الوقت: ـ ومن هو؟

ـ لا أعرف بعد. قالوا لي: صديق لغوميز، قادم من مدريد.

ونظرت إلى ماتيو في حنان، وكانت عيناها تبدوان شاردتين من فرط الطيبة.

ـ إنّ عندي نبأ سيِّئًا لك يا عزيزي ماتيو: إنّه يرفض.

ـ هِمّ!

غير أنّه تأتّى له أن يقول:

ـ تودِّين من غير شكّ أن تكلِّميني على حِدَة؟

وقطّب حاجبيه عدّة مرّات، ولكنّ سارة لم تكن تنظر إليه. قالت في أسى:

ـ لا يحتاج الأمر إلى ذلك. فليس عندي ما أقوله لك تقريبًا. ثم أضافت بصوت مثقلٍ بالسرّ:

ـ لقد ألححت ما وسعني ذلك. ولكن عبثًا. يجب على الشخص المعني أن يكون عنده صباح الغد، ومعه المال.

قال ماتيو بحيويّة: ـ حسنًا! لا نتكلّم بعدُ بهذا.

وضغط على الكلمات الأخيرة، ولكنّ سارة كانت حريصة على أن تبرِّر نفسها، فقالت:

ـ لقد بذلتُ جهدي، وابتهلتُ إليه، لو تعلم. فقال لي: «هل هي يهوديّة؟» فقلت كلّا. وعند ذلك قال: «إنّني لا أقرض أحدًا. إذا شاءت أن أخلِّصها فلتدفع. وإلّا، فإنّ العيادات غير مفقودة في باريس».

وسمع ماتيو الديوان يفرقع خلفه. واستطردت سارة:

ـ لقد قال: «إنّني لا أقرضهم أبدًا. لقد عذّبونا هناك أكثر ممّا ينبغي». وهذا صحيح كما تعلم، وأنا أكاد أفهم موقفه. لقد حدّثني عن يهود ڤيينا، وعن معسكرات الاعتقال. ولم أكن أريد أن أصدِّقه... ولكنّ صوته اختنق: «لقد عذّبوهم عذابًا شديدًا».

وصمتت، وحلّ صمت ثقيل. ثم أضافت وهي تنفض رأسها:

ـ وإذن ما الذي ستفعله؟

ـ لا أدري.

ـ ألا تفكِّر في...

فقال ماتيو بحزن: ـ بلى، أتصوّر أنّ الأمر سينتهي إلى هذا.

قالت سارة في انفعال: ـ يا عزيزي ماتيو!

ونظر إليها في قسوة، فصمتت منزعجة. ورأى شيئًا ما يشرق في عينيها يشبه أشعّة وجدانيّة، ثم قالت بعد لحظة:

ـ حسنًا. إنّني إذن أفرنقع. اتّصل بي صباح الغد، فأنا أريد أن أعرف.

قال ماتيو: ـ حسنًا. إلى اللقاء يا سارة.

وصاحت سارة وهي إزاء الباب: ـ إلى اللقاء يا صغيرتي إيفيش.

قالت: ـ مع السلامة يا سيِّدتي.

وحين ذهبت سارة، استعاد ماتيو مشيته عبر الغرفة. وكان يشعر بالبرد. وقال ضاحكًا:

ـ إنّ هذه المرأة الطيِّبة زوبعة. إنّها تدخل كالعاصفة فتلقي كلّ شيء أرضًا ثم تمضي كالريح.

فلم تقل إيفيش شيئًا، وكان ماتيو يعلم أنّها لن تجيب. وأقبل للجلوس

بالقرب منها، وقال من غير أن ينظر إليها:

ـ إيفيش: سوف أتزوّج مارسيل.

وساد صمت آخر. كان ماتيو ينظر إلى الستائر الثقيلة الخضراء التي كانت تتدلّى على النافذة. وكان متعبًا. وأوضح لإيفيش، وهو خافض الرأس:

ـ لقد أخبرتني أمس الأوّل أنّها حامل.

وعانت الكلمات مشقّةً حتى تخرج: إنّه لم يكن يجرؤ على الالتفات إلى إيفيش، ولكنّه كان يعلم أنّها كانت تنظر إليه. وقالت بصوت مثلوج:

ـ إنّني أتساءل لماذا تقول لي ذلك. فهذه شؤونك.

فهزّ ماتيو كتفيه وقال:

ـ كنت تعلمين جيّدًا أنّها كانت...

قالت إيفيش في ترفّع: ـ خليلتك؟ أقول لك إنّني لا أهتمّ كثيرًا بهذه الأمور.

وتردّدت لحظة، ثم قالت بلهجة شاردة:

ـ إنّني لا أفهم لماذا يبدو عليك الإرهاق. إذا تزوّجتها، فهذا يعني أنّك راغب في ذلك، وإلّا فإنّ الوسائل، على ما قيل لي، غير مفقودة...

قال ماتيو: ـ ليس معي مال. لقد بحثت في كلّ مكان...

ـ ومن أجل هذا، كلّفت بوريس بأن يقترض خمسة آلاف فرنك من لولا.

ـ آه! تعلمين! لم... وأخيرًا نعم، نعم، من أجل هذا، إذا شئت.

قالت إيفيش بصوت رنّان:

ـ إنّ هذا شيء قذر.

ـ نعم.

وأضافت: ـ والواقع أنّ ذلك لا يعنيني. لا بدّ أنّك تعرف ما عليك أن تفعله.

وأنهت شرب فنجانها وسألته:

ـ كم الساعة؟

ـ التاسعة إلّا ربعًا.

ـ هل هبط الليل؟

فتوجّه ماتيو إلى النافذة ورفع الستائر، فتسلّل نهارٌ قذر عبر الشقوق.

ـ لم يهبط بعد تمامًا.

قالت إيفيش وهي تنهض: ـ أوه! لا بأس! إنّني مع ذلك ذاهبة. (وأضافت بلهجة أنين): إنّ عليّ أن أعدّ جميع تلك الحقائب.

قال ماتيو: ـ إذن مع السلامة.

ولم تكن له رغبةٌ في إمساكها.

ـ إلى اللقاء.

ـ هل أراكِ مرّة أخرى في تشرين الأوّل؟

لقد ندّت هذه الكلمات عنه بالرّغم منه، فانتفضت إيفيش انتفاضة عنيفة وقالت والشرر يتطاير من عينيها:

ـ في تشرين الأوّل؟ في تشرين الأوّل! آه، كلّا!

وأخذت تضحك وقالت:

ـ اعذرني. إنّ هيئتك غريبة لو تعلم. إنّني لم أفكِّر قطّ بأن أقبل مالك: إنّك لن تملك أكثر ممّا يحتاجه تأثيث بيتك الزوجي.

قال ماتيو وهو يأخذ بذراعها: ـ إيفيش!

فأطلقت إيفيش صرخة وتخلّصت منه فجأة وقالت:

ـ دعني. لا تلمسني.

فترك ماتيو ذراعه تسقط. وكان يحسُّ غضبًا يائسًا يتملّكه.

تابعت إيفيش لاهثة:

ـ لقد شككتُ في ذلك، صباح أمس.. حين جرؤت على لمسي.. قلت لنفسي: إنّ هذه تصرّفات رجل متزوِّج.

فقال ماتيو بخشونة:

ـ كفى، لا حاجة إلى الإلحاح. لقد فهمت.

وكانت هناك مُعسكرةً أمامه، محمرّة من الغضب، وعلى شفتيها بسمة متغطرسة: خاف من نفسه، فارتمى خارجًا وهو يُدافعها، وصفق باب الدخول خلفه.

١٦

«لا تعرف أن تحبّ، لا تعرف،
وعبثًا أمدُّ ذراعيّ».

كان مقهى «ليتروا موسكيتير» يلتمع بكلّ أنواره في المساء الحائر. وكان جمعٌ عاطلٌ قد تحلّق قرب الرصيف: عمّا قليل سينبسط فوق باريس دانتيل الليل المضيء، من مقهى إلى مقهى، ومن واجهة إلى واجهة؛ كان الناس ينتظرون الليل وهم يستمعون إلى الموسيقى، ومظهر السعادة بادٍ عليهم.. كانوا يتدافعون في ارتعاش أمام هذا الاحمرار الليلي الصغير الأوّل. استدار ماتيو حول هذا الجمع الغنائي: إنّ عذوبة المساء لم تكن له.

«لا تعرف أن تحبّ، لا تعرف
أبدًا، أبدًا لن تعرف».

شارع طويل مستقيم. وخلفه، في غرفة خضراء، كان وجدان صغير حاقد يدفعه بكلّ قواه. وأمامه في غرفة ورديّة، كانت تنتظره امرأة لا تتحرّك، وهي تبتسم أملاً. سوف يدخل بعد ساعة بخطى ذئبيّة في الغرفة الورديّة، سيدع نفسه ليبتلعه هذا الأمل العذب، هذا العرفان، هذا الحبّ، طوال الحياة، طوال الحياة. إنّ أناسًا يلقون بأنفسهم في الماء لأقلّ من هذا.

ـ أيّها الحمار!

وارتمى ماتيو إلى أمام ليتجنّب السيّارة؛ فاصطدم بالرصيف ووجد نفسه على الأرض: كان قد سقط على يديه، وأطلق تجديفة.

نهض، وكانت راحتاه تؤلمانه، تأمّل يديه الموحلتين في خطورة: كانت اليد اليمنى سوداء، مع بعض الجروح، وكانت اليسرى توجعه، والوحل يلطِّخ ضمّاده. وتمتم بجدٍّ: «لم يكن ينقص إلّا هذا، لم يكن ينقص إلّا هذا». وسحب منديله وبلّله ريقًا وفرك راحته في شيء من الحنان، وكانت به رغبة للبكاء. وظلّ معلّقًا لحظة، وينظر إلى نفسه في دهشة. ثم انفجر ضاحكًا. كان يضحك من نفسه، ومن مارسيل، ومن إيفيش، ومن ارتباكه المضحك؛ ومن حياته، ومن عواطفه المثيرة للشفقة. وكان يتذكّر آماله القديمة فيضحك منها لأنّها أفضت إلى ما هو عليه، إلى هذا الإنسانِ المليء بالرصانة، والذي كان يبكي لأنّه سقط على الأرض؛ كان ينظر إلى نفسه بلا خجل، في تسليةٍ باردة وضارية، ويفكِّر: «من يقول إنِّي كنت آخذ نفسي أخذًا جادًّا!» وتوقّفت الضحكة بعد بضعة ارتجافات: لم يكن ثمّة من يضحك بعد.

فراغ. استعاد الجسم سيره وهو يجرجر قدميه، ثقيلاً حارًّا تنتابه الرعشات وحروق الغضب في الحنجرة، وفي المعدة. ولكن لم يكن ثمّة بعد من يسكنه. وقد أُفرغت الشوارع كأنّما سالت في ثقوب البواليع. وغاب منها شيء كان ما يزال يملأها منذ لحظات. وبقيت الأشياء هناك لم تُمسّ، ولكن حُزمتها قد حُلّت، فتدلّت من السماء كأنّها تحجّرات هائلة، وصعدت من الأرض كأنّها «منهيرات» مُحالة: لقد تلاشت جميع إغراءاتها الصغيرة المألوفة، وجميع أغنيات الزيزان الرقيقة في الرياح، فهي صامتة خرساء. لقد كان ثمّة في الماضي مستقبل إنسان كان يرتمي عليها فتعكسه في نثارٍ من الإغراءات المختلفة. لقد مات المستقبل.

واستدار الجسم إلى اليمين، وغرق في بُخار مُشعٍّ راقص في أعماق

شقّ متدرِّن، بين قطع من الثلج مخطّطة بالأشعّة. وكانت كتلٌ داكنة تجرّ نفسها وهي تصرّ. وعلى مستوى ارتفاع العينين كانت أزهار زغباء تتأرجح. وبين هذه الأزهار، وفي جوف هذا الشقّ، كانت تنسلُّ شفافيةٌ تراقب نفسها في هوس مثلوج. «سأذهب لآخذها». وتشكّل العالم من جديد، صاخبًا منهمكًا، مع سيّارات وأناس وواجهات، ووجد ماتيو نفسه في وسط شارع «ديبار». ولكن لم يكن بعدُ هو العالم نفسه، ولا ماتيو نفسه تمامًا. ففي نهاية العالم، وراء البنايات والشوارع، كان ثمّة باب مغلق. وبحث في محفظته وسحب منها مفتاحًا. كان هناك ذلك الباب المغلق، وكان هنا هذا المفتاح الصغير المسطّح: كانت هذه هي أشياء العالم الوحيدة؛ ولم يكن بينها إلّا ركام من العقبات والمسافات. «بعد ساعة. أمامي وقت كافٍ لأذهب إليها سيرًا على الأقدام». ساعة: الوقت الكافي تمامًا للذهاب إلى ذلك الباب ولفتحه، وفيما وراء هذه الساعة لم يكن ثمّة شيء. وكان ماتيو يسير بخطى متساوية، وهو في سلام مع نفسه، وكان يُحسّ نفسه خبيثًا وهادئًا. «وإذا كانت لولا ما تزال في سريرها؟» أعاد المفتاح إلى جيبه وفكّر: «مهما يكن، فسوف آخذ المال».

كان المصباح يضيء إضاءة سيِّئة. بالقرب من النافذة، بين صورتيْ مارلين دياتريش وروبرت تايلور، كان ثمّة رزنامة تحمل مرآة صغيرة منقطّة بالصدأ. اقترب منها دانيال وهو ينحني قليلاً وعاد يربط عقدة ربطة عنقه؛ وبدا مستعجلاً ليرتدي ثيابه كلّها. وفي المرآة خلفه، رأى وجه رالف الهزيل والقاسي يكاد يمحوه الظلّ ووسخ المرآة الأبيض، وأخذت يداه ترتجفان، كانت به رغبة لأن يضغط هذا العنق الهزيل الذي كانت جوزته بارزة وأن يفجّره بين أصابعه. كان رالف مديرًا رأسه نحو المرآة، ولم يكن يدري أنّ دانيال يراه، فوجّه إليه نظرة غريبة؛ وفكّر دانيال وهو يرتعش رعشة كانت في حقيقة أمرها رعشة لذّة: «إنّ وجهه يشبه وجه القاتل، وهو مهان، الذكر الصغير، وإنّه ليكرهني». وأبطأ في ربط عقدته. كان رالف ما يزال ينظر

إليه، ودانيال يستمتع بهذا الحقد الذي كان يجمعهما. حقدٌ مختمر يبدو أنّ عمره عشرون عامًا، حقد يمتلكهما، وكان يطهِّره. «ذات يوم سيأتي شخص مثله فيقتلني من الخلف». سوف يكبر الوجه الفتيّ في المرآة، ثم ينتهي الأمر، وسيكون الموت الشائن الذي يناسبه. واستدار على عقبيه، فخفض رالف عينيه بسرعة. وكانت الغرفة أتونًا.

ـ أليس لديك منشفة؟

وكانت يدا دانيال مبلّلتين.

ـ انظر في دلو الماء.

وكان في الدلو منشفة قذرة. فمسح دانيال يديه بعناية:

ـ لم يعرف الماء، دلو الماء هذا. ويبدو أنّكما، أنتما الاثنين، لا تغتسلان كثيرًا.

فقال رالف بلهجة منقبضة: ـ إنّنا نغتسل بماء الحنفيّة الموجودة في الممرّ.

وساد صمت.. ثم قال موضحًا:

ـ وذلك أنسب.

وكان يلبس حذاءه وهو جالس على طرف السرير، وجسمه منحنٍ، وركبته اليمنى مرتفعة. وكان دانيال يتأمّل هذا الظهر الهزيل، وهاتين الذراعين الفتيّتين ذواتي العضلات اللتين كانتا تخرجان من قميص «لاكوست» ذي كمّين قصيرين: وفكّر في غير ما تغرّض: إنّ فيهما لجمالاً. ولكنّه كان يشمئزّ من هذا الجمال. بعد لحظة سيكون في الخارج، وسيكون هذا كلّه من الماضي. ولكنّه كان يعلم ما كان ينتظره في الخارج. وحين حمل معطفه تردّد: كانت كتفاه وصدره غارقة بالعرق، وكان يفكِّر في خوف بأنّ ثِقَل المعطف سيُلْصق قميصه الكتّانيّ بلحمه الرطب. وقال لرالف:

ـ إنّ الجوّ عندك حارّ حرارة فظيعة.

ـ إنّنا تحت السقف.

ـ كم الساعة؟

ـ التاسعة. لقد دقّت هذه اللحظة.

لا تزال ثمّة عشر ساعات للقتل قبل أن يطلع النهار. إنّه لن ينام. حين كان ينام هنا، كان الأمر دائمًا أعظم مشقّة. ورفع رالف رأسه:

ـ كنت أودّ أن أسألك يا سيّد لاليك... أأنت الذي نصحت لبوبي أن يعود إلى العمل لدى الصيدلي؟

ـ نصحت؟ كلّا. وإنّما قلت له إنّه كان أبله إذ تركه.

ـ آه! حسنًا. إنّ الأمرين يختلفان. لقد جاءني هذا الصباح يقول لي ذلك. وإنّه سيقدِّم اعتذاره، وإنّك أنت الذي كنت تريده، ولم يكن يبدو عليه أنّه صريح.

قال دانيال: ـ لا أريد شيئًا على الإطلاق، وأنا لم أقل له خصوصًا أن يقدِّم اعتذاراته.

وابتسم كلاهما في احتقار. وأراد دانيال أن يضع معطفه ولكنّه لم يجد الشجاعة لذلك، وقال رالف وهو ينحني:

ـ لقد قلت له: افعل ما بدا لك. فليس هذا يعنيني. فما دام السيّد لاليك هو الذي ينصحك... ولكنّي أرى الآن...

وقام بحركة غاضبة ليربط سير حذائه الأيسر، وقال:

ـ لن أقول له شيئًا. إنّه هكذا. ويجب أن يكذِّب. ولكن هناك واحدًا أقسم لك أنّي سأقبض عليه عند المنعطف:

ـ الصيدلي؟

ـ نعم، لا أقصد الصيدلي العجوز، بل الشابّ.

ـ الصيدلي المتمرِّن؟

ـ نعم. ذلك الممحون. كم قد روى عنّي وعن بوبي. . . وليس لبوبي ما يفخر به لأنّه التحق بتلك الصيدليّة. ولكن لا تخف، سأذهب يومًا وأنتظر هذا المتمرِّن عند الباب.

وابتسم بخبث، وكان يلتذّ في غضبه:

ـ سأقصده ويداي في جيبي، وبذلك المظهر الذي تعرفه. هل تعرفني؟ أجل؟ وإذن كيف الحال؟ قل لي: ما الذي حكيته عنّي؟ ماذا؟ ماذا حكيت عنّي؟ وستراه يقول: «لم أقل شيئًا، لم أقل شيئًا». آه! لم تقل شيئًا؟ خذ إذن: ضربة في المعدة يسقط بعدها أرضًا، فأقفز فوقه وأدقّ عنقه في الرصيف.

وكان دانيال ينظر إليه في غيظ ساخر، وكان يفكِّر: «كلّهم متشابهون». كلّهم. ما عدا بوبي الذي كان متخنِّثًا. كانوا يتحدَّثون دائمًا، فيما بعد، عن عزمهم على دقّ عنق أحد الناس. وكان رالف يزداد حماسًا، وعيناه ملتمعتان، وأذناه مورّدتان؛ كان بحاجة إلى أن يأتي حركات حيّةً ومفاجئة. ولم يستطع دانيال أن يقاوم رغبته في إذلاله أكثر من ذلك.

ـ ولكن ألا تظنّ أنّه هو الذي سيهزمك؟

ـ هو؟ (وكان رالف يقهقه قهقهة كريهة) بوسعه أن يأتي، وليس لك إلّا أن تسأل خادم «الأورينتال»، فذلك واحدٌ قد جرّب وفهم. شابّ في الثلاثين ذو ذراعين هكذا. وكان يقول إنّه يريد أن يُخرجني.

فابتسم دانيال بوقاحة وقال:

ـ وبالطبع التهمته بلقمة واحدة.

فقال رالف مجروحًا: ـ أوه! ليس لك إلّا أن تسأل. كان هناك عشرة تقريبًا يتفرّجون علينا. قلت له: «أتأتي إلى الخارج؟» اسمع، كان هناك بوبي وشخص طويل آخر رأيتك معه. كوربان. وهو يعمل في المسلخ، وخرج صاحبنا وهو يقول: «أتريد أن تعلِّم ربّ أسرة كيف يعيش!» وماذا

فعلت له؟ بدأت بلكمة على عينه، ثم لكمة بمرفقي على أنفه، هكذا في صفحة وجهه. وكان قد نهض مقلِّدًا حركات القتال. واستدار حول نفسه، مُظهرًا فخذيه الصغيرتين القاسيتين المصبوبتين في بنطلونه الأزرق.

وأحسّ دانيال بأنّ الغضب ينال منه كلّ منال، وقد ودّ لو يضربه. وتابع رالف:

ـ كان يبوِّل دمًا. ثم هوب! ضربة على الفخذين، وسقط أرضًا! ولم يكن يدري بعد أين أصبح، ربّ الأسرة ذاك؟

وصمت قاتمًا متعجرفًا، منطويًا على مجده. وكان يشبه حشرة. وفكّر دانيال: «سوف أقتله» ولم يكن يصدِّق هذه القصص كثيرًا، ولكن كان يشعر بالذلّ أن يكون رالف قد هزم رجلاً في الثلاثين. وأخذ يضحك وقال بمشقّة:

ـ إنّك تريد أن تتصنّع الشجاعة. ولا بدّ أن تقع أخيرًا على رجل شجاع!

وأخذ رالف يضحك هو أيضًا، وتقاربا، فقال:

ـ لا أريد أن أتصنّع الشجاعة، ولكن ليس السِمان هم الذين يخيفونني.

قال دانيال: ـ إنّك إذًا لا تخاف أحدًا؟ أليس كذلك؟ ألا تخاف أحدًا؟

وكان رالف محمرًّا من الخجل، وقال:

ـ ليس أسمن الناس أقواهم!

فقال له دانيال وهو يدفعه:

ـ وأنت؟ أرِنا إن كنت قويًّا. أرنا إن كنت قويًّا!

وظلّ رالف لحظة فاغر الفم، ثم تطاير من عينيه الشرر، وقال بصوت مصفِّر:

ـ أمّا معك أنت، فأريد بكلّ تأكيد. على سبيل المزاح طبعًا. بلطافة. ولن تنتصر.

فقبض عليه دانيال من نطاقه.

ـ سوف أريك يا صغيري!

وكان رالف مَرِنًا وقاسيًا؛ وكانت عضلاته تنزلق تحت يدي دانيال. وقد تصارعا في صمت ثم أخذ دانيال ينفخ. كان يشعر بغموض أنّه شخص طويل ذو شاربين. ونجح رالف في رفعه، ولكن دانيال دفع يديه الاثنين في وجهه فتركه رالف. وما لبثا أن ألفيا نفسيهما وجهًا لوجه، مبتسمين وحاقدين. قال رالف بصوت غريب:

ـ آه! إنّك تريد أن تؤذي؟ تريد أن تؤذي!

وارتمى فجأة على دانيال، ورأسه إلى أمام. تفادى دانيال ضربة رأسه وقبض عليه من رقبته. وكان مرهقًا لاهثًا، بينما لم يكن يبدو على رالف أنّه متعب إطلاقًا. وتماسكا من جديد وبدأا يستديران على نفسيهما وسط الغرفة. وكان دانيال يشعر في جوف فمه بمذاق حامزٍ محموم: «يجب أن ننتهي من ذلك، وإلَّا انتصر عليّ» ودفع رالف بكلّ قواه، لكنّ رالف صمد. واستولى غضب مجنون على دانيال وفكّر: «إنّني مضحك». وانحنى فجأة، فأمسك رالف من جنبيه ورفعه، ثم ألقاه على السرير، وترك نفسه يسقط فوقه بمثل هذا الاندفاع. وتخبّط رالف وحاول أن يخمش، لكنّ دانيال قبض على معصميه وألقاهما على الوسادة. وظلّا على هذا الوضع لحظات. . وكان دانيال أشدّ تعبًا من أن يستطيع النهوض ثانية، وكان رالف متسمِّرًا على السرير، عاجزًا، مسحوقًا تحت ثقل هذا الرجل، ربّ الأسرة. كان دانيال ينظر إليه في تلذُّذ؛ وكانت عينا رالف طافحتين بجنون حاقد، وكان جميلاً.

سأله دانيال بصوت متقطِّع:

ـ من الذي انتصر؟ من يا صاحبي الصغير؟

فابتسم رالف على الفور وقال بصوت زائف:

ـ إنّك قويٌّ يا سيّد لاليك!

فتركه دانيال ونهض على قدميه. وكان قد فقد أنفاسه واستشعر المذلّة. وكان قلبه يخفق حتى ليكاد ينفجر. وقال:

ـ لقد كنت من قبل قويًّا، أمّا الآن فإنّ أنفاسي تخونني.

كان رالف قد نهض، وراح يسوّي ياقة قميصه ولم يكن يلهث. حاول أن يضحك ولكنّه كان يتفادى نظر دانيال. وقال:

ـ ليس النَفَس شيئًا ذا بال، أيّها اللّاعب البارع. فما عليك إلَّا أن تتمرّن.

قال دانيال:

ـ إنّك تحسن المصارعة، ولكن هناك فرق الوزن.

وقهقه كلاهما بانزعاج. وكان دانيال يرغب في أن يأخذ بخناق رالف وأن يلكمه في وجهه بكلّ قواه. لبس معطفه، فالتصق قميصه المبلّل عرقًا ببشرته. وقال:

ـ هيّا. إنّني ذاهب.. مساء الخير.

ـ مع السلامة، يا سيِّد لاليك.

قال دانيال: ـ لقد خبّأت لك شيئًا في الغرفة. ففتِّش عنه جيِّدًا تجده.

وانغلق الباب. هبط دانيال السلّم، وساقاه مرتخيتان. وفكّر: «عليّ قبل كلّ شيء أن أغتسل من الرأس حتى القدمين». وإذ كان يعبر عتبة الباب، جاءته فكرة أوقفته حالاً: لقد حلق ذقنه في الصباح قبل أن يخرج؛ وكان قد ترك موسى الحلاقة على المدخنة، مفتوحًا.

حين فتح ماتيو الباب أثار جرسًا خفيفًا وملبّدًا. وفكّر: «لم ألاحظ هذا الصباح، فلا بدّ أنّهم وصلوا التيّار الكهربائي مساءً، بعد الساعة التاسعة». وألقى نظرة مواربة، عبر زجاج المكتب ثم رأى ظلًّا: كان هناك بعضهم. ومشى بغير عجلة إلى لوحة المفاتيح. الغرفة ٢١. كان المفتاح معلّقًا في مسمار. فتناوله ماتيو بسرعة ووضعه في جيبه، ثم استدار وعاد إلى السلّم. وفُتح باب خلف ظهره، ففكّر: «سوف ينادونني». ولم يكن خائفًا: فقد كان هذا متوقَّعًا. وعلا صوت قاسٍ:

ـ هيه! أين أنت ذاهب!

فالتفت ماتيو. كانت امرأة طويلة هزيلة ذات نظّارات. وكان يبدو عليها الاهتمام والقلق، فابتسم لها ماتيو. وردّدت سؤالها:

ـ أين أنت ذاهب؟ ألا تستطيع أن تسأل عند الصندوق؟

بوليفار. كان اسم الزنجي بوليفار. فقال ماتيو بهدوء:

ـ إنّني ذاهب لأرى السيِّد بوليفار، في الطابق الثالث.

فقالت المرأة مرتابة:

ـ حسنًا. لأنّي رأيتك واقفًا أمام اللوحة.

ـ كنت أنظر إذا كان مفتاحه هنا.

ـ أليس المفتاح هنا؟

قال ماتيو: ـ كلّا، فهو موجود في غرفته.

واقتربت المرأة من اللوحة. حظّ على اثنين. وقالت في عزاء خائب:

ـ نعم. إنّه موجود.

وأخذ ماتيو يرقى الدرج من غير أن يجيب. وتوقّف لحظة عند سطيحة الطابق الثالث، ثم أدخل المفتاح في قفل الغرفة ٢١ وفتح الباب.

كانت الغرفة غارقة في الليل. ليل أحمر كان يُشعر بالحمّى والعطر.

وأغلق الباب بالمفتاح وتقدّم نحو السرير. مدّ يديه أوّلاً إلى أمام ليحتمي من العقبات، ولكنّه تعوّد بسرعة. كان السرير مدعوكًا، وعلى الفراش وسادتان ما زالتا مجوّفتين بوزن الرؤوس. ركع ماتيو أمام الصندوق وفتحه؛ وأخذته رغبة خفيفة بأن يقيء. كانت الأوراق الماليّة التي تركها في الصباح قد سقطت فوق رزم الرسائل: فأخذ منها خمس أوراق؛ إنّه لم يكن يريد أن يسرق شيئًا لنفسه. «ماذا تراني سأفعل بالمفتاح؟» وتردّد لحظة ثم عزم على أن يتركه في قفل الصندوق. وحين نهض لاحظ في جوف الغرفة، إلى اليمين، بابًا لم يكن قد رآه صباحًا. فذهب يفتحه: كان غرفة تواليت. وأشعل ماتيو عود ثقاب فرأى وجهه المذهّب بالأشعّة ينبثق في مرآة. وظلّ ينظر إلى نفسه حتى انطفأ العود، ثم تركه يسقط وعاد إلى الغرفة. وأصبح يميِّز بوضوح الأثاث، وثياب لولا، ومنامتها، وثوبها الليلي، وتايورها، كلّ ذلك مرتّب ومعلّق على الكراسي والمشاجب: وضحك ضحكة شرِّيرة وخرج.

كان الممرّ خاليًا، ولكن كان يُسمع وقع خطى وضحكات، وثمّة أشخاص يرقون الدرج. وهمّ بأن يعود إلى الغرفة؛ ولكن لا، فقد كان سواء لديه أن يقبض عليه! أدخل المفتاح في القفل وأغلق الباب وهو يدير المفتاح مرّتين. وحين نهض رأى امرأة يتبعها جندي. قالت المرأة:

ـ في الطابق الرابع.

وقال الجندي:

ـ ذلك مرتفع.

وتركهما ماتيو يمرّان؛ ثم هبط. وكان يفكِّر في مرح بأنّه ما يزال عليه أن يقوم بأشقّ عمل: أن يُعيد المفتاح إلى اللوحة.

وعند الطابق الأوّل توقّف وانحنى على الدرابزون. وكانت المرأة على عتبة الباب الخارجي، كانت توليه ظهرها وتنظر إلى الشارع. هبط ماتيو الدرجات الأخيرة بلا ضجّة وعلّق المفتاح بالمسمار؛ ثم صعد الدرج مرّة

أخرى بخطى خفيفة حتى سطيحة الطابق الأوّل، وانتظر لحظة؛ ثم هبط السلّم بصخب. والتفتت المرأة، فحيّاها وقال:

ـ إلى اللقاء يا سيِّدتي.

فدمدمت: ـ . . . اللقاء.

وخرج، وأحسّ نظر المرأة يثقل على ظهره، وكانت به رغبةٌ للضحك.

«مات الوحش. مات السمّ». ومشى بخطوات واسعة وساقاه مرتخيتان. إنّه خائف، وفمه جافّ. والشوارع شديدة الزرقة، والجوّ عذبٌ جدًّا. «الشعلة تلتهم الفتيل، وبرميل البارود في نهايته». وصعد الدرج أربع أربع. وكان شاقًّا عليه أن يضع المفتاح في القفل. إنّ يده ترتجف وفرّت قطّتان بين ساقيه: إنّه الآن يخيفها. «مات الوحش. . .».

كان الموسى هناك، على طاولة الليل، مفتوحًا. وأخذه من مقبضه ونظر إليه. المقبض أسود؛ والشفرة بيضاء. «الشعلة تلتهم الفتيل. .» وأمرّ إصبعه على حدّ الشفرة، فشعر في طرف إصبعه مذاق جُرح حامزًا، فارتعش: إنّ على يدي أن تفعل كلّ شيء. إنّ الموسى لا يُساعد، فهو ليس إلَّا جمودًا، وهو يزن زنة حشرةٍ في اليد. خطا بضع خطى في الغرفة؛ وطلب معونة، وكانت هذه إشارة. كلّ شيء جامد وصامت. الطاولة جامدة. الكراسي جامدة، سابحةٌ في نور جامد. وحده واقف، وحده حيّ في النور الأزرق. لن يساعدني شيء، لن يحدث شيء. القطط تخربش في المطبخ. وأسند يده إلى الطاولة، فاستجابت لضغطه بضغط مشابه، لا أكثر ولا أقلّ. إنّ الأشياء عبيد. وديعة. منقادة. ستفعل يدي كلّ شيء. وتثاءب ضيقًا وضجرًا. إنّه وحيد في الديكور. فلا شيء يدفعه للتقرير، ولا شيء يمنعه عنه: يجب أن يقرِّر وحده. وليس عمله إلَّا غيبوبة. تلك الزهرة الحمراء بين فخذيه، ليست موجودة، وتلك البركة الحمراء على أرض الغرفة، ليست موجودة. ونظر إلى أرض الغرفة. أرض الغرفة موحَّد

أملس: فليس ثمّة مكان للّطخة. «سأكون راقدًا على الأرض، جامدًا، مفتوح البنطلون قَذِرَه، وسيكون الموسى وعلى الأرض، أحمر، مثلّمًا، جامدًا». إنّه يسحر نفسه على الموسى وعلى الأرض، لو كان بوسعه أن يتخيّلهما بقوّة كافية، تلك البركة الحمراء، وهذا الحرق، بحيث يتحقّقان من تلقاء نفسهما من غير أن يكون محتاجًا إلى إتيان تلك الحركة. إنّني سوف أتحمّل الألم. إنّي أريده، وأدعوه. أمّا هذه الحركة، هذه الحركة... ونظر إلى الأرض، ثم إلى الشفرة. عبثًا: الهواء عذب، والغرفة مظلمة بعذوبة؛ والموسى يلتمع بعذوبة ويثقل بعذوبة في يده. حركة، لا بدَّ من حركة، والحاضر يسقط لدى أوّل نقطة دم. إنّها يدي، يدي التي يجب أن تعمل كلّ شيء.

وتوجّه إلى النافذة، ونظر إلى السماء. أزاح الستائر، بيده اليسرى. وأضاء الكهرباء، بيده اليسرى. ونقل الموسى إلى يده اليسرى. وأخذ محفظة نقوده. فأخرج منها خمس أوراق من فئة الألف فرنك. وتناول مغلّفًا من على مكتبه، فوضع المال في المغلّف، وكتب على المغلّف: إلى السيّد دولارو، ١٢ شارع هويغنز. ووضع المغلّف في مكان بارز على الطاولة. نهض ومشى، وحمل الوحش الملصق ببطنه؛ إنّه يمصّه، وهو يحسّه. نعم. أوّلاً لقد أُخذ في الشَرَك. يجب أن يقرِّر. أمامه طول الليل لذلك. واستعادت يده اليمنى الموسى. إنّه يخاف يده؛ وهو يراقبها. إنّها متصلِّبة في طرف ذراعه. وقال: «هيّا!» وعَبَرَ به ارتعاش صغير ضاحك من الجنبين إلى الرقبة. «هيّا. لننتهِ من ذلك!» ليته يجد نفسه مقطوع العضو، كما يجد المرء نفسه واقفًا في الصباح: إذ يدقّ المنبِّه، من غير أن يعلم كيف نهض. ولكن يجب أوّلاً أن يعمل هذه الحركة القذرة، هذه الحركة المبوليّة، أن يفكّ أزراره طويلاً، وفي صبر. وصعد جمودُ الموسى إلى يده، وإلى ذراعه. جسم حيّ وحارّ ذو ذراع حجريّة. ذراع صنميّة ضخمة، جامدة، مثلجة، وفي طرفها موسى. وفكّ أصابعه، فسقط الموسى على الطاولة.

الموسى هناك مفتوح: على الطاولة: لم يتغيّر شيء! إنّه يستطيع أن يمدّ يده ويأخذه. ويستطيع أن يترك الموسى جامدًا. إنَّ الأوان لم يفت بعد، ولن يفوت الوقت، فإنّ الليل بطوله لي. ومشى عبر الغرفة. إنّه غير حاقد على نفسه بعد، إنّه لا يريد شيئًا بعد، إنّه عائم. إنّ الوحش هنا، بين فخذيه، مستقيم قاسٍ، قذارة! إن كان ذلك ينفِّرك أكثر ممّا ينبغي يا صغيري، فإنّ الموسى هنا: على الطاولة. «مات الوحش...» الموسى. الموسى. ودار حول الطاولة، من غير أن ينزع نظره عن الموسى. ألا يمنعني إذن شيء من أخذه؟ لا شيء. كلّ شيء جامدٌ هادئ. ومدَّ يده ولمس الشفرة. إنّ يدي ستفعل كلّ شيء. وقفز إلى خلف ففتح الباب وقفز إلى السلّم. وهبطت إحدى قططه السلّم أمامه مذعورة.

وكان دانيال يعدو في الشارع: وفوق، كان الباب ما يزال مفتوحًا على سعته، والمصباح مضاءً، والموسى على الطاولة، وكانت القطط تائهة في السلّم المظلم. لم يكن ثمّة ما يمنعه من أن يعود أدراجه. لقد كانت الغرفة تنتظره باستسلام، ولم يكن ثمّة ما هو مقرَّر، ولن يتقرَّر شيء ما أبدًا. كان ينبغي أن يركض، أن يفرّ إلى أبعد مكان ممكن، أن يغرق في الضجيج، في الأنوار، وسط الناس، وأن يعود فيصبح رجلاً بين البشر، وأن يلفت إليه نظر الآخرين. وعدا حتى بلغ «روا أولاف» فدفع الباب. يكاد يفقد أنفاسه. وقال وهو يلهث:

ـ أعطني كأس ويسكي.

كان قلبه يخفق بشدّة حتى أطراف أصابعه، وكان له في فمه مذاق حبر. جلس في القاعة الداخليّة؛ وقال له الخادم بلهجة احترام:

ـ يبدو عليك التعب.

كان نروجيًا طويلاً يتكلّم الفرنسيّة بلا لكنة. وكان ينظر في ودّ إلى دانيال، فأحسّ دانيال أنّه أصبح زبونًا غنيًّا أحمق بعض الشيء وهو يترك «بقشيشًا» سخيًّا. وابتسم وأجاب موضحًا:

ـ ليس الأمر على ما يرام إنّ بي بعض الحمّى.

فهزّ الخادم رأسه ومضى. وسقط دانيال من جديد في وحدته. كانت غرفته تنتظره، هناك فوق، متهيّئة، والباب كان مفتوحًا على سعته، وكان الموسى يلتمع على الطاولة. «لن أستطيع أبدًا أن أعود إلى بيتي». وسوف يشرب ما وسعه ذلك؛ حتى إذا دقّت الساعة الرابعة، أقبل الخادم يحمله بمعونة صاحب الحانة إلى سيّارة تاكسي ـ كما يحدث كلّ مرّة.

وعاد الخادم بكأس ممتلئة إلى النصف وزجاجة «بيرييه» وقال:

ـ كما تحبّه تمامًا.

ـ شكرًا.

كان دانيال وحيدًا في هذه الحانة الهادئة. وكان النور الأشقر يُزبد حوله: خشب الحواجز الأشقر يلتمع بعذوبة، وكان مطليًّا ببرنيقٍ كثيف، وحين كان المرء يمسّه، كان يدبّق. صبَّ دانيال ماء البيرييه في كأسه، فاحتدم الويسكي لحظة، وصعدت إلى السطح فقاقيع فائرة، فتزاحمت كنساء ثرثارات، ثم هدأ هذا الاضطراب الصغير كلّه. نظر دانيال إلى المائع الأصفر حيث كانت أثارة زبدٍ عائمة: فكأنّه بيرة طائشة. وعلى المشرب، كان الخادم وصاحب الحانة يتحدّثان النروجيّة، وهما لا يظهران.

ـ كأس أخرى.

وكنس الكأس بضربة من يده وأرسلها تتحطّم على الأرض. فصمت صاحب الحانة والخادم فجأة، وانحنى دانيال فوق الطاولة: كان السائل يزحف متمهّلاً على البلاط وهو يُرسل ذيوله نحو رِجل كرسيّ. وكان الخادم قد هُرع، فقال دانيال وهو يبتسم:

ـ إنّني عديم الحذق...

فسأله الخادم: هل أعطيك سواه؟

وكان قد انحنى، فانتفخ جانباه، ليمسح السائل ويلمّ شظايا الزجاج. قال دانيال فجأة:

ـ نعم... كلّا. (وأضاف في لهجة مزاح) إنّ هذا إنذار. يجب ألَّا أتناول الخمر هذا المساء. أعطني إذن نصف قدح بيرييه مع قطعة حامض.

فابتعد الخادم، وأحسَّ دانيال ببعض الهدوء. وكان حاضرٌ كثيف يتشكّل حوله من جديد. رائحة الزنجبيل، الضوء الأشقر، الحواجز الخشبيّة...

ـ شكرًا.

كان الخادم قد فضّ الزجاجة وملأ القدح إلى نصفه. وشرب دانيال ثم وضع الكأس. وفكّر: «كنت أعرف ذلك! كنت أعرف إنِّي لن أفعله!» حين كان يمشي بخطى واسعة في الشوارع وحين كان يصعد السلّم أربعًا أربعًا، كان يعلم أنّه لن يمضي حتى النهاية. وكان يعرف ذلك حين أخذ الموسى في يده، ولم ينخدع لحظة واحدة، فأيّ ممثلّ رديء هو! وكلّ ما هناك أنّه نجح في آخر الأمر بأن يخيف نفسه وعند ذلك هرب. وأخذ كأسه وضغطها في يده: كان يريد بكلّ قواه أن يشمئزّ من نفسه، وهو لن يجد قطّ مناسبة رائعة كهذه. «قذر! جبان وممثِّل: قذر!» وحسب ذات لحظة أنّه سيبلغ ذلك، ولكن لا، إنّما كانت تلك كلمات من الواجب... آه! أيّ إنسان، أيّ قاض، كان يقبل، أيّ قاض، ولكن ليس هو نفسه، ليس هذا الاحتقار القاسي لنفسه الذي لم يكن يملك قطّ قدرًا كافيًا من القوّة، هذا الاحتقار الضعيف المحتضر الذي كان يبدو كلّ لحظة على وشك أن يتلاشى والذي لم يكن يمرّ. ليت أحدًا يعرف، ليت بوسعه أن يُحسّ الاحتقار الثقيل لإنسان آخر يضغط عليه... ولكنّني لن أستطيع أبدًا، إنّني أفضِّل لو أخصي نفسي. ونظر إلى ساعته، إنّها الحادية عشرة، ما يزال هناك ثماني ساعات للصباح. إنّ الوقت لم يكن ينقضي.

الحادية عشرة! وانتفض فجأة: «إنّ ماتيو هو الآن عند مارسيل. إنّها

تحدِّثه، في هذه اللحظة بالذات تحدِّثه وتضع ذراعيها حول عنقه، وتجد أنّه لا يكاشفها بالسرعة الكافية... هذا أيضًا، إنّما فعلته أنا». وأخذ يرتجف بكلّ أعضائه: سوف يستسلم، سينتهي به الأمر إلى الاستسلام. لقد أفسدتُ له حياته.

ترك كأسه ووقف ونظره محدَّد، إنّه لا يستطيع أن يحتقر نفسه ولا أن ينسى نفسه. إنّه يودُّ لو يكون ميِّتًا وهو موجود، إنّه يستمرّ بعناد في أن يوجد. يودّ لو يكون ميِّتًا؛ يفكِّر في أنّه يودّ لو يكون ميِّتًا، يفكِّر بأنّه يفكِّر في أنّه يودّ لو يكون ميِّتًا... «إنّ هناك وسيلة».

وكان قد تكلّم بصوت مرتفع، فهرع إليه الخادم:

ـ هل ناديتني؟

قال دانيال بشرود: ـ نعم. هذا لك.

ورمى مئة فرنك على الطاولة. هناك وسيلة. وسيلة لتسوية كلّ شيء! ونهض واتّجه بخطوة حيّة إلى الباب. «وسيلة عظيمة»، وأخذته ضحكة صغيرة: كان يشعر دائمًا بالجذل حين تتاح له الفرصة بأن يمثِّل على نفسه دورًا ممتعًا.

١٧

أغلق ماتيو الباب على مهل وهو يرفعه قليلاً على رزّاته، حتى لا يُحدث صريرًا، ثم رفع قدمه على الدرجة الأولى من السلّم، فانحنى وفكّ سير حذائه. وكان صدره يلامس ركبته. ونزع حذاءه فأخذه بيده اليسرى، ثم نهض ووضع يده اليمنى على الحاجز، وقد رفع نظره إلى الغيمة الورديّة الممتقعة التي كانت تبدو معلّقة في الظلمات. إنّه لم يكن يدين نفسه بعد. وصعد على مهل في الظلام وهو يتجنّب أن يجعل الدرجات تصرّ.

وكان باب الغرفة مشقوقًا فدفعه. وكان الجوّ ثقيلاً، وحرارة النهار كلّه قد حطَّت في جوف هذه الحجرة، كأنّها ثمالة. كانت ثمّة امرأة جالسة على السرير تنظر إليه مبتسمة: إنّها مارسيل، وكانت قد ارتدت «الروبديشمبر الأبيض بحزامه الذهبي، وتزيَّنت بعناية، فبدا منظرها مرحًا وذا أُبّهة. أغلق ماتيو الباب خلفه، وظلّ جامدًا، مرتخي الذراعين، وقد أخذته في حلقه عذوبة الوجود التي لا تُحتمل. كان هناك، كان يتفتّح هناك، بالقرب من هذه المرأة المبتسمة مستغرقًا كلّه في هذه الرائحة، رائحة المرض والملبّس والحبّ. وكانت مارسيل قد ألقت رأسها إلى خلف، وكانت تتأمّله في خبث بين جفونها المسبلة. بادلها بسمتها وراح يضع حذاءه في الخزانة. وتنفّس في ظهره صوتٌ يفيض حنانًا:

ـ حبيبي.

فالتفت فجأة واستند إلى الخزانة، وقال بصوت منخفض:

ـ مرحبًا.

فرفعت مارسيل يدها حتى صدغها وحرّكت أصابعها:

ـ مرحبًا، مرحبًا.

ونهضت، وأقبلت تحيط عنقه بذراعيها وتقبّله وهي تزلق لسانها في فمه. كانت قد وضعت مسحوقًا أزرق على جفنيها؛ وكان في شعرها زهرة. وقالت وهي تداعب رقبته:

ـ إنّك تشكو الحرّ.

وكانت تنظر إليه من تحت إلى فوق، ورأسها مقلوب بعض الشيء، وهي ترشق طرف لسانها بين أسنانها، في هيئة انتعاش وسعادة. وكانت جميلة. وفكّر ماتيو وهو منقبض القلب ببشاعة إيفيش الهزيلة. وقال:

ـ أنت اليوم جذلى. وبالرّغم من أنّ الأمور لم تكن على ما يرام أمس، كما ظهر في التلفون.

ـ كلّا. كنت بليدة. أمّا اليوم، فالأمور على ما يرام تمامًا.

ـ هل قضيت ليلةً هانئةً؟

ـ نمت كاليربوع!

وقبّلته مرّة أخرى، فأحسّ على شفتيه مخمل ذلك الفم الغنيّ ثم ذلك العُري الأجرد، الحارّ، الحاذق: لسانها. وتفلّت منها على مهل. كانت مارسيل عارية تحت «الروبديشمبر»، فرأى نهديها الجميلين وشعر بمذاق سكّر في فمه وتناولت يده وجذبته نحو السرير:

ـ تعال اجلس بالقرب منّي.

وجلس بالقرب منها، وكانت ما تزال تحتفظ بيده بين يديها. كانت تشدُّه في انتفاضات صغيرة مرتبكة، وكان يُخيّل لماتيو أنّ حرارة هذه الأيدي كانت تصعد حتى الإبط وقال:

ـ ما أشدّ الحرّ عندك.

فلم تجب، وكانت تلتهمه بعينيها، وشفتاها مفترّتان، في هيئة متواضعة واثقة. وأمرّ يده اليسرى متمهِّلاً بالقرب من معدته ثم أدخلها خفيةً في جيب بنطلونه اليمنى ليأخذ تبغه. ففاجأت مارسيل هذه اليد وأرسلت صيحة خفيفة:

ـ ولكن ما بال يدك؟

ـ لقد جرحتها.

وتركت مارسيل يد ماتيو اليمنى ثم خطفت يده الأخرى، وقلبتها كقرص من المعجّنات، وتأمّلت راحتها بعين ناقدة:

ـ ولكن ضمادك قذرٌ جدًّا، وأنّك توشك أن تنتن الجرح! ثم إنّ عليه وحلاً، فما هذا؟

ـ لقد وقعت على الأرض.

فأطلقت ضحكة متسامحة ومستنكَرة:

ـ لقد جرحت يدي، لقد وقعت على الأرض. ما هذه الغفلة! وماذا اخترعت؟ انتظر سأربط لك ضمادًا آخر. فإنّك لا تستطيع أن تبقى هكذا.

وفكّت يد ماتيو وهزّت رأسها:

ـ إنّه جُرح بشع، فكيف حسبت حسابك؟ هل تلقّيت ضربة على أنفك؟

ـ لا. حدثِ هذا مساء أمس في «سومطرا».

ـ في «سومطرا»؟

خدّان عريضان ممتقعان، وشعر ذهبي، وغدًا، غدًا سأسرّح شعري هكذا من أجلك. وأجاب:

ـ إنّه هوى من أهواء بوريس. وكان قد اشترى سكِّينًا، فتحدّاني أن أزرعه في يدي.

ـ وأنت بالطبع عجّلت في تنفيذه. إنّك مجنون تمامًا يا حبيبي المسكين. إنّ جميع هؤلاء الصبية سوف يستحمقونك... انظر هذه اليد المسكينة المعطّلة!

وكانت يد ماتيو مرتاحة جامدة بين يديها الملتهبتين؛ وكان الجرح يثير الاشمئزاز بقشرته الرطبة السوداء. رفعت مارسيل اليد إلى وجهها ببطء، وحدَّقت إليها ثم انحنت فجأة فألصقت شفتيها بالجرح في اندفاع ذليل. وتساءل: «ماذا دهاها؟» وجذبها إليه وقبّلها في أذنها. سألته مارسيل:

ـ هل أنت مرتاح معي؟

ـ طبعًا.

ـ لا يبدو عليك ذلك.

فابتسم لها ماتيو من غير أن يجيب. ونهضت وراحت تأخذ حقيبتها من الخزانة. كانت توليه ظهرها، وقد تطاولت على رأس قدميها ورفعت ذراعيها لتبلغ الطبقة العليا؛ وكان كشحاها قد تهدّلا على طول ذراعيها. وكان ماتيو ينظر إلى هاتين الذراعين العاريتين اللتين داعبهما غالبًا وكانت شهواته القديمة تطوف حول قلبه. عادت إليه مارسيل بتثاقل نشيط:

ـ أعطني يدك.

وكانت قد صبّت مطهِّرًا على إسفنجة صغيرة، فأخذت تغسل يده. وأحسّ عند وركه دفء هذا الجسد الذي كان قد ألفه.

ـ إلحس!

وكانت مارسيل تبسط له طرف نسيج مصمّغ، فمدّ لسانه ولحس القشارة الورديّة بوداعة. أطبقت مارسيل طرف النسيج على الجرح، وأخذت الضماد القديم فأمسكته لحظة بطرف أصابعها وهي تنظر إليه باشمئزاز مرح.

ـ ماذا تراني سأفعل بهذا الشيء الفظيع؟ حين تذهب، سألقيه في القمامة.

ثم لفّت يده بشفٍ في حركة خفيفة:

ـ هكذا إذن: لقد تحدّاك بوريس؟ فأتلفت يدك؟ أيّ طفل كبير أنت! هل تراه فعل مثلك، هو؟

قال ماتيو: ـ كلّا.

فضحكت مارسيل: لقد تغلّب عليك إذن!

وكانت قد وضعت في فمها دبّوسًا إنكليزيًّا، تمزّق الشفّ بكلتا يديها. قالت وهي تشدّ على الدبّوس بشفتيها:

ـ هل كانت إيفيش موجودة؟

ـ حين جرحتُ يدي؟

ـ نعم.

ـ لا، كانت ترقص مع لولا.

وشكّت مارسيل الدبّوس في الضماد، وكان قد بقي على عرقه النحاسيّ أثر من أحمر الشفاه.

ـ هكذا إذن! لقد تسلّيتم كثيرًا!

ـ لا بأس.

ـ إنّ مقهى «سومطرا» جميل! أتعرف ماذا أريد؟ أن تأخذني إليه مرّة.

فقال ماتيو منزعجًا: ـ ولكن ذلك سيتعبك.

ـ أوه! مرّة واحدة... وستفعل ذلك في أبّهة، فقد مضى وقت طويل لم أخرج به معك.

لم أخرج معك! وكان ماتيو يردّد بغيظ هذه الكلمة الزوجيّة: إنّ مارسيل لم تكن محظوظة مع الكلمات. وقالت مارسيل:

ـ هل تريد؟

فقال: ـ اسمعي، مهما يكن من أمر، فإنّ هذا لا يمكن أن يتمّ قبل الخريف: يجب عليك في هذه الأثناء أن ترتاحي تمامًا: ثم بعد ذلك يغلق المقهى أبوابه في عطلته السنويّة. إنّ لولا ستذهب في دورة إلى أفريقيا الشماليّة.

إذن سنذهب في الخريف. أتعدني بذلك؟

ـ أَعِدُكِ.

وسعلت مارسيل في ارتباك، ثم قالت:

ـ أرى جيّدًا أنّك غاضبٌ عليّ.

ـ أنا؟

ـ نعم. . . لقد كنت مزعجةً أمس الأوّل.

ـ ولكن لا . . . لماذا؟

ـ بلى. كنت ثائرة الأعصاب.

ـ كان من الممكن أن تكوني أقلّ ثورة أعصاب من ذلك. ولكنّ الغلطة غلطتي يا صغيرتي.

قالت بصوت واثق: ـ ليس هناك ما تؤاخذ به نفسك، ولم يكن هناك قطّ ما تؤاخذ به نفسك.

ولم يجرؤ على أن يلتفت نحوها، فقد كان يتمثّل تمامًا هيئة وجهها، ولم يكن يستطيع أن يتحمّل هذه الثقة التي لا تُفسَّر ولا يستحقّها. وساد صمت طويل: كانت تنتظر بكلّ تأكيد كلمة رقيقة، كلمة صفح. ولم يستطع ماتيو أن يتماسك بعد، فقال:

ـ انظري.

وأخرج محفظته من جيبه وبسطها على ركبتيها، فمدّت مارسيل عنقها

وأسندت ذقنها على كتف ماتيو.

ـ ماذا عليّ أن أنظر؟

ـ هذا.

وسحب الأوراق الماليّة من المحفظة، وقال وهو يفرقعها بلهجة انتصار:

ـ واحدة، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة.

وكانت الأوراق محتفظة بعدُ برائحة لولا. وانتظر ماتيو لحظة والأوراق على ركبتيه، وإذ رأى مارسيل لا تنبس بحرف، التفت إليها، فإذا هي رافعة بصرها تنظر إلى الأوراق وهي تطرف بعينيها. ولم يكن يبدو عليها أنّها تفهم. وقالت على مهل:

ـ خمسة آلاف فرنك.

وقام ماتيو بحركة متواضعة ليضع المال على طاولة الليل، وقال:

ـ نعم! خمسة آلاف فرنك. لقد عانيت حتى وجدتها.

ولم تجب مارسيل. وكانت تعضّ شفتها السفلى وتنظر إلى الأوراق نظرة غير مصدِّقة. وكانت قد شاخت فجأة. ونظرت إلى ماتيو بأسى ولكن بثقة أيضًا. وقالت:

ـ كنت أظنّ...

فقاطعها ماتيو، وقال بصراحة:

ـ سيكون بوسعك أن تقصدي اليهودي، ويبدو أنّه عظيم. فقد مرّت تحت يديه مئات النساء في ڤيينا. وكلّهنّ من الطبقة الثريّة.

فانطفأت عينا مارسيل وقالت:

ـ حسنًا.. فليكن، فليكن.

وكانت قد أخذت دبّوسًا إنكليزيًّا من حقيبتها، وكانت تفتحه وتغلقه

بعصبيّة. وأضاف ماتيو:

ـ إنّي أعطيكِ إيّاها. وأظنّ أنّ سارة ستصحبك إليه فتدفعين له، وهو يريد أن يأخذ المال مقدَّمًا، ذلك الخنزير.

وبعد لحظة صمتٍ، سألته مارسيل:

ـ أين وجدت هذا المال؟

قال ماتيو: ـ احزري!

ـ دانيال؟

فهزّ كتفيه: كانت تعلم جيّدًا أنّ دانيال لم يرد أن يقرضه شيئًا.

ـ جاك؟

ـ كلّا. لقد قلت لك أمس، بالتلفون.

قالت بجفاف: إنّني عجزت. من؟

فقال: ـ لم يعطني إيّاها أحد.

فابتسمت مارسيل ابتسامة صفراء:

ـ لن تقول لي مثلاً إنّك قد سرقتها؟

ـ بلى.

فردّدت في ذعر:

ـ هل سرقتها؟ إنّ هذا ليس صحيحًا؟

ـ بلى، سرقتها من لولا.

وساد صمت. مسح ماتيو عرق جبينه وقال:

ـ سأروي لكِ.

وردّدت مارسيل في هدوء:

ـ لقد سرقتها.

كان وجهها قد أصبح رماديًّا؛ وقالت من غير أن تنظر إليه:

ـ لا بدّ أنّك راغب في التخلُّص من الطفل.

ـ إنّني راغب خصوصًا في ألّا تقصدي تلك العجوز.

وكانت تفكِّر، وكان فمها قد استعاد ثنيته القاسية الشرسة، وسألها:

ـ هل توبِّخينني لأنّي سرقتها؟

ـ لا يهمّني ذلك.

ـ إذن، ماذا هناك؟

فقامت مارسيل بحركة مفاجئة سقطت معها حقيبة الأدوية على الأرض، فنظرا إليها معًا، ودفعها ماتيو بقدمه. أدارت مارسيل نحوه رأسها، وكانت الدهشة بادية عليها. وردّد ماتيو:

ـ قولي لي ماذا هناك؟

فضحكت ضحكة جافّة.

ـ لماذا تضحكين؟

فقالت: إنّني أسخر من نفسي.

وكانت قد نزعت الزهرة التي كانت تحملها في شعرها وأخذت تقلِّبها بين أصابعها. وتمتمت:

ـ لقد كنت شديدة البلاهة.

وقست ملامح وجهها. وظلّت فاغرة الفم كما لو أنّها كانت راغبة في الكلام، ولكنّ الكلام لم يكن يأتي. كانت تبدو وكأنّها خائفة ممّا ستقول. تناول ماتيو يدها ولكنّها تحلّلت منه، وقالت وهي لا تنظر إليه:

ـ أعلم أنّك رأيت دانيال.

ـ هكذا! كانت قد انقلبت إلى الوراء وشنّجت يديها على غطاء السرير؛ وبدت مذعورة ومتحرِّرة. كان ماتيو يحسّ أيضًا أنّه متحرِّر: كانت

جميع الأوراق على الطاولة، ولا بدّ من المضيّ حتى النهاية. وكان أمامها الليل كلّه من أجل هذا. قال ماتيو:

ـ نعم لقد رأيته. كيف عرفت هذا؟ إنّك أنتِ التي أرسلته إذن؟ لقد رتّبتما كلّ شيء، معًا، أليس كذلك؟

قالت مارسيل: ـ لا تتكلّم بهذا الصوت المرتفع. إنّك توشك أن توقظ أمّي. لم أكن أنا الذي أرسلته، ولكنّي كنت أعلم أنّه كان يريد أن يراك.

قال ماتيو بحزن: ـ إنّ هذا شيء قبيح.

فقالت مارسيل بمرارة: ـ أجل شيء قبيح.

وصمتا. كان دانيال موجودًا، وكان قد قبع بينهما. قال ماتيو:

ـ حسنًا، ينبغي أن نتصارح تمامًا، فلم يبق لنا شيء نعمله غير هذا.

قالت مارسيل: ـ ليس هناك ما نتصارح بشأنه. لقد رأيت دانيال. فقال لك ما كان يريد أن يقوله لك، وحين تركته ذهبت فسرقت خمسة آلاف فرنك من لولا.

ـ نعم، وأنتِ منذ أشهر تستقبلين دانيال خفيةً. ترين إذن أنّ هناك أشياء ينبغي تفسيرها (وسألها فجأة) اسمعي: ماذا حدث أمس الأوّل؟

ـ أمس الأوّل؟

ـ لا تتصنّعي عدم الفهم. لقد قال لي دانيال إنّك تأخذين عليّ موقف أمس الأوّل.

قالت: ـ أوه! دَعْك من هذا ولا تشغل به رأسك.

فقال ماتيو: ـ أرجوكِ يا مارسيل، لا تنغلقي. أقسم لك أنّ نيّتي حسنة، وأنّي أعترف بجميع أخطائي. ولكن أخبريني ماذا حدث أمس الأوّل. إنّ الأمور ستسير خيرًا ممّا هي إذا استطعنا أن نستردّ بعض الثقة أحدنا بالآخر.

كانت تتردّد وقد أَفرخ روعها قليلاً. وقال لها وهو يأخذ بيدها:

ـ أرجوكِ...

ـ حسنًا... كان ذلك كالمرّات السابقة: إنّك تهزأ بما قد يكون في رأسي من أفكار.

ـ وماذا كان في رأسك؟

ـ لماذا تريد أن تُنطقني به؟ إنّك تعرفه جيّدًا.

قال ماتيو: ـ صحيح، أعتقد أنّي أعرفه.

وفكّر: «انتهى الأمر، سأتزوّجها». وكان هذا هو البديهة بعينها. «لا بدّ أن أكون قذرًا جدًّا لأتخيّل أنّ بوسعي أن أقطع وحدي بالأمر». كانت موجودة هنا، وكانت تتألّم، وكانت شقيّة وخبيثة، ولم يكن عليه إلّا أن يفعل حركة واحدة حتى يردّ لها هدوءها. وقال:

ـ تريدين أن نتزوّج، أليس كذلك؟

فنزعت منه يدها ونهضت بوثبة واحدة. فنظر إليها مذعورًا: كانت قد أصبحت شاحبة، وكانت شفتاها ترتجفان:

ـ إنّك... أيكون دانيال هو الذي قال لك ذلك؟

قال ماتيو مشدوهًا: ـ كلّا، ولكن هذا ما فهمته.

فقالت وهي تضحك: ـ هذا ما فهمته! لقد قال دانيال إنّي كنت منزعجة، ففهمت أنت أنّني أطلب الزواج. هذا ما تظنّه بي، أنت ماتيو، بعد سبع سنوات.

وأخذت يداها أيضًا ترتجفان. واستولت على ماتيو الرغبة بأن يأخذها بين ذراعيه، ولكنّه لم يجرؤ، وقال:

ـ أنتِ على حقّ، فإنّه لم يكن لي أن أفكّر هذا التفكير.

ولم يكن يبدو عليها أنّها تسمع. وألحّ قائلاً:

ـ اسمعي: لقد كانت لي أعذاري: لقد أخبرني دانيال بأنّه كان يراك من غير أن تُعلميني ذلك.

وظلّت على صمتها، فقال على مهل:

ـ إنّما هو الطفل الذي تريدين؟

قالت مارسيل: ـ ها! إنّ هذا لا يعنيك. إنّ ما أريده لم يعد يعنيك.

فقال ماتيو: ـ أرجوكِ.. إنّ الأوان لم يفت بعد...

فهزّت رأسها: ـ هذا غير صحيح. لقد فات الأوان.

ـ ولكن لماذا، يا مارسيل؟ لماذا لا تريدين أن تتحدّثي معي بهدوء؟ تكفينا ساعة، فيُسوّى كلّ شيء، ويتّضح كلّ شيء...

ـ لا أريد.

ـ ولكن لماذا؟ لماذا؟

ـ لأنّني لم أعد أقدِّرك بما فيه الكفاية. ثم لأنّك لم تعد تحبّني.

وكانت قد تكلّمت بلهجة تأكيد، ولكنّها كانت مذعورة بما قالته؛ ولم يكن في عينيها بعد إلّا استفهام قلق. واستطردت بحزن:

ـ لكي تفكِّر بي كما فكّرت، فلا بدّ أنّك قد كففت عن حبّي...

وكان هذا شبه سؤال. فلئن أخذها بين ذراعيه، ولئن قال لها إنّه كان يحبّها لأنقذ بعدُ كلّ شيء. سوف يتزوّجها ويرزقان الولد، وسيعيشان جنبًا إلى جنب طوال الحياة. وكان قد نهض؛ وأوشك أن يقول لها: «أحبّك». ترنّح قليلاً، وقال بصوت واضح:

ـ هذا صحيح... إنّني لم أعد أحبّك.

وكان قد نطق بالعبارة منذ وقت طويل، منذ أن بدأ يستمع إليها، في ذعر. وفكّر: «انتهى الأمر. انتهى كلّ شيء.» وكانت مارسيل قد ارتدّت إلى خلف وهي تطلق صيحة انتصار، ولكنّها سرعان ما وضعت يدها على فمها وأومأت له أن يصمت، وتمتمت بلهجة قلقة:

ـ أمّي.

فأرهفا أذنيهما؛ ولكنّهما لم يسمعا إلّا صوت السيّارات الجارية في البعيد. قال ماتيو:

ـ مارسيل. إنّني ما زلت متعلّقًا بك بكلّ قواي.

أطلقت مارسيل ضحكة متعجرفة:

ـ طبعًا... إنّك متعلّق فقط! أهذا ما تودّ أن تقوله لي؟

وأخذ يدها وقال لها:

ـ اسمعي...

فحرّرت يدها في انتفاضة جافّة، وقالت:

ـ كفى، كفى. لقد عرفت ما كنت أودّ أن أعرفه.

ورفعت بعض خصلات مبلّلة بالعرق كانت متدلّية على جبينها. وابتسمت فجأة، كأنّها تذكّرت أمرًا، وأضافت في إشراقة فرح حاقد:

ـ ولكن أخبرني، إنّك لم تقل لي هذا أمس، على التلفون. لقد قلت لي بقوّة: «أحبّك»، ولم يكن أحد يطلب منك أن تقول ذلك.

فلم يجب ماتيو. وقالت بلهجة ساحقة:

ـ لا بدّ أنّك تحتقرني...

قال ماتيو: ـ إنّني لا أحتقرك... إنّما...

قالت مارسيل: ـ اذهب عنّي.

فقال ماتيو: ـ إنّكِ مجنونة. لا أريد أن أذهب، ويجب أن أشرح لك أنّني...

فردّدت بصوت أصمّ، وهي مسبلة الجفنين:

ـ اذهب عنّي.

فصاح يائسًا: ـ ولكنّي احتفظت لك بكلّ حناني، وأنا لا أفكّر في أن

أهجرك. أريد أن أبقى بالقرب منك طوال حياتي، وسأتزوّجك و. . .

وقالت: ـ اذهب عنّي، اذهب ولا أريد أن أراك بعد. اذهب وإلّا فلست مسؤولة عمّا قد أصنع، سوف آخذ في الصراخ. . .

وراحت ترتجف بكلّ جسمها. اقترب ماتيو خطوة منها، ولكنّها دفعته بعنف:

ـ إن لم تذهب ناديت أمّي.

وفتح الخزانة فتناول حذاءه، وكان يشعر أنّه مضحك وكريه وقالت من ورائه:

ـ استعدْ مالك.

فالتفت ماتيو وقال: ـ كلّا. إنّ هذا على حدة. ليس هذا سببًا لأن. . .

فتناولت الأوراق الماليّة من على الطاولة وقذفتها في وجهه، فتطايرت عبر الغرفة وسقطت على رِجل السرير، بالقرب من حقيبة الأدوية. لم يلمّها ماتيو؛ كان ينظر إلى مارسيل. وقد أخذت تضحك، في ارتعاش، مغمضة العينين. وتقول:

ـ ها! ما أعجب هذا! أنا التي كنت أظنّ. . .

وأراد أن يقترب، ولكنّها فتحت عينيها وارتدّت إلى خلف وهي تومئ إلى الباب. وفكّر: «إذا بقيتُ صاحت» واستدار على عقبيه وخرج من الغرفة وحذاؤه في يده. وحين بلغ أسفل الدرج وضع حذاءه وتوقّف لحظة، ويده على مقبض الباب، مرهفًا سمعه. وسمع فجأة ضحكة مارسيل، ضحكة منخفضة كالحة كانت ترتفع صاهلة وتنخفض متقطّعة. وصاح صوت:

ـ مارسيل! ما بك؟ مارسيل؟

وكانت هي الأمّ. توقّفت الضحكة وسقط كلّ شيء في الصمت من جديد. أصغى ماتيو لحظة أخرى، حتى إذا لم يسمع بعد شيئًا، فتح الباب على مهل وخرج.

١٨

كان يفكّر: «إنّني دنيء»، وكان هذا يدهشه كثيرًا. ولم يكن فيه بعد إلّا التعب والخبل. توقّف عند سطيحة الطابق الثاني ليلهث: وكانت ساقاه رخوتين؛ لقد نام ستّ ساعات في ثلاثة أيّام، بل ربّما أقلّ من ذلك: «إنّني ذاهب لأنام». سوف يلقي ملابسه بلا نظام، وسيترنّح حتى يبلغ سريره فيسقط عليه. ولكنّه كان يعلم أنّه سيظلّ مستيقظًا طوال الليل، وعيناه مفتوحتان على سعتهما في الظلام. وصعد: كان باب المنزل قد بقي مفتوحًا؛ لا بدّ أنّ إيفيش قد هربت تائهة. وكان القنديل في المكتب ما يزال يشتعل.

ودخل فرأى إيفيش. كانت جالسة على الديوان، متصلّبة جامدة. وقالت:

ـ إنّني لم أذهب.

فقال ماتيو بجفاء: ـ أرى ذلك.

وظلّا لحظة صامتين؛ وكان ماتيو يسمع صوت لهاثه القوي المنتظم. قالت إيفيش وهي تدير رأسها:

ـ لقد كنت لئيمة.

فلم يجب ماتيو. كان ينظر إلى شعر إيفيش، ويفكّر: «أتراني فعلت

هذا من أجلها؟» وكانت قد خفضت رأسها، فتأمّل رقبتها السمراء العذبة في حنان بالغ: كان بودِّه أن يشعر أنّه كان متعلِّقًا بها أكثر من أيّ شيء في العالم، ليكون لعمله على الأقلّ هذا التبرير. ولكنّه لم يشعر بشيء، إلّا بغضب لا موضوع له، وقد كان العمل خلفه عاريًا، منزلقًا، غير مفهوم: لقد سرق، وترك مارسيل حاملاً، من أجل لا شيء.

وجهدت إيفيش لتقول في تودّد:

ـ كان يجب عليّ أن لا أتدخّل لإعطاء رأيي...

فهزّ ماتيو كتفيه وقال:

ـ لقد قطعت صلتي بمارسيل.

فرفعت إيفيش رأسها وقالت بصوت مبتذل:

ـ وهل تركتها... بلا مال؟

فابتسم ماتيو وفكّر: «طبعًا، لو فعلت ذلك، لوجدت مأخذًا عليّ الآن».

ـ كلّا، لقد تدبّرت الأمر.

ـ وهل وجدت مالاً؟

ـ نعم.

ـ أين؟

فلم يجب. ونظرت إليه في قلق:

ـ ولكنّك لم...

ـ بلى. لقد سرقته، إن كان هذا ما تقصدينه. سرقته من لولا. لقد صعدت إلى غرفتها حين كانت غائبة عنها.

وطرفت إيفيش بعينيها وأضاف ماتيو:

ـ سأعيده لها طبعًا. إنّه قرض قسري. هذا كلّ ما في الأمر.

وكانت البلادة تبدو على إيفيش، فردّدت على مهل، كما فعلت مارسيل منذ حين:

ـ لقد سرقت لولا.

فانزعج ماتيو لمظهرها المندهش، وقال في حيويّة:

ـ نعم، إنّ هذا ليس عملاً مجيدًا. لو تعلمين كان هناك سُلّم يُرقى، وباب يُفتح.

ـ ولماذا فعلت ذلك؟

ضحك ماتيو ضحكة موجزة، وقال:

ـ ليتني أعرف!

نهضت فجأة وقد أصبح وجهها قاسيًا متوحّشًا كما كان يبدو إذ تلتفت في الشارع لتتابع بنظرها امرأة جميلة أو فتى ناضرًا. ولكنّها كانت تنظر هذه المرّة إلى ماتيو. وشعر ماتيو أنّه كان يحمرّ، فقال في تردّد:

ـ لم أكن أريد أن أتخلّى عنها. وإنّما كنت أريد فقط أن أعطيها المال حتى لا أكون مجبرًا على الزواج منها.

قالت إيفيش: ـ نعم، فهمت.

ولم يكن يبدو عليها قطّ أنّها فهمت؛ كانت تنظر إليه. وألحّ وهو يلفت رأسه:

ـ ولكن ما وقع قبيح: إنّها هي التي طردتني. لقد تلقّت ذلك باستياء كبير، ولا أدري ماذا كانت تنتظر.

ولم تجب إيفيش، فصمت ماتيو على ضيق. وكان يفكّر: «لا أريد أن تكافئني».

قالت إيفيش: ـ إنّك جميل.

وأحسّ ماتيو في إرهاق أنّ حبّه الحادّ يولد فيه من جديد. وكان يخيّل

إليه أنّه كان يترك مارسيل للمرّة الثانية. ولم يقل شيئًا، وجلس بالقرب من إيفيش، وتناول يدها. وقالت له:

ـ فظيع كم تبدو عليك الوحدة.

وكان خجلاً. وانتهى إلى القول:

ـ إنّني أتساءل عمّا عساك تظنّين يا إيفيش؟ إنّ هذا كلّه مثير للشفقة. لقد سرقت، لو تعلمين، بدافع الذعر، وها أنذا الآن أشعر بالندم.

قالت إيفيش وهي تبتسم:

ـ أرى جيّدًا أنّك تشعر بالندم. وأظنّ أنّي كنت أشعر بمثله لو كنت في مكانك: إنّ المرء لا يستطيع إلّا أن يشعر بذلك، في اليوم الأوّل.

وكان ماتيو يشدّ بقوّة على اليد الصغيرة الحرون ذات الأظافر المقرّنة. وقال:

ـ إنّكِ على خطأ، فلست...

قالت إيفيش: ـ اسكت.

وسحبت يدها بحركة مفاجئة، وردّت شعرها كلّه إلى خلف، كاشفةً خدّيها وأذنيها. وكان يكفيها بضع حركات سريعة، وحين خفضت يديها، كان شعرها متماسكًا، ووجهها عاريًا. وقالت:

ـ هكذا.

وفكّر ماتيو: «إنّها تريد أن تنزع منّي حتى ندمي». ومدّ ذراعه، فجذب إليه إيفيش، واستسلمت؛ وكان يسمع في داخله لحنًا صغيرًا جذلاً كان يحسب أنّه أضاع منه حتى ذكراه. واهتزّ رأس إيفيش قليلاً على كتفه، وكانت تبتسم له، مفترّة الشفتين. وبادلها بسمتها، ثم قبّلها قبلة خفيفة، ثم نظر إليها، فتوقّف اللحن الصغير فجأة، وقال في نفسه: «ولكنّها ليست إلّا طفلة». وكان يحسّ أنّه وحيدٌ وحدةً مطلقة. وقال بعذوبة:

ـ إيفيش!

فنظرت إليه في دهشة.

ـ إيفيش.. لقد أخطأتُ.

وكانتِ قد قطّبت حاجبيها، وانتفاضات صغيرة تهزّ رأسها، ترك ماتيو ذراعيه تسقطان، وقال في تعب:

ـ إنّني لا أعرف ما الذي أريده منك.

فانتفضت إيفيش وتخلّصت بسرعة. وكانت عيناها ترسلان الشرر، ولكنّها سترتهما واتّخذت هيئة حزينة عذبة. وبقيت يداها وحدهما غاضبتين: كانتا تتطايران حولها وتحطّان على رأسها وتشدّان شعرها. وكان ماتيو يُحسّ بالجفاف في حلقه، ولكنّه كان ينظر إلى هذا الغضب بلا اكتراث. كان يفكِّر: «لقد أفسدتُ هذا أيضًا». وكان مسرورًا تقريبًا: لقد كان ذلك بمثابة تكفير. واستطرد يقول وهو يبحث عن النظر الذي كان يصرّ على الإفلات منه:

ـ يجب ألّا ألمسك.

فقالت محمرّة من الغضب:

ـ أوه، ليس لهذا أهمِّيّة.

ثم أضافت بلهجة مغنِّية:

ـ كان يبدو عليك أنّك فخور جدًّا لكونك اتّخذت قرارًا، وقد ظننت أنّك كنت قادمًا لتبحث عن مكافأة.

وعاد يجلس بالقرب منها وأخذ على مهل ذراعها، ما فوق المرفق قليلاً، ولم تتخلّص منه.

ـ ولكنّي أحبّك يا إيفيش.

فتصلّبت إيفيش، وقالت له:

ـ أودّ أن لا تظنّ...

ـ أن أظنّ ماذا؟

ولكنّه كان يحزر ما تفكِّر به. وترك ذراعها. قالت إيفيش:

ـ إنّني... إنّني لا أكنّ حبًّا لك.

فلم يجب ماتيو. وكان يفكِّر: «إنّها تأخذ بثأرها، هذا مألوف.» والواقع أنّ ذلك كان على الأرجح صحيحًا: فلماذا تراها كانت تحبّه؟ إنّه لم يكن يتمنّى شيئًا بعد، إلّا أن يبقى فترة طويلة صامتًا بالقرب منها، وأن تذهب في آخر الأمر من غير أن تتكلّم. ومع ذلك فقد قال:

ـ هل تعودين العام القادم؟

قالت: سأعود.

وابتسمت له بسمة تكاد تكون رقيقة، وكانت لا بدّ تقدِّر أنّ كرامته قد حُفظت. كان هذا هو الوجه نفسه الذي أدارته نحوه مساء أمس، فيما كانت سيِّدة المغاسل تضمّد يدها. ونظر إليها نظرة متردِّدة، وكان يشعر أنّ رغبته تولد من جديد، تلك الرغبة الحزينة المتطامنة التي لم تكن رغبةً في شيء. ثم أخذ ذراعها، وأحسَّ تحت أصابعه بتلك البشرة النضرة. وقال:

ـ إنّني...

وصمت. كان ثمّة من يدقّ الباب: دقّة أوّلاً، ثم دقّتين، ثم جرسًا غير منقطع. وأحسّ ماتيو بأنّه مثلج، وفكّر: «مارسيل!» وكانت إيفيش قد امتقعت، لقد جاءت الفكرة نفسها بكلّ تأكيد. وتبادلا النظر. وهمست:

ـ يجب أن تفتح.

قال ماتيو: ـ أعتقد أن نعم.

ولم يتحرّك. وكان الدقّ على الباب قد أصبح عنيفًا. قالت إيفيش وهي ترتجف:

ـ فظيع أن يفكِّر المرء أنّ وراء هذا الباب أحدًا.

قال ماتيو: ـ نعم. هل تريدين. هل تريدين أن تدلفي إلى المطبخ؟

سوف أغلق بابه فلا يراك أحد.

فنظرت إليه إيفيش نظرة تسلُّط هادئ:

ـ كلّا. سوف أبقى.

وذهب ماتيو ليفتح فرأى في الظلّ رأسًا كبيرًا منقبضًا يشبه القناع: كانت لولا. ودفعته لتدخل بسرعة وسألته:

ـ أين بوريس؟ لقد سمعت صوته.

ولم يكن لماتيو الوقت حتى لإغلاق الباب، فدخل إلى المكتب على عقبيه. وكانت لولا قد تقدّمت نحو إيفيش بلهجة تهديد:

ـ أخبريني أين بوريس!

فنظرت إليها إيفيش نظرة مذعورة. ومع ذلك، لم يكن يبدو على لولا أنّها تتَّجه إليها ـ أو إلى أيّ شخص آخر ـ بل لم يكن مؤكّدًا أنّها رأتها. ووقف ماتيو بينهما:

ـ إنّه ليس هنا.

فأدارت لولا نحوه وجهها المتحلِّل. كانت قد بكت.

ـ لقد سمعت صوته.

قال ماتيو وهو يحاول أن يمسك نظرها:

ـ إنّ في المنزل، إلى جانب هذا المكتب، مطبخًا وحمّامًا. فبوسعك أن تبحثي في كلّ مكان إن كان ذلك يروقك.

ـ أين هو إذن؟

وكانت مرتدية ثوبها الحريري الأسود ومحتفظة بماكياجها المسرحي.

كان يبدو على عينيها أنّهما متخثِّرتان. قال ماتيو:

ـ لقد ترك إيفيش حوالى الساعة الثالثة. ولا ندري ماذا فعل بعد ذلك.

وأخذت لولا تضحك كامرأة عمياء. كانت يداها تتشنّجان على محفظة مخمليّة صغيرة سوداء كان يبدو أنّها تحتوي شيئًا واحدًا، قاسيًا وثقيلاً. ورأى ماتيو المحفظة فأخذه الخوف، وكان لا بدّ من أن يصرف إيفيش على التوّ.

قالت لولا: ـ حسنًا، إذا كنتما لا تعرفان ماذا صنع، فبوسعي أن أخبركما. لقد صعد إلى غرفتي حوالى السابعة إذ كنت قد خرجت، ففتح بابي ونزع قفل صندوق وسرق منّي خمسة آلاف فرنك.

ولم يجرؤ ماتيو على أن ينظر إلى إيفيش، وقال لها على مهل، وهو مطرق إلى الأرض:

ـ إيفيش، من الخير أن تذهبي، يجب أن أتحدّث إلى لولا. هل... هل أستطيع أن أراك مرّة أخرى هذه الليلة؟

وكانت إيفيش ممتقعة فقالت:

ـ أوه، كلّا أريد أن أعود إلى بيت الطالبات، فإنّ عليّ أن أحزم حقائبي، ثم إنّني أريد أن أنام. إنّني شديدة الرغبة في النوم.

وسألت لولا:

ـ هل هي مسافرة؟

قال ماتيو: ـ نعم. صباح الغد.

ـ وهل يسافر بوريس أيضًا؟

ـ كلّا.

وأخذ ماتيو يد إيفيش:

ـ اذهبي فنامي يا إيفيش. لقد قضيتِ يومًا شاقًّا، ألا تزالين مصرّة على ألّا أصحبك إلى المحطّة؟

ـ نعم. أفضّل أن لا.

ـ إذن، إلى السنة القادمة.

وكان ينظر إليها، وهو يرجو أن يجد في عينيها بريق حنان، ولكنّه لم يستطع أن يقرأ إلّا الذعر. وقالت:

ـ إلى السنة القادمة.

قال ماتيو بحزن: ـ سأكتب لك يا إيفيش.

ـ نعم. نعم.

وكانت تهمُّ بالخروج، فسدَّت لولا عليها الطريق.

ـ عفوًا! ما الذي يثبت لي أنّها ليست ذاهبة لتلتقي بوريس!

قال ماتيو: ـ وبعد؟ أتصوّر أنّها حرّة.

قالت لولا وهي تقبض بيدها اليسرى على معصم إيفيش:

ـ ابقي هنا.

فأطلقت إيفيش صرخة ألم وغضب وصاحت:

ـ دعيني، لا تمسّيني، لا أريد أن يمسّني أحد.

ودفع ماتيو لولا بقوّة، فتراجعت بضع خطى وهي تزمجر. وكان ينظر إلى محفظتها.

وتمتمت إيفيش بين أسنانها:

ـ يا للمرأة القذرة!

وكانت تجسّ معصمها بإبهامها وسبابتها. قال ماتيو من غير أن ينزع نظره عن المحفظة:

لولا، دعيها تذهب. إنّ لديّ أشياء كثيرة أقولها لك، ولكن دعيها أوّلاً تذهب.

ـ وهل تقول لي أين بوريس؟

قال ماتيو: ـ لا، ولكنّي سأشرح لك حكاية هذه السرقة.

قالت لولا: ـ حسنًا. اذهبي إذن. وإذا رأيت بوريس قولي له إنّي قدّمت شكوى.

قال ماتيو بصوت خافت: ـ سوف تُسحب الشكوى.

وظلّ ينظر إلى المحفظة، وأضاف:

ـ وداعًا يا إيفيش، إذهبي بسرعة.

فلم تجب إيفيش، وسمع ماتيو في عزاء وقعَ قدميها الخفيف. لم يرها تذهب، ولكنّ الصوت انطفأ: فأحسّ بانقباض في قلبه. وخطت لولا إلى أمام وصاحت:

ـ قولي له إنّه أخطأ العنوان. قولي له إنّه ما يزال أصغر من أن يتغلّب عليّ.

والتفتت إلى ماتيو: هذه النظرة المزعجة نفسها التي لم يكن يبدو عليها أنّها ترى. وسألته في قسوة:

ـ وإذن، تفضّل.. إحكِ قصّتك.

قال ماتيو: ـ اسمعي يا لولا.

ولكن لولا كانت قد عادت إلى الضحك، وقالت:

ـ إنّني لم أولد أمس. أوه! كلّا! لقد قالوا لي كثيرًا إنّني أكاد أكون بعمر أمّه.

وتقدّم ماتيو منها: ـ لولا!

لقد قال لنفسه: «إنّ العجوز تخبّئني في جلدها، وستكون سعيدة جدًّا بأن تجمع ثروتها من جديد، وسوف تشكرني على ذلك». إنّه لا يعرفني! إنه لا يعرفني!

وأمسكها ماتيو من ذراعيها وهزَّها كأنّها شجرة خوخ، فيما كانت تصيح وهي تضحك:

ـ إنّه لا يعرفني!

وقال بخشونة: ـ هل تراك ستصمتين؟

فهدأت لولا، وبدت وكأنّها تراه للمرّة الأولى:

ـ تفضّل.

قال ماتيو: ـ أصحيح أنّك رفعت عليه شكوى؟

ـ نعم. ما الذي تودّ أن تقوله لي؟

قال: ـ أنا الذي سرقتك.

وكانت لولا تنظر إليه بلا اكتراث، فكان عليه أن يردِّد:

ـ أنا الذي سرقت الخمسة آلاف فرنك.

قالت: ـ آه! أنت؟

وهزّت كتفيها:

ـ لقد رأته صاحبة الفندق.

ـ كيف تكون قد رأته، ما دمت أقول لك إنّي أنا الذي سرقت.

قالت لولا منزعجة:

ـ لقد رأته. فقد صعد حوالى الساعة السابعة وهو يتخفّى، وتركته يفعل لأنّي كنت قد أمرتها بذلك. ولقد انتظرته طوال النهار، وكان قد انقضى على خروجي عشر دقائق. كان لا بدَّ يترصّدني عند زاوية الشارع، فما إن رآني أذهب حتى صعد.

وكانت تتكلّم بصوت قاتم سريع كان يبدو أنّه يعبِّر عن اعتقادٍ لا يتزعزع، وفكّر ماتيو بخيبة: «لكأنّها بحاجة إلى أن تؤمن بذلك». وقال:

ـ اسمعي، في أيّة ساعة عدتِ إلى الفندق؟

ـ المرّة الأولى؟ الساعة الثامنة.

ـ حسنًا! كانت الأوراق الماليّة آنذاك لا تزال في الصندوق.

ـ أقول لكِ إنّ بوريس قد صعد عند الساعة السابعة.

ـ من الممكن أن يكون قد صعد، وربّما كان آتيًا لرؤيتك. ولكنّك لم تنظري في الصندوق؟

ـ بلى.

ـ هل نظرت فيه عند الساعة الثامنة؟

ـ نعم.

قال ماتيو: ـ إنّك غير صادقة يا لولا. أنا واثق من أنّك لم تنظري فيه. فعند الساعة الثامنة كان المفتاح معي، وما كان بإمكانك أن تفتحيه. ولئن اكتشفت السرقة عند الساعة الثامنة، فكيف تريدين أن أصدِّق أنّك انتظرت منتصف الليل حتى تقصدي منزلي؟ عند الساعة الثامنة تزيّنتِ بهدوء، وارتديتِ ثوبك الجميل الأسود وذهبتِ إلى «سومطرة». أليس هذا صحيحًا؟

فنظرت إليه لولا نظرة مغلقة:

ـ لقد رأته صاحبة الفندق يصعد.

ـ نعم، ولكنّك أنتِ لم تنظري إلى الصندوق. وكان المال ما يزال فيه عند الساعة الثامنة. وقد صعدت عند الساعة العاشرة وأخذته. وكان في المكتب عجوز رأتني، وبوسعها أن تشهد. أمّا أنتِ فقد اكتشفتِ السرقة عند منتصف الليل.

قالت لولا في عتب:

ـ نعم. عند منتصف الليل. ولكنّ الأمر سواء، لقد أصبت بضيق في «سومطرا» فعدت إلى الفندق. وتمدّدت ثم أدنيت الصندوق منّي. كان هناك.. كان هناك رسائل كنت أودّ أن أُعيد قراءتها.

وفكّر ماتيو: «صحيح، الرسائل. لماذا تريد أن تخفي أمر سرقتها؟» وكان كلاهما صامتًا؛ وبين الفينة والفينة، كانت لولا تنوس من الوراء إلى

الأمام، كمن ينام واقفًا. وبدت أخيرًا وكأنّها تستيقظ:

ـ أنت، أنت الذي سرقتني؟

ـ أنا.

وضحكت ضحكة مقتضبة.

ـ احتفظ بتدجيلاتك للقضاة إذا كان يروق لك أن تقضي ستّة أشهر في السجن بدلاً منه.

ـ تمامًا يا لولا، فما يُجديني أن أعرِّض نفسي للسجن بدلاً من بوريس؟ فلوت فمها:

ـ هل أدري ما الذي تفعله معه؟

ـ إنّ هذا سخيف! اسمعي: أقسم لك أنّي أنا الذي سرقت: كان الصندوق أمام النافذة، تحت حقيبة. وقد أخذت المال وتركت القفل في المفتاح.

وكانت شفتا لولا ترتجفان، وهي تدعك محفظتها في عصبيّة:

ـ أهذا كلّ ما تريد أن تقوله لي؟ إذن دعني أذهب.

وأرادت أن تمرّ فأوقفها ماتيو:

ـ لولا، إنّك لا تريدين أن تدعي نفسك تقتنعين.

فدفعته لولا بضربة من كتفها.

ـ ألا ترى إذن في أيّة حالة أنا؟ من تظنّني بحكاية صندوقك هذه؟ (وأضافت وهي تقلِّد صوت ماتيو) لقد كان الصندوق تحت حقيبة أمام النافذة. لقد جاء بوريس إلى هنا، وأنت تحسب أنّي لا أعرف ذلك؟ لقد اتّفقتما معًا على ما ينبغي أن يُقال للعجوز. (وقالت بصوت مريع) دعني إذن أذهب!

وأراد ماتيو أن يأخذها من كتفيها، ولكن لولا ارتمت إلى خلف

وحاولت أن تفتح محفظتها، فانتزعها منها ماتيو وألقى بها إلى الديوان. وقالت لولا:

ـ يا لك من وحش.

فقال ماتيو وهو يبتسم:

ـ أهو كبريتات أو مسدّس؟

أخذت لولا ترتجف بكلّ أعضائها. وفكّر ماتيو: «هكذا. إنّها نوبة الأعصاب». كان يشعر بأنّه يحلم حلمًا مشؤومًا غريبًا. ولكن كان ينبغي إقناعها. كفّت لولا عن الارتجاف، وكانت قد انزوت بالقرب من النافذة ترقبه بعينين تلتمعان بحقد عاجز. أدار ماتيو رأسه: إنّه لم يكن يخاف حقدها، ولكن كان على ذلك الوجه قحطٌ بائسٌ لا يُحتمل.

وقال بتمهّل: ـ «لقد صعدت إلى غرفتك هذا الصباح، فأخذت المفتاح من حقيبتك. وحين استيقظت، كنت على وشك أن أفتح الصندوق. ولم يتح لي الوقت أن أُعيد المفتاح إلى مكانه، ما جعلني أفكّر بالعودة إلى غرفتك هذا الصباح.

قالت لولا: ـ عبث ما تقول. فقد رأيتك تدخل هذا الصباح. وحين حدَّثتك لم تكن قد وصلت إلى سريري.

ـ كنت قد دخلت مرّة أولى وعدت.

وقهقهت لولا فأضاف على مضض:

ـ بسبب الرسائل.

لم يكن يبدو عليها أنّها تسمع: كان لا فائدة إطلاقًا من أن يحدِّثها عن الرسائل، فهي لم تكن تفكّر إلّا بالمال، وكانت بحاجة إلى التفكير به لتُلهب غضبها، وهو ملاذها الوحيد. وانتهت إلى القول في ضحكة صغيرة جافّة:

المصيبة، أنّه طلب منّي الخمسة آلاف فرنك مساء أمس، أتفهم؟ ومن

أجل هذا بالذات تخاصمنا.

فأحسّ ماتيو بعجزه: كان الأمر بديهيًّا، فالمذنب لا يمكن أن يكون إلّا بوريس؛ وقال في إرهاق: «كان عليّ أن أفكّر بهذا». وقالت لولا في بسمة خبيثة:

ـ لا تجهد نفسك إذن، سوف أقبض عليه، وإذا نجحت في أن تضلّل القاضي، فاحصل عليه بطريقة أخرى. هذا كلّ ما في الأمر.

نظر ماتيو إلى المحفظة على الديوان، ونظرت إليها لولا كذلك. وقال:

ـ لقد طلب المال منكِ لأجلي أنا.

ـ نعم. ومن أجلك أيضًا سرق كتابًا من إحدى المكتبات بعد الظهر؟ لقد افتخر بهذا بينما كان يرقص معي.

توقّفت لولا فجأة ثم أردفت بهدوء مهدِّد:

ـ حسنًا! أنت الذي سرقتني إذن؟

ـ نعم.

ـ إذن، أعِدْ لي المال.

ظلّ ماتيو مشدوهًا. وأضافت لولا بلهجة انتصار ساخرة:

ـ أعِده لي فورًا فأسحب شكواي.

فلم يجب ماتيو. وقالت لولا:

ـ كفى. لقد فهمت.

وأخذت محفظتها من جديد من غير أن يحاول منعها من ذلك. وقال في مشقّة:

ـ لو كنت أملكه في الحقيقة فماذا يثبت هذا؟ إنّ بوسع بوريس أن يستودعني إيّاه، في رأيك.

ـ أنا لا أطلب منك هذا. أطلب منك أن تردّه لي.

ـ ليس المال معي بعد.

ـ أيّ خلط هذا! لقد سرقتني عند العاشرة، ولم يبق معك شيء عند منتصف الليل؟ تهانيّ.

ـ لقد أعطيت المال.

ـ لمن؟

ـ لن أقول لك ذلك.

وأضاف بحيويّة:

ـ لم أعطه لبوريس.

فابتسمت من غير أن تجيب، وتوجّهت إلى الباب فلم يوقفها. وكان يفكّر: «إنّ دائرة الشرطة التي تتبع لها منطقتها تقع في شارع مارتير. وسوف أقصدها لأشرح القضيّة». ولكنّه حين رأى ظهر هذا الشبح الأسود الذي كان يسير في صلابة كارثة عمياء، خاف وفكّر في المحفظة، وبذل جهدًا أخيرًا:

ـ أستطيع في آخر المطاف أن أخبركِ لمن أعطيت المال: أعطيته للآنسة دوفيه، وهي صديقة لي.

وفتحت لولا الباب وخرجت. سمعها تصرخ في الغرفة الخارجيّة، فوثب قلبه. ثم برزت مرّة أخرى، وكانت تبدو عليها هيئة المجانين، وقالت:

ـ هناك شخص.

وفكّر ماتيو: «إنّه بوريس».

وكان دانيال. دخل في شموخ وانحنى أمام لولا. وقال وهو يمدّ مغلّفًا:

ـ هذه يا سيّدتي هي الخمسة آلاف فرنك. تفضّلي وتحقّقي من أنّها مالك.

وفكّر ماتيو في الوقت نفسه «إنّ مارسيل هي التي تُرسله» و«لقد أصغى من وراء الباب». كان دانيال يصغي من خلف الأبواب ليتدبّر أمر دخوله. وسأله ماتيو:

ـ أتراها قد...

فطمأنه دانيال بحركة وقال:

ـ كلّ شيء على ما يرام.

وكانت لولا تنظر إلى المغلّف نظرة حذرة تشبه نظرة الفلّاحين. وسألت:

ـ فيه خمسة آلاف فرنك؟

ـ نعم.

ـ ما الذي يثبت لي أنّها أوراقي الماليّة؟

فسألها دانيال: ـ ألم تسجّلي أرقامها؟

ـ أتظنّ ذلك؟

قال دانيال في لهجة عتاب:

ـ آه، ينبغي يا سيّدتي أن تسجّلي الأرقام دائمًا.

وحضر ماتيو وحيٌ مفاجئ: لقد تذكّر رائحة عطر «قبرص شيبر» الكثيفة التي انبعثت من الصندوق فقال:

ـ شمّيها.

فتردّدت لولا لحظة، ثم خطفت المغلّف ومزّقته وأدنت الأوراق الماليّة من أنفها. خشي ماتيو أن ينفجر دانيال ضاحكًا. ولكن دانيال كان رصينًا كأنّه بابا، كان ينظر إلى لولا بعين متفهّمة. سألت لولا:

ـ إذن؟ لقد أجبرت بوريس على إعادتها؟

قال دانيال: ـ لا أعرف أحدًا يُدعى بوريس. إنّها صديقة لماتيو أعطتني إيّاها لأردّها له. وقد أتيت ركضًا وسمعت نهاية حديثكما. وأعتذر من ذلك يا سيّدتي.

وظلّت لولا جامدة، ذراعاها متدلّيتان على جنبيها، تشدّ محفظتها بيدها اليسرى، بينما كانت اليمنى متشنّجة على الأوراق الماليّة، وكانت هيئتها قلقة مشدوهة. وسألت فجأة:

ـ ولكن لماذا فعلت ذلك أنت؟ ما هي الخمسة آلاف فرنك، بالنسبة إليك؟

فابتسم ماتيو بلا مرح:

ـ يبدو أنّها شيء كثير.

ثم أضاف على مهل:

ـ يجب أن تفكّري بسحب شكواكِ يا لولا، أو إذا شئت قدّمي شكواك ضدّي أنا.

أدارت لولا رأسها وقالت بسرعة:

ـ لم أقدّم شكوى بعد.

وظلّت مزروعة وسط القاعة، تائهة، وقالت:

ـ كانت هناك أيضًا رسائل.

ـ ليست هي معي بعد. لقد أخذتها هذا الصباح له. إذ كنّا نظنّكِ ميّتة. وهذا ما أوحى لي بأن أعود لآخذ المال.

فنظرت لولا إلى ماتيو من غير حقد، وبقدر كبير من الدهشة ونوعٍ من الاهتمام، وقالت:

ـ لقد سرقت منّي خمسة آلاف فرنك! إنّ هذا.. هذا طريف! ولكن

سرعان ما انطفأت عيناها وقست ملامح وجهها، وكان يبدو عليها أنّها تتألّم. وقالت:

ـ إنّني ذاهبة.

فتركاها تخرج في سكون. التفتت عند عتبة الباب:

ـ إذا لم يفعل شيئًا، فلماذا لا يعود؟

ـ لا أدري.

فندّت عن لولا شهقة قصيرة واعتمدت عارضة الباب. خطا ماتيو خطوة نحوها، ولكنّها تمسّكت:

ـ أتعتقد أنّه سيعود؟

ـ أظنّ. إنّهما غير قادرين على أن يُسعدا الناس، ولكنّهما مع ذلك لا يستطيعان أن يتخلّيا عنهم، فإنّ ذلك أشقّ من أن يحملاه.

قالت لولا: ـ نعم. نعم. هيّا. وداعًا.

ـ وداعًا يا لولا. ألا.. تحتاجين شيئًا؟

ـ كلّا.

وخرجت وسمعا الباب ينغلق. سأل دانيال:

ـ من هي هذه السيّدة العجوز؟

ـ لولا، صديقة بوريس سرغين. إنّها «مخلوعة».

فقال دانيال: ـ يبدو عليها ذلك.

وأحسّ ماتيو بانزعاج أن يبقى معه وحيدًا؛ فقد كان يخيّل إليه أنّه قد وُضع فجأة في حضور خطيئته. كانت هناك، تجاهه، حيّة، تعيش في أعماق عينيْ دانيال، والله يعلم أيّ شكل اتّخذته في هذا الوجدان المتقلِّب المزوَّر. وكان يبدو على دانيال أنّه مستعدّ لاستغلال الموقف. فقد كان حفيًّا وقحًا سيّئ النفس كما كان يبدو في أردأ أيّامه. وقسا ماتيو ورفع

رأسه؛ كان دانيال بشعًا، وقال في ابتسامة رديئة:

ـ إنّك تبدو كريهًا.

فقال ماتيو: ـ كنت أهمّ بأن أقول لك مثل ذلك. إنّنا كلانا في مأزق!

فهزّ دانيال كتفيه. وسأله ماتيو:

ـ هل أنت قادم من لدن مارسيل؟

ـ نعم.

ـ وهي التي أعادت لك المال؟

فقال دانيال متهرّبًا: ـ إنّها لم تكن بحاجة إليه.

ـ لم تكن بحاجة إليه؟

ـ كلّا.

ـ قل لي على الأقلّ إن كانت لديها الوسيلة...

قال دانيال: ـ لم تعد القضيّة هكذا يا عزيزي. إنّ هذه قصّة قديمة.

وكان قد رفع حاجبه الأيسر وهو يتأمّل ماتيو في سخرية، كما لو كان ذلك عبر نظّارة خياليّة. وفكّر ماتيو: «إذا كان قصده أن يدهشني، فهو يُحسِن صنعًا كذلك إذا منع يديه من الارتجاف».

وقال دانيال بلا اكتراث:

ـ إنّني أتزوّجها. وسنحتفظ بالولد.

أخذ ماتيو سيكارة فأشعلها، وكان مخّه يهتزّ كالجرس. وقال في هدوء:

ـ لقد كنت تحبّها إذن!

ـ ولِمَ لا؟

وفكّر ماتيو: «إنّ المقصودة هي مارسيل» مارسيل! ولم يكن ينجح في أن يُقنع نفسه بذلك كلّ الإقناع. وقال:

ـ إسمع يا دانيال: إنّني لا أصدِّقك.

ـ انتظر قليلاً، وسترى جيّدًا.

ـ كلّا، أقصد أنّك لن تجعلني أصدِّق أنّك تحبّها، وأنا أتساءل عمّا وراء هذا كلّه.

وكان التعب يبدو على دانيال، وهو يجلس على حافّة المكتب، واضعًا قدمًا على الأرض، مؤرجحًا الأخرى في غير اكتراث. وفكّر ماتيو في غضب: «إنّه يتسلّى».

قال دانيال: ـ ستكون مندهشًا جدًّا إذا عرفت ماذا هناك.

وفكّر ماتيو: «تفه! لقد كانت خليلته!» وقال في جفاء:

ـ إذا لم يكن عليك أن تقول لي ذلك، فاسكت.

فنظر إليه دانيال لحظة كما لو كان يتسلّى بأن يثير فضوله، ثم نهض دفعة واحدة وأمرّ يده على جبينه، وقال:

ـ إنّ الأمر يسوء.

وكان يتأمّل ماتيو في اندهاش:

ـ لم أجئ لأحدِّثك في هذا. اسمع يا ماتيو، إنّني...

واغتصب ضحكة:

ـ ستعتبر نفسك رجلاً ذا أهمِّيّة إن قلت لك ذلك.

قال ماتيو: ـ حسنًا. تكلّم أو لا تتكلّم.

ـ إذن، إنّني...

وتوقّف أيضًا، فأتمّ عنه ماتيو العبارة، وقد نفد صبره:

ـ إنّك عشيق مارسيل، هذا ما تودّ أن تقوله.

حملق دانيال بعينيه وأرسل صفرةً خفيفة، وأحسّ ماتيو أنّ وجهه يحمرُّ.

قال دانيال بلهجة إعجاب:

ـ لقد وجدتها ببراعة! إنّك لا تطلب إلّا هذا، أليس كذلك؟ كلّا يا عزيزي. إنّك لا تملك حتى هذا العذر.

فقال ماتيو ذليلاً: ـ وأنت أيضًا ليس لك إلّا أن تتكلّم.

قال دانيال: ـ انتظر. أليس لديك ما يُشرب؟ ويسكي؟

قال ماتيو: ـ كلّا. ولكن عندي «روم» أبيض. (وأضاف) إنّها فكرة عظيمة: سوف نشرب قدحًا.

ومضى إلى المطبخ ففتح الخزانة وفكّر: «لقد كنت دنيئًا».. وعاد بقدحين وزجاجة «روم». فأخذ دانيال الزجاجة وملأ القدحين حتى أترعهما، وقال:

ـ إنّه من مصنع «الروم» المارتينيكي؟

ـ نعم.

ـ ألا تزال تقصده أحيانًا؟

أجاب ماتيو: ـ أحيانًا.. نخبك!

فنظر إليه دانيال نظرة استقصاء، كما لو أنّ ماتيو كان يخفي عنه شيئًا ما، وقال وهو يرفع قدحه:

ـ نخب غراميّاتي.

قال ماتيو مغتاظًا: ـ إنّك سكران.

فقال دانيال: ـ صحيح أنّي شربت قليلاً، ولكن اطمئنّ. كنت صائمًا حين صعدت إلى بيت مارسيل. وبعد ذلك...

ـ وهل أنت قادم من عندها؟

ـ نعم. وقد توقّفت قليلاً في «الفلاستاف».

ـ لا بدّ أنّك وجدتها... فور ذهابي؟

فقال دانيال مبتسمًا: ـ كنت أنتظر أن تخرج. وحين رأيتك تنفتل في منعطف الشارع، صعدت.

فلم يتمالك ماتيو حركة انزعاج، وقال:

ـ أكنت تترصّدني؟ أوه.. فليكن. وهكذا لم تبق مارسيل وحدها. حسنًا! ما الذي كنت تودُّ أن تقوله لي؟

قال دانيال في ودّ مفاجئ: ـ لا شيء على الإطلاق يا عزيزي. كنت أودّ ببساطة أن أعلن لك زواجي.

ـ أهذا كلّ شيء؟

ـ هذا كلّ شيء؛ نعم.. هذا كلّ شيء.

فقال ماتيو في برودة: ـ كما تشاء.

وصمتا لحظة، ثم سأله ماتيو:

ـ كيف... كيف حالها؟

فسأل دانيال بسخرية: ـ أتريد أن أقول لك إنّها سعيدة وفرحة؟ وفِّر عليّ تواضعي.

فقال ماتيو بجفاء: ـ أرجوك. صحيح. ليس لي أيّ حقّ في سؤالك.. ولكنّك في الحقيقة قد جئت إلى هنا..

قال دانيال: ـ أجل، كنت أظنّ أنّي سأجد مشقّة أكبر لإقناعها، ولكنّها ارتمت على اقتراحي كما يرتمي الفقر على العالم.

ورأى ماتيو ما يشبه الحقد يلتمع في عينيه، فسارع يقول لكي يعذر مارسيل:

ـ لقد كانت ضائعة...

فهزّ دانيال كتفيه وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا. ولم يكن ماتيو يجرؤ على النظر إليه: كان دانيال يتمالك نفسه، ويتكلّم بهدوء، ولكنّه كان يبدو

كأنّه مأخوذ. شبك ماتيو يديه وحدَّد نظره في حذائه، وأضاف بمشقّة، كأنّما يحدِّث نفسه:

ـ لقد كانت تريد الطفل إذن؟ إنّني لم أفهم هذا. ولو قالته لي...

وكان دانيال صامتًا، فاستطرد ماتيو في جهد:

ـ كان الطفل.. سيولد. إنّني أنا.. كنت أريد حذفه. وأفرض أنّه من الأفضل أن يولد.

فلم يجب دانيال. وسأله ماتيو:

ـ إنّني لن أراه أبدًا، بالطبع؟

ولم يكن يبدو على عبارته أنّها استفهام. فأضاف من غير أن ينتظر الجواب:

ـ وأخيرًا، هذا هو الوضع. أعتقد أنّ بوسعي أن أكون مسرورًا. فأنت تنقذها على نحو ما... ولكنّي لا أفهم شيئًا في الأمر. لماذا فعلت ذلك؟

فقال دانيال بجفاء: ـ طبعًا ليس ذلك بداعي محبّة البشر، إن كنت ترمي إلى هذا. (وأضاف) إنّ شرابك كريه.. ومع ذلك، أَعطني قدحًا آخر.

ملأ ماتيو القدحين وشربا. قال دانيال:

ـ وإذن، ما الذي ستفعله الآن؟

ـ لا شيء. لا شيء بعد.

ـ وتلك الصغيرة سرغين؟

ـ كلّا.

ـ بالرّغم من أنّك تحرّرت الآن.

ـ الأمر لديّ سواء!

قال دانيال وهو ينهض:

ـ مساء الخير. لقد جئت أردُّ لك المال وأطمئنك قليلاً: إنّ مارسيل لن تخشى شيئًا، فهي تثق بي. لقد هزَّتها هذه القصّة كلّها هزًّا عنيفًا، ولكنّها ليست شقيّة على كلّ حال.

فردّد ماتيو: ـ سوف تتزوّجها! (وأضاف بصوت منخفض) إنّها تكرهني.

فقال دانيال بقسوة: ـ ضع نفسك موضعها!

ـ أعرف ذلك. لقد وضعت نفسي موضعها. هل حدّثتك عنّي؟

ـ قليلاً جدًّا.

قال ماتيو: ـ أتدري؟ إنّ لي رأيًا في زواجكما.

ـ هل أنت نادم؟

ـ كلّا. بل أجد ذلك مشؤومًا.

ـ شكرًا.

ـ أوه! بالنسبة لكلّ منكما. لا أدري لماذا!

ـ لا تقلق. سيسير كلّ شيء على ما يرام. فإذا رزقنا ذكرًا أسميناه ماتيو.

فنهض ماتيو وهو يشدُّ قبضته، وقال:

ـ إخرس!

قال دانيال: ـ هيّا، لا تغضب.

ثم ردّد بلهجة شاردة: ـ لا تغضب، لا تغضب.

ولم يعزم على الذهاب. فقال له ماتيو:

ـ بالإجمال، لقد جئت ترى هيئتي بعد هذه القصّة؟

قال دانيال: ـ لا يخلو الأمر من هذا. بكلّ صراحة، لا يخلو الأمر من هذا.. إنّك تبدو دائمًا... شديد الصلابة. وكنت تضايقني بذلك.

قال ماتيو: ـ حسنًا، وقد رأيتَ أنّي لست صلبًا إلى هذا الحدّ.

ـ نعم.

خطا دانيال بضع خطوات نحو الباب، ثم عاد فجأة إلى ماتيو: وكان قد فقد هيئته الساخرة، ولكن ذلك لم يغيّر شيئًا من الوضع، وقال:

ـ إنّني يا ماتيو لوطيّ.

فقال ماتيو: ـ ماذا تقول؟

وكان دانيال قد ارتدّ إلى خلف وهو ينظر إليه بعينين مدهوشتين ينبعث منهما شرر الغضب.

ـ إنّ هذا يثير اشمئزازك، أليس كذلك؟

فردّد ماتيو بهدوء: ـ أنت لوطيّ؟ كلّا، إنّ هذا لا يثير اشمئزازي، ولماذا تراه يثير اشمئزازي؟

قال دانيال: ـ أرجوك، لا تظنّ أنّك مجبر على أن تظهر بمظهر المتحرِّرين الواسعي التفكير...

فلم يجب ماتيو. كان ينظر إلى دانيال ويفكِّر: «إنّه لوطي» ولم يكن شديد الدهشة.

وتابع دانيال بصوت مصفِّرٍ:

ـ أراك لا تقول شيئًا. إنّك على حقّ. إنّ ردّ فعلك مناسب تمامًا، وهو الذي يتميّز به كلّ رجل سليم، ولكنّك تحسن صنعًا كذلك بأن تحتفظ به لنفسك.

كان دانيال جامدًا، وذراعاه ملتصقتان بجسمه، يبدو عليه أنّه في ضيق. وتساءل ماتيو في قسوة: «ما-الذي دهاه لكي يأتي فيعذِّب نفسه عندي؟» وكان يفكِّر بأنّه لا بدّ قد وجد شيئًا يقوله، ولكنّه كان غارقًا في لامبالاة عميقة شالّة. ثم إنّ ذلك كان يبدو له طبيعيًّا جدًّا وعاديًّا جدًّا: لقد كان دنيئًا، وكان دانيال لوطيًّا، وكان هذا في طبيعة الأشياء. وقال أخيرًا:

ـ بوسعك أن تكون ما تريد. إنّ هذا لا يعنيني.

فقال دانيال وهو يبتسم في رفعة: ـ أتصوّر في الحقيقة أنّ هذا لا

يعنيك. فحسبك ما تعانيه مع ضميرك بالذات.

ـ إذن، لماذا تأتي فتروي لي هذا؟

فقال دانيال وهو يتنحنح: ـ لقد أردت أن أعرف الأثر الذي يخلِّفه ذلك على شخص مثلك... ثم إنّي ـ الآن وهناك من يعرف ـ ربّما توصّلت إلى تصديق ذلك...

وكان أخضر اللون وهو يتكلّم في صعوبة، ولكنّه كان مستمرًّا في الابتسام. ولم يستطع ماتيو أن يتحمّل هذه البسمة فأدار رأسه.

قهقه دانيال:

ـ أيدهشك هذا؟ ويُزعج أفكارك عن اللوطيّين؟

فرفع ماتيو رأسه بحيويّة، وقال:

ـ لا تتحذلق. إنّك متعب. ولست بحاجة لأن تتحذلق معي. ربّما كنت تنفر من نفسك، ولكن ليس أكثر ممّا أنفر من نفسي، فنحن متساويان. (وفكّر قليلاً وأضاف) والواقع أنّك من أجل هذا تروي لي حكاياتك. لا بدّ أنّ الاعتراف أمام إنسان ضعيف أقلّ مشقّة، والمرء مع ذلك يملك ميزة الاعتراف.

فقال دانيال بصوت مبتذل لم يكن ماتيو يعهده فيه:

ـ إنّك خبيث صغير.

وصمتا. كان دانيال ينظر أمامه باستقامة وفي بلادة محدّدة، على طريقة العُجَّز. واخترق ماتيو ندم حادّ:

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلماذا تتزوّج مارسيل؟

ـ ليس لهذا أيّة علاقة.

قال ماتيو: ـ إنّني... إنّني لا أستطيع أن أدعك تتزوّجها.

فانتصب دانيال وانطبعت على وجهه، وجه الغريق، لطخات حمراء داكنة، وسأل في عبوس:

ـ صحيح؟ ألا تستطيع؟ وكيف تفعل لتمنعني من ذلك؟

فنهض ماتيو من غير أن يجيب. وكان التلفون على مكتبه، فتناول السمّاعة وطلب رقم مارسيل. فنظر إليه دانيال بسخرية. وساد صمت طويل. قال صوت مارسيل:

ـ آلو؟

فانتفض ماتيو وقال:

ـ آلو، أنا ماتيو.. اسمعي.. لقد كنت، لقد كنّا أبلهين منذ ساعة. أودّ... آلو! مارسيل؟ هل تسمعيني؟ (وقال غاضبًا) مارسيل؟ آلو!

ولم تكن تجيب، ففقد صوابه وصاح في الجهاز:

ـ مارسيل، أريد أن أتزوّجك!

وبعد صمت قصير، حدثت خربشة في آخر الخطّ، ثم أُغلق التلفون. احتفظ ماتيو لحظة بالسمّاعة في يده، ثم وضعها بهدوء على الطاولة. وكان دانيال ينظر إليه من غير أن يقول كلمة، ولم يكن يبدو عليه مظهر المنتصر. شرب ماتيو جرعة «روم» وعاد يجلس على الأريكة وقال:

ـ حسنًا!

فابتسم دانيال، وقال على سبيل التعزية:

ـ ليطمئنّ بالك: فإنّ اللوطيّين هم دائمًا أزواج ممتازون، وهذا معهود.

ـ دانيال! إن كنت تتزوّجها لتقوم ببادرة طيّبة، فإنّك ستفسد حياتها.

قال دانيال: ـ أنت آخر من ينبغي أن يقول لي ذلك، ثم إنّي لا أتزوّجها لأقوم ببادرة طيّبة. ثم إنّ ما تريده قبل كلّ شيء إنّما هو الطفل.

ـ وهل... هل تعرف؟

ـ كلّا!

ـ لماذا تتزوّجها؟

ـ بدافع صداقتي لها.

ولم تكن اللهجة مقنعة. صبّ أحدهما للآخر فشربا، وقال ماتيو في عناد:

ـ إنّني لا أريد أن تكون شقيّة.

ـ أقسم لك إنّها لن تكون شقيّة.

ـ وهل تؤمن بأنّك تحبّها؟

ـ لا أعتقد. لقد عرضت عليّ أن أعيش بجانبها؛ ولكن ذلك لا يناسبني. إنّني سأدعوها للإقامة معي. وقد تفاهمنا على أن تترك العاطفة تأتي رويدًا رويدًا.

وأضاف في سخرية شاقّة:

ـ إنّني مصمّم على أن أقوم بواجباتي كزوج حتى النهاية.

ـ ولكن هل..

احمرّ وجه ماتيو بعنف:

ـ هل تحبّ النساء أيضًا؟

فنخر دانيال نخرة غريبة، وقال:

ـ ليس كثيرًا.

ـ فهمت.

خفض ماتيو رأسه وامتلأت عيناه بدموع الخجل، وقال:

ـ إنّني أزداد نفورًا من نفسي منذ عرفت أنك ستتزوّجها.

شرب دانيال وقال بلهجة شاردة محايدة:

ـ نعم، أعتقد أنّك تحسّ بأنّك قذر بما فيه الكفاية.

لم يجب ماتيو، وكان ينظر إلى الأرض بين قدميه: «إنّه لوطي، وسوف تتزوّجه». وفتح يديه وصفق عقبه بالأرض: كان يُحسّ أنّه مُطارَد. وثقل الصمت عليه فجأة فقال لنفسه: «إنّ دانيال ينظر إليّ» وسارع يرفع

رأسه. كان دانيال ينظر إليه حقًّا، وبهيئة حقد انقبض لها قلب ماتيو، فسأله:

ـ لماذا تنظر إليّ هكذا؟

قال دانيال: ـ أنت تعلم! هناك من يعلم!

ـ إنّك لن ترغب في أن تطلق النار عليّ؟

فلم يجب دانيال. واحترق ماتيو فجأة بفكرة لا تُحتمل، فقال:

ـ دانيال: إنّك تتزوّجها لتعذّب نفسك.

قال دانيال بصوت أبيض لا رنّة فيه:

ـ وبعدُ؟ إنّ هذا لا يعني أحدًا سواي.

فوضع ماتيو رأسه بين يديه وقال: «يا إلٰهي!».

وأضاف دانيال بحيويّة: ـ إنّ هذا لا أهمِّيّة له على الإطلاق بالنسبة إليها. لا أهمِّيّة له.

ـ هل تكرهها؟

ـ كلّا.

وفكّر ماتيو في حزن. «كلّا.. إنّما يكرهني أنا».

استعاد دانيال بسمته وسأله:

ـ هل نُفرغ الزجاجة؟

فقال ماتيو: ـ لنفرغها.

وشربا.. ولاحظ ماتيو أنّه راغب في التدخين، فتناول سيجارة من جيبه وأشعلها، وقال:

ـ لا يعنيني ما تكونه. حتى وبعد أن أخبرتني ذلك. ومع هذا، يبقى شيء أريد أن أسألك عنه: لماذا تشعر بالخجل؟

فضحك دانيال ضحكة جافّة:

ـ كنت أنتظرك هنا يا عزيزي. إنّني خجل من كوني لوطيًّا لأنّي

لوطي. أنا أعرف ما سوف تقوله لي: «لو كنت مكانك، لما استسلمت لهذا، بل طالبت بمكاني تحت الشمس، إنّ هذا ذوق كالأذواق الأخرى.. إلخ، إلخ...» ولكن ذلك لا يؤثّر عليّ. أنا أعرف أنّك ستقول لي هذا كلّه، وذلك لأنّك لست لوطيًا. إنّ جميع اللوطيّين يشعرون بالخجل، وهذا في طبعهم.

فسأله ماتيو في حياء: ـ ولكن أليس الأفضل أن يقبل المرء نفسه؟

فبدا على دانيال الانزعاج وأجاب بقسوة:

ـ ستحدِّثني عن ذلك مرّة أخرى، يوم تقبل أن تكون دنيئًا. كلّا. إنّ اللوطيّين الذين يتباهون أو يتظاهرون أو حتى يقبلون بكلّ بساطة... إنّهم أموات. لقد قتلوا أنفسهم لفرط ما شعروا بالخجل وأنا لا أريد هذا الموت.

ولكنّه كان يبدو مرتاحًا. ونظر إلى ماتيو بلا حقد وأضاف في عذوبة:

ـ لقد قبلت نفسي أكثر ممّا ينبغي. إنّني أعرف نفسي في الزوايا.

ولم يكن ثمّة ما يُقال. وأشعل ماتيو سيجارة أخرى. ثم إنّه كان باقيًا بعض «الروم» في قعر قدحه فشربه. وكان دانيال يثير اشمئزازه. وفكّر: «بعد عامين، بعد أربعة... أتراني سأصبح هكذا؟» وأخذته الرغبة فجأة بأن يحدِّث مارسيل في هذا: فقد كان باستطاعته أن يحدِّثها وحدها عن حياته، عن مخاوفه، عن آماله. ولكنّه تذكّر أنّه لن يراها بعدُ أبدًا، فتحوّلت رغبته المعلّقة التي لم يكن لها من اسم إلى ضرب من الضيق. كان وحيدًا.

وكان يبدو على دانيال أنّه يفكِّر: كان نظره ثابتًا وكانت شفتاه بين الفينة والفينة تفترّان. أطلق تنهّدة صغيرة، وبدأ شيء ما يتطامن في وجهه. فأمرَّ يده على جبينه: كان يبدو عليه الدهشة، وقال في صوت منخفض:

ـ ومع ذلك، لقد فاجأت نفسي اليوم.

وابتسم بسمة غريبة، تكاد تكون طفوليّة، بسمة بدت في غير محلّها على وجهه الزيتوني، حيث كانت لحيته التي لم تُحلق جيّدًا تُخلِّف لطخات

زرقاء. وفكّر ماتيو: «صحيح، لقد مضى إلى النهاية، هذه المرّة». وأتته فجأة فكرة انقبض لها قلبه: «إنّه حرّ» واختلط النفور الذي كان دانيال يوحيه له، اختلط بالحسد، وقال:

ـ لا بدّ أنّك في حالة غريبة.

قال دانيال: نعم، في حالة غريبة.

وكان ما يزال يبتسم بحسن نيّة، وقال:

ـ أعطني سيجارة.

فسأله ماتيو: ـ إنّك تدخّن، الآن؟

ـ واحدة. هذا المساء.

قال ماتيو فجأة:

ـ أودّ لو أكون في وضعك.

فردّد دانيال في غير اندهاش كثير: ـ في وضعي؟

ـ نعم.

فرفع دانيال كتفيه، وقال:

ـ إنّك في هذه القصّة رابح في جميع الميادين.

ضحك ماتيو ضحكة جافّة، وأوضح دانيال:

ـ أنت حرّ.

قال ماتيو وهو يهزّ رأسه:

ـ كلّا، ليس المرء حرًّا لمجرّد أن يترك امرأة.

فنظر دانيال إلى ماتيو في فضول:

ـ ومع ذلك فقد كان يبدو عليك هذا الصباح أنّك مؤمن بهذا.

ـ لا أدري. لم يكن ذلك واضحًا. ليس ثمّة ما هو واضح. الحقيقة أنّي تركت مارسيل من أجل لا شيء.

وكان يحدّق في ستائر النافذة التي كانت تحرّكها ريح ليليّة خفيفة.

وكان متعبًا . . وأضاف :

ـ من أجل لا شيء. في هذه الحكاية كلِّها لم أكن إلّا رفضًا ونفيًا: صحيح أنّ مارسيل ليست بعد في حياتي، ولكن هناك كلّ الباقي.

ـ ماذا؟

فأشار ماتيو إلى مكتبه بحركة عريضة غامضة:

ـ كلّ هذا، كلّ الباقي.

وكان مسحورًا بدانيال. كان يفكِّر: «أهذه هي الحرِّيّة؟ لقد عمل، وهو الآن لا يستطيع أن يتراجع إلى خلف: ولا بدّ أن يبدو له غريبًا أن يحسّ خلفه عملاً مجهولاً لم يعد يفهمه تقريبًا وسيقلب حياته. أمّا أنا، فإنّ كلّ ما أفعله، أفعله من أجل لا شيء، فكأنّ الناس يسرقون لي نتائج أعمالي؛ وكلّ شيء يحدث كما لو أنّي كنت أستطيع دائمًا أن أستعيد ضرباتي. إنّني لا أدري ما بوسعي أن أبذل لكي أقوم بعمل لا يمكن إصلاحه».

وقال بصوت مرتفع:

ـ مساء أمس الأوّل، رأيت شخصًا كان يريد أن ينضوي في حركة الميليشيا الإسبانيّة.

ـ وبعد ذلك؟

ـ ولكن أخذه الخوف: فهو الآن هالك.

ـ ولماذا تقول لي ذلك؟

ـ لا أدري. هكذا!

ـ وهل رغبت يومًا في الذهاب إلى إسبانيا؟

ـ نعم. ولكنّها لم تكن رغبة ملحّة بما فيه الكفاية.

وصمتا. وبعد برهة رمى دانيال سيكارته، وقال:

ـ أودّ لو أكون أسنّ ممّا أنا بستّة أشهر.

قال ماتيو: ـ أمّا أنا فلا. فبعد ستّة أشهر سأكون مشابهًا لما أنا الآن.

قال دانيال: ـ وسيكون قد زال ندمك.

ونهض: ـ إنّني أدعوك إلى قدح في مقهى كلاريس.

قال ماتيو: ـ كلّا، فليست بي رغبة لأن أثمل هذا المساء. فأنا لا أدري ما الذي قد أفعله إذا ثملت.

قال دانيال: ـ لن تفعل شيئًا هامًّا. ألا تأتي معي إذن؟

ـ كلّا.. وأنت، ألا تريد أن تبقى لحظة أخرى؟

قال دانيال: ـ يجب أن أشرب. وداعًا.

ـ مع السلامة.. هل.. هل أراك قريبًا؟

فبدا دانيال مرتبكًا:

ـ أعتقد أنّ ذلك سيكون صعبًا. لقد قالت لي مارسيل إنّها لا تريد أن تغيِّر شيئًا في حياتي، ولكنّي أظنّ أنّه سيشقّ عليها أن أراك ثانية.

فقال ماتيو بجفاف: ـ آه؟ حسنًا. في هذه الحالة، أدعو لك بالحظّ الطيّب.

فابتسم دانيال من غير أن يجيب.

أضاف ماتيو فجأة:

ـ إنّك حاقدٌ عليّ.

فاقترب منه دانيال وأمرّ يده على كتفه بحركة صغيرة مرتبكة حيّية:

ـ كلّا. ليس في هذه اللحظة.

ـ أمّا غدًا...

فحنى دانيال رأسه من غير أن يجيب، وقال ماتيو:

ـ مع السلامة.

خرج دانيال، فاقترب ماتيو من النافذة ورفع الستائر. وكان ليلاً

رائقًا، رائقًا وأزرق؛ والريح قد كنست الغيوم، والنجوم تُرى فوق السطوح. وارتفق الشرفة وتثاءب طويلاً. وفي الشارع، تحته، كان رجلٌ يسير بخطًى هادئة؛ وتوقّف عند زاوية شارع هويغنز وشارع فراودفو، فرفع رأسه ونظر إلى السماء. وكان ذاك دانيال. وثمّة نغمٌ موسيقي يأتي دفعات من جادّة «مين»، وتسرّب إلى السماء ضوء منارة أبيض، فتوقّف فوق مدخنة ثم تدحرج خلف السطوح. وكانت سماء حفلة قرويّة، متقطِّعة بالشرائط، تذكِّر بالعُطَل وبحفلات الرقص الحقليّة. رأى ماتيو دانيال يختفي، وفكّر: «إنّني أبقى وحيدًا.» وحيد، ولكن ليس أكثر حرِّيّة من السابق. وكان قد قال لنفسه عشيّة الأمس: «ليت أنّ مارسيل غير موجودة» ولكن تلك كانت أُكذوبة. «لم يعترض أحد طريق حرِّيّتي، وإنّما حياتي هي التي شربتها». ثم عاد يغلق النافذة ويدخل إلى الغرفة. وكانت رائحة إيفيش ما تزال تخفق فيها. تنشّق الرائحة واستعاد هذا اليوم الصاخب. وفكّر: «ضجّة كثيرة من أجل لا شيء». من أجل لا شيء: لقد أُعطي هذه الحياة من أجل لا شيء، ولم يكن شيئًا، ومع ذلك فهو لن يتغيّر أبدًا: لقد كان مصنوعًا. نزع نعليه وظلّ جامدًا، وهو جالس على ذراع الأريكة، ونعلٌ في يده؛ وكان ما يزال في جوف حلقه حرارة «الروم» المسكرة وتثاءب: لقد أنهى يومه، وقد انتهى من شبابه. وكان ثمّة أخلاقيّاتٌ، ثمَّة معاناة تعرض عليه خدماتها عرضًا خفيًّا: الأبيقوريّة المتبصِّرة، والرحمة الباسمة، والاستسلام، وروح الرصانة، والعزيمة الرينونيّة، وكلّ ما كان يتيح للمرء أن يتذوّق تذوّق العارف، دقيقة فدقيقة، حياةً خائبة. نزع سترته، وأخذ يحلّ عقدة عنقه. وكان يردّد وهو يتثاءب: «هذا صحيح، هذا صحيح بالرّغم من كلّ شيء: إنّني في سنّ الرشد».

انتهى الجزء الأوّل: سنّ الرشد

ويليه الجزء الثاني: وقف التنفيذ

يروي جان بول سارتر، المفكّرُ الفرنسيّ والعالميّ، في **سنّ الرشد**، قصّةَ الأزمات النفسيّة التي يمرّ بها «ماتيو» - البطلُ الرئيسُ - في تمزّقه بين أداء واجبه تجاه الفتاة التي يحبّها وتحمل منه، وبين رغبته المطلقة في الحرّيّة، وموقفِه من مختلف القضايا التي يعيشها مجتمعُه.

ولعلّ أروعَ ما في الرواية ذلك الحبُّ اليائس الذي يكنّه «ماتيو» لتلك الفتاة الغريبة «إيفيش» التي تُكسب القصّةَ نكهةً لذيذةً خاصّة.

رواية **سنّ الرشد** هي الجزء الأوّل من ثلاثيّة **دروب الحرّيّة**، التي اعتُبرتْ أضخَم الروايات الوجوديّة وأروعَها. وقد استطاع سارتر أن يجعل فلسفتَه الوجوديّة في متناول القرّاء جميعهم حين صبّها في قالب روائيٍّ فذّ.

دار الآداب
هاتف: ٠١/٨٦١٦٣٣
٠١/٧٩٥١٣٥
ص ب ٤١٢٣-١١ بيروت

تصميم الغلاف: رنيم الجندي
لوحة الغلاف: مود غيلباني

ISBN: 978-9953-89-485-0
9789953894850